المستفاد

من قصص القرآن

للدعوة والدعاة

تأليف

الدكتور عبد الكريم زيدان

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

المستفاد

من قصص القرآن

للدعوة والدعاة

٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بناء المسكن

تلفاكس: (٩٦١١)

٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣

ص.ب. : ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت ـ لبنان

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112 - 319039 - 603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

Http://www.resalah.com

الباب الثاني

قصص القرآن عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام وعن المنافقين



٩٣٤- تمهيد:

في كتاب الله العزيز إخبارات وقصص عن سيدنا محمد ﷺ وجهاده المتواصل منذ بدء الوحي له بالنبوة والرسالة إلى حين وفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى. وفي هذه الإخبارات والقصص دروس وعبر ومواعظ وتعليمات وإرشادات وتطبيقٌ لمعاني القرآن والإسلام يحتاجها الدعاة؛ لأنها من معاني الدين وأساليبه، ومناهجه في تبليغ الدعوة إلى الله، وليكون للدعاة أسوة حسنة في رسول الله.

وفي القرآن العزيز أيضاً إخبارات وقصص عن أصحاب رسول الله ﷺ وما قاموا به من جهاد في سبيل الله في صحبة رسول الله ﷺ، وما ترتب على ذلك من رضا الله عنهم وإخبارنا به في كتابه العزيز، مما جعلهم أهلاً لمكان القدوة الحسنة للدعاة في تبليغ الدعوة إلى الله.

وفي القرآن العزيز إخبارات وقصص عن المنافقين الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في زمن النبي ﷺ، وفي هذه القصص والإخبارات كشف لأحوال أولئك المنافقين وفضح لسرائرهم وكيدهم وصفاتهم، وبيان لموقفهم من رسول الله وموقف رسول الله ﷺ منهم، وفي هذا البيان والكشف لأحوال المنافقين فوائد عظيمةٌ للدعاة من جهة تمكينهم من التعرف على المنافقين المندسين في صفوف جماعة الدعاة؛ من خلال معرفتهم بصفات المنافقين وعلاماتهم التي عرفوا بها في زمن النبي ﷺ؛ لأن المنافقين يشبه بعضهم بعضاً سواء كانوا من القدامى أو من المحدثين، وكذلك، يعرف الدعاة كيف يتعاملون مع المنافقين في ضوء ما يعرفون من كيفية تعاملِ النبي ﷺ مع منافقي زمانه.

٩٣٥- منهج البحث وتقسيم موضوعاته:

وفي ضوء ما تقدم سأذكر في هذا الباب - وهو الباب الثاني - إن شاء الله تعالى ما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز فيما له علاقة بسيدنا محمد ﷺ وبجهاده المبرور منذ بدء الوحي؛ وبنبوته ورسالته إلى حين وفاته ﷺ، وذلك في فصول متتابعة، وأذكر

أيضاً إن شاء الله تعالى في أثناء ذلك - ما قصه الله علينا أو أخبرنا به عن صحابة رسول الله ﷺ وجهادهم المبرور معه، كما أذكر أيضاً إن شاء الله تعالى ما قصه الله تعالى وأخبرنا به عن المنافقين وأحوالهم وتصرفاتهم، وهم الذين كانوا في المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ، وكيف عاملهم النبي ﷺ في ظل التوجيهات القرآنية؛ وسأذكر بعون الله تعالى ما يستفاد من ذلك كله للدعوة والدعاة. وعليه فقد رأيت تقسيم هذا الباب إلى الفصول التالية:

الفصل الأول	قصة بدء الوحي «بدء نبوة محمد ﷺ».
الفصل الثاني	قصة بدء الوحي بالرسالة.
الفصل الثالث	مرحلة الدعوة السرية في مكة.
الفصل الرابع	مرحلةالدعوة الجهرية.
الفصل الخامس	الهجرة من مكة إلى المدينة وعمل الرسول ﷺ فيها بعد وصوله إليها.
الفصل السادس	قصة غزوة بدر الكبرى.
الفصل السابع	قصة غزوة أحد.
الفصل الثامن	غزوة حمراء الأسد.
الفصل التاسع	قصة غزوة الخندق «الأحزاب».
الفصل العاشر	موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة.
الفصل الحادي عشر	غزوة بني المصطلق «غزوة المريسيع».
الفصل الثاني عشر	قصة حديث الأفك.
الفصل الثالث عشر	قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش.
الفصل الرابع عشر	قصة غزوة الحديبية «صلح الحديبية».
الفصل الخامس عشر	قصة غزوة خيبر.
الفصل السادس عشر	قصة معركة مؤتة.
الفصل السابع عشر	قصة غزوة فتح مكة.
الفصل الثامن عشر	قصة غزوة حنين.
الفصل التاسع عشر	غزوة الطائف.



الفصل الأول

قصة بدء الوحي

(بدء نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٣٦- قصة بدء الوحي بالنبوة:

قال تعالى في بدء الوحي لسيدنا محمد ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١٩٩٤).

جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنَّثُ فيه - أي يتعبد فيه - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة - زوجته - فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارىء. قال ﷺ: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد - أي ضمني وعصرني عصراً شديداً - ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال: فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني. زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروعُ وأخبر خديجة بالخبر وقال: «قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..»(١٩٩٥).

(١٩٩٤) سورة العلق، الآيات من ١-٥.

(١٩٩٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٢، مختصر صحيح مسلم للمنذري =

٩٣٧- تفسير آيات بدء الوحي:

قال ابن كثير: أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ...﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وإن من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم فشرفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون بالكتابة بالبنان[١٩٩٦].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق، لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض وخلقته من أعظم الدلائل على قدرة الله تعالى. والعلق جمع علقة، وهي القطعة اليسيرة من الدم، وإنما قال: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ على الجمع، وإنما خلق من علقة لأن (الإنسان) في الآية في معنى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[١٩٩٧].

= بشرح صديق حسن خان ج١ ص٢٧٨-٢٧٩.

(١٩٩٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٢٨.

(١٩٩٧) تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٧٥، تفسير ابن عطية ج١٥ ص٥١٠.

المبحث الثاني

المستفاد من قصة بدء الوحي:

٩٣٨-أ- ما يدل عليه حسن خُلُقِ الإنسان:

إن خديجة رضي الله عنها استدلت بحسن أخلاق سيدنا محمد ﷺ عندما أخبرها بما حصل له وقوله لها: «قد خشيت على نفسي»، قالت له مستدلةً بحسن خُلُقِه: «كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. . . الخ»، فاستدلت بحسن خُلُقِه على أن ما رآه هو من الخير له وليس من الشرّ به، وهذا استدلال سليم يجب على الدعاة اعتباره والأخذ به في حق المنتسبين إلى الجماعة أخلاقاً حسنة وصفات حميدة، فهذا دليل ظاهر أو قرينة معتبرة على جودة سرائرهم وصفاء نياتهم، وإذا رأوا العكس من ذلك استدلوا به على عدم الاطمئنان بهم فكانوا على حذر وحيطة منهم حتى ينكشف لهم حالهم.

٩٣٩- من نعم الله على الإنسان تعليمه الكتابة وما لا يعلم:

كما يستفاد من آيات بدء الوحي على مكانة العلم في الإسلام وعلى نعمة الله على الإنسان بتعليمه الكتابة وسائر العلوم التي شاء الله أن يتعلمها ويسرَّ له سبل تعلمها، فإنّ هذا التعليم للإنسان يستوجب شكر الله عليه بتسخير ما يتعلمه فيما يُرضِي الله تعالى. فعلى الدعاة حث المسلمين على طلب العلم النافع، وأن يُسهم الدعاة أنفسهم في تعليم الكتابة لمن يجهلها، وذلك بالمشاركة في فتح مراكز محو الأمية بتعليم الناس القراءة والكتابة لمن يجهلها منهم، وأن يباشر الدعاة أنفسهم بشيء من هذا التعليم ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم في هذا المجال، وفي هذا نوع من أنواع تقريب الناس إلى الدعوة إلى الله تعالى.



الفصل الثاني

قصة بدء الوحي بالرسالة

المبحث الأول

خلاصة القصة وتفسير آياتها

٩٤٠- يا أيها المدثر، قم فأنذر:

بعد أن نزل جبريل عليه السلام بآيات ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ . . . ﴾ الخ، فتر الوحي برهة من الزمن، ثم عاد جبريل فجاء بآيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ الخ، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء، والأرض فرُعِبْتُ منه، فرجعت - أي إلى بيتي - فقلت: زملوني: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ . . . ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ فحمي الوحي وتتابع»[١٩٩٨]. قال ابن كثير: وبهذا حصل لسيدنا محمد ﷺ الإرسال كما حصل بالأول النبوة[١٩٩٩]. ويقصد ابن كثير بالأول: آيات ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ الخ فأول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي هي الآيات الأولى من سورة «المدثر»، وهذا القول هو الصحيح[٢٠٠٠].

٩٤١ - تفسير آيات بدء الرسالة:

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾[٢٠٠١].

(١٩٩٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٢٧.

(١٩٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤٠.

(٢٠٠٠) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور أبي شهبة ج١ ص٢٨٢.

(٢٠٠١) سورة المدثر، الآيات من ١-٧.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتلفف بثيابه لنوم أو استدفاء، من الدثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار، والشعار هو الثوب الذي يلي الجسد.

وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي قم من مضجعك ودثارك. أو قم قيام عزم وجدّ، ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي فحذّر قومك من العذاب إن لم يؤمنوا(٢٠٠٢).

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّم، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وقال مجاهد: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي نفسك فطهر. وفي رواية عنه: أي عملك فأصلح. قال ابن كثير: وقد تشتمل هذه الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه(٢٠٠٣). ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي الأصنام والأوثان فاهجر أي فاترك(٢٠٠٤) أو هو - أي الرجز - كناية عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق، وقيل المراد بالرجز العذاب، وهجره كناية عن هجر ما يؤدي إليه من الشرك والمعاصي(٢٠٠٥). وأمره بذلك، وهو بريء منه: إما أمرٌ لغيره تعريضاً، أو المراد الدوام على هجره(٢٠٠٦) وعلى كل تقدير فلا يفهم من أمره ﷺ بذلك تلبسه بشيء منه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾(٢٠٠٧). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط العطية تلتمس بها أكثر منها، أي لا تعط شيئاً لتُعطَى أكثر منه. وعن الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، واختاره ابن جرير. وبمثله قال الحسن بن أبي الحسن مع زيادة: ويقع لك بهذا الاستكثار - أي استكثار عملك إعجاب(٢٠٠٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى المشركين جاعلاً صبرك هذا لوجه الله سبحانه وتعالى(٢٠٠٩).

(٢٠٠٢) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٠.
(٢٠٠٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٢.
(٢٠٠٦) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٣٢.
(٢٠٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.
(٢٠٠٩) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٦، تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١.

المبحث الثاني
المستفاد من آيات بدء الرسالة

٩٤٢- الترهيب من وسائل الدعوة:

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: خوفّ قومك وحذّرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا[٢٠١٠]، وفي هذا دليل واضح على أن الترهيب من أساليب الدعوة فلا يجوزُ إغفالها من قبل الدعاة، والأصل في الترهيب أن يكون من عذاب الله وسخطه بسبب عدم الانقياد إلى شرعه، أو بسبب معصيته مع بقاء أصل الإيمان. وكذلك يكون الترهيب بما يصيب الرافضين شرع الله، من عذاب وذلّ حسب سنة الله تعالى في العصاة والمتمردين على الله تعالى.

٩٤٣- الدعاة لا يمنون بعملهم على أحد:

ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، وقول الحسن البصري في معنى هذه الآية وهو «لا تمنن بعملك على ربك تستكثره»، وعلى هذا لا يجوز للدعاة أن يمنوا على الله أو على أحد من الناس بما يقومون به من نشر الدعوة إلى الله، أو يستكثروا جهادهم في الدعوة. فمهما يقدموا فهو في جنب الله قليل، فعليهم أن يجعلوا شعارهم: كل بذل في سبيل الله ودعوته قليل قليل، ويدعوا الله أن يوفقهم إلى المزيد من البذل والجهاد.

٩٤٤- ضرورة الصبر للدعاة:

قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى المشركين بسبب دعوتك إياهم، واجعل صبرك هذا لوجه الله تعالى. وفي هذا إشارة إلى أن الغالب في الدعاة ابتلاؤهم بأذى المدعوين من الكفار والمنافقين وعصاة المسلمين، فعليهم أن يقابلوا ذلك بالصبر الجميل، ويحتسبوا أجرهم عند الله تعالى.

(٢٠١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٤١، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٥.

المبحث الثالث

نزول سورة المزمل

٩٤٥- نزولها بعد نزول آيات بدء الرسالة:

قلنا: إن بدء الرسالة لنبينا محمد ﷺ كان بنزول الآيات من صدر سورة المدثر. ثم نزلت بعدها سورة المزمل[٢٠١١]. وهي سورة مكية كما قال ابن كثير في تفسيره[٢٠١٢]. ونذكر فيما يلي تفسيراً موجزاً لبعض آياتها التي نرى أن لها علاقة بموضوع الدعوة والدعاة.

٩٤٦- تفسير سورة المزمل:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٢٠١٣]. الخطاب في هذه الآيات لرسول الله ﷺ، و﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي المتزمل الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها[٢٠١٤]. ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي قم فيه للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا ما تقتضيه الضرورة للاستراحة ومصالح البدن التي لا يمكن بقاؤه بدونها[٢٠١٥]. ثم بيّن الله تعالى قدر القيام مخيِّراً له بقوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ أي نصف الليل: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي أو انقص من النصف قليلاً أو بزيادة قليلة على النصف، لا حرج عليك في ذلك. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على تفهم القرآن وتدبره[٢٠١٦].

(٢٠١١) تفسير روح المعاني للألوسي ج٢٩ ص١١٥.
(٢٠١٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٩.
(٢٠١٣) سورة المزمل، الآيات من ١-٤.
(٢٠١٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٣٤.
(٢٠١٥) تفسير القاسمي. ج١٦ ص٣١٨.
(٢٠١٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٤.

٩٤٧- القول الثقيل:

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢٠١٧]. القول الثقيل هو القرآن واختلف العلماء لم سماه ثقيلاً. فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم عند تلقيه الوحي حتى إنه إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذه ﷺ ترضُّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه عندما أوحي إليه ﷺ وكانت فخذه على فخذ زيد. وقال أبو العالية والقرظي: بل سماه ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك. وقال بعض آخر من العلماء الحذاق: سماه ثقيلاً لكونه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية ومزاولة الأعمال الصالحة دائماً. قال الحسن: إن الهذَّ خفيف ولكن العمل ثقيل[٢٠١٨]، ومعنى الهذّ: سرعة القراءة. وقال ابن كثير: قال الحسن وقتادة: ثقيل أي العمل به. وقيل ثقيل وقت نزوله من عظمته[٢٠١٩]. وفي الكشاف للزمخشري: ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين[٢٠٢٠]. وفي تفسير القاسمي: سمي القرآن ثقيلاً أي رصيناً لرزانة لفظه ومتانة معناه ورجحانه فيهما على ما عداه. ولما كان الراجح من شأن القرآن الملقى والموحى به إلى رسوله هو ما ذكرناه سمي بالثقيل تجوزاً. أو سمي ثقيلاً على المتأمل به لافتقاره إلى مزيد من تصفية النفس وتجريد للنظر فيه لتفهم معانيه، أو ثقيلاً لتلقيه؛ لقول عائشة رضي الله عنها: رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٢٠٢١].

٩٤٨- ناشئة الليل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[٢٠٢٢]. ناشئة الليل هي ساعاته

(٢٠١٧) سورة المزمل، الآية ٥.

(٢٠١٨) تفسير ابن عطية ج١٥ ص١٥٧.

(٢٠١٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٥.

(٢٠٢٠) الكشاف للزمخشري ج٤ ص٦٣٧-٦٣٨.

(٢٠٢١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣١٩.

(٢٠٢٢) سورة المزمل، الآية ٦.

وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة. والمقصود بهذه الآية أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، أي أجمع للخاطر لأداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات وأوقات المعاش، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أشد مقالاً وأصوب[٢٠٢٣].

٩٤٩- النهار لطلب المعاش:

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ أي تقلباً في مهماتك واشتغالاً بها فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة فيه، فعليك بها في الليل ولهذا أُمِرتَ بقيام الليل[٢٠٢٤].

٩٥٠- ذكر الله والانقطاع إليه:

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي دمْ على ذكره تعالى في ليلك ونهارك واحرص عليه. وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيحٌ وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره[٢٠٢٥]. ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي انقطع إليه. قوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي هو الذي يجب لتوحيده بالربوبية أن توكل إليه الأمور كلها فإنه سيكفيكها[٢٠٢٦].

٩٥١- الصبر مع الهجر الجميل:

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله مَنْ كذّبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب فيه كما يقول ابن كثير، أو هو أن يجافيهم بقلبه ويخالفهم، مع حسن المخالفة والمداراة والإغضاء وترك المجازاة على سوء

(٢٠٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٥، تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٠.

(٢٠٢٤) تفسير الألوسي ج٢٩ ص١٠٥، وتفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٠، والآية في سورة المزمل ورقمها ٧.

(٢٠٢٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٨٥.

(٢٠٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٠.

أقوالهم وأفعالهم معه كما يقول الزمخشري(٢٠٢٧).

٩٥٢- التخفيف من قيام الليل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾(٢٠٢٨). قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي تتهجد فيه تارة هكذا وتارة هكذا، وطائفة من الذين معك، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوا قيامه، أي قيام الفرض الذي أوجبهُ عليكم من قيام الليل، ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما يتيسر. وعبرَّ عن الصلاة بقراءة القرآن لأنها بعض أركانها، كما عبَّر عنها بالركوع والسجود، يريد: فصلّوا ما تيسّر عليكم من قيام الليل. وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ...﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأُمة أصحاب أعذار في ترك قيام الليل من مرضىٰ لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من القتال في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، وقال ابن عباس وغيره: إنَّ هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال

(٢٠٢٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص٦٤٠ والآية في سورة المزمل ورقمها ١٠.

(٢٠٢٨) سورة المزمل الآية ٢٠.

لذلك الرجل فيما فرضه الله عليه: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال ذلك الرجل: هل عليّ غيرها؟ فقال ﷺ: «لا، إلاّ أن تطوع»[٢٠٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني به بذلَ المال في سبيل الخيرات على أحسن وجه كأن يكون من أطيب المال وإعطاءه للمستحق من غير تأخير، واتقاء المن والأذى ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه الخير أو عمل بطاعة الله أو غير ذلك من أعمال البِرّ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي ثواباً من عندكم من متاع الدنيا ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ أي سلوه غفران ذنوبكم، فإن الله ذو مغفرة لمن تاب إليه[٢٠٣٠].

(٢٠٢٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٣٨-٤٣٩، تفسير الكشاف ج٤ ص٦٤٣.

(٢٠٣٠) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٧.

المبحث الرابع
المستفاد من سورة المزمل
للدعوة والدعاة

٩٥٣- أولاً- حاجة الدعاة إلى قيام الليل:

قيام الليل بالصلاة والقراءة فيه وإن صار من التطوعات بعد أن كان من الواجبات إلا أن الدعاة بحاجة إليه لأنهم يقومون بأعباء الدعوة إلى الله، وهي بطبيعتها تحتاج إلى قوة روحية عظيمة مع إيمان عميق واتصال دائم بالله تعالى، وقيام الليل يسهم في تحقق ذلك لأنه ييسر للدعاة خلوة بأنفسهم يناجون فيها ربهم وهم في حالة جيدة من فراغ البال من شواغل النهار ومن أعمال الدعوة ومقتضياتها من اتصال بالناس وحديث معهم ودعوة لهم ونقلة إلى أماكنهم إلى غير ذلك من الأمور التي تحتاجها الدعوة. ولذلك فإن الليل أعون لهم على الإقبال على ربهم سبحانه وتعالى ومناجاته بالقراءة والصلاة والذكر؛ ولهذا قال تعالى عن ساعات الليل بأنها ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها وإقامة الصلاة بخشوع من ساعات النهار، وهي عادة وقت انتشار الناس ولغط الأصوات. هذا وإن في الأمر بالتهجد وإن صار للاستحباب والتطوع إشارة واضحة إلى الحاجة إلى إعداد النفس لمزيد من العبادة وقراءة القرآن والصلاة للقيام بالأمور العظام التي يكلف بها المسلم لا سيما الداعي إلى الله تعالى. فعلى الدعاة الإكثار من العبادة ومن قيام الليل.

٩٥٤- ثانياً- الدوام على ذكر الله:

ومما يحقق للدعاة اتصالهم الدائم بالله دوام ذكرهم له، لقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دمْ واستمر على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان هذا الذكر من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة فقه ونحو ذلك. فهذا الذكر الدائم المتواصل من الدعاة يزودهم بقوة هائلة من الإيمان تعينهم على تحمل أعباء الدعوة وتكاليفها.

٩٥٥- ثالثاً- التوكل على الله في جميع الأمور:

وعلى الدعاة أن يستحضروا في نفوسهم ضرورة التوكل على الله، واعتمادهم عليه في أمورهم كلها، وعلى رأسها أمور الدعوة ونجاحهم فيها. وقد أمر الله رسوله ﷺ بالتوكل عليه؛ لينبه أمته على ذلك، فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ لأنه هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب، لا إله إلا هو، فكما أنه تعالى هو المستحق بإفراد العبادة له وحده فهو أيضاً المستحق للتوكل عليه كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ثم إن من يتوكل عليه العبد ينبغي أن يكون أهلاً لهذا التوكل بأن يكون قادراً على كفاية من توكل عليه، وهل هناك أقدر من الله على كفاية عبده؟ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وعلى الدعاة أن يعلموا بأن درجة توكلهم على الله تكون بدرجة حرصهم واهتمامهم بأمور الدعوة التي يتوكلون على الله في إنجاحها، ألا ترى أن الطالب لحرصه على نجاحه في الامتحان يحس بقوة وعمق توكله على الله في تحقيق نجاحه؟ ألا ترى أن التاجر لحرصه على سلامة تجارته وربحها فيها يحس بقوة وعمق توكله على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من ربح في تجارته. وهكذا يكون الحال في توكلهم على الله في أمور الدعوة.

٩٥٦- رابعاً- ضرورة الصبر للدعاة:

وفي قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى ضرورة الصبر للدعاة على ما يقوله أعداء الدعوة من فاجر القول وكذبه، كالتهم الباطلة يلصقونها بالدعاة. وليكن صبر الدعاة على أذاهم بالله ولله كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي استعن بالله ليصبرّك على ما ينبغي الصبر عليه. وأن يكون هذا الصبر لله تعالى أي طاعة له وفي سبيله وطلباً لمرضاته.

٩٥٧- خامساً- ومع الصبر الهجر الجميل:

ومع ضرورة الصبر للدعاة، هجر جميل من الدعاة لأولئك الجاهلين أعداء الدعوة، فلا يقابلون إساءتهم بالمثل بل يعرضون عنهم، ويتغافلون عن أذاهم، ويمضون في دعوتهم، ولا ينشغلون في الشجار معهم، فإن في سكوت الدعاة عنهم بياناً لحسن خلق الدعاة وترفعهم عن الجاهلين، وعدم إضاعة الوقت معهم. إن

السائر الذي يريد بلوغ هدفه والمكان المتوجه إليه لا يجوز له أن يقف يرمي الكلاب النابحة بالحجارة ليسكتهم؛ فإنهم قد لا يسكتون ولكن إذا استمر السائر في سيره وإذا أسرع فيه كان ذلك أدعى إلى سكوت نباح الكلاب.

٩٥٨- سادساً- الداعي واشتغاله بالتجارة:

الدعاة منهم المتفرغ للدعوة ومنهم غير المتفرغ لها، ولا شك أن المتفرغ للدعوة أعلى درجة من غير المتفرغ وأكثر نفعاً من غيره. ولعدم التفرغ للدعوة أسبابٌ من أكثرها وقوعاً حاجة الداعية إلى كسب رزقه ورزق عائلته، وعدم قدرة الجماعة - جماعة الدعاة - التي ينتسب إليها على تفريغه لعمل الدعوة وسدّ حاجته المعيشية، وفي هذه الحالة لا مانع من اشتغال الداعية بما يوفر له الرزق له ولعائلته، كأن يشغل وظيفة مباحة من وظائف الدولة، أو يقوم بعمل حرّ من أعمال الكسب والتجارة، ولا يقدح ذلك في عمله الدعوي. وقد دلّ على ما قلناه ما ذكره الله تعالى من أسباب التخفيف من قيام الليل بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ . . .﴾ أي علم الله أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضىٰ لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من القتال في سبيل الله. وفي قرن المسافرين لغرض المكاسب والمتاجر مع المقاتلين في سبيل الله دلالة على فضيلة الاكتساب بالتجارة وغيرها، إذ جعلها الله من الأعذار المشروعة للتخفيف عنهم من قيام الليل، إذ جعله تطوعاً لا فرضاً عليهم كما قال المفسرون.

إلا أن على الداعية غير المتفرغ أن يجعل اشتغاله بالاكتساب وسيلة لتعريف الناس بأخلاق الإسلام. فيكون صادقاً في قوله أمنياً في عمله وفياً لوعده، مما يجذب الناس إليه فيقبلوا عليه ويسمعوا منه، فيغتنم ذلك الداعية فيحدثهم ببعض معاني الدعوة. كما أن على الداعية غير المتفرغ أن يجعل أوقاته الأخرى بعد فراغه من أعماله الخاصة. يجعلها لأعمال الدعوة. وهذا يقتضيه أن ينظم أوقاته تنظيماً دقيقاً حتى لا تذهب هدراً وحتى لا يصرف منها لأعماله الخاصة لاكتساب رزقه إلا بقدر ما هو محتاج إليه من هذه الأوقات فعلاً فيخصص الباقي من أوقاته لأعمال الدعوة

الخاصة بها بعد اقتطاع جزء منها لما يوجبه عليه الإسلام نحو أسرته.

٩٥٩- سابعاً- الخيرية في ميزان الإسلام:

الخيرية في ميزان الإسلام هي أعمال البرّ المرضية عند الله تعالى، فهي التي تثمر له رضوان الله والظفر بنعيم الآخرة. فعلى الدعاة توضيح هذا المعنى للناس لتصح مفاهيمهم وتعتدل موازينهم، وحتى يكون عندهم على وجه اليقين أن الخيرية في الأعمال هي ما كانت عند الله مرضية. وهذا الذي نقوله والذي نريد من الدعاة تذكير المسلمين به هو المستفاد من آيات القرآن ومنها الآية الواردة في سورة المزمل، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه البرّ، أو عمل بطاعة الله، أو غير ذلك من أعمال البرّ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي أعظم ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا[٢٠٣١].

٩٦٠- ثامناً- الاستغفار بعد الأعمال الصالحة:

وعلى الدعاة أن يذكروا الله في أعقاب أعمالهم الصالحة، وفي أعقاب أعمالهم الدعوية، فيستغفروه على كل تقصير صدر منهم في هذه الأعمال، وليُذهبْ ذلك عنهم الإعجاب بالنفس. وهذا الذي أقوله مستفاد من قوله تعالى في آخر سورة «المزمل» وهو قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾؛ لأن الإنسان قلما يخلو مما يُعَدّ تفريطاً بالنسبة إليه، ومن ذلك رؤية المسلم العابد عبادته وما يتبعها من إعجاب بالنفس، ولهذا المعنى أمر الله تعالى بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن[٢٠٣٢].

(٢٠٣١) تفسير القاسمي ج١٦ ص٣٢٧.

(٢٠٣٢) تفسير الألوسي ج٢١ ص١١٤.

الفصل الثالث
مرحلة الدعوة السرية

المبحث الأول

بدء الدعوة السرية ومدتها

٩٦١- قم فأنذر:

ذكرنا من قبل قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، وذكرنا قول الإمام ابن كثير في هذه الآية: «وبهذا حصل الإرسال - أي لسيدنا محمد ﷺ - كما حصل بالأول - أي بآيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ - النبوة لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام»، وحيث إنَّ الله تعالى شرّف محمداً ﷺ وكرّمه بالرسالة بأن جعله رسولاً فقد أمره بتبليغ هذه الرسالة، وأمره بإنذار قومه وتحذيرهم من العذاب إذا لم يؤمنوا به كما بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾. وقد قام ﷺ بالدعوة إلى الإسلام الذي أرسله الله به، أي إلى الإيمان بالله رباً ومعبوداً وحيداً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. وقد بدأ ﷺ دعوته المباركة بصورة سرّية وفردية واستمرت الدعوة بهذه الصيغة الفردية السرية في مكة، حيث كان يقيم ﷺ مدة ثلاث سنوات كما حددها ابن إسحاق، وحددها البلاذري بأربع سنوات[٢٠٣٣].

وتسمى هذه المرحلة من الدعوة بالمرحلة المكية كما تسمى بالمرحلة السرية. والحقيقة أن اطلاق اسم «المرحلة المكية» يشمل الدعوة مدة بقائه ﷺ في مكة، ودعوتُه في مكة كان منها دعوة سرية، وهي التي قيل عنها إنها ثلاث أو أربع سنوات من ابتداء رسالته، والباقي منها كانت دعوة جهرية.

(٢٠٣٣) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج١ ص١٣٢.

٩٦٢- كيفية تبليغ الدعوة في المرحلة السرية:

اتسمت الدعوة في مرحلتها الأولى في مكة أي من وقت تكريم الله لرسوله محمد ﷺ بالرسالة، اتسمت الدعوة من هذا الوقت بالسرية والفردية واستمرت ثلاث سنوات أو أربعاً كما قلنا، فكان ﷺ خلال هذه المدة يدعو إلى الإسلام بصورة سرية أقرب الناس إليه من جهة الثقة به والرجاء في إسلامه، سواء كان من يدعوه من عشيرته أو من غير عشيرته؛ لسبب بسيط هو أن الإسلام دعوة إلهية عامة لجميع البشر وليست خاصة لقوم دون قوم، فلا يُعقَل أنَّ رسول الله ﷺ لاحظ في تبليغه دعوة الإسلام أي معنى عشائري أو قبلي، أو أنه لاحظ التوازن بين بطون قريش وفروعها في تبليغه الدعوة الإسلامية، وإنما كل ما لاحظه الرسول ﷺ في تبليغ دعوته في مرحلتها السرية الفردية هو: ثقته بمن يدعوه، ورجاؤه وأمله في إسلام من يدعوه. وعلى هذا فليس صحيحاً قول من قال: «وكان المتوقعُ أن ينتشر الإسلام في العشيرة التي ينتسب إليها الرسول ﷺ ثم في قريش التي ينتمي إليها أخيراً»[٢٠٣٤]. فهذا المُتَّوقع الذي يقول به صاحب هذا القول لم يكن هو المُتَّوقع مطلقاً؛ لأن الإسلام يرفضه؛ لأنه بطبيعته دعوة عالمية ليس فيها ذرة من العصبية القبلية التي قال عنها رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنةٌ»[٢٠٣٥]. ومما يدل على ما قلناه أن عشيرة النبي ﷺ - كسائر عشائر قريش - لم تقبل الدعوة الإسلامية بالرغم من أنَّ محمداً ﷺ من أفرادها، فهذا أبو لهب عم رسول الله ﷺ كان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ ومن أشد الناس محاربة له، حتى إن الله تعالى أنزل قرآناً في ذمه والإخبار عن مصيره في النار. وأبو طالب عم رسول الله ﷺ بالرغم من مناصرته له والدفاع عنه لم يؤمن به ولم يقبل دعوته. ومن آمن من عشيرة محمد ﷺ بالإسلام آمن لانشراح صدره للإسلام وليس لأنَّ محمداً ﷺ من عشيرته، ثم إن قريشاً نفسها ما كانت تتوقع أن ينتشر الإسلام أولاً في عشيرة النبي ﷺ؛ لأن عقيدة الشرك كانت تجمع جميع

(٢٠٣٤) السيرة النبوية الصحيحة للأستاذ الدكتور أكرم العمري ج١ ص١٣٢.

(٢٠٣٥) من حديث لرسول الله ﷺ ذكره الطبري في تفسيره ج٢٨ ص٧٨. وهناك حديث آخر في ذم العصبية هو «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية» انظر الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص٤٠.

عشائر قريش وبطونها وفروعها بما فيهم عشيرة النبي ﷺ. فإذنْ ما كان المتوقع أن ينتشر الإسلام أولاً في عشيرة النبي ﷺ لسبب ذكره صاحب القول الأول، وهذا السبب هو «ولكن يلاحظ أن انتشار الإسلام لم يرتبط بالعصبة القبيلية»[٢٠٣٦]. ولعالمية الدعوة الإسلامية ورفض الإسلام للعصبية القبلية لم تتجه الدعوة الإسلامية إلى قريش على أساس ملاحظة التوازن بين فروع قريش من جهة عدد من يسلم أو عدد من يُدَعى إلى الإسلام. وعلى هذا فغير صحيح قول القائل «ولعلّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية»[٢٠٣٧]. والصحيح من القول أن النبي ﷺ دعا كل من أمكنه دعوته ممن يثق به أو يرجو إسلامه دون ملاحظة نسبه العشائري. ودون ملاحظة «التوازن» بين من دخلوا في الإسلام وقبلوا دعوته من مختلف العشائر والفروع.

٩٦٣- المسلمون الأولون في المرحلة السرية:

أسلمت زوجة النبي ﷺ خديجة بنت خويلد، وأسلم ابن عمه علي بن أبي طالب، وكان يعيش في بيت النبي ﷺ، وكان عمره يوم إسلامه عشر سنوات[٢٠٣٨]. وأسلم زيد بن ثابت بن شرحبيل الكلبي وكان قد أُسِرَ وصَار رقيقاً فملكته السيدة خديجة ووهبته لرسول الله ﷺ فتبناه حسب العرف آنذاك، وكان لذلك يقال له: زيد بن محمد حتى جاء الإسلام فأبطل التبني[٢٠٣٩]. كما أسلم أيضاً أبو بكر، وكان شخصاً محبوباً وموثوقاً به عند قومه، فأخذ يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم بدعائه: عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف الزهري وسعد بن أبي وقاص الزهري. وطلحة بن عبد الله التيمي. ومن أوائل من أسلم أيضاً بلال بن رباح الحبشي وأبو عبيدة عامر بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف

(٢٠٣٦) السنة النبوية، للدكتور العمري ج١ ص١٣٢.

(٢٠٣٧) المرجع السابق ج١ ص١٣٣.

(٢٠٣٨) المرجع السابق ج١ ص١٣٤.

(٢٠٣٩) الرحيق المختوم تأليف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ص٧٣.

وسعيد بن زيد العدويّ. وخبّاب بن الأرتّ وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم، وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً. وأسلم من النساء عدا خديجة بناته ﷺ وأسماء بنت أبي بكر الصديق، كما أسلمت زوجات من أسلموا، مثل أسماء بنت سلامة امرأة عياش بن ربيعة، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب، وفاطمة بنت المجلل امرأة حاطب بن الحارث وزمعة بنت أبي عوف امرأة المطلب بن أزهر، وأمينة بنت خلف امرأة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية[٢٠٤٠]. ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث الناس به[٢٠٤١] ويلاحظ هنا أن إسلام من ذكرنا كان سراً، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويعلمهم عقيدة الإسلام متخفياً في بيت الأرقم بن أبي الأرقم؛ لأن الدعوة كانت فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل سورة المدثر[٢٠٤٢].

(٢٠٤٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٢٨٤-٢٨٨.

(٢٠٤١) الرحيق المختوم، ص٧٤.

(٢٠٤٢) الرحيق المختوم، ص٧٤.

المبحث الثاني
المستفاد من بدء الدعوة السرية ومدتها للدعوة والدعاة

٩٦٤- أولاً- لا بد للدعوة الناشئة من السرية:

الدعوة الناشئة لا سيما التي يبدأ بها صاحبها تحتاج إلى جو هادىء بعيد عن تجمع الأعداء ضد هذه الدعوة وصاحبها، كما تحتاج إلى فسحة من الوقت يتخير فيها صاحبها العناصر السليمة التي يمكن مكاشفتها وعرض الدعوة عليها واحتمال إجابتها حتى يكونوا أعواناً للدعوة وقائدها وقاعدة لها. وهذه الأغراض يحققها أسلوب الفردية والسرية في المرحلة الأولى للدعوة، وهو ما سارت عليه الدعوة الإسلامية في مرحلتها الأولى في مكة بقيادة سيدنا محمد ﷺ. فعلى الدعاة ملاحظة ذلك والأخذ بأسلوب الفردية والسرية في بدء الدعوة، كما لو بدؤوها في بلد ليس للدعوة فيه مكان، أو في منطقة يكثر فيها أعداء الإسلام وليس للدعوة فيها صوت، فالأخذ بالسرية والفردية أسلوباً وصيغةً للعمل الدعوي في مثل هذه الأحوال أمْرٌ لازم لا يجوز الحيدة عنه.

٩٦٥- ثانياً- ليس للدعوة السرية مدة محدودة:

ومما يجب أن يُعَرف ولا يُنسَى أَنْ ليس للدعوة السرية حيث يجب الأخذ بها مدةٌ محدودة، إذ ليست مدة الثلاث السنوات أو الأربع التي قيلت لمدة الدعوة الإسلامية السرية في مكة مدة لازمة لا يجوز تجاوزها أو لا يجوز تقليلها؛ لأن الذي يحدد السرية من جهة مدتها بقاء أو زوال الأسباب التي دعت واستوجبت الأخذ بها، فإذا بقيت هذه الأسباب امتدت مدة السرية، وإن تجاوزت المدةَ التي قضتها الدعوةُ الإسلامية في مكة في مرحلتها السرية؛ وإن زالت الأسباب الداعية للسرية قبل مضي مدة السرية في مكة تحولت إلى العلانية وإن لم تنته بعد مدة الثلاث أو الأربع

السنوات التي قيل إنها مدة السرية للدعوة في مكة.

٩٦٦- الضابط لوجوب السرية للدعوة الإسلامية ومدتها:

والضابط لوجوب السرية للدعوة الإسلامية وجود ضرر محقق أو محتمل الوقوع احتمالاً راجحاً يلحق بالدعوة ذاتها أو بالدعاة أنفسهم؛ وتقدير هذا الضرر الذي يستدعي السرية أمرٌ اجتهادي يرجع إلى قائد الدعوة إذا كان منفرداً؛ أَوْ إليه وإلى من يشاوره إذا كان معه من يعاونه في أمور الدعوة. وتقدير الضرر من حيث جسامته ومن حيث احتمال وقوعه يرجع إلى ملاحظة جملة اعتبارات:

(منها): شدة بطش وعتو أعداء الدعوة من حكام ومتنفذين في المجتمع إذا عرفوا بوجود الدعوة وعرفوا قادتها، بحيث إنهم يبادرون إلى البطش بهم بالقتل أو بما هو دونه من تعذيبٍ القتل أهون منه. ويمنعون الناس من الاستجابة لهذه الدعوة.

و(منها): قلة المستجيبين للدعوة بحيث يؤدي انكشافهم إلى تصفيتهم جسدياً وإلى القضاء على الدعوة أو إلى شلٍّ حركتها.

و(منها): تعريض الدعوة ودعاتها إلى الخصام مما يعرقل عمل الدعاة ويشغلهم عن عملهم المبرور؛ لأن الدعوة كما قلت أكثر من مرة تحتاج إلى جو هادىء سليم خالٍ من الخصام.

٩٦٧- من معالم السرية للدعوة:

ومن معالم السرية التي نقلت لنا عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام في مرحلة السرية للدعوة، أن النبي ﷺ كان يجتمع سراً بمن أسلم ليعلمهم أمور الدين[٢٠٤٣]. وقد روي أنه ﷺ كان يجتمع بهم سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان أصحاب رسول الله الذين أسلموا في مكة في هذه المرحلة السرية إذا أرادوا الصلاة ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم[٢٠٤٤].

ومن معالم السرية للدعوة عدم معرفة بعض أتباعها بالبعض الآخر؛ فقد كان

(٢٠٤٣) الرحيق المختوم، المرجع السابق، ص٧٤.

(٢٠٤٤) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٧٥.

عمرو بن عَبْسة السلمي يرى أنه رابعُ أربعة هم أول المسلمين، ولهذا قال: فلقد رأيتُني إذ ذاك ربع الإسلام، مع أنه كان هناك مسلمون أكثر من ذلك، ومما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه كان يرى نفسه رابع من أسلم أيضاً. وقد علل بعض الرواة تعارض كلام أبي ذر مع كلام عمرو بن عبسة فقال: «كلاهما لا يدري متىٰ أسلم الآخر»[2045].

٩٦٨- الضابط في معالم السرية للدعوة:

والضابط في معالم السرية للدعوة، أن لا يحرص المستجيبون لها على معرفة من استجاب لها، ولا على معرفة قادتها. كما أن قادة الدعوة لا يخبرون المستجيبين لها بأسماء من استجاب قبلهم. وهذا العلم للسرية يجب الالتزام به بكل جدية ولا يجوز الحيدة عنه، إلا إذا اقتضت الضرورة تكليف أكثر من واحد من المستجيبين للدعوة للقيام بعمل دعوي جماعي يحتاج إلى جهودهم ونحو ذلك من حالات الضرورة. كذلك من معاني الضابط في معالم السرية للدعاة أن لا يحرصوا على العلانية، وأن يبتعدوا عن مظاهر الانكشاف، وإذ ما انكشف شيء منهم من غير قصد منهم فعليهم ستره حالاً وصرف الأنظار عنه، وإن عليهم أن يصبروا ولا يستعجلوا في قطع مرحلة السرية في الدعوة، وأن يكون شعارهم: عمل السرّ لا عمل العلانية ما دامت المرحلة مرحلة السرية للدعوة.

٩٦٩- ثالثاً- عمل الدعاة في المرحلة السرية:

أ- دعوة من يثقون به إلى الإسلام وإلى الدعوة:

ومما يستفاد من عمل النبي ﷺ ومن آمن به في هذه المرحلة السرية للدعوة، أنَّ على الدعاة في هذه المرحلة القيام بالدعوة الفردية السرية بأن يتصل كل واحد منهم بمن يثق به ويرجو إسلامه، ويشرحَ له مضمون الدعوة وأهدافها.

٩٧٠- ب- تفهيم المستجيبين ما يجب عليهم:

وعلى الدعاة أن يفهموا المستجيبين للدعوة أن عليهم أن يكونوا دعاة لغيرهم إلى

(٢٠٤٥) السيرة النبوية الصحيحة، المرجع السابق، ص١٣٨-١٤٠.

ما آمنوا به، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، إذ قام - بعد إسلامه - بدعوة من وثق به، دعاه إلى الإسلام، وقد استجاب له عدد من الرعيل الأول من المسلمين منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وغيرهم.

٩٧١ -ج- السرية لا تعني إيقاف العمل الدعوي:

وعلى الدعاة والمستجيبين لهم أن يفهموا جيداً بأن السرية لا تعني إيقاف العمل الدعوي؛ أي تبليغ الدعوة، وإنما تعني فقط الأخذ بصيغة معينة من صيغ العمل الدعوي وهي صيغة الفردية والسرية في تبليغ الدعوة، ومن المعلوم أنَّ صيغ الدعوة؛ أي صيغَ تبليغها؛ منها السرية ومنها العلنية ومنها غير ذلك، ومعنى ذلك أن تبليغ الدعوة هو دائماً أوسع من أن نحصره في صيغة معينة، وليست أية صيغة أوسع من الدعوة وتبليغها. إن تبليغ الدعوة لا يتوقف أبداً؛ ولكن يمكن أن تتوقف صيغة معينة من صيغ تبليغ الدعوة لتحل محلها صيغة أخرى، لأن تبليغ الدعوة واجب شرعي يُؤَدى بصيغ مختلفة، فاذا تعذر أداؤه بصيغة معينة لم يسقط أصل الواجب واجب تبليغ الدعوة، ومثاله مثال الصلاة المفروضة، فهي تؤدي جماعة وعلانية، والعلانيةُ أكمل وأفضل، ولكن إذا تعذر أداؤها بهذه الصفة لم يسقط وجوب الصلاة المفروضة ويبقى هذا الواجب فتؤدى منفردة مثلاً. وكذا الدعوة إلى الله يبقى تبليغها قائماً؛ لأنه واجب، ولكن صيغ التبليغ تتغير.

٩٧٢- د- دعوة النساء إلى العمل الدعوي:

وعلى الدعاة في المرحلة السرية أن لا يقصروا دعوتهم وتبليغها إلىٰ الرجال فقط، بل عليهم أن يدعو النساء أيضاً لأنهن مخاطبات بالإسلام ومكلفات بواجباته، ومن واجباته الدعوة إليه. فعلى الدعاة أن يبدؤوا بأزواجهم ونساء أسرهم وأقاربهم فيدعوهن إلى الإسلام والعمل له والدعوة إليه.. وقد ذكرنا إسلام نساء من أسلموا من الرجال، وأكبر الظن أن إسلامهن كان بدعوة أزواجهن لهن بعد أن أسلموا. إن النساء المسلمات الداعيات يمكن أن يقمن بأعمال جليلة في مجال الدعوة في المرحلة السرية مما لا يقدر عليه الرجال فلا يجوز إغفالهن.

٩٧٣- تحذير وتنبيه للدعاة:

ومن ملاحظة واقع الدعاة نجد أن أكثرهم يغفلون عن دعوة أزواجهم ونساء أقاربهم أوْ لا يبذلون الجهد المطلوب لجعلهن مسلمات داعيات إلى الإسلام، فليحذرِ الدعاة هذا الإهمال والتقصير، وليتذكروا قول الله لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ والنساء يدخلن في مضمون هذه الآية ولهذا ذكر النبي ﷺ ابنته فاطمة وعمته صفية في إنذاره وهو ينذر أقاربه الرجال من أبناء عشيرته الأقربين.



الفصل الرابع
مرحلة الدعوة الجهرية

٩٧٤- تمهيد وتقسيم:

في هذه المرحلة الجهرية للدعوة الإسلامية والتي امتدت إلى تاريخ هجرته ﷺ. واجه رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه، واجهوا المشركين وأسمعوهم صوت الدعوة، وكان للمشركين مواقف من رسول الله ﷺ ومن دعوته. كما كان لرسول الله ﷺ مواقف من المشركين ومن مواقفهم منه ومن دعوته. فحصل من ذلك أشياء كثيرة يحسن معرفتها والاستفادة منها للدعوة والدعاة. كما أنه وقعت بعض الحوادث في هذه المرحلة والتي أشار إليها القرآن الكريم وهي قصته ﷺ مع الأعمى، وحادثة الإسراء وما تبعها من المعراج. ولتسهيل عرض محتويات هذا الفصل والإحاطة بها نقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - من معالم الدعوة الجهرية وما يستفاد منها.

المبحث الثاني - موقف المشركين من الدعوة ومن رسول الله ﷺ وما يستفاد منه.

المبحث الثالث - موقف الرسول ﷺ من المشركين وما يستفاد منه.

المبحث الرابع - قصة النبي ﷺ مع الأعمى وما يستفاد منها.

المبحث الخامس - قصة الإسراء والمعراج وما يستفاد منها.

المبحث الأول

من معالم الدعوة الجهرية وما يستفاد منها

المطلب الأول

من معالم الدعوة الجهرية

٩٧٥- فاصدع بما تؤمر:

جاء في تفسير ابن كثير «وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتىٰ نزل ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج ﷺ هو وأصحابه»[٢٠٤٦]. ولكنَّ المشهور أن الدعوة الجهرية بدأت بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢٠٤٧].

٩٧٦- وأنذر عشيرتك الأقربين:

وإنما أمره الله تعالى بنذارة عشيرته الأقربين على وجه التخصيص لهم؛ لأن العشيرة - كما يقول الإمام ابن عطية في تفسيره - مظنة المقاربة والطواعية، إذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم بما لا يحتمله غيرهم. أو كما يقول الإمام القرطبي: «وإنما خصَّ عشيرته الأقربين بالإنذار لتحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك»[٢٠٤٨]. وهذا لا يعني اختصاص قومه ﷺ بالدعوة إلى الإسلام، وإنما هو كما قال الإمام ابن عطية: «وكان هذا التخصيص - تخصيص عشيرته بالإنذار - مع الأمر العام بنذارة العالم»[٢٠٤٩] وهذا أمر بدهي وواضح، فالإسلام دين عام لجميع البشر ومحمد ﷺ بعثه الله رسولاً لجميع البشر قال تعالى:

(٢٠٤٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥٩.

(٢٠٤٧) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٢٠٤٨) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٥٥، تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٣.

(٢٠٤٩) تفسير ابن عطية ج١١ ص١٥٥.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٠٥٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[٢٠٥١]. وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[٢٠٥٢]. ثم إن عموم رسالته لا تعارضها دعوة عشيرته الأقربين والبدء بهم قبل غيرهم؛ لأنهم من جملة العالمين الذين من حقهم أن يُدعَوا إلى الإسلام، وأن تصلهم الدعوة إلى الإسلام ويُبلَّغوا بها. وما دام من السهل الميسور تبليغهم الدعوةَ قبل غيرهم من البعيدين فمن الطبعي والبدهيّ والمطلوب شرعاً البدء بدعوتهم قبل غيرهم. وعلى هذا فقول البعض: «ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أنَّ مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته[٢٠٥٣]. هذا القول غير دقيق بل وغير صحيح، والصحيح في تعليل بدء دعوته لعشيرته الأقربين هو أمر الله له بالبدء بهم. وتعليل هذا الأمر هو ما قاله الإمام ابن عطية والإمام القرطبي وما قلته. ثم إنَّ الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ والمقاومة الشديدة له ولدعوته شاركت فيه عشيرته الأقربون، وبقيت على شركها إلا القليل ممن آمن.

٩٧٧- النبي ﷺ يدعو عشيرته الأقربين:

قلنا: إن الدعوة الجهرية بدأت على رأي بعضهم بنزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾. والمقصود بعشيرته الأقربين قريش بجميع بطونها[٢٠٥٤]. وقد قام ﷺ بتنفيذ هذا الأمر الرباني، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أُنْزِلتْ هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ. فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مُرَّةَ بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبدِ شمسٍ: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عَبْدِ مَناف: أنقذوا أنفسكم من النار.

(٢٠٥٠) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

(٢٠٥١) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٢٠٥٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٢٠٥٣) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج١ ص١٤٣.

(٢٠٥٤) تفسير القرطبي ج١٣ ص١٤٣.

يا بني هاشم: أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة: أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّهَا ببلالها»[٢٠٥٥]. والمعنى: لا تتكلموا على قرابتي فإني لا أقدر على دفع مكروه يريده الله تعالى بكم «غير أن لكم رَحِماً سأَبلُّها ببلالها» والبِلال: الماء، والمعنى: سأصلها[٢٠٥٦]. وهذا الإنذار لقريش عموماً ولقرابته الأدنين خصوصاً إنما هو تحذير لهم من البقاء على الشرك ورفضهم الإيمان به. وفي حديث آخر رواه الإمام مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»[٢٠٥٧].

٩٧٨- الأذى الشديد من الأقربين[٢٠٥٨]:

ويلاحظ هنا أن من الأذى الشديد للنبي ﷺ والإيغال في عداوته والصدّ عن دعوته جاء بعض ذلك من بعض أقاربه ﷺ الأقربين له، فقد جاء من عمه أبي لهب وشاركت فيه زوجته أم جميل. ومن أخبار هذا الأذى من أبي لهب وصدّه الناس عن الدعوة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا وجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون من قريش حتى اجتمعوا إليه فجاء أبو لهب ومن سمع نداءه من بطون قريش فقال لهم: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقيَّ؟» وفي رواية أخرى: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في الرد عليه سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ...﴾ وأبو لهب هذا كان

(٢٠٥٥) مختصر صحيح مسلم للمنذري بشرح صديق حسن خان ج١ ص٤٠٤.

(٢٠٥٦) المرجع السابق ج١ ص٤٠٥، ٤٠٦.

(٢٠٥٧) المرجع السابق ج١ ص٤٠٥.

(٢٠٥٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٥٦٣-٥٦٤، السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج١ ص٢٩٤ وما بعدها.

كثير الأذية لرسوله الله ﷺ والازدراء له، والتنقيص له ولدينه، والسعي لصد الناس عن دعوته، فكان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى مجامع القوم وإلى القبائل الوافدة إلى مكة يدعوهم للإسلام، كان أبو لهب يخرج خلف رسول الله ﷺ يصدّ الناس عن دعوته، ويفتري الكذب على رسول الله ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت النبي ﷺ في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه أبو لهب وهو يقول للناس: إنه صابىء كاذب. وأخرج أيضاً الإمام أحمد بن حنبل عن ربيعة ابن عباد أيضاً: كان النبي، يتبع القبائل يدعوها إلى الإسلام، ووراءه أبو لهب، فكان ﷺ يقف على القبيلة ويقول: «يا بني فلان: إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني - تحموني - حتى أبلغ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ ﷺ من مقالته، قال أبو لهب الذي كان يتبعه: يا بني فلان: هذا - أي النبي ﷺ - يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. وكانت أم جميل زوجة أبي لهب مثل زوجها شديدة العداوة لرسول الله ﷺ تضع الشوك في طريقه والقذر على بابه، وجاءت مرة إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة وفي يدها حجر تريد رميه على رسول الله ﷺ، ولكن الله تعالى صرف بصرها فلم تبصر رسول الله ﷺ، ولعداوتها هذه لرسول الله ﷺ أشركها الله تعالى فيما توعد به زوجها في سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ...﴾.

٩٧٩- فاصدع بما تؤمر:

ومما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ في مرحلة الدعوة الجهرية قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢٠٥٩] أي فاجهر بما تؤمر به من الشرائع وأظهره وبلغ به جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك[٢٠٦٠]. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برّأك الله عما يقولون[٢٠٦١]. ﴿إِنَّا

(٢٠٥٩) سورة الحجر، الآيات من ٩٤-٩٦.

(٢٠٦٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٩٠، تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٢.

(٢٠٦١) تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٤.

كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ أي حفظناك من شرهم فلا ينالك منهم ما تحذره. وهذا ضمان من الله تعالى لنبيه ﷺ لينهض بالدعوة نهضة من لا يهاب ولا يخشى، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(٢٠٦٢). وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ﴾ وصف من الله تعالى للمستهزئين برسول الله ﷺ بأنهم مشركون تسلية له عليه الصلاة والسلام وتهويناً للخطب عليه بأنهم أصحاب تلك الجريمة الكبرى جريمة اتخاذهم مع الله إلهاً آخر، وهي أكبر الكبائر التي سيُخذَلون بسببها ويُعَذبون كما قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة أمرهم(٢٠٦٣).

المطلب الثاني

المستفاد من الدعوة الجهرية

٩٨٠- أولاً - استكمال متطلبات الدعوة الجهرية قبل البدء بها:

قلنا: إن الدعوة السرية استمرت ثلاث أو أربع سنوات قبل التحول إلى الجهر بها، فما سبب ذلك؟ أي ما سبب بقاء الدعوة سرية هذه المدة قبل الجهر بها؟ من الواضح الجلي أن استمرارها سرية إنما كان لاستكمال متطلبات الانتقال إلى المرحلة الجهرية للدعوة. ومتطلباتها هي إيجاد القاعدة للدعوة المتكونة من العناصر المؤمنة بالقدر الكافي، حتى إذا ما حصل الجهر بالدعوة وحصلت مقاومة المشركين والمعارضين للدعوة ولدعاتها قابلها وواجهها أولئك المؤمنون بالصبر وتحمل الأذى والثبات على الدعوة مهما كان الأذى الذي يصيبهم. وحتى إذا أمكن لأعداء الدعوة قتل بعض الدعاة أو حبسهم، فإن الدعوة تبقى ويبقى من الدعاة من يبقون على عهدهم وثباتهم عليها ودعوة الناس إليها. فعلى الدعاة أن يفقهوا هذا فيبدؤوا بالدعوة بصورة سرية كما قلنا، ولا يتحولوا عنها إلى المرحلة الجهرية قبل استكمال متطلباتها، وعلى رأس هذه المتطلبات العدد الكافي من المستجيبين لها

(٢٠٦٢) تفسير القاسمي ج١٠ ص٧١، وآية: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ الخ في سورة المائدة ورقمها ٦٧.

(٢٠٦٣) تفسير القاسمي ج١٠ ص٧٢.

المؤمنين حقاً بها، والمرجو ثباتهم عليها مهما كانت العقبات والصعاب والأذى الذي يصيبهم من أعداء الدعوة. إن تقدير العدد المطلوب من المستجيبين للدعوة كمُتطَلَّبٍ للانتقال إلى المرحلة الجهرية، هذا التقدير متروك إلى اجتهاد القائم أو القائمين على الدعوة، آخذين بنظر الاعتبار قوة وشراسة أعداء الدعوة، والظروف المحيطة بهم - أي بالدعاة - من جهة المكان والزمان والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها، والحماية التي يمكن أن يحصلوا عليها بسبب أُسرِهم أو بسبب قراباتهم بأَصحاب السلطة المعارضين للدعوة. كما أنَّ عليهم في تقدير عدد المستجيبين للدعوة تقديرَ مدى صلاتهم وثباتهم على الدعوة إذا مسّهم شيء من الأذى من أعداء الدعوة. إن التأكد من عمق إيمان المستجيبين للدعوة وثباتهم عليها أمر جوهري، وأقل ما يكفي فيه ترجيحُ المسؤول عن الدعوة وجودَ هذا الإيمان عند المستجيبين للدعوة وثباتَهم عليها. إن هذا الإيمان العميق كان موجوداً في الرعيلِ الأول من المسلمين الذين آمنوا بمحمد ﷺ في مرحلة الدعوة السرية، ولذلك تحملوا أذى المشركين وتعذيبهم بالصبر الجميل كما سنذكر ذلك فيما بعد. وعلى الدعاة أن لا يتأثروا برغبات المستجيبين للدعوة في إعلانها والجهر بها قبل أن تُستكمل متطلبات الجهر بالدعوة.

٩٨١- ثانياً - ضمان القائمين بالدعوة الجهرية:

ذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ وقولَ من قال من المفسرين في هذه الآية: «وهذا ضمان من الله تعالى لنبيه ﷺ لينهض بالدعوة نهضة من لا يهاب ولا يخشى»[٢٠٦٤]. ونذكر هنا قول ابن كثير في هذه الآية: «أي بلّغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذي يريدون أن يَصدوك عن آيات الله»[٢٠٦٥].

وقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قال القرطبي رحمه الله: «والمعنى اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله فإن الله كافيك مَن آذاك كما كفاك المستهزئين»[٢٠٦٦]. ولا شك أن وعد الله

(٢٠٦٤) الفقرة ٩٧٩.

(٢٠٦٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥٩.

(٢٠٦٦) تفسير القرطبي ج١٠ ص٦٢.

لرسوله ﷺ بالحفظ والصيانة من شرور أعدائه والمستهزئين به سيشد أزره ﷺ ويزيده قوة وثباتاً على تبليغ رسالة ربه كما قال تعالى في خطابه له في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(٢٠٦٧).

ويمكننا أن نستنبط من ذلك أنَّ الدعاة بحاجة إلى ما يشدّ أزرهم ويقويهم في تبليغ الدعوة دون خوف يمنعهم من هذا التبليغ، ومما يقويهم على متطلبات الدعوة والقيام بتبليغها - بعد الاعتماد على الله - قيام الجماعة المسلمة، جماعةِ الدعاة، بإخبار الدعاةِ المنتسبين إليها بأن جماعتهم هي سندهم بعد الله: تدافع عنهم بكل ما تستطيع من قوة، وتقوم بكفالتهم وكفالة أسرهم وسدّ حاجاتهم إذا أصابهم مكروه أو أذى، أو فصل من وظائفهم، أو حبسهم، أو قتلهم. إن مثل هذا التعهد والالتزام من قبل الجماعة، جماعة الدعاة، سيقويهم - إن شاء الله تعالى - ويزيدهم ثباتاً على تبليغ الدعوة؛ لأن الإنسان قد يكون قلقه وخوفه على مصير عائلته وليس على مصيره هو، وحتى إذا كان قلقه يشمل نفسه وعائلته فإن تعهد الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، سيزيل أو يخفف هذا القلق إلى حد بعيد بحيث يجعل الداعية ثابتاً على الدعوة، قائماً بمتطلباتها دون تردد ولا وجل، وقد نستأنس بما نقول بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول للمجاهدين: أنا أبو العيال في غيبتكم. وعلى هذا الأساس يمكن أن تنشىء صندوقاً تسميه صندوق ضمان الدعاة، تغذيه من تبرعات المنتسبين للجماعة بالدرجة الأولى، ويجوز قبول الهبات من المسلمين المحسنين، حتى يكون للجماعة ما تقوم به لكفالة منتسبيها من الدعاة عند الحاجة.

(٢٠٦٧) سورة المائدة الآية ٦٧.

المبحث الثاني
موقف المشركين من الدعوة الجهرية
وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

المطلب الأول
موقف المشركين من الدعوة الجهرية

٩٨٢- يكذبونه وهو الصادق الأمين:

لما بلغ قريشاً خبر الدعوة الإسلامية، وجهر النبي ﷺ بها، لم تقابلها قريش بالنظر فيها وسؤال النبي ﷺ عنها، وعما يريده في دعوته وفي تحذيره لهم من التكذيب بها، وهم قد عرفوا أمانته وصدقه من قبل، وقد لبِثَ فيهم عمراً طويلاً لم يعرفوا منه إلا الأمانة والصدق والعفة وحسن الخلق، أقول: لم تقابله بما ذكرتُ، وإنما قابلته بالتكذيب لدعوته ونبوته، وراحوا يفكرون في وسائل مقاومته والصدّ عن دعوته والدفاع عن معتقداتهم الباطلة من الشرك بالله وإنكار البعث بعد الموت وإنكار النبوات ونبوته على وجه الخصوص، وكان من وسائلهم في مقاومة الدعوة والصدّ عنها وعن المُرسَل بها سيدنا محمد ﷺ الطعن بشخصه الكريم باتهامه بالكذب والسحر والافتراء، وبادعائهم أن هذا القرآن ليس من عند الله وإنما علّمه إياه شخص آخر، إلى آخر ما قالوه من الأباطيل والتهم الساقطة وهم يحسبونها حججاً وبراهين ساطعة. ونذكر فيما يلي بعض افتراءاتهم وما قابلوا به الدعوة الإسلامية، حتى يتبين لنا موقفهم منها.

٩٨٣- أولاً- تكذيبهم للدعوة وللرسول واتهامه بالسحر:

قال تعالى مخبراً عن حال قريش وموقفهم من الدعوة ومن رسول الله ﷺ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا

لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[2068] تعجبوا من ترك الشرك ودعوته لهم بأن يعبدوا الله وحده، تعجبوا من دعوته إياهم لتوحيد الله وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولم يتعجبوا من شركهم وهو الباطل الذي لا يصح[2069].

٩٨٤- ثانياً- تواصيهم على الثبات على شركهم:

قال تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[2070] جاء في سبب نزول هذه الآية والآيات التي قبلها أن وفداً من رؤساء قريش جاء إلى أبي طالب عم رسول الله ﷺ وقال له: «ياأبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه». فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوني أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعونك وإلهك. فقال ﷺ: «أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم». قال أبو طالب وإلامَ تدعوهم؟ قال ﷺ: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينَّكها وعشرَ أمثالها، قال ﷺ: «تقولون لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها. قال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا من عنده غضاباً[2071]. وقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادة قريش قائلين ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أي استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه[2072].

(٢٠٦٨) سورة ص، الآيتان ٤، ٥.

(٢٠٦٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧، تفسير الزمخشري ج٤ ص٧٢.

(٢٠٧٠) سورة ص الآية ٦.

(٢٠٧١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

(٢٠٧٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

٩٨٥- ثالثاً - دفاعهم عن شركهم واستبعادهم اختصاص محمد بالرسالة:

قال تعالى حكاية عما قاله رؤساء قريش في دفاعهم عن شركهم واستبعادهم اختصاص محمد ﷺ بالرسالة: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[٢٠٧٣]. والمعنى: أنهم قالوا ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد في الملة الآخرة، أي في دين قريش الذي أدركنا عليه آباءنا، أو في ملة النصارى؛ لأنهم لا يدينون بالتوحيد. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي ما هذا التوحيد الذي نُدعى إليه إلا فرية محضة[٢٠٧٤]. ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه ﷺ مع أنَّ فيهم من هو أكثر ثراءً ومنزلة منه، كما قال تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. ولهذا لما قالوا هذا القول الذي دلّ على جهلهم وقلة عقولهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي إنما يقولون هذا القول لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله تعالى، وسيعلمون عاقبة قولهم وما كذبوا به يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعا[٢٠٧٥].

٩٨٦- رابعاً- استهزاؤهم بالرسول ﷺ:

ومن أساليب كفرة قريش سخريتهم بالرسول ﷺ واستهزاؤهم به لصرف الناس عنه بزعمهم، قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٢٠٧٦]. واتخذه هزواً: بمعنى استهزأ به ﴿أَهَٰذَا﴾ استصغار منهم بالرسول ﷺ ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وهذا منهم سخرية واستهزاءٌ، ولو لم يستهزؤوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوثٌ من عند الله رسولاً. وقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وبذله

(٢٠٧٣) سورة ص الآيتان ٧،٨.

(٢٠٧٤) تفسير القاسمي ج١٤ ص١٤٦.

(٢٠٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٨.

(٢٠٧٦) الفرقان، الآية ٤٢.

قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم، ويتحولوا إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم، واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ودلالةٌ على أنهم لا يفلتون من عذاب الله وإن طالت مدة إمهالهم. وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وسيعلمون من أضل سبيلاً: هم أم الرسول ﷺ الذي زعموا أنه كاد أن يضلهم(٢٠٧٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾(٢٠٧٨) يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي يستهزؤون بك وينتقصونك ويقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يعنون أهذا الذي يسبّ آلهتكم ويسفه أحلامكم؟ قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزؤون برسول الله ﷺ(٢٠٧٩).

٩٨٧- خامساً- من عادة الكفار استهزاؤهم برسول الله:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢٠٨٠). هذه تسلية من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ من استهزاء الكفار به بأن له في الأنبياء السابقين أسوة حسنة، وأن ما يفعله الكفار به من سخرية واستهزاء سوف يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوه(٢٠٨١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٢٠٨٢). الإملاء يعني الإمهال، والمعنى: ولقد سُخِرَ برسل من قبلك فأمهلتهم مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم، فلما حقَّ القضاء أخذتهم

(٢٠٧٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٨١-٢٨٢.

(٢٠٧٨) سورة الأنبياء الآية ٣٦.

(٢٠٧٩) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٨.

(٢٠٨٠) سورة الأنبياء الآية ٤١.

(٢٠٨١) تفسير الزمخشري ج٣ ص١٧٨.

(٢٠٨٢) سورة الرعد الآية ٣٢.

بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك[2083].

٩٨٨- سادساً - لو كان خيراً ما سبقونا إليه:

قال تعالى مخبراً عن منطق كفار قريش: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[2084]. أي قال كفار قريش عن المؤمنين بالقرآن، لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أنَّ لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كتاب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[2085].

٩٨٩- سابعاً - تكذيبهم بيوم القيامة وبالبعث بعد الموت:

قال تعالى مخبراً عن الكفرة في تكذيبهم بيوم القيامة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾[2086]. والمقصود بالساعة يوم القيامة. وقال تعالى مخبراً عن إنكارهم البعث بعد الموت: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2087]. أي وإن تعجب يا محمد في إنكارهم البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يُتعَجب منه: لأن من قدر على إنشاء السموات وغيرها ولم يعي بخلقهن وخلق الإنسان، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب، هذا الإنكار الذي حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أإذا كنا تراباً بعد أن نموت فهل نُخلَقُ مرة

(٢٠٨٣) تفسير القرطبي ج٩ ص٣٢٢.

(٢٠٨٤) سورة الأحقاف الآية ١١.

(٢٠٨٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦.

(٢٠٨٦) سورة الفرقان الآية ١١.

(٢٠٨٧) سورة الرعد الآية ٥.

أخرى[2088]. وقال تعالى مخبراً عن إنكارهم البعث، والقسم بالله على وقوعه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2089] الزعم: ادعاء العلم. وعن شريح: لكل شيء كنية، وكنية الكذب: «زعموا». والذين كفروا في هذه الآية هم أهل مكة، وكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ تعني إثباتاً لما بعد ﴿لن﴾ وهو البعث[2090].

٩٩٠- ما ادَّعَوْهُ في القرآن الكريم:

كفار قريش كذبوا بالقرآن، وأنكروا أن يكون كلام الله، وأن الله أنزله على محمد ﷺ، وادّعَوْا أن هناك من أعان محمداً ﷺ على إنشائه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2091]. يقول تعالى رداً على قولهم ومخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي ادعوا أنه عليه الصلاة والسلام استعان على جمعه بقوم آخرين. فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه. ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنون كتب الأولين أي استنسخها ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره[2092].

٩٩١- طلبات الكفار واقتراحاتهم:

وإيغالاً من الكفار - كفار مكة - في كفرهم وإصرارهم عليه، أخذوا يتقدمون إلى الرسول ﷺ بطلبات يريدون بها تبرير كفرهم وإصرارهم عليه، فمن هذه الطلبات والاقتراحات.

(٢٠٨٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥١٣.

(٢٠٨٩) سورة التغابن الآية ٧.

(٢٠٩٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٤٨.

(٢٠٩١) سورة الفرقان الآيتان ٤، ٥.

(٢٠٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٠٩.

٩٩٢- (أ) أن يكون ملكاً أو معه ملك:

قال تعالى حكاية عما اقترحه وطلبه كفار مكة من رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[٢٠٩٣]. أي يقول كفار مكة: إن صح أن محمداً ﷺ رسولُ الله فما باله حاله مثلُ حالنا ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد. يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيُّش، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً[٢٠٩٤]، إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف. ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مُعَاناً بملك فليكن مُعَاناً بكنز يُلقَى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن اقترحوا أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم الذين قالوا ما جاء في الآية وذكرناه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحِرَ فغُلِبَ على عقله[٢٠٩٥].

٩٩٣- (ب) اقتراحهم إنزال الملائكة أوْ رؤية الله:

قال تعالى مخبراً عما طلبه الكفرة أو اقترحوه: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[٢٠٩٦]. أي إن الكفرة الذين لا يؤمنون بلقاء الله في الآخرة وهم بالتالي لا يخافون الله في هذا اللقاء، هؤلاء الكفرة اقترحوا من الآيات أن يُنزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن

(٢٠٩٣) سورة الفرقان الآيتان ٧، ٨.

(٢٠٩٤) اقترحوا أن يكون الرسول ملكاً كما أخبرنا الله تعالى بذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾. سورة الإسراء الآية ٩٤، أي ما منعهم من الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي إنكارهم أن يرسل الله بشراً، وأنه كان - في زعمهم - أن يكون الرسول ملكاً. والهمزة في «أبعث» للإنكار: تفسير الزمخشري ج٢ ص٦٩٤.

(٢٠٩٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢٠٩٦) سورة الفرقان الآية ٢١.

محمداً ﷺ صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه. وهم أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم. ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه ﴿ وَعَتَوْ ﴾ أي تجاوزوا الحدّ في الظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي أفرطوا في عتوهم وبلغوا أقصى العتو(٢٠٩٧).

٩٩٤- (جـ)- اقتراحات وطلبات إضافية:

قال تعالى مخبراً عن تعنت كفار مكة واقتراحاتهم وطلباتهم ليبقوا على كفرهم وعنادهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(٢٠٩٨). أي قال كفار مكة لرسولِ الله ﷺ: لن نؤمن لك ونصدقك ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تشقق لنا من أرض مكة عيوناً أو عيناً غزيرة المياه ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ أي بستان منهما ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي تفجر الأنهار وسطها تفجيراً. ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ أي قطعاً بالعذاب ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ أي من ذهب ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي أو تصعد في السماء ولن نؤمن لأجل رقيك وحده ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ أي حتى تنزل علينا كتاباً من السماء فيه تصديقك ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ أي تنزيهاً له. والمراد به التعجب من اقتراحاتهم ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أي هل كنت إلا بشراً كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات حسبما يلائم حال قومهم، ولم يمكن أمر الآيات إليهم، وليس لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها، فما بالكم تقترحونها علي(٢٠٩٩).

(٢٠٩٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٧٢.

(٢٠٩٨) سورة الإسراء، الآيات من ٩٠-٩٣.

(٢٠٩٩) تفسير القرطبي ج١٠ ص٣٣٠-٣٣١، تفسير الزمخشري ج٣ ص٦٩٣-٦٩٤، تفسير القاسمي ج١ ص٢٩٧-٢٩٨.

٩٩٥-(د)- اقتراحهم نزول الخارق:

قال تعالى عن المشركين، مشركي مكة، وما اقترحوه على رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢١٠٠). يقول تعالى مخبراً عن المشركين إنهم كانوا يقولون لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ويتمنون ويقترحون. وإنما كانوا يقولون ذلك ويقترحونه مع تكاثر ما أُنزِلَ من الآيات على رسول الله ﷺ؛ لتركهم الاعتداد بما أُنزِلَ عليه كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات؛ عناداً منهم ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ أي هو قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة(٢١٠١).

٩٩٦- (هـ)- طلبهم تعجيل العقاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كان استعجال العذاب استهزاءً منهم وتكذيباً ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾(٢١٠٢) أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

(٢١٠٠) سورة الأنعام الآية ٣٧.

(٢١٠١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣١.

(٢١٠٢) تفسير ابن كثير، والآيتان في سورة العنكبوت: ٥٣، ٥٤.

المطلب الثاني
المستفاد من موقف المشركين من الدعوة الإسلامية الجهرية

٩٩٧- أولاً- رد الدعوة والطعن في دعاتها:

لقد ردّ المشركون في مكة دعوة الإسلام، وقابلوها بالتكذيب والطعن في الرسول ﷺ واتهامه بالكذب والسحر والنعوت القبيحة، وهو ﷺ بريء منها، بل ويعلمون هم أنه بريء منها لأنهم ما عرفوا منه إلا الأمانة والصدق، ولكن استمساكهم بكفرهم ومعاداتهم للدعوة حملهم على ردها والطعن في شخص الرسول ﷺ.

فعلى الدعاة أن لا يأخذهم العجب والبهر والانزعاج إذا ما رأوا الناس أو بعضهم يردون دعوتهم ويعادونها ويتهمونهم بالتهم الباطلة، فليسوا هم- أي الدعاة- بأحسن حالاً ولا أقوى حجة ولا أكثر تأييداً من الله ولا أنصع بياناً من رسول الله ﷺ، ومع ذلك اتهمه أهل الباطل بما اتهموه به، وردوا دعوته وهي دعوة الحق. فإذا فقه الدعاة ذلك لم يلتفتوا إلى تكذيب المكذبين وطعنهم بأشخاصهم، ومضوا في دعوتهم بإصرار ويقينٍ بنصر الله لهم.

٩٩٨- ثانياً- الاستهزاء بالدعاة والسخرية منهم:

ذكرنا من قبل أن مشركي مكة كانوا مع رفضهم الإسلامِ يستهزؤون برسول الله ﷺ ويسخرون منه، وهذا الصنيع منهم نهجٌ قديم سلكه الكفرةُ مع رسلهم السابقين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فلا عجب أن يسخر في الوقت الحاضر أعداء الدعوة من ملاحدة وكفرة بالدعاةِ إلى الله، فعلى الدعاةِ أن لا يأبهوا باستهزاء وسخرية هؤلاء، فسيحيق بهم ما حاق بأسلافهم الساخرين برسل الله إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الله تعالى. وأن يكون موقف الدعاةِ من سخريتهم الصبرَ والإناةَ والاستمرارَ في الدعوة، فإنّ من المبطلينَ من لا يستجيب إلى دعوة الحق إلا بعد عناد شديدٍ وأمد بعيد.

٩٩٩- ثالثاً- الدعاة أولى بالثبات على دعوتهم من أعدائها:

ذكرنا فيما سبق أن الملأ من مشركي مكة أي ساداتهم، تواصَوْا فيما بينهم، واتفقوا على مقاومة الدعوة الإسلامية، والتمسك بعقيدتهم أو بعقائدهم الباطلة. إن هذا الشيء أو قريب منه قد يحدث للدعاة اليوم، فيتفق كبراء القوم الذين يرفضون الدعوة، يتفقُ هؤلاء فيما بينهم، وبالرغم من الاختلافات فيما بينهم، يتفقون على محاربة الدعاة ودعوتهم الإسلامية، كما نلاحظ في بعض البلاد، حيثُ يتفق الحكام ورؤساء الأحزاب العلمانية ومن يسير في ركابهم، يتفقون على محاربة الدعوة الإسلامية وتضييق الخناقِ عليها، واتهام أصحابها الدعاة إلى الله، بالتهمِ الكاذبة الباطلة، مع إصرار على مسلكهم الذميم هذا. فما على الدعاة إلا مقابلة إصرارهم المشين على الكفر، بالإصرار الدائم على التمسك بالدعوة، ولهم في رسول الله أسوة حسنة. وعليهم أن لا يلينوا أمام إصرار أعداء الدعوة على محاربتها، وليتذكروا قول رسول الله ﷺ للملأ من قوم مكة لما قال لهم: قولوا: «لا إله إلا الله» فرفضوها وقالوا: سلنا غيرها، فقال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»[٢١٠٣]. وبقدر ثبات الدعاة على دعوتهم وصبرهم على المضي في تبليغها، بقدر ذلك يضعف إصرار الملأ من أعداء الدعوة. كما أن على الدعاة أن تتحرك الغيرة في نفوسهم عندما يرون أعداء الدعوة يصرون على باطلهم وعلى محاربة الدعوة والدعاة، فليحملهم ذلك على مقابلة إصرارهم على الباطل على إصرارهم على الحق، أي على المضي في دعوتهم، وأن يتواصى الدعاة فيما بينهم على الثبات على دعوتهم والاستمرار في تبليغها، فهم على الحق المبين وأولى في هذا الثبات من غيرهم.

١٠٠٠- رابعاً- إعجاب أعداء الدعوة بأنفسهم:

ومما يتوارثه أهل الباطل، أعداء الحق، إعجابهم بأنفسهم واستبعادهم أن يأتي بالحق والصواب غيرهم. وعلى أساس هذا المنطق المرذول الذي هو بعض نتائج الإعجاب بالنفس، قال المشركون متعجبين أن يُختص رسول الله ﷺ بالحق والهدى

(٢١٠٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧.

وَتَنزُّلِ الوحي عليه مع أنهم - في زعمهم - أولى بذلك لو كان حقاً، فهم أهل الرياسة والثراء في المجتمع، قال تعالى حكاية عما قالوه: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ أي إنهم يستبعدون اختصاص محمد ﷺ بتنزل الوحي عليه مع أن فيهم من هو أكثر ثراء ومنزلة منه، وبالتالي يكون هو الأحقَّ بتنزل الوحي عليه، وإذا لم يقع ذلك فقد رتبوا عليه تكذيبهم بالرسالة وبالرسول. فعلى الدعاة أن يعرفوا هذا المنطق من أعداء الدعوة في تقدير الأمور ووزنها وما يعرفون بِهِ الحق والصواب. ولا يتعجبوا - أي الدعاة - من منطقهم هذا، فقد واجهوا به خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ المؤيد بالله وبما آتاه من المعجزات، فلا عجب إذا سلكوا المسلك نفسه في مواجهة الدعوة إلى الله في الوقت الحاضر. وعلى الدعاة كشف زيف هذا المنطق وما بنوه عليه من نتائج باطلة في كيفية معرفة الحق والباطل، فما زال في الناس بقية من نظر وعقل سليم، وليؤكد الدعاة في ردهم لمنطق أعداء الدعوة الذي توارثوه عن أسلافهم، أن الحق هو ما كان حقاً بذاته سواء جاء به أو دعا إليه رجل مغمور، أو غير مغمور، وأن الحق والعلم به والدعوة إليه لا يشترط في ذلك ثراء ولا منزلة العالم به الداعي إليه. وإن الداعي يعرف صدقه وأحقية ما يدعو إليه بالنظر في مضمون دعوته ولا علاقة لذلك بكونه فقيراً وغيره غني، ونحو ذلك مما قد يختلف فيه الناس ولا علاقة له بما يدعو إليه.

١٠٠١- خامساً- استعظام المبطل نفسه واستصغاره شأن المسلم:

أهل الباطل يرون أنفسهم دائماً فوق غيرهم، وأن غيرَهم أسفل منهم، وعلى أساس هذا المنطق يردونَ دعوة الحق ويستصغرون شأن الدعاة إليها، ويستدلون بمنطقهم المرذول أن الدعوة لو كانت حقاً لما سبقهم بالاستجابة إليها هؤلاء الصعاليك من عامة الناس الذين سارعوا إلى قبولها. وهذا هو ما قاله أسلافهم في ردهم دعوة الإسلام، يوم نادى بها سيدنا محمد ﷺ، فردوها بحجة أن من آمن بها صعاليك لا وزن لهم في المجتمع، أمثال بلال وعمار من المستضعفين في مكة، قال تعالى حكاية عن منطق أولئك الكفرة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ وهذا المنطق المنكوس المرذول لا يزال هو السائد عند أعداء الدعوة أو المتكبرين عليها. فعلى الدعاة أن لا يأخذهم العجب والبهر من منطق أعداء

الدعوة، الذين يردونها، ويعادونها ويعادون الدعاة، بحجة أن لو كان في هذه الدعوة خير لكانوا هم أولى الناس وأحقهم في معرفتها والإيمان بها، فلا عبرة لهؤلاء المغمورين الذين آمنوا بهذه الدعوة وصاروا من أتباعها والمؤيدين لها. وعلى الدعاة أن لايتأثروا بباطل هؤلاء، وليعلموا أن العظيم ما كان عظيماً عند الله لتقواه وصلاحه، وإن كان مغموراً عند الناس.

١٠٠٢- سادساً- لا حدّ لضلال الإنسان:

على الدعاة أن لا يستغربوا وتصيبهم الدهشة إذا رأوا أعداء الدعوة إلى الله، الرافضين لها يعلنون تكذيبهم بها وصدَّ الناس عنها، فكفار قريش ردوا دعوة رسول الله ﷺ المؤيد بعناية الله، وقد عاش معهم رسول الله ﷺ فما عرفوا منه إلا الصدق، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك جيداً وأن يعلموا أن لا حدّ لضلال الإنسان، فقد يصل به هذا الضلال أن يرفض دعوة رسول الله ﷺ وهو يبلغها لهم بنفسه، فإذا فقه الدعاة ذلك لم يؤثر فيهم رفض الرافضين لدعوتهم؛ ولم يحملهم على الفتور في الدعوة أو الشك في صلاحها وأحقيتها. بل إن ضلال الإنسان لا يقف عند حدّ ضلال نفسه بل يسعى لبقاء الغير في ضلالهم يصدهم عن رؤية الحق والإيمان به واتباعه. فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك فيزيدوا من نشاطهم في مجال عملهم الدعوي.

١٠٠٣- سابعاً- التظاهر بالحجة والبرهان في رفض الدعوة:

وقد يتظاهر المبطلون بما يحسبونه حجّةً لهم في رد الدعوة، متشبثين بأن هذه الدعوة ابتداع وانحراف عن منهج الأسلاف، وأنها تفرق بين الناس فلا تستحق إلا الصد عنها، والإعراض عن دعاتها. فعلى الدعاة أن لا تضيق صدورهم بمثل هذا الكلام، فقد قيل هذا الكلام أو مثلُهُ لمن هو خير منهم، لسيدنا محمد ﷺ كما حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[٢١٠٤].

(٢١٠٤) انظر الفقرة ٩٨٥.

المبحث الثالث

موقف الرسول ﷺ من المشركين

وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

المطلب الأول

موقف الرسول من المشركين

١٠٠٤- تمهيد:

ذكرنا بعض مواقف المشركين في مكة من الدعوة الإسلامية ومن رسول الله ﷺ، وما انطوت عليه تلك المواقف من ردّ للدعوة، ورفض لها مع إصرار على هذا الرفض؛ واستهزاء بها وبرسول الله ﷺ؛ وتكذيب له ولكتاب الله العزيز، وتقديم اقتراحات وطلبات كان المشركون يتقدمون بها إلى رسول الله ﷺ تبريراً لعنادهم وكفرهم، أو سخرية واستهزاءً برسول الله ﷺ. وكانت تلك المواقف للمشركين في مكة قبل الهجرة وبدأت عندما جهر النبي ﷺ بالدعوة. ونذكر فيما يلي مواقف أو موقف رسول الله ﷺ من المشركين ومن مواقفهم نحوه ونحو الدعوة الإسلامية؛ ثم نبين ما يستفاد من موقف رسول الله ﷺ من المشركين وما زعموه وما طلبوه.

١٠٠٥- أولاً- من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها:

قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[٢١٠٥] أي قل يا محمد لأولئك الكفرة من مشركي مكة وغيرهم، قد جاءكم الحق وهو القرآن من ربكم فمن اهتدى به بأن آمن به فإن منفعة اهتدائه لنفسه خاصة، ومن ضل بأن آثر الضلال فكفر بالقرآن فماضَرَّ إلا نفسه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ موكول

(٢١٠٥) سورة يونس الآية ١٠٨.

إليّ أمركم وحملكم على ما أريد ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ، أُبشِّرُ من آمن بي برضوان الله وأنذر من أبى بعذاب الله[2106].

١٠٠٦- ثانياً- الدعوة إلى عبادة الله وحده:

يقول الله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ليقول للمشركين: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2107]. أي قل يا محمد: يا أهل مكة إن كنتم في شك من صحة ديني وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم؛ وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك؛ وهو: أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون الله، ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم كما أنّهُ هو الذي أحياكم؛ ثم إليه مرجعكم ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الله أمرني بذلك بما أوحى إليَّ في كتابه[2108].

١٠٠٧- ثالثاً- ما على الرسول إلا البلاغ المبين:

وهذا مبدأ عظيم وقاعدة أصيلة؛ وهي أن المُكَّلف به رسول الله هو قيامه بالتبليغ، أي تبليغ من أُرْسِلَ إليهم بما أوحاه الله إليه وكلفه بتبليغه. وعلى هذا لا يُسأَل الرسول عن كفرهم ولا عن إصرارهم عليه. وقد جاءت الآيات تبين وتؤكد هذا المبدأ العظيم؛ (منها) قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي فإنْ تولى كفار مكة وأمثالهم من الكفرة فلم يستجيبوا لدعوتك فليس عليك شيء من توليهم وإنما عليك البلاغ المبين وقد أديته[2109]. ومثله، قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2110] أي فإن أعرضتم عما يدعوكم إليه رسولنا

(٢١٠٦)تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٥، تفسير القاسمي ج٥ ص٨٩.

(٢١٠٧) سورة يونس الآية ١٠٤.

(٢١٠٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٣-٣٧٤.

(٢١٠٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٨٠ والآية في سورة النحل ورقمها ٨٢.

(٢١١٠) سورة المائدة الآية ٩٢.

محمد ﷺ فاعلموا أنكم تضرون أنفسكم وليس على رسولنا شيء من إعراضكم[2111].

(ومنها) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[2112]. أي إن عليكم طاعة الله وطاعة رسوله - والخطاب لكفار مكة وأمثالهم - فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمّله الله وكلفه به من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم به من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلالة وأحرزتم الهدى. والبلاغ الذي على رسولنا هو التبليغ الواضح لمن أُرْسِلَ إليهم[2113].

١٠٠٨- رابعاً- ليس عليك هداهم:

والرسول ﷺ غير مسؤول عن تحقق الهدى فيمن يدعوهم إليه قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2114]. أي ليس واجباً عليك أن تجعلهم مهديين فعلاً إلى ما أُمِرُوا به وإلى ما تدعوهم إليه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بِخَلْقِ الهداية في قلبه عقيب بيانك لما أُرسِلتَ به لجريان سنته تعالى بخلق الأشياء عقيب أسبابها[2115].

فالهدى الذي ليس على محمد ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء إليه وبيانه للمدعوين فهو عليه ﷺ[2116]، ويدل عليه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2117]. مع قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ

(٢١١١) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٧٦.

(٢١١٢) سورة النور الآية ٥٤.

(٢١١٣) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٥٠.

(٢١١٤) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٢١١٥) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٤٨.

(٢١١٦) تفسير ابن عطية ج٢ ص٤٦٦-٤٦٧.

(٢١١٧) سورة القصص الآية ٥٦.

﴿لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[2118] فالهداية المنفية عن الرسول ﷺ هي الهداية في القلب، أي قبول الهداية والإيمان فهذه لله وحده. والهداية المثبتة للرسول ﷺ والواجبة عليه هي بيان الهدى ودعوة المدعوين إليها.

١٠٠٩- خامساً- لست عليهم بحفيظ:

قال تعالى عن المشركين وإعراضهم عما أنزله الله وعدم مسؤولية الرسول عن إعراضهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾[2119] أي ما أرسلناك يا محمد عليهم حافظاً لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ولا موكلاً بهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا. أي ليس لك إكراههم على الإيمان[2120]. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة الله إليهم، فهذا هو ما كلفناك به[2121].

١٠١٠- سادساً- فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل:

ومن مظاهر موقفه ﷺ من مشركي مكة صبره ﷺ على عنادهم وتكذيبهم له وإصرارهم على شركهم، ودوامه ﷺ على دعوته لهم دون كلل ولا ملل، وصبره أيضاً ﷺ على ما يلقاه منهم من أذى وصدٍّ عن دعوته. وقد كان في صبره عليه الصلاة والسلام مستجيباً لأمر الله بالصبر قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2122] أولوا العزم أي أولوا الجدّ والثبات والصبر. وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي اصبر يا محمد كما صبر أولوا العزم من الرسل على تكذيب أقوامهم لهم. وأولوا العزم، على أشهر الأقوال، نوح وإبراهيم وموسى وخاتم النبيين محمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ للبيان، فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ لكفار قريش بالعذاب، أي لا تدعُ لهم بتعجيله

(٢١١٨) سورة الشورى الآية ٥٢.

(٢١١٩) سورة الشورى الآية ٤٨.

(٢١٢٠) تفسير القرطبي ج١٦ ص٤٧.

(٢١٢١) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٢١.

(٢١٢٢) سورة الأحقاف الآية ٣٧.

فإنهُ نازل بهم لا محالة وإن تأخر، وإنهم مستقصرون حينئذ؛ أي حين ينزل بهم العذاب مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظت به كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول[٢١٢٣].

١٠١١- سابعاً- التمسك بما أنزل الله والصبر على المخالف:

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[٢١٢٤]. أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ أي يفتح بينك وبينهم بالنصر والغلبة عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمه[٢١٢٥].

١٠١٢- ثامناً- لزوم الصبر حتى يأتي النصر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢١٢٦]. هذه تسلية للنبي محمد ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمرٌ من الله تعالى له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ووعدٌ له بالنصر كما نُصِروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم مع الأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لرسله ولعباده المؤمنين كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وقوله تعالى في الآية التي نحنُ بصدد تفسيرها: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي من خبرهم كيف نُصِروا وأُيدوا على مِن كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة وبهم قدوة[٢١٢٧].

(٢١٢٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٧٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣١٥-٣١٦.

(٢١٢٤) سورة يونس الآية ١٠٩.

(٢١٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٣٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٥.

(٢١٢٦) سورة الأنعام الآية ٣٤.

(٢١٢٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠.

١٠١٣- تاسعاً- حرصه ﷺ على إيمان قومه:

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٢١٢٨]. كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فقال تعالى له: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ فافعل. يعني أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه ﷺ على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم[٢١٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة[٢١٣٠]. ثم قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٢١٣١].

١٠١٤ -عاشراً- ما عندي ما تستعجلون به:

كان كفار مكة يستعجلون نزول العذاب بهم استهزاءً وسخريةً لعدم إيمانهم بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ ولعدم إيمانهم بإنذاره لهم، فكان ردّه ﷺ على هذا الاستعجال ما أخبرنا الله به في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

(٢١٢٨) سورة الأنعام الآية ٣٥.

(٢١٢٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٩.

(٢١٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠.

(٢١٣١) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٠، وآية ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ... ﴾ الخ في سورة الأنعام ورقمها ٣٦.

بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢١٣٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي إني من معرفة ربي وأنه لا معبود بحق سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي وأنتم كذبتم به حيث أشركتم به غيره. يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذ كان ثابتاً عندك بدليل. وقوله تعالى حكاية عما قاله لهم رسول الله ﷺ رداً على هذا الاستعجال منهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢١٣٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ﴾ أي يتبع الحقَّ والحكمةَ فيما يحكم به ويقدره من تأخير عذابكم وتعجيله وهو خير الفاصلين أي القاضين. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لو أن في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بيني وبينكم أي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وامتعاضاً من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعاً والله أعلم بالظالمين وبما يجب في حكمته من كنه عقابهم ونوعه ووقته[٢١٣٤].

١٠١٥- أحد عشر- ماذا يستعجل منه المجرمون:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ

(٢١٣٢) سورة الأنعام الآيتان ٥٧، ٥٨.

(٢١٣٣) سورة الأنفال الآية ٣٢ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي قال كفار مكة: ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بحجارة من السماء - السجيل - كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، ومرادهم نفي كون القرآن حقاً، وإذا انتفىٰ كونه حقاً لم يستوجب منكره عذاباً في زعمهم وقولهم: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ تهكم وسخرية بمن يقول إنه هو الحق. تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٦-٢١٧.

(٢١٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠.

﴿إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٢١٣٥). والمعنى قل لهم يا محمد، أي قل للمشركين الذين يستعجلون نزول العذاب به: أرأيتم لو أتاكم عذاب الله وقت بياتٍ فبيَّتكم وأنتم نائمون كما يبيت العدو عدوه. والبيات بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. أو أتاكم عذاب الله نهاراً أي في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي إن العذاب كله مكروه مرُّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال. وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون أي وقد كنتم به تكذبون؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار(٢١٣٦).

١٠١٦- اثنا عشر- البراءة من الشرك والمشركين:

(أ) قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٢١٣٧). قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة. ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي. ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه هذا القرآن. أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الناس كافة فهو نذير لكل من بلغه. وعن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ؛ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي لا أشهد بما تشهدون به من الشرك. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: بل أشهد أن لا إله إلا هو لا يشاركه أحد في ألوهيته ولا في صفات كماله(٢١٣٨). ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يعلن براءته من

(٢١٣٥) سورة يونس ٥٠، ٥١.

(٢١٣٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٥٠-٣٥١.

(٢١٣٧) سورة الأنعام الآية ١٩.

(٢١٣٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٢٦، تفسير القاسمي ج٦ ص٤٨٠-٤٨١.

إشراكهم وشهادتهم وأن يعلن توحيد الله[٢١٣٩].

(ب) وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢١٤٠] يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن كذّبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم[٢١٤١].

(جـ) وقال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم: من الشرك بالله وغيره[٢١٤٢].

(د) وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون وآمرة بإخلاص العبادة لله وحده، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكنِ المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني من الأصنام والأوثان. ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له. فـ«ما» هنا بمعنى (من) ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها؛ وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت كلمة

(١٢٣٩) تفسير ابن عطية ج٥ ص١٥٣.

(٢١٤٠) سورة يونس الآية ٤١.

(٢١٤١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١٨.

(٢١٤٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٤١ والآية في سورة الشعراء ورقمها: ٢١٦.

الإسلام: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، أي لا معبود بحق إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله، ولهذا قال لهم رسول الله ﷺ كما أمره الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام[٢١٤٣].

١٠١٧- ثلاثةَ عشر- الرد على ما اقترحوه في الرسول:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢١٤٤] أي لو أنزلنا ملكاً على رسولنا محمد ﷺ ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لقضي الأمر بإهلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون فلا يكون بدّ من إهلاكهم، وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته تزهق أرواحهم من هول ما يشاهدون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا، لأنهم كانوا يقولون: لولا أُنزل على محمد ملك وتارة يقولون: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فلو جعل الله الرسول ملكاً ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لأرسلناه في صورة رجل؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك[٢١٤٥].

١٠١٨- أربعة عشر- الرد على جملة اقتراحات المشركين:

طلب المشركون من رسول الله محمد ﷺ جملة مطالب، واقترحوا جملة اقتراحات، حتى يؤمنوا به إن نفذها لهم؛ منها: تفجير الأنهار في أرض مكة، أو إسقاط السماء عليهم كسفاً، أو يأتيَ بالله والملائكة قبيلاً، أو يكونَ له بيت من زخرف، أو يصعدَ في السماء وينزلَ عليهم كتاباً يقرؤونه، فردّ عليهم ﷺ بأنه بشر

(٢١٤٣) ابن كثير ج٤ ص٥٦٠.

(٢١٤٤) سورة الأنعام ٨،٩.

(٢١٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٧-٨.

رسول لا يأتيهم إلا بما يظهره الله عليه، كما ذكرنا من قبل[٢١٤٦].

وكذلك اقترحوا على رسول الله إنزال الآيات الخارقة فردّ عليهم بأن الأمر بيد الله وما تقتضيه حكمته[٢١٤٧].

١٠١٩- خمسة عشر- الرسول يتبع ما يوحى إليه ولا يدعي ما ليس له أو ما ليس عنده:

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[٢١٤٨]. أي قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات، وأخرى غير ذلك: لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إليَّ فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً وغير ذلك. ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت قيام الساعة أي يوم القيامة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما من المغيبات. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر من الرقي في السماء ونحوه. والمعنى: إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة، حتى تقترحوا عليَّ ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالةِ التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً. ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ أي: ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يُوحَىٰ إليَّ من جهته سبحانه وتعالى، شرفني بذلك وأنعم به عليَّ. ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ مثل للضال والمهتدي على الاطلاق، والاستفهام إنكاري والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون فتهتدوا ولا تكونوا ضالين أشباه العميان[٢١٤٩].

(٢١٤٦) انظر الفقرة ٩٩٤.

(٢١٤٧) انظر الفقرة ٩٩٥.

(٢١٤٨) سورة الأنعام، الآية ٥٠.

(٢١٤٩) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٣٤-٥٣٥.

١٠٢٠- ستة عشر- الإعراض عن الخائضين في آيات الله:

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢١٥٠]. أي إذا رأيت الذين يخوضون في آيات الله في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي عن مجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن ينسكَ الشيطان فتجلسُ معهم فلا تُؤاخذُ به، لكن إذا ذكرت النهي فلا تقعد معهم؛ لأنهم ظالمون بالطعن في آيات الله. وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ لأن في حضور المنكر مع إمكان التباعد عنه مشاركةً لصاحبه[٢١٥١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢١٥٢]. أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برؤوا من إثمهم[٢١٥٣].

١٠٢١- سبعة عشر- مجالسة المؤمنين للضعفاء:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢١٥٤] أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال مجاهد: المراد به الصلاة المكتوبة. وقال البعض: المراد بذكر الغداة والعشي: الدوام، وقيل معناه يصلون صلاة الصبح والعصر. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله

(٢١٥٠) سورة الأنعام الآية ٦٨.

(٢١٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٤-٣٥، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٧٥-٥٧٦.

(٢١٥٢) سورة الأنعام، الآية ٦٩.

(٢١٥٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٤٤.

(٢١٥٤) سورة الأنعام الآية: ٥٢.

الكريم وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، أي فلا تهمّ بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه[٢١٥٥].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية[٢١٥٦] ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال له المشركون: اطرد هؤلاء يجترؤون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ . . ﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل عليه القرآن ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ورواه ابن جرير عن ابن مسعود أيضاً، قال: مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ، وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضُعَفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا، ونحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم؛ فلعلك إن طردتهم نتبعك؛ فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . ﴾ الآية.

١٠٢٢- آية أخرى بنفس المعنى:

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[٢١٥٧]. أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه

(٢١٥٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٤٠-٥٤١، الزمخشري ج٢ ص٢٧.

(٢١٥٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤-١٣٥، تفسير القاسمي ج٦ ص٥٤٠-٥٤١.

(٢١٥٧) سورة الكهف الآية ٢٨.

ويكبرونه ويسألونه بُكْرةً وعشياً من عباد الله؛ سواء أكانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. ويقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود؛ وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . .﴾ الآية. وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية[٢١٥٨].

١٠٢٣- ثمانية عشر- الجدال مع كفار مكة:

ذكر القرآن الكريم أنواعاً من جدال رسول الله ﷺ مع كفار قريش، ولكن مع وضوح الحق في هذا الجدال فقد أصرّ كفار مكة على كفرهم وراحوا يرمون رسول الله ﷺ بالنعوت الباطلة إيغالاً منهم في الكفر وإصرارهم عليه. ونذكر فيما يلي بعض أنواع جدال رسول الله ﷺ معهم.

١٠٢٤- تسعة عشر- (أ) قل هاتوا برهانكم:

قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٢١٥٩] يقول: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ أي القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه، فكل كتاب أُنْزِل على كل من أُرْسِل ناطقٌ بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، فهاتوا برهانكم: إما من جهة العقل وإمّا من جهة الوحي إن كنتم صادقين، ولكنكم أيها المشركون لا برهان لكم ولا حجة إلا العناد والإصرار على كفركم[٢١٦٠].

١٠٢٥ -عشرون-(ب)عليَّ اتباع الوحي وإن لم أعلم العواقب في الدنيا:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ

(٢١٥٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٠.

(٢١٥٩) سورة الأنبياء الآية ٢٤.

(٢١٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص١١١.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[٢١٦١]. قوله: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما أنا بأول رسول. ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا أأُخْرَجُ كما أُخْرِجت الأنبياء من قبلي؟ أم أُقتَل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيُخسف بكم وترمون بالحجارة؟ ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ لم يدر ما يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش في الدنيا، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون. ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ومنه أن أنذركم وأحذركم من عذاب الله إن لم تؤمنوا بي[٢١٦٢].

١٠٢٦- واحد وعشرون- الثبات على الدعوة ومن المحال الرجوع عنها:

قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢١٦٣] أي قل يا محمد للناس - أهل مكة -: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم الحق وخالقكم وهو الله جلّ جلاله ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ أي يميتكم ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني أنَ الله أمرني بذلك. وقيل معنى الآية: إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه - أأثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فهذا محال فلا تحدثوا أنفسكم به، ولا تشكوا في أمري، واقطعوا عني أطماعكم، واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى[٢١٦٤].

١٠٢٧-اثنان وعشرون-(جـ)قيام الحجة على الخصم مع إنصافه بالجدال:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي

(٢١٦١) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٢١٦٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٥٤-١٥٥، تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٩٨.

(٢١٦٣) سورة يونس الآية ١٠٤.

(٢١٦٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٧٣-٣٧٤.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[2165]. أي قل يا محمد لمشركي قومك ادعو الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة فإنهم لا يملكون مثقال ذرة من خير أو شر أو نفع أو ضر في السموات ولا في الأرض، وماله تعالى فيهم من ظهير، أي وماله منهم من معين يعينه على تدبير خلقه، يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أَحوالِ وصفات الربوبية. فكيف يصح أن يُعْبَدوا ويُدْعَوا كما يُعبَد الله ويُدعَى؟[2166].

١٠٢٨- ثلاثةٌ وعشرون- (د)- أسلوب في الجدال المنصف:

قال تعالى آمراً نبيه ﷺ بأن يقول لهم: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2167]. أمره أَن يقررهم بقوله ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، أي الله هو الذي يرزقكم، وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لئلا تقوم عليهم الحجة، بأن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟. ثم أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإن أَحد الفريقين من الذين يعبدون الله الرازق من السموات والأرض؛ ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. فهذا الكلام في الجدال في غاية الإنصاف مع ما فيه من دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين[2168].

١٠٢٩- أربعةٌ وعشرون- هـ- الاحتجاج على المشركين بمعجزة القرآن الكريم:

وكان من جداله ﷺ مع مشركي مكة أن احتج عليهم بمعجزة القرآن، وتحداهم به

(٢١٦٥) سورة سبأ، الآية ٢٢.

(٢١٦٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٥٢٩.

(٢١٦٧) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٢١٦٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٨١.

بما أخبره الله عنه، بأن الإنس والجن لو أرادوا الإتيان بمثل هذا القرآن لعجزوا عن ذلك، وفي هذا أكبر دليل على أنه من عند الله، ولا تنفعهم المكابرة والتكذيب، فهذا القرآن يسمعونه، فإن كانوا صادقين في قولهم الباطل بأنه ليس من عند الله وأنَّ محمداً ليس رسول الله، فليأتوا بمثله، قال تعالى مخاطباً وآمراً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2169]. فسكت المشركون سكوت عجز. ثم أمر الله تعالى رسوله بأن يقول لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2170]. فلما عجز المشركون عن الإتيان بمثل القرآن الذي ادعوا أنه ليس من عند الله، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا صادقين في ادعائهم أن هذا القرآن ليس من عند الله، ومعنى الآية: إن المشركين لما زعموا بأن القرآن افتراه الرسول ﷺ واختلقه، فكأنه قال لهم: افرضوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إليَّ وأنَّ الأمر كما زعمتم، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، ولو بمقدار عشر سور مثله، فأنتم عرب فصُحاءُ مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام[2171]. وبالرغم من هذا الاحتجاج المنصف، فإنهم سكتوا سكوت الجدار، ولم يستطيعوا كسّر هذا التحدي الجديد بالإتيان بعشر سور مثله.

ثم تحداهم القرآن الكريم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل سوره، إن كانوا صادقين فيما يقولون ويفترون، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[2172].

(٢١٦٩) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢١٧٠) سورة هود الآية ١٣.

(٢١٧١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٨٣.

(٢١٧٢) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤.

المطلب الثاني
المستفاد من موقف الرسول من المشركين
للدعوة والدعاة

١٠٣٠- أولاً- تحديد وظيفة الدعاة:

إن وظيفة الدعاة إلى الله هي وظيفة رسل الله: تبليغ الدعوة التي أرسلهم الله بها إلى الناس وليس إجبارهم عليها، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤ والعنكبوت: ١٨] وقال تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢١٧٣). فمن يقبل الدعوة إلى الله فقد اهتدى، وكان نفع قبوله إلى نفسه. ومن رفضها كان ضرر ذلك على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] أي ما أنا عليكم بحفيظ موكول إليَّ أمركم وحملكم على ما أريد، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨] أي ليس لك إكراههم على الإيمان(٢١٧٤). وعلى هذا فإن المطلوب من الدعاة القيام بواجب تبليغ دعوتهم إلى الناس على أحسن ما يكون التبليغ، وليس عليهم مسؤولية رفض الناس دعوتهم كما ليس عليهم إجبارهم على قبولها.

١٠٣١- ثانياً- الوضوح في تبليغ الدعوة:

وعلى الدعاة الوضوح والصراحة في تبليغ دعوتهم إلى الناس، وابتعادهم عن الغموض والإبهام. ومن مظاهر الوضوح في التبليغ إعلام المخالفين والناس أجمعين إصرارهم على معاني الدعوة، واستحالة انحرافهم عنها، متذكرين قول الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢١٧٥). ومن مظاهر

(٢١٧٣) سورة النحل، الآية ٨٢.

(٢١٧٤) تفسير القرطبي ج١٦ ص٤٧.

(٢١٧٥) انظر الفقرة ١٠٢٦، والآية في سورة يونس ورقمها ١٠٤.

الوضوح في التبليغ، تبليغهم معاني الإسلام - وهو موضوع الدعوة - وأنه بهذه المعاني يختلف مع سائر الأنظمة والأفكار التي يحملها الآخرون، ويتميز عنها ولا يمكن الذوبان فيها أو التبعية لها.

١٠٣٢- ثالثاً- ضرورة الصبر للدعاة:

الصبر ضروري لكل إنسان يريد أن يبلغ مقصوده ومبتغاه، وإذا كان الصبر ضرورياً لكل إنسان، فهو أشد ضرورة للمسلم حتى يحمل نفسه ويحبسها على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله. والدعاة أكثر من غيرهم من عامة المسلمين حاجة إلى الصبر، فهو لهم أشد ضرورة من غيرهم لأنهم يواجهون الناس بدعوتهم التي تخالف أهواءهم وانحرافاتهم، وغالباً ما يقابلونها بالرفض والإنكار وإيذاء الدعاة، فإن لم يتخلقِ الدعاة بخلق الصبر الجميل أصابهم الجزع والهلعُ، والقعود عن الدعوة، ولهذا أمر الله رسوله الكريم بالصبر على أذى المشركين وهو يدعوهم إلى الله، وفي هذا الأمر بالصبر أمر للدعاة المسلمين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ... ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] وصبر الدعاة يجب أن يستمر ويشتد حتى يأتي نصر الله؛ لأنه بدوام صبرهم على تبليغ الدعوة وتحملهم الأذى في سبيلها، يقرب موعود الله بنصرهم، وهذه هي سنة الله في الدعوة والدعاة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[٢١٧٦].

١٠٣٣- رابعاً- على الدعاة أن لا يدّعوا ما ليس فيهم ولا عندهم:

وعلى الدعاة أن لا يدّعوا لأنفسهم ما ليس عندهم مما يقترحه عليهم الناس أو يعتبرونه شرطاً لقبول الدعوة. وعلى هذا لا يدعي الدعاة لأنفسهم القدرة على إنزال العذاب بالمخالفين ولا تنزل النصر على الأعداء، ولا الإتيان بخوارق الأشياء، إنهم ببساطة دعاةٌ يذكّرون الناس بما جاءهم من الهدى من ربهم، فإن استجابوا وقبلوا الدعوة، رجونا لهم أن ينالهم ما وعد الله به عباده المستجيبين لدعوته من النصر على

(٢١٧٦) سورة الأنعام الآية ٣٤.

الأعداء والتمكين في الأرض، دون تحديد وقت معين بتنزيل هذا النصر. وقد دلّ على ما قلناه آيات القرآن العزيز وما فيها من خطابات للرسول ﷺ ليقولها للمشركين، من ذلك قوله تعالى للرد على المشركين في استعجالهم نزول العذاب بهم لعدم إيمانهم، وعدم إيمانهم بنزول العذاب بهم لشركهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ. قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧-٥٨] وقال تعالى آمراً نبيه ﷺ للردّ على ما اقترحوه: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

١٠٣٤- خامساً- الابتعاد عن مجالس السوء عند العجز عن الإنكار:

لا يجوز للداعي أن يجلس في مجلس يُستهزءُ فيه بآيات الله ولا يقدر على إنكار منكرهم، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فعلى الدعاة أن لا يحضروا مجلساً يستهزء فيه بالإسلام وآياته وقيمه، وهذا الإعراض عن هذه المجالس على وجه الوجوب لأن في القعود فيها إظهار عدم الكراهة، وإنما يجب الإعراض وترك الجلوس معهم إذا لم يستطع الإنكار عليهم ولم يطمع في تحويلهم عن منكرهم. كما يجب قيامه عن هذه المجالس إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض في آيات الله؛ لأنهم يفعلون ذلك مغايظة له. ويستفاد من الآية جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض لأنا أُمرنا بالإعراض مع الخوض ولقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. وقال بعض أهل العلم: والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة إذا أظهروا المنكرات[٢١٧٧] فعلى الدعاة ملاحظة ما ذكرناه والتقيد به.

١٠٣٥- سادساً- مجالسة الفقراء:

وعلى الدعاة أن لا يستنكفوا عن مجالسة الفقراء المؤمنين فإنهم مؤمنون،

(٢١٧٧) تفسير القاسمي ج٦ ص٥٧٧.

والمؤمنون إخوة ولا يجوز أن يتعالى الأخ على أخيه، ولأن من صفات أحباب الله أنهم أذلة على المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] فما بين المؤمنين أُخوَّةُ الإيمان، وهذه الأخوة تقوم على الإيمان لا على معنى آخر من الغنى والجاه ونحو ذلك. فالمؤمن أخوك وإن كان فقيراً، فلا يجوز أن تتكبر عليه فلا تجالسه. وقد أراد المشركون من رسول الله ﷺ أن يطرد المؤمنين الفقراء الضعفاء من مجلسه ليجالسوه وحدهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] إن ميزان التفاضل في الإسلام يقوم على أساس الإيمان والتقوى لا على أساس الغنى والمنزلة الاجتماعية، فعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك ليصححوا مفاهيمهم وليقوموا موازينهم، ومن مظاهر تصحيح المفاهيم عدم الاستنكاف من مجالسة الضعفاء والفقراء من المسلمين، وعلى الدعاة تطبيق ذلك بأنفسهم.

١٠٣٦- سابعاً- الولاء والبراء عند الدعاة:

الولاء في الإسلام للإسلام وأهله، والبراء من الشرك وأهله، وهكذا يكون الولاء والبراء عند الدعاة إلى الله، فولاؤهم للإسلام ومعانيه ولمن يؤمن به ويدعو إليه، والبراء من كل شيء يخالف الإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً وأشخاصاً يحملون هذه المخالفات، ومن آيات البراءة قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ ... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الأنعام: ١٩] و من آيات الولاء ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [التوبة: ٧١] فعلى الدعاة أن يلتزموا بمعاني الولاء والبراء، ويعلموها للناس، ويطبقوها على أنفسهم وفي علاقاتهم مع الآخرين بوضوح، وبدون لبس أو إبهام أو مداهنة.

١٠٣٧- ثامناً- الجدال مع المخالفين:

على الدعاة أن يسلكوا في جدالهم مع المخالفين والمعرضين عن الدعوة والصادين عنها المسلك الذي سلكه رسول الله ﷺ في جداله مع المشركين، وقد ذكرنا ذلك المسلك الحميد. ومنه مطالبة المخالف بالبرهان والدليل على ما يدعيه

وما يقوم به ضد الدعوة الإسلامية، وليكن شعار الدعاة ما قاله الله لرسوله ﷺ ليقوله للمشركين: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١ والنمل: ٦٤] ومن المسلك السديد في الجدال تقرير المقدمات التي يسلم بها المخالف وتقديمها في الجدال حتى تظهر النتيجة الصحيحة وهي ضرورة اتباع الإسلام ونبذ ما يخالفه. فمن هذه التقريرات والمقدمات في الجدال ما ذكرناه بصدد قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[٢١٧٨] [سبأ: ٢٢] وما ذكرناه بصدد قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[٢١٧٩]. [سبأ: ٢٤].

١٠٣٨- تاسعاً- توضيح معجزة القرآن وبيان دلالتها:

إن معجزة القرآن أكبر المعجزات الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ وعموم رسالته من ربه إلى الناس أجمعين، وعلى أن هذا القرآن من عند الله وليس من كلام البشر. ولا تزال هذه المعجزة قائمة حتى الآن تتحدى كل من يكذب أو يشك بنبوة محمد ﷺ وعموم رسالته. إن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء حياتهم ولم يبق منها إلا أخبارها، أما معجزة نبينا محمد ﷺ وهي معجزة القرآن الكريم فإنها باقية تتحدى كل مكذب أو معاند للإسلام. فعلى الدعاة توضيح معجزة القرآن وبيان دلالتها للناس لا سيما للمكذبين لدعوة الإسلام. وخلاصة هذه المعجزة أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يتحدى مشركي مكة بالقرآن بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في ادعائهم بأن القرآن ليس من عند الله، وأن محمداً ليس رسول الله فعجزوا وسكتوا، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزا وسكتوا. ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأعلن عجزهم عن ذلك مسبقاً فعجزوا وسكتوا. وقد ذكرنا الآيات التي ورد فيها التحدي بالقرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فلا نعيدها هنا. فعلى ماذا يدل هذا التحدي وما نتيجته؟ والجواب: إن التحدي إذا نجح بأَنْ عجز المُتحدَّوْنَ من كسر هذا التحدي، فإن ذلك يدل على صدق ما ادعاه المتحدي

(٢١٧٨) انظر الفقرة ١٠٢٧.

(٢١٧٩) انظر الفقرة ١٠٢٨.

لنفسه، وكذب وبطلان معارضة المُتحدَّين لدعوى المتحدي. ولكن هذه النتيجة إنما تثبت إذا توافرت شروط صحة التحدي، فما هي هذه الشروط؟.

١٠٣٩- شروط التحدي:

إن شروط التحدي هي: (أولاً) أن يدعي المتحدي لنفسه أمراً ينكره عليه الآخرون، (ثانياً) أن يكون موضوع التحدي داخلاً في اختصاص المتحدّيْنَ وما هم مختصون ومبرزون فيه، و(ثالثاً) أن يكون المُتحدَّوْنَ راغبين كل الرغبة في كسر تحدي المتحدي لإبطال دعوته وما ينسبه إلى نفسه، و(رابعاً) أن لا يوجد مانع من الخوف أو غيره يمنع المُتحدَّيْنَ من إجابة المتحدي وكسر تحدّيه.

١٠٤٠- تحقق شروط التحدي:

إن شروط التحدي التي ذكرناها متحققة في تحدي القرآن للمشركين، ونوضح ذلك بإيجاز على النحو التالي.

١٠٤١- أولاً- بالنسبة للشرط الأول:

الشرط الأول: هو أن يدعي المتحدي أمراً ينكره عليه الآخرون، فهذا الشرط ثابت يقيناً، فقد أعلن رسول الله ﷺ ما أمره به ربه بأن يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].

١٠٤٢- ثانياً - بالنسبة للشرط الثاني:

والشرط الثاني، كما قلنا، هو أن يكون موضوع التحدي داخلاً في اختصاص المُتحدَّيْنَ وماهم مبرزون فيه. وهذا الشرط متحقق في المشركين، مشركي قريش في مكة وفي غيرهم من سائر العرب، فمن المعروف أن قريشاً وسائر العرب اشتُهِروا بالبلاغة والفصاحة وحسن البيان في الشعر والنثرِ في اللغة العربية، وبرزوا في ذلك كله خطابة وشعراً ونثراً وذوقاً، حتى إنهم كانوا يعقدون المواسم الأدبية لاختيار أحسن ما يقال من الشعر وتعليقه على أستار الكعبة. ومن المعلوم أن القرآن الكريم أنزله الله بلسان العرب ولغتهم، فإذا تحداهم به وقال لهم: إن كنتم في شك من أن هذا القرآن هو من عند الله وكلامه المُنزَّل على رسوله محمد ﷺ فأتوا بمثله، أو بعشر

سور من مثله، أو بسورة من مثله، فإنما يتحداهم بشيء داخل في اختصاصهم وداخل فيما هم مبرزون فيه وبارعون، فيكون هذا الشرط متحققاً في تحدي القرآن للمخالفين من مشركي مكة وغيرهم من العرب، فإذا عجزوا عن كسر هذا التحدي فغيرهم من غير العرب أعجز.

١٠٤٣- ثالثاً- فيما يخص الشرط الثالث:

وهذا الشرط، كما قلنا، يعني وجود الرغبة الكاملة عند المخالفين المُوَّجه إليهم التحدي في كسر التحدي لإبطال ما يدعيه المتحدي لنفسه، وهذا الشرط متحقق أيضاً في تحدي القرآن لمشركي مكة، فمن المعلوم ومما يعرفه صغار المتعلمين المطلعين على التاريخ الإسلامي أن قريشاً وسائر مشركي مكة وغيرهم قابلوا دعوة النبي ﷺ بالرفض والإنكار، واتهامه بالسحر والجنون، وغير ذلك من النعوت الباطلة لصرف الناس عن دعوته، وسلكوا معه سبيل الترغيب والترهيب والإيذاء والمقاطعة الاقتصادية له ولمن اتبعه، وقد بلغ الأذى به وبالمسلمين أن عذبت قريش بعض المسلمين تعذيباً بدنياً مات بعضهم فيه، وهذا كله يدل دلالة قاطعة على رغبتهم الكاملة وحرصهم الأكيد على إبطال الدعوة الإسلامية، وبالتالي تحقق رغبتهم الكاملة في إبطال تحديه لإبطال دعوته.

١٠٤٤- رابعاً- بالنسبة للشرط الرابع:

وهذا الشرط، كما قلنا، يعني عدم وجود مانع من الإجابة وكسر التحدي، وهذا الشرط متحقق فيمن وُجِّهَ إليهم التحدي، فمن المعلوم عند صغار المتعلمين والمطلعين على أخبار التاريخ الإسلامي أن السلطان والقوة والنفوذ كل ذلك بيد المشركين في مكة، أما رسول الله ﷺ والمسلمون معه فما كان لهم من ذلك شيء، فقد كانوا ضعفاء لا حول لهم ولا سلطان، حتى إن بعضهم هاجرَ إلى الحبشة فراراً بدينهم، وحتى إن المسلمين هاجروا إلى المدينة في آخر الأمر كما هاجر رسول الله ﷺ. وكل ذلك يدل على أنه لم يكن هناك مانع يمنع قريشاً من الإجابة على التحدي وكسره لإثبات ما يزعمونه من أن القرآن ليس كلام الله وأن محمداً ليس رسول الله.

١٠٤٥- نتيجة التحدي ودلالته:

وكانت نتيجة التحدي - تحدي القرآن للمشركين - عجزهم وسكوتهم. وإذا ثبت عجزهم بعد أن توافرت شروط التحدي، ثبت أَنَّ القرآن من عند الله وأن محمداً ﷺ هو رسول الله، وإذا ثبت ذلك وجب على الخلق الإيمان به نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً، ولزمهم الانقياد إلى الشرع الذي جاء به من ربه والإيمان بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهذا هو المطلوب.

١٠٤٦- استمرار التحدي ودلالته وما على الدعاة فعله:

وتحدي القرآن للمخالفين ظل قائماً ومُوَجهاً إلى كل مرتاب في نبوة محمد ﷺ أو مرتاب في أن القرآن كلام الله المُنزَّلُ على رسوله. ولا يزال هذا التحدي قائماً حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودلالة ذلك واضحة وهي ثبوت نبوة محمد ﷺ بالدليل القاطع والبرهان الساطع والحجة القاطعة التي لا يستطيع أي مكابر أن ينكرها أو يغالط فيها، وإذا عرفنا أن هذا الدليل - دليل التحدي - ظلَّ قائماً منذ عهد النبي ﷺ وحتى الآن، وأن الإسلام واجه الخصوم والمعاندين والكفار، وأنهم بذلوا كل جهد مستطاع للطعن في الإسلام والتشكيك فيه والدسّ عليه وتلويث أفكاره وعقائده، ومع هذا لم يجرؤوا على إجابة تحديه وكسره. فإذا عرفنا ذلك عرفنا قوة هذا الدليل - دليل إعجاز القرآن - على إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته. فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك في خطبهم ومناقشاتهم مع المخالفين.

١٠٤٧- إنكار نبوة محمد تنقيص بعقل الإنسان:

ومع وجود دليل إعجاز القرآن وتحديه فإننا نعتبرُ إنكار نبوة محمد ﷺ تنقيصاً بعقل الإنسان وبخساً له. كما أن من ينكر نبوة محمد ﷺ لا سبيل له للإيمان بأي نبي من الأنبياء، لأن من ينكر الشمس وهي ساطعة وهو يراها كيف يمكن له أن يؤمن بوجود نجم لا يراه، وإذا آمن بهذا النجم مع إنكاره الشمس كان ذلك منه تناقضاً يأباه العقل السليم، فعلى الدعاة التأكيد على هذا المعنى في جدالهم مع المخالفين.

١٠٤٨- الاستفادة ممن لم يستجب للدعوة:

كان أبو طالب يدفع الأذى عن ابن عمه سيدنا محمد ﷺ جهد ما يستطيع، مستغلاً

مكانته في قريش واحترامهم له، وهذا بالرغم من أنه لم يسلم ولم يؤمن، فكان يدافع عن محمد ﷺ لمحبته له على أساس من القرابةِ والرحم. وقد كان هذا الموقف من أبي طالب مفيداً للدعوة، ومقللاً من أذى قريش لرسول الله ﷺ؛ لمكانة أبي طالب في قريش، لا سيما وأنه بقي على دينهم ولم يعتنق الإسلام. بل إن أبا طالب قام في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ماهو عليه من الدفاع عن رسول الله ﷺ والقيام دونه. ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى قال ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[٢١٨٠]. وسمى رسول الله ﷺ العام الذي ماتت فيه خديجة رضي الله عنها وأبو طالب عام الحزن[٢١٨١] وقياساً على ما تقدم فقد يكون للداعية قريب له وجاهته ومركزه الاجتماعي والوظيفي؛ وهو وإن لم يستجِبْ للدعوة إلا أنه لا يقف ضد الدعوة، ويحب الداعي لقرابته منه، وقد يكون للداعي مثل هذا القريب من جهة محبته للداعي لصداقة قديمة بينهما أو لجوار منه، وبناء على هذه العلاقة يدافع صاحب هذا النفوذ والمكانة في المجتمع، يدافع عن الدعوة وعن هذا الداعية، ويكف الأذى عنه وعنها، فعلى الدعاة أن يستفيدوا من ذلك ولا يترددوا في قبول هذا العون والدفاع والحماية من هذا القريب أو الصديق أو المجاور.

١٠٤٩- العقيدة الباطلة قد تعلو على صلة الرحم:

قلنا إن على الداعي أن لا يتردد في قبول حماية أو دفاع القريب أو الصديق أو المجاور عنه وعن الدعوة وإنْ كان لم يستجب لها، ودليلنا فيما قلناه موقف أبي طالب من رسول الله ﷺ ورضاه عليه الصلاة والسلام بهذا الموقف. ولكن على الداعي أن يعلم أن القرابة لا تجعل دائماً من لم يستجب للدعوة مدافعاً عن الداعي والدعوة؛ لأن العقيدة الباطلة، أو الكراهة الشديدة للدعوة قد تكون هي الغالبة لرسوخها في قلب صاحبها فتستولي عليه وتعلو على رابطة القرابة وصلة الرحم، إلى درجة أنها تدفع صاحبها إلى إظهار العداوة للداعي ودعوته، وتحريض الناس ضده وضد دعوته. فأبو لهب وهو عم رسول الله ﷺ كان في موقفه من رسول الله ﷺ

(٢١٨٠) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٢٦.

(٢١٨١) إمتاع الأسماع للمقريزي ص٢٧.

على الضد من موقف أبي طالب، فهو - أبو لهب - لم يكتف بعدم استجابته لدعوة الإسلام، وإنما اندفع بحماس في عداوته لرسول الله ﷺ، ولم تمنعه من ذلك العصبيَّةُ القبلية التي كانت تغشىٰ نفوس الناس. بل إنه راح يدعو الناس ويحرضهم ضد دعوة الإسلام، ويتهم رسول الله ﷺ بالكذب، وهو يعلم أن ابن أخيه لم يكذب قط لا في جاهلية ولا في إسلام. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك. فإذا رأوا من قريب لهم عداوة للدعوة وصدّاً للناس عنها فلا يستغربوا من ذلك ولا يتوقعوا أن يكون قريبهم هذا مدافعاً عنهم، وعليهم أن يحذروه. كما أن على الدعاة أن يعلموا أن العقيدة وإن كانت باطلة فهي إذا تغلغلت في النفوس فإنها تحمل صاحبها على تجاوز كثير من الروابط والاعتبارات، وقد تحمله على أن يقاتل الدعاة ويعرض نفسه للموت كما حصل لكفار قريش في محاربتهم لرسول الله ﷺ بعد هجرته إلى مكة، كما سنذكُرُه فيما بعد إن شاء الله.

المبحث الرابع
قصة الرسول ﷺ مع الأعمى
وما يستفاد منها للدعوة والدعاة
المطلب الأول
خلاصة القصة وتفسير آياتها

١٠٥٠- خلاصة هذه القصة:

لا خلاف بين أهل التفسير بأن الأعمى الذي حصلت قصته مع رسول الله ﷺ، ونزلت الآيات بشأنها هو عبد الله بن أم مكتوم[٢١٨٢]. وخلاصة هذه القصة أن رجلاً من عظماء المشركين كان عند رسول الله ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام يكلمه طمعاً بإسلامه، فأقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويقول له - كما جاء في بعض الروايات - يا رسول الله علمني مما علمك الله، وفي رواية أخرى: جعل ابن أم مكتوم يستقرأ النبي ﷺ آية من القرآن، أي يريد تعليمه آية من القرآن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه، وأقبل على المشرك يكلمه، ويتمم كلامه معه طمعاً في إسلامه، فأنزل الله تعالى آيات عبس وتولى[٢١٨٣]...

١٠٥١- ما نزل من القرآن بشأن هذه القصة:

وقد نزل بشأن هذه القصة قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ، وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ

(٢١٨٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠، تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١.

(٢١٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١، تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٢.

يزَّكَّىٰ ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ، أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ، فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ، وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ، وَهُوَ يَخْشَىٰ ، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ، كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ، فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ، بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ، كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾[2184].

١٠٥٢- تفسير هذه الآيات[2185]:

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ المراد بالأعمى ابن أم مكتوم كما قلنا، وكان قد حضر عند رسول الله ﷺ أحد كبراء قريش، وأخذ رسول الله ﷺ يحدثُهُ ويدعوه إلى الإسلام، وكان حريصاً على إسلامه لما كان يُرْجَىٰ من إسلام أتباعه إذا أسلم. وفي هذه الأثناء جاء ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فقال يا رسول الله: علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أن رسول الله ﷺ منشغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه مع ذلك المشرك، فأعرض ﷺ عن ابن أم مكتوم وعبس في وجهه، وأقبل على ذلك المشرك يكلمه ويدعوه إلى الإسلام. وإنما ذكر ابن أم مكتوم بوصفه وهو كونه «أعمى» إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه ﷺ مع ذلك المشرك وانشغاله معه، وإما لزيادة الإنكار، كأنه قيل: تولى عنه لكونه أعمى، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفاً وترفقاً وتقريباً. وفي التعبير عنه ﷺ بضمير الغيبة إجلالٌ له ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟ فلعله يتزكى أي يتطهر بما تُعَلِّمُهُ من أمور الدين وتُقْرِئُهُ من آيات القرآن العزيز.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي أو يتعظ بما تقول فتنفعه العظة.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي استغنى بماله وقوته عن سماع القرآن والهدى والموعظة وهو ذلك المشرك الذي كان يكلمه رسول الله ﷺ ويدعوه إلى الإسلام ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي تتعرض له بالإقبال عليه والكلام معه رجاء أن يهتدي ويسلم.

(٢١٨٤) سورة عبس، الآيات من ١-١٦.

(٢١٨٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٤٧٠-٤٧١، تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢١١-٢١٥، تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٨، تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥، تفسير الألوسي ج٢٩ ص٣٩-٤١ تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٢-٥٦.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك بأس من أن لا يتزكى بالإسلام؛ لأن عليك البلاغ وليس عليك أن يقبل دعوتك المُدعَوْنَ. أو إن المعنى: لا يبلغن بك الحرص على إسلام هذا المشرك وأمثاله لما قد يترتب على إسلامه إسلام أتباعه، لا يبلغنَّ بك هذا الحرص إلى أن تعرض عمن أسلم واتقى، وتنشغل عنه بدعوة ذلك المشرك إلى الإسلام.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ أي يسرع في طلب الخير وسماع ما تُقرِئُهُ من القرآن وتُعَلِّمُهُ من أمور الدين ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي يخاف الله ويتقيه ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تعرض عنه وتتشاغل بغيره.

﴿كَلَّآ﴾: أي ردع من المُعَاتب عليه وعن معاودة مثله. أي لا تفعل مثل ما فعلته: من إقبالك على الغني من أكابر القوم ولو بقصد هدايته، وإعراضك عن المؤمن الفقير الذي جاءك يسألك. ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي إن المعاتبة المذكورة على ما حصل منك هي موعظةٌ يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء حفظ تلك التذكرة واتعظ بها. وإنما ذُكِّرَ الضمير في قوله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ يعني إن هذه التذكرة، وهي الموعظة، مُثَبَّتة في صحفٍ منتسخة من اللوح المحفوظ ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ عند الله، ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ مرفوعة القدر ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي منزهة من أيدي الشياطين، ومنزهة من التغيير والنقص والضلالة.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ أي إنَّ هذه الصحف المطهرة بأيدي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾: أي إن هؤلاء الملائكة كرام عند الله، ﴿بَرَرَةٖ﴾ لم يتدنسوا بمعصية، فأفعالهم وأخلاقهم بارّة طاهرة كاملة.

١٠٥٣- تأويل ما صدر عن النبي ﷺ مع «الأعمى»:

ما صدر عن النبي ﷺ من إعراضٍ عن ابن أم مكتوم وإقبالٍ على الرجل المشرك، تأويله كما قال الإمام ابن حزم: إن رسول الله ﷺ قد جلس إليه مشرك هو من عظماء وكبراء مشركي قريش، وقد أقبل النبي ﷺ على ذلك المشرك يكلمه ويدعوه إلى الإسلام رجاء إسلامه، ولعلمه عليه الصلاة والسلام أن هذا المشرك لو أسلم لأسلم

بإسلامه ناس كثير. أما ابن أم مكتوم الذي جاء يسأل عن أشياء من أمور دينه، فإنه لا يفوتُهُ العلم بها؛ لأنه حاضر معه، أما المشرك فقد تفوته هذه الفرصة، فرصة تحديث النبي ﷺ له ودعوته إلى الإسلام، فاشتغل النبي عليه السلام عن ابن أم مكتوم بما خاف فوته من عظيم الخير بإسلام ذلك المشرك، عما لا يخاف فوته وهو تعليم هذا الأعمى - ابن أم مكتوم - ما جاء يسأل عنه من أمور الدين، وهذا المسلك من رسول الله ﷺ يندرج في معاني النظر للدين والاجتهاد في نصرته، ولكن الله عز وجل عاتبه على ذلك، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل عليه الصلاة والسلام على ذلك الأعمى المؤمن البرّ التقي، ولا ينشغل عنه بغيره، وإن كان الانشغال بهذا الغير بقصد هدايته[٢١٨٦] وقال ابن العربي المالكي في تفسيره[٢١٨٧]: إنما قصد ﷺ بإعراضه عن الأعمى وبإقباله على المشرك تألفه، وثقةً منه ﷺ بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعطي الرجلَ، وغيرُه أحب إليَّ منه مخافَةَ أن يكبّه الله في النار على وجهه».

المطلب الثاني
المستفاد من هذه القصة

١٠٥٤- أولاً- الإقبال على المؤمنين الفقراء:

في هذه الآيات حثٌ على العناية بالمؤمنين، وإن كانوا فقراء ضعفاء، والإقبالِ عليهم وإجابتهم عما يسألون عنه، وعدمِ إيثار الأغنياء وأصحاب المنازل في المجتمع عليهم، وتقديمِهم في المجالس بما يناسب إيمانهم وتقواهم وسابقتهم في الدعوة. فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن ذلك ولو حضر مجلسهم كبراء القوم، حتى يعلم هؤلاء أن ميزان تقويم الأشخاص هو الإيمان والتقوى، وحتى لا تنكسر قلوب المؤمنين الضعفاء الفقراء إذا رأوا الدعاةَ يقدِّمونَ غيرهم عليهم حتى ولو كان ذلك فيما يتصورون أنه في مصلحة الدعوة؛ لأن من أهم مصالح الدعوة تفهيم القوم نوع ميزان التقويم الذي يحملونه وهو ميزان الإيمان والتقوى.

(٢١٨٦) تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٥.

(٢١٨٧) تفسير ابن العربي ج٤ ص١٩٠٥.

١٠٥٥- ثانياً- على الدعاة البلاغ وليس عليهم هداية الناس:

وما يجب أن يفقهه الدعاة جيداً أن الواجب عليهم هو قيامهم بتبليغ الدعوة إلى الله، وتعليم من يريد تعلم معاني هذه الدعوة، وليس عليهم إدخال الهداية إلى قلوب الناس، كما ليس عليهم تأخيرُ من يريد الهداية بالانشغال مع غيره ممن لا يريد الهداية، فإذا جاء إلى الدعاة من يريد الهداية وتعلُّمَ أمورِ الدين فعلى الدعاة الإقبال عليه وتعليمه ولا يؤثَرُ عليه غيره ممن يُحرص على هدايته.

١٠٥٦- ثالثاً- في قصة الأعمى دليل على نبوة محمد ﷺ:

وعلى الدعاة أن يفقهوا ما في قصة رسول الله ﷺ مع الأعمى ابن أم مكتوم رضي الله عنه من الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ ورسالته من ربه، ووجه هذه الدلالة، أن سيدنا محمد ﷺ لو لم يكن رسول الله لكتم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بها لما فيها من عتاب له ﷺ، فكان هذا البيان من أكبر الأدلة على أنه رسول الله وأنه يبلغ ما يُوحَى إليه من الله، وإن كان في هذا الوحي عتاب له. ولذلك قال كثير من العلماء، وابن زيد وعائشة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش[٢١٨٨]. فعلى الدعاة الاستدلال بهذه القصة لما فيها من دلالة علىٰ نبوة محمد ﷺ على النحو الذي ذكرته.

١٠٥٧- رابعاً- على الدعاة تقديم أهل الإيمان والخير:

وعلى الدعاة تقديم أهل الإيمان والخير والعلم على غيرهم ممن لا يملكون هذه الصفات، أو يملكون منها النذر القليل، حتى يكون الدعاة في عملهم هذا وفي مسلكهم قدوة لغيرهم في تنزيل الناس منازلهم على أساس من الإيمان والعلم وفعل الخير، قال الإمام ابن عطية وهو يفسر هذه الآيات من سورة عبس: «فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير بمثل ما خوطب النبي ﷺ في هذه السورة»[٢١٨٩].

(٢١٨٨) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٦، تفسير القاسمي ج١٧ ص٥٤.

(٢١٨٩) تفسير ابن عطية ج١٥ ص٣١٩.

المبحث الخامس
قصة الإسراء والمعراج وما يستفاد منها

١٠٥٨- خلاصة القصة:

وخلاصة هذه القصة: إن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ومن هناك عرج به إلى السماء السابعة وإلى حيث شاء الله تعالى. وقد كان هذا الإسراء والمعراج في مكة قبل الهجرة بسنة، وصرح القرآن بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وأشار إلى المعراج. وأكدت السنة النبوية خبر الإسراء والمعراج.

١٠٥٩- ما جاء في القرآن من خبر الإسراء:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢١٩٠).

١٠٦٠- تفسير آية الإسراء(٢١٩١):

﴿سُبْحَٰنَ﴾ يمجد الله تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ وينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحدٌ سواه فلا إله غيره ولا ربّ سواه.

﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي سيّره منه ليلاً. والإسراء: سير الليل كله، فقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير: تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل والمراد ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي من مسجد مكة وهو المسجد

(٢١٩٠) سورة الاسراء الآية ١.

(٢١٩١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢، تفسير الكشاف ج٢ ص٦٤٦-٦٤٧، تفسير القاسمي ج١٠ ص١٨٣-١٨٥.

الحرام بعينه وهو الظاهر. وقيل إنه أُسرِيَ به من دار أم هانىء بنت أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم، لإحاطته بالمسجد. وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو مسجدُ بيت المقدس و﴿ٱلْأَقْصَا﴾ بمعنى الأبعد، سمي بذلك لبعده عن مكة أو لأنه لم يكن وراءه مسجد.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي باركنا جوانبه ببركات الدين والدنيا، لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم، وهو منمى الزروع والأشجار المثمرة فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ إشارة إلى حكمة الإسراء، أي لِكيْ نُرِي محمداً ﷺ من آياتنا العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده وأفعالهم، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

١٠٦١- الإسراء كان بالروح والجسد:

وكان إسراء سيدنا محمد ﷺ بالروح والجسد يقظة إلى بيت المقدس وعلى هذا جماهير السلف والخلف. ولا يُعوَّل على من قال بأن الإسراء كان بروحه، وأنه رؤيا منام، إذ لو كان الإسراء مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، ثم إن في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والمقصود بعبده سيدنا محمد ﷺ، وكلمةُ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ تشمل روحه وجسده(٢١٩٢).

١٠٦٢- قصة المعراج:

ويراد بالمعراج، معراجه ﷺ - من المسجد الأقصى في بيت المقدس في الليلة التي أسري فيها إليه، - إلى السماء السابعة، وإلى حيث شاء الله، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري ومسلم، ولخص ما جاء فيها الإمام ابن

(٢١٩٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٣، تفسير القاسمي ج١٠ ص١٨٩.

كثير في تفسيره فقال في جملة ما قال: (والحق أنه عليه السلام أُسرِيَ به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتيَ بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها؛ وسلّم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صرير الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، ورأى هناك جبريل على صورته ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمةً منه ولطفاً بعباده. ثم هبط إلى بيت المقدس وصلى بالأنبياء هناك ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس[٢١٩٣].

١٠٦٣- المستفاد من قصة الإسراء والمعراج:

أولاً - الإسراء والمعراج من المعجزات الحسية:

الإسراء والمعراج من المعجزات لنبينا محمد ﷺ الثابتة، فالإسراء ثابت بنص القرآن، والمعراج ثابت بالسنة الصحيحة التي رواها إماما المحدثين البخاري ومسلم، ولا يسع المسلم إلا التصديق بما روياه، فعلى الدعاة أن يبينوا للناس أن لا داعي لتأويل ما جاء بشأن الإسراء والمعراج، بل الصواب أن نؤمن بهما كما جاءتا في القرآن والسنة النبوية المطهرة، وأن يبين الدعاة للناس أنَّ نبينا محمداً ﷺ أوتِيَ المعجزات الحسية، ومنها الإسراء والمعراج، وأُوتِيَ المعجزات العقلية، وأُوتِيَ معجزة القرآن، ولا يجوز تأويل معجزاته الحسية بما يخرجها عن ظاهرها؛ لأن كونها معجزة يعني أنها خارقة لما نعرفه من قوانين الكون، فإذا أوّلناها لتطابق القوانين الكونية التي نعرفها لم تَعُدْ معجزة. ثم إن الأنبياء السابقين أوتوا معجزات حسية ثابتة بالقرآن الكريم فلا عجب إذا أوتي نبينا محمد ﷺ بعض المعجزات

(٢١٩٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٢-٢٣.

الحسية مع المعجزة الخالدة الباقية معجزة القرآن.

١٠٦٤- ثانياً- إظهار عظيم منزلة نبينا محمد ﷺ:

وفي قصة الإسراء والمعراج إظهار لمنزلة نبينا محمد ﷺ، وهي منزلة عظيمة لا تدانيها منزلة أي رسول قبله، ولا عجب في ذلك، فالله فَضّل بعض رسله على بعض كما نطق القرآن، قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال سيدنا محمد ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». فعلى الدعاة أن يبينوا للناس ما اختص به نبينا محمد ﷺ ليزدادوا حباً له واتباعاً لهديه.

١٠٦٥- ثالثاً- بيان أهمية الصلاة وعظيم منزلتها:

وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السموات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها»[٢١٩٤]. فعلى الدعاة أن يؤكدوا على أهمية الصلاة والمحافظة عليها وأن يذكروا فيما يذكرون من أهميتها ومنزلتها كونَها فُرِضَتْ في ليلة المعراج وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قبل موته.

(٢١٩٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٣.

الفصل الخامس

الهجرة إلى المدينة وعمل الرسول ﷺ فيها وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

١٠٦٦- تمهيد وتقسيم:

نتناول في هذا الفصل الكلام على الهجرة، هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وأسبابها المباشرة، ثم نبين ما عمله النبي ﷺ بعد أن وصل إلى يثرب، وهي اسم المدينة قبل تسميتها باسم «المدينة»، ثم نبين ما يستفاد من الهجرة وأحداثها للدعوة والدعاة، وعليه نقسم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثاني - عمل الرسول في المدينة بعد وصوله إليها.

المبحث الثالث - ما يستفاد من وقائع الهجرة وعمل الرسول في المدينة.

المبحث الأول

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

١٠٦٧- قريش تعزم على قتل محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(٢١٩٥). في هذه الآية تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه في مكة، وذكّره بمكر قريش حين كان بمكة ليشكر نعمة الله عز وجل على نجاته من مكرهم، ممّا اتاح الله له من حسن العاقبة. والمكر هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى المُمْكَرِ به من حيث لا يحتسب، ووقاية المُمْكَر له من المكروه. والمكر: منه الحسن ومنه السيء، ومنه ما يكون للخير، ومنه ما يكون للشر، فمكرُه تعالى: تدبيره الخفي لنصرة الحق وإعزاز أهله وخذل للباطل وإذلال أهله، وردٌّ كيدهم وإحباط خططهم وما يدبرونه لأهل الحق. ومعنى الآية: واذكر يا محمد إذ يمكرون بك، وذلك أن قريشاً خشيت من تفاقم أمر النبي ﷺ واتساعه، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب أن يفعلوه برسول الله ﷺ، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق. وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضٌ آخر: أخرجوه من مكة. فقوله تعالى: ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ المراد بالإثبات الشدُّ بالوثاقِ والإرهاقُ بالقيد والحبسُ المانعُ من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام. وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فمكرهم بالقتل هو ما أشار به عليهم أبو جهل، فقد قال لهم: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن من بطون قريش غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل أي الدية عقلناه واسترحنا.

(٢١٩٥) سورة الأنفال الآية ٣٠.

١٠٦٨- جبريل يخبر النبي بمكرهم ويأذن الله له بالهجرة:

أخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بما عزم عليه المشركون، وأخبره بأنَّ الله أذن له بالهجرة إلى المدينة، وأوصاه أن لا يبيت في فراشه. فأمر ﷺ علياً بأن ينام في فراشه ويتغطى ببردٍ له أخضر، ففعل. ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وأخذ قبضة من تراب فجعل ينثرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ ﴿يسٓ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩] وبات المشركون على الباب، يراقبون علياً رضي الله عنه، وهم يحسبونَ أنه هو النبي ﷺ. فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه فرأوا علياً نائماً في فراش النبي ﷺ، فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال: لا أدري. فخرجوا يتبعون أثره[٢١٩٦].

١٠٦٩- النبي عليه الصلاة والسلام يخبر أبا بكر بالهجرة:

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه كان يتردد على بيت أبي بكر كل يوم صباحاً ومساءً، قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوساً في بيت أبي بكر في نحْرِ الظهيرة قال قائل من أهل البيت لأبي بكر: هذا رسول الله مقبل علينا متقنعاً - أي مغطياً رأسه - في ساعة لم يأتنا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فاستأخر أبو بكر عن السرير حتى جلس عليه، فقال لأبي بكر: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك بأبي أَنت وأمي يا رسول الله. قال النبي ﷺ: «فإني قد أُذِنَ لي في الخروج» أي في الخروج من مكة - فقال أبو بكر وهو يبكي من الفرح: الصحبة - أي أريد صحبتك - يا رسول الله، فقال ﷺ: «نعم»[٢١٩٧].

١٠٧٠- الإعداد للهجرة:

ثم قال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبي الله خذْ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتيَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن» أي آخذها منك بثمنها، وإنما أراد

(٢١٩٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٢-٣٠٣، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٥، تفسير المنار ج٩ ص٥٩٩-٦٠٠، تفسير القاسمي ج٨ ص٤٢.

(٢١٩٧) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور أبي شهبة ج١ ص٤٧٣-٤٧٤.

رسول الله ﷺ أخذ إحدى الراحلتين من أبي بكر بالثمن لأنه أحبَّ أن لا تكون هجرته إلا من ماله الخاص. ثم إن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا عبد الله بن أُريقط من بني الديلِ بن بكر، وكان مشركاً ليدلهما على الطريق إلى المدينة، ودفعا إليه الراحلتين، فكانتا عنده يرعاهما على أن يأتي بهما إليهما عند غار ثور بعد ثلاث ليالٍ - وأعدّتْ عائشة وأسماء ابنتا أبي بكر السفرة التي سيأخذانها في سفرهما ووضعتاها في جراب - وعاء من جلد - فلما أرادتا ربط فم الجراب لم تجدا شيئاً تشدانه به، فشقت أسماء نطاقها - وهو ما تشد به المرأة وسطها - شقين فربطت فم الجراب بنصفه وانتطقت بالآخر، فلذلك سميت ذات النطاقين أو ذات النطاق[٢١٩٨].

١٠٧١- الخروج إلى غار ثور:

خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليلاً من خوخة - باب صغير في ظهر البيت - بيت أبي بكر حتى لا يراهما أحد، وسلكا طريقاً غير معهودة، وما زالا يسيران في ظلمة الليلِ بين الرمال والصخور حتى وصلا غار ثور فدخلاه، وكان قد دخله أبو بكر أولاً ليتأكد من خلوه من الهوام والمؤذيات كالحيات. وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار قريش وما يسمعه منهم بشأنهما، كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتيهما بلبن من غنمه[٢١٩٩].

١٠٧٢- المشركون يفتشون عن رسول الله ويصلون إلى الغار:

ولما علم المشركون أن النبي ﷺ قد أفلت منهم بالرغم من محاصرتهم لنبيه، كما ذكرنا، أصابهم الذهول والغضب وراحوا يفتشون عنه في كل مكان، وجعلوا لمن يأتي به حياً أو ميتاً مائة ناقة. وبعثوا القافة - جمعُ قائف وهو الذي يتبع آثار الأقدام في الأرض حتى يعلم أين ذهب صاحبها - فصاروا يتبعون الأثر حتى وصلوا إلى جبل ثور، ثم صعدوا الجبل حتى وقفوا على فم الغار، فوجدوا شجرة نابتة على فم الغار، أنبتها الله سبحانه وتعالى وقاية لرسوله ﷺ وقد انتشرت أغصانها على بابه، وألهم الله تعالى العنكبوت فنسجت على أغصان الشجرة، وألهم حمامتين وحشيتين

(٢١٩٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٧٤-٤٧٥.

(٢١٩٩) المرجع السابق ج١ ص٤٧٧، الرحيق المختوم ص١٤٩.

فعششتا وباضتا بين أغصان الشجرة، وقد كان لهذه الآيات الثلاث أثرها في تضليل المشركين وصدهم عن اقتحام الغار ودخوله، ذلك أنهم لما وصلوا إلى الغار ووقفوا على مدخله حتى إنَّ أحدهم لو نظر إلى موضع قدميه لرأى رسول الله وأبا بكر، وقفوا متحيرين أيدخلون الغار أم لا؟ ولكنهم انصرفوا عنه قائلين إذا كان محمد ﷺ قد دخل الغار فكيف لم يتقطع نسيج العنكبوت ولم يتكسر بيض الحمام(٢٢٠٠).

١٠٧٣- قلق أبي بكر وخوفه على رسول الله وهما في الغار:

كان أبو بكر الصديق شديد الخوف والقلق على رسول الله ﷺ؛ لأن المشركين وقفوا على فم الغار يتحدثون بمسمع من رسول الله ﷺ، حتى إنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «لا تحزن، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»(٢٢٠١).

١٠٧٤- لا تحزن إن الله معنا:

وبشأن الغار وما قاله رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر يطمئنه ويُذهب عنه القلق والخوف، أنزل الله تعالى قوله العزيز: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢٢٠٢).

١٠٧٥- تفسير آية الغار(٢٢٠٣):

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي إلاّ تنصروه فسينصره مَنْ نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد، أي إنكم إن تركتم نصره - أي نصر رسول الله ﷺ

(٢٢٠٠) السيرة النبوية لأبي شبهة ج١ ص٤٧٩، ٤٨١.

(٢٢٠١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٨١-٤٨٢.

(٢٢٠٢) سورة التوبة، الآية ٤٠.

(٢٢٠٣) تفسير الكشاف ج٢ ص٢٧٤، تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٩٦-٤٩٧، تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٦-٤٩٧، تفسير القاسمي ج٨ ص٢١٦-٢١٧، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨.

- فالله متكفل به، إذ قد نصره في موضع القلة حيث لم يكن معه إلا صاحبه مع كثرة العدو، فنصره تعالى إياه اليوم أحرى منه حينئذ، فدلّ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أنه تعالى ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أسند الإخراج إلى الكفار؛ لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه. ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه، والمقصود بالغار الغار في جبل ثور على مقربة من مكة على مسيرة ساعة منها. وقد مكث فيه النبي ﷺ وأبو بكر ثلاثة أيام. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما فيصيب النبي ﷺ منهم أذى، من أجل ذلك أصاب أبا بكر رضي الله عنه القلقُ والحزنُ على رسول الله ﷺ فطمأنه الرسول ﷺ وقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والحفظ. فقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

وهذه المعية الربانية المستفادةُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أعلى من معيته تعالى للمتقين والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، لأن المعية هنا هي لذات الرسول وذات صاحبه، غير مقيدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى والإحسان بل هي خاصة برسوله وصاحبه من حيث هو صاحبه مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات وخوارق العادات.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الله على رسوله ﷺ أَمنته التي تسكن عندها القلوب، وتأييده ونصره، وأعلمه بأنهم لن يصلوا إليه ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار أو ليعينوه يوم بدر والأحزاب وحُنَين. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي كلمة الشرك أو دعوة الكفر هي المغلوبة المقهورة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي دعوة التوحيد، أو دعوة الإسلام هي العليا، أي لا تزال عالية إلى يوم القيامة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على ما أراد، ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره.

١٠٧٦- خروج النبي وصاحبه من الغار:

وبعد ثلاث ليال من دخول النبي ﷺ في الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله. وقد قلنا إن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركاً وقد أَمِناهُ فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد وسلك بهما طريقاً غير معهودة ليخفي أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش[٢٢٠٤].

١٠٧٧- قصة أم معبد مع رسول الله ﷺ:

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبي ﷺ بأم معبد، فقد روى البيهقي. وغيره عن أخي أم معبد حُبيشٍ صاحبِ رسول الله ﷺ قال: لما خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر يخدمها ويعينهما ومعهم دليلهم عبد الله بن أريقط، مروا بخيمة أم معبد وسألوها إن كان عندها ما يشترونه منها من لبن أو لحم فقالت: لوكان عندها شيء ما أعوزكم القرى. أي الضيافة - فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة هزيلة، فأستأذن رسول الله ﷺ أم معبد لحلبها فأذنت، فدعا ﷺ فدرّت، ودعا بإناء فحلب فيه حلباً كثيراً سقى القوم منه حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم ترك حليباً كثيراً عند أم معبد وقال لها: هذا لأبي معبد إذا جاءك، ثم ركبوا وذهبوا. فلما جاء أبو معبد وسألها عما وجد عندها فأخبرته بما رأته من النبي ﷺ، فقال: هذا والله صاحب قريش لو رأَيته لأتبعته ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. وجاء في أخبار أم معبد أنها هاجرت هي وزوجها وأسلما وأسلم أخوها حبيش[٢٢٠٥].

١٠٧٨- إخفاء شخصية الرسول في طريق الهجرة:

وكان أبو بكر إذا سأله من يعرفه وهو بصحبه رسول الله في طريقهما إلى المدينة، عن رسول الله، يقول: هذا رجل يهديني السبيل، فيظن السامع أنه يعني الطريق

(٢٢٠٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٨٤.

(٢٢٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٨٦ وما بعدها.

المحسوس، وإنما يعني أبو بكر طريق الخير والهداية، وهذا من المعاريض المباحة عند الحاجة، وقد كان ما فعله أبو بكر بتوجيه من رسول الله ﷺ، فقد روى ابن سعد في طبقاته: أنّ النبي ﷺ قال لأبي بكر: «أَلْهِ الناس عني» أي: اصرفهم عن حقيقة أمري - وكان الصديق يأخذ أيضاً بهذا التحوُّط، فكان إذا سألَهُ من لا يعرفه من أنت؟ قال: أنا باغي حاجة، فإذا قيل له من هذا معك قال: هادٍ يهديني الطريق(٢٢٠٦).

١٠٧٩- قصة سراقة مع رسول الله ﷺ:

وكان من خبر سراقة أنه عزم على اللحاق برسول الله ﷺ لإرجاعه إلى قريش وأَخذ الجائزة التي جعلوها لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فلما قرب منهما قال أبو بكر: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت رسول الله ﷺ إلى ناحية سراقة ودعا عليه قائلاً: «اللهم اكفناه بما شئت، اللهم اصرعه»، قال سراقة: فساخت يدا فرسي حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها وصرعتني، ثم زجرتها فلم تكد تخرجِ يديها، فلما استوت قائمة ناديتهم بالأمان قائلاً: أنا سراقة بن مالك بن جُعْشُم، انظروني أكلّمكم، لا يأتيكم مني شرٌ تكرهونه، ادعُ الله لي ولا أضرُّك، فدعا له. فلما وصل إليهم سراقة، قال لرسول الله ﷺ: إن قومك قد جعلوا فيك الجائزة لمن يأتي بك إليهم، وعرضت عليه وعلى أبي بكر الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً، فقلت: يا رسول الله مرْني بما شئت فقال: «قف مكانك ولا تترك أحداً يلحق بنا وأَخفِ عنا» قال سراقة: فسألته أن يكتب لي كتاباً آمن به فأمر عامر بن فهيرة فكتب في قطعة من أدم - جلد - ثم ألقاه إليَّ فأخذته واحتفظت به. ولما همَّ سراقة بالرجوع التفت إليه النبي ﷺ وقال: «كأني بك يا سراقة تلبس سواري كسرى». فقال سراقة متعجباً: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم». وقد أسلم سراقة بعد فتح مكة وبعد معركة حنين. وفي زمن عمر بن الخطاب وفتح بلاد فارس وجلب الغنائم من الفرس وكان فيها سوارا كسرى، قال عمر لسراقة: قل الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن جُعْشُم أعرابياً من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته، ثم أركب سراقة وطيف به المدينة، والناس حوله وهو يقول بصوتٍ عالٍ ما أمره أن

(٢٢٠٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٩٠-٤٩١.

يقوله عمر: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسها سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج[٢٢٠٧].

١٠٨٠- أهل المدينة يخرجون لاستقبال رسول الله:

ولما علم المسلمون في المدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة ومعه أبو بكر متوجهين إلى المدينة، أخذوا يخرجون كل صباح إلى خارج المدينة منتظرين وصول رسول الله حتى يردهم حرّ الظهيرة، فعلوا ذلك مراراً حتى ظفروا باستقباله ﷺ وملاقاته بظهر الحرّةِ، فعدل بهم ﷺ حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وكانت منازلهم في قباء، فأقام عندهم أربع عشرة ليلة وخرج بعدها قاصداً (يثرب) والتي سميت من يوم وصول النبي ﷺ إليها مدينة رسول الله، وتسمى اختصاراً المدينة.

(٢٢٠٧) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج١ ص٤٩١-٤٩٤.

المبحث الثاني
ما عمله النبي ﷺ بعد وصوله المدينة

١٠٨١- بناء مسجد قُباء:

قلنا: إنه ﷺ نزل في بني عمرو بن عوف وكانت منازلهم في قُباء. وقُباء على مقربة من المدينة. وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ لما وصل قُباء أن أسس مسجد قُباء، كي يكون للمسلمين مكان يصلون فيه ويجتمعون فيه، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، وهو أول مسجد بني في الإسلام، وهذا المسجدُ هو المراد بقوله تعالى: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[٢٢٠٨].

١٠٨٢- قدوم النبي وأبي بكر إلى المدينة:

ثم خرج النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر من قُباء قاصدين «يثرب»، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها ومن معه، وهي أول صلاة جمعة صلاها رسول الله ﷺ، ثم واصل سيره ودخل يثرب، ومن ذلك اليوم سميت «المدينة» أي مدينة رسول الله ﷺ كما قلنا. فجاءه الأنصار يريدون نزوله عندهم وقد أمسكوا بزمام ناقته القصواء، فقال لهم ﷺ: «خلُّوها فإنها مأمورة» ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها حتى وصلت الناقة إلى موضع مسجده الشريف فبركت عنده ثم قامت وسارت غير بعيدٍ ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه وألقت بجرانها - مقدم عنقها - فنزل منها رسول الله ﷺ، ونزل في بيت أبي أيوب الأنصاري. وكان يوم قدوم النبي ﷺ إلى المدينة يوماً عظيماً مشهوداً خرج فيه الناس في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله[٢٢٠٩].

(٢٢٠٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج١ ص٤٩٥-٤٩٦، والآية في سورة التوبة ورقمها ١٠٨.

(٢٢٠٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢١ وما بعدها.

١٠٨٣- بناء المسجد في المدينة(٢٢١٠):

وفي المدة التي أقامها رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب بُني المسجد النبوي، فقد أمر ﷺ ببنائه في المكان الذي بركت فيه الناقة، وكان ذلك المكان في أرض لغلامين يتيمين من بني النجار، وقد اشتراها رسول الله ﷺ وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها، وشرع المسلمون ببنائها ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ... فـانصـر الأنصـار والمهـاجـرة

وكان بعضهم يقول:

لئـن قعـدنـا والنبـيُّ يعمـلُ ... ذاك إذاً للعمـلُ المضلّـلُ

وكان المسجد النبوي في عهده ﷺ مبنياً باللبن، وكانت عمده من جذوع النخل، وسقفه من الجذوع والجريد. وبقي المسجد النبوي على هذه الحال في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفي زمن عمر بن الخطاب، أمر بتوسعته ولكنه أبقاه على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ من بنيانه باللبن وسقفه بالجريد إلا أنه جعل عمده من الخشب بدل جذوع النخل. وفي زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصلت زيادات في المسجد وبنى جدرانه بالحجارة والجص وجعل عمده من الحجارة وسقفه من خشب الساج.

١٠٨٤- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار(٢٢١١):

ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة والتعاون والتآصر، وكان ذلك بعد الهجرة بقليل، وكانت المؤاخاة بين مهاجري وأنصاري، وقال ابن سعد: آخى بين مائة: خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار، وهذا كان أول من آخاهم، ثم زاد عدد المؤاخيْنَ بحسب من

(٢٢١٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٣-٣٢، السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج١ ص٢٢٢.

(٢٢١١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٩ وما بعدها، السيرة للعمري ج١ ص٢٤٣ وما بعدها، الرحيق المختوم ص١٦٧ وما بعدها.

يأتي إلى المدينة مهاجراً. وقد شرعت هذه المؤاخاة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، وكانوا يتوارثون بهذه الأخوة دون القرابة إلى حين وقعة بدر. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[٢٢١٢]. صار التوارث بالقرابة والرحم وليس بعقد المؤاخاة واستقر الأمر على هذا. وقد قام الأنصار بحق هذه المؤاخاة خير قيام، فقد واسوا المهاجرين بأموالهم طيبة نفوسهم بذلك، وقد روى البخاري بعضاً من مآثر الأنصار في مجال المؤاخاة، فقد جاء في صحيحه: «لما قدموا - أي المهاجرون - المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلّقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك...» وروى البخاري أيضاً: «أن الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ: اقسم بيننا وبينهم - أي المهاجرين - النخل فقال ﷺ: لا. فقال الأنصار لإخوانهم المهاجرين: تكفوننا المؤونة - السقي والعمل - وتشركوننا في التمر. فقالوا: سمعنا وأطعنا»[٢٢١٣].

(٢٢١٢) سورة الأحزاب الآية ٦.

(٢٢١٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص١١٢-١١٣.

المبحث الثالث
المستفاد من أحداث الهجرة
وما عمله النبي في المدينة

١٠٨٥ -أولاً- أعداء الدعوة يستبيحون قتل الدعاة:

إن كفار قريش لم يكفهم بقاؤهم على كفرهم، ولم يكفهم صدهمُ الناس عن الدعوة، ولم يكفهم افتراؤهم الكذب على رسول الله ﷺ، ولم يكفهم تعذيب من أسلم حتى اضطرَّهم إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين، ولم يكفهم مقاطعة النبي ﷺ ومن اتبعّه ومن له صلة به مقاطعة اقتصادية. أقول: لم يكفهم كل هذا وغيره من قبائح أعمالهم فتآمروا واتفقوا على قتل النبي ﷺ، وقد ذكرنا كيف أن كيدهم هداهم إلى أن يختاروا شباناً أشداء من مختلف بطون قريش لتنفيذ هذه المؤامرة الخسيسة: قتلِ رسول الله ﷺ، ولكن الله سلّم وردّ كيدهم كما بينا. ووجه العبرة المستفادة من صنيع كفار قريش، أن على الدعاة اليوم أن لا يستبعدوا من أعداء الدعوة تآمرهم على الدعوة والدعاة، وعلى الفتك بهم بالقتل غيلة أو بتلفيق التهم الباطلة ضدهم للحكم عليهم بالموت. يفعل هذا أعداء الدعوة من حكام أو متنفذين في المجتمع. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك، وأن يعلموا أَنْ لا تعايش سلمياً بين أهل الباطل وأهل الحق، لا سيما إذا كان لأهل الباطل القوة والسلطان والنفوذ في المجتمع.

١٠٨٦- ثانياً الأخذ بالأسباب:

وعلى الدعاة أن يأخذوا بالأسباب المشروعة لإحباط كيد أعداء الدعوة، وأن لا يقعوا في الغفلة عما يبيته لهم أعداء الدعوة، وما يلزمهم من الأخذ بالأسباب المشروعة للوقاية من شرورهم، وقد رأينا كيف أنَّ رسول الله ﷺ أمر علياً أن ينام في فراشه، وكيف أنه ﷺ خرج من بيته، وكيف اختفى وصاحبه أبو بكر في الغار، وبقيا فيه أياماً للخلاص من تعقب المشركين لهم. فعلى الدعاة أن يأخذوا بكل وسيلة مشروعة تخفيهم عن أعدائهم وتبعد الخطر عنهم، كالخروج من بيوتهم ومسكنهم

والالتجاء إلى بيوت إخوانهم، أو بالبقاء في محلاتهم وعدم الخروج منها، أو بتفرقهم وعدم تجمعهم وغير ذلك من الوسائل المشروعة التي تبعد عنهم شرور أعدائهم.

١٠٨٧- ثالثاً- لا بد من الحيطة والحذر:

وعلى الدعاة أن يأخذوا بالحيطة والحذر، ومن ذلك عدم إطلاع الغير على ما ينوون عمله للدعوة، وكتمان ذلك حتى على أهليهم إذا كان في إطلاعهم على ما عند الدعاة ضرر، وقد رأينا كيف أن رسول الله ﷺ لما جاء إلى بيت أبي بكر قال له: «أخرج من عندك»، وكيف أن رسول الله ﷺ جاء إلى بيت أبي بكر متقنعاً أي مغطياً رأسه، وأنه جاء في وقت الظهيرة، وأنه خرج من الباب الخلفيِّ لبيت أبي بكر، فكل هذه الأفعال تدل على لزوم الأخذ بالحيطة والحذر من الأعداء، فعلى الدعاة أنْ يفعلوا ذلك وأن لا يعتبروا أخذ الحيطة والحذر من الجبن الممقوت مع أنه من التدبير الحسن المشروع.

١٠٨٨- رابعاً- إخفاء أسماء الدعاة وأشخاصهم:

وعلى الدعاة إذا رأوا ضرورة أو حاجة لإخفاء أسمائهم أو أسماء بعضهم أو إخفاء أشخاصهم فعليهم أن يخفوا ذلك، فقد فعله أبو بكر بإيحاء من رسول الله ﷺ وهما في طريقهما إلى دارِ الهجرة، فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن ذلك.

١٠٨٩- خامساً- الإيمان بالمعجزات الحسية:

وفي هجرة النبي ﷺ وقعت معجزات حسية، وهي دلائل ملموسة على حفظ الله ورعايته لرسول الله ﷺ، من ذلك - على ما روي - نسيج العنكبوت، وإنبات الشجرة، وتعشيش الحمامتين على فم الغار، ومنها ما جرى لرسول الله ﷺ مع أم معبد، وما جرى له مع سراقة، ووعده إياه بأن يلبس سواري كسرى. فعلى الدعاة أن لا يتنصلوا من هذه الخوارق، بل يذكروها ما دامت ثابتة بالسنة النبوية، على أن ينبهوا الناس على أن هذه الخوارق هي من جملة دلائل نبوتِهِ ورسالته عليه السلام.

١٠٩٠- سادساً- جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدعاة أن يستعينوا بمن لا يؤمِنُ بدعوتهم ما داموا يثقون به ويأتمنونه على

ما يستعينون به معه، فقد رأينا أن النبي ﷺ وأبا بكر استأجرا مشركاً ليدلهم على طريق الهجرة ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه عند غار ثور، وهذه أمور خطيرة أطلعاه عليها، ولا شك أن النبي ﷺ وأبا بكر وثقا به وأمناه، مما يدل على أنّ الكافر أو العاصي أو غير المنتسب إلى جماعة الدعاة قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدعاة بهم، كأن تربطهم رابطة القرابة أو المعرفة القديمة أو الجوار أو عمل معروف كان قد قدمه الداعية لهم. أو لأن هؤلاء عندهم نوع جيد من الأخلاق الأساسية من مثل الأمانة وحب عمل الخير إلى غير ذلك من الأسباب، والمسألة تقديرية يُترك تقديرها إلى فطنة الداعي ومعرفته بالشخص.

١٠٩١- سابعاً- إظهار منزلة أبي بكر:

وعلى الدعاة وهم يتكلمون عن أحداث الهجرة يجب أن يذكروا للناس عظيم منزلة أبي بكر عند رسول الله وفي ميزان الإسلام. ومن دلالة ذلك إطلاعه عليه الصلاة والسلام له على الإذن له بالهجرة واصطحابه معه، وموقف أبي بكر من رسول الله وهو في الغار، وقلقه الشديد على رسول الله خوفاً أن يصيبه أذى أو مكروه؛ لأنه يحب رسول الله ﷺ أكثر من نفسه. فعلى الدعاة أن يذكّروا الناس بمناقب الصديق، ويتخذوه وإخوانه من الصحابة قدوة لهم في حب رسول الله واتّباعه.

١٠٩٢- ثامناً- الاهتمام ببناء المساجد:

وعلى الدعاة أن يشجعوا الناس على بناء المساجد فيحرصوا على بناء مسجد في كل قرية وفي كل مجمّع سكني، ليكون باعثاً على تذكير الناس بالصلاة وبعبادة الله تعالى، وباجتماعهم فيه لمدارسة كتاب الله وسنة رسوله وغير ذلك، وقد رأينا كيف أن رسول الله ﷺ عند وصوله إلى قباء بنى مسجداً ليصلي فيه المسلمون. وعلى الدعاة أن يلاحظوا البساطة في بناء المساجد، لا سيما في القرى، حتى يسهل بناؤها ويسهل ترميمها، لأن عمارة المساجد تكون بالصلاة فيها وبكثرة المصلين فيها. وليكن اجتماع الدعاة وإلقاء مواعظهم وخطبهم العامة في المساجد، وأن يتولوا هم خطب الجمعة إذا أمكنهم، لتكون خطبهم هادفة وذات غرض شرعي.

١٠٩٣- تاسعاً - اشتراك الدعاة في أعمال البر:

وإذا حرض الدعاة الناس على عمل خير وبرّ، كبناء مسجد أو مدرسة أو تعديل طريق أو ردم مستنقع أو غرس أشجار ونحو ذلك، فعلى الدعاة أن يشتركوا مع الناس في هذه الأعمال ليكونوا قدوة حسنة للناس، فقد رأينا أن النبي ﷺ يعمل مع الصحابة في بناء مسجده في المدينة. وكذلك إذا حرضوا الناس على التبرع فعلى الدعاة أن يتبرعوا بقدر ما يستطيعون وإن كان ما يقدرون عليه ليس بالكثير.

١٠٩٤- عاشراً- إنشادُ الشعر للتشجيع ورفع الهمم:

ذكرنا أن الصحابة كانوا ينشدون أبياتاً من الشعر وهم يقومون ببناء المسجد النبوي في المدينة، تشجيعاً للعاملين ورفعاً للهمم، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ، فدلّ على جوازه. وعلى هذا فيجوز للدعاة إنشادُ الشعر تشجيعاً وتحريضاً على فعل الخير أو إنجازه أو للإكثار منه. كما يجوز لهم أن يتوسلوا بكل شيء مباح للتشجيع والتحريض على فعل الخير، ومن ذلك وضعهم الجوائز لمن يحفظ القرآن الكريم. سواء كانت جوائز نقدية أو عينية.

الفصل السادس
غزوة بدر الكبرى

١٠٩٥- تمهيد وتقسيم:

معركة بدر، أو كما يسميها كتّاب السيرة «غزوة بدر» أو «غزوة بدر الكبرى» هي أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، خاضها المسلمون بعد الهجرة بقيادة رسول الله ﷺ ضد مشركي مكة، وهي أول معركة انتصر فيها المسلمون على المشركين. وكان لها أثر كبير جداً في الأحداث اللاحقة لها. وتظهر أهميتها من وجوه كثيرة (منها): أنها أظهرت وميزت الحق من الباطل، وأصحاب كل منهما على صعيد الواقع المحسوس؛ ولذلك سماها القرآن «يوم الفرقان». وحيث إن في هذه الغزوة وما سبقها من وقائع وما وقع أثناءها وبعدها من أحداث، أقول: لما في ذلك كله من فوائد عظام وكثيرة للدعوة وللدعاة، فقد رأيت من المفيد جداً تقسيم هذا الفصل إلى مباحث، تسهيلاً للإحاطة بما ذكرته على نحو خال من الاختلاط والتشويش، ولتكون صورة هذه الغزوة وما اتصل بها من وقائع قبلها وخلالها وبعدها صورة واضحة جلية، وبالتالي يسهل معرفة ما يستفاد منها للدعوة وللدعاة، وعلى هذا رأيت تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول - الخروج لملاقاة عير قريش.
المبحث الثاني - العزم على ملاقاة المشركين ببدر.
المبحث الثالث - المسير إلى لقاء العدو ببدر.
المبحث الرابع - النبي ﷺ في ساحة المعركة ببدر.
المبحث الخامس - نشوب القتال وانتصار المسلمين.
المبحث السادس - انتصار المسلمين ببدر يوجب شكر الله.
المبحث السابع - أحداث بعد معركة بدر مباشرة.
المبحث الثامن - المستفاد من غزوة بدر ومما حدث قبلها وأثناءها وبعدها.

المبحث الأول

الخروج لملاقاة عير قريش

١٠٩٦- خروج النبي ﷺ لعير قريش[٢٢١٤]:

بلغ رسولَ الله ﷺ أن عيراً لقريش - أي قافلة - بقيادة أبي سفيان ستقدم من الشام متوجهة إلى مكة، وهي محملة بأموال جسيمة لقريش، فأرسل ﷺ من يستطلع أخبارها وموعد خروجها من الشام إن لم تكن قد خرجت فعلاً. فلما أخبر بذلك ندب ﷺ للخروج والتصدي لها، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكموها». فخف بعضهم واستجاب للخروج، وثقل بعضهم ولم ينهض للخروج، وذلك أَنَّ النبي ﷺ لم يعزم عليهم بالخروج، كما أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ سيلقى حرباً مع قريش. وقوّىٰ فيهم هذا الظن أن النبي ﷺ قال: «من كان ظهره - دابته - حاضراً فليركب معنا» ولم ينتظر من لم يكن ظهره حاضراً، ولم ينكر ﷺ على أحد تخلفه أو تثاقله عن الخروج. وكان عدد من خرج معه (٣١٣) رجلاً ومعهم (٧٠) بعيراً يتناوبون ركوبه.

١٠٩٧- أبو سفيان يستنفر أهل مكة ثم يرجع عن استنفاره:

ولما علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ والمسلمون معه، وخاف أن تقع القافلة بيد المسلمين، استأجر رجلاً هو ضمضم بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها للخروج دفاعاً عن قافلتهم وحماية لها؛ لأنه فيها أموالهم. وقد فعلوا ذلك، فقد جمعوا جيشاً قوامه ألف رجل. ولما علم أبو سفيان بتوجه المسلمين إلى ناحية بدر، وهي طريق القوافل المعتاد إلى مكة، حول طريق سيره، وهكذا نجا من ملاقاة المسلمين واستيلائهم على قافلته. فأرسل أبو سفيان من يخبر قريشاً بنجاة عيرهم، وأَنْ لا حاجة لقدومهم، وقد نجت عيرهم، ولكنهم أبوا إلا الخروج متأثرين بدعاية

(٢٢١٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٨٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٣ وما بعدها.

وتحريض أبي جهل وإصراره على الخروج. وهكذا خرجوا بجيشهم بحالة من الزهو والغرور والبطر. وقد أشار القرآن الكريم إلى خروجهم هذا، فقال تعالى محذراً المسلمين أن يكون خروجهم مثل خروج أهل مكة: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧] والذين خرجوا من ديارهم هم أهل مكة حين خرجوا لحماية عيرهم، فلما أتاهم رسول أبي سفيان أَنْ لا حاجة في قدومكم فقد سلمت عيركم، أبىٰ أبو جهل الرجوع عما عزم عليه وقال لقومه: «والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنقيم عليها ثلاثاً، ننحرُ الجذور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا». وقوله تعالى: ﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي دفعاً منهم للحق، ومفاخرة وتكبراً على الناس، وإطعامهم الطعام على وجه الرياء وطلب السمعة(٢٢١٥).

١٠٩٨- مسير النبي ﷺ إلى بدر:

سار النبي ﷺ وأَصحابه سالكاً الطريق المؤدي إلى بدر، وهو الطريق المعتاد لمسير القوافل التي تريد مكة، على أمل أن تمر عير أبي سفيان من هذا الطريق فيلتقي بها في بدر، ولم يكن ﷺ عالماً بما فعله أبو سفيان من تحوله عن هذا الطريق ليبتعد عن تعرض المسلمين لقافلته، كما لم يعلم عليه الصلاة والسلام بما قامت به قريش من تجميع الجموع والتوجه بها إلى بدر. وواصل عليه الصلاة والسلام مسيره حتى وصل وادياً يقال له «ذَفِران» وهناك أتاه الخبر عن قريش ومسيرهم في جيش كبير إلى بدر، وبإفلات عير قريش(٢٢١٦).

١٠٩٩- حوادث في أثناء مسير النبي ﷺ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي ﷺ وأصحابه، نذكرها لما فيها من العبرة والموعظة.

(٢٢١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣١٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٥، ١٢٨، وآية ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ ... ﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٤٧.

(٢٢١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٨-١٢٩.

١١٠٠- أولاً- إرجاع البراء وابن عمر لصغرهما:

وبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى «بيوت السقيا» خارج المدينة، فعسكر فيها النبي ﷺ واستعرض ﷺ من خرج معه فردّ من ليس له قدرة على المضي مع جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فردّ على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد[٢٢١٧].

١١٠١- ثانياً- ارجع، فلن أستعين بمشرك:

وفي أثناء سير النبي ﷺ وصحبه، التحق أحد المشركين راغباً بالقتالِ مع المسلمين فردّه النبي ﷺ وقال له: «ارجع فلن أستعين بمشرك». فأعاد المشرك طلبه فرفض النبي ﷺ طلبه حتى أسلم المشرك والتحق مع المسلمين[٢٢١٨].

١١٠٢- ثالثاً- الرسول ﷺ يشارك صحبه المشاق:

وجاء في أخبار خروج النبي ﷺ وصحبه لملاقاة عير قريش، أن النبي ﷺ كان يشارك صحبه مشاق السير، فقد كان مع المسلمين سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها: كل ثلاثة أو أربعة يتناوبون بعيراً. وكان الرسول ﷺ وأبو لبابةَ وعلي بن أبي طالب يتعاقبون على بعير واحد، فأرادا أن يؤثراه بالركوب عندما جاءت نوبته بالمشي، فقالا له: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[٢٢١٩].

(٢٢١٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٤.

(٢٢١٨) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٥٥.

(٢٢١٩) المرجع السابق للعمري ج٢ ص٣٥٥، والمرجع السابق لأبي شهبة ج٢ ص١٢٤.

المبحث الثاني
العزم على ملاقاة المشركين ببدر

١١٠٣- أخبار عن العير والنفير:

قلنا: إن النبي ﷺ واصل سيره ومن معه حتى وصل وادي «ذفران» فجاءته أخبار نفير قريش أي خروج جيشهم لحماية عيرهم - قافلتهم - بقيادة أبي سفيان. كما بلغ النبي ﷺ تحول العير عن المسار المعتاد لسير القوافل المتوجهة إلى مكة، وهكذا أفلتت من قبضة المسلمين. من أجل ذلك تغير وجه المسألة، إذ لم يعد الأمر مقصوراً على ملاقاة العير والاستيلاء عليها، وإنما ملاقاة جيش قريش الذي توجهت به لا لنجاة قافلتها فقد نجت كما أخبرها أبو سفيان، وإنما لإرهاب المسلمين، وكأن قريشاً لم يعد يهمها أمر القافلة، وإنما صار همها وهدفها إخافة المسلمين وإرهابهم وحتى قتالهم؛ لِتسلمَ لهم طرق تجارتهم من تعرض المسلمين لها. وهكذا ترجحتْ للنبي ﷺ كفة القتال، قتال جيش مشركي مكة، إذ لم يعدْ من الحكمة والمصلحة تجنب لقائهم، والرجوع إلى المدينة، وترك جيش المشركين يجوس خلال تلك المنطقة؛ لأنَّ من شأن ذلك تقوية المشركين، وتدعيماً لمكانة قريش، وامتداداً لسلطانها السياسي خارج مكة، مما يضعف مكانة المسلمين ويجرّىءُ أعداءهم عليهم، مع احتمال مواصلة المشركين سيرهم نحو المدينة ونقل المعركة إلى عقر دار المسلمين، وكل ذلك يستدعي التهيُّؤَ والعزم لملاقاة المشركين وقتالهم(٢٢٢٠).

١١٠٤- النبي ﷺ يستشير أصحابه:

ونظراً للحالة التي وصفناها من إفلات عير قريش ومن نفيرها، جمع رسول الله ﷺ كبراء جيشه وقادتهم من المهاجرين والأنصار، وأخبرهم بالأمر، واستشارهم بشأن قتال المشركين، وكان فيما قاله: «أيها الناس إن الله وعدني إحدى الطائفتين

(٢٢٢٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٢٨-١٢٩، الرحيق المختوم ص١٨٨.

أنها لكم: إما العير، وإما النفير بالغلبة عليهم». وقد تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أَنَّ منهم من يريد العير؛ لأنه كسب بلا قتال ولا يريد لقاء جيش المشركين، مع أن المصلحة في قتال المشركين. قال تعالى عن ذلك: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ، لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٢٢٢١). أي وتحبون أن الطائفة - قافلة أبي سفيان - التي لا حدّ ولا منعة، ولا قوة لها تكون لكم، وهي العير، ولا تحبون ملاقاة الطائفة الأخرى وهي جيش المشركين ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي والله يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها شوكة وهي جيش المشركين، والقتال معها؛ ليظفركم بها وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله ظاهراً وغالباً على الأديان كلها، وهو تعالى أعلم بالعواقب، عواقب الأمور، وهو الذي يدبركم ويحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(٢٢٢٢) ومعنى قوله تعالى: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يثبته ويعليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بآياته المنزلة في محاربة المشركين - الطائفة ذات الشوكة - وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم(٢٢٢٣).

١١٠٥- ما قاله قادة المهاجرين في قتال المشركين:

ولما سمع المسلمون ما قاله رسول الله ﷺ قام أبو بكر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك والله لا نقولُ لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا

(٢٢٢١) سورة الأنفال، الآيتان ٧، ٨.

(٢٢٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٨٨.

(٢٢٢٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠١.

معك من دونه حتى تبلغه» فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له[٢٢٢٤].

١١٠٦- رسول الله ﷺ يريد رأي الأنصار:

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد ﷺ بقوله هذا الأنصار؛ لأنهم لما بايعوه ببيعة العقبة قبل الهجرة بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ما دام بين أظهرهم، ولم تكن المبايعةُ على قتال خارجَ المدينة. وقد فطن لهذا السيد الجليل سعد بن معاذ قائد الأنصار وحامل لوائهم فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. فقال سعد: لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ لِما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صُدْقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله يريك ما تَقَرُّ به عينك، فسرْ على بركة الله. فسرَّ رسول الله ﷺ ما قاله سعد، وأشرق وجهه[٢٢٢٥].

١١٠٧- ما قاله وفعله رسول الله بعد المشاروة:

ولما سمع رسول الله ﷺ قول سعد وقول من سبقه، قال ﷺ: سيروا وأبشروا فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أَنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل رسول الله ﷺ من (ذفران) ثم نزل قريباً من بدر[٢٢٢٦].

(٢٢٢٤) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٥٨.

(٢٢٢٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٠.

(٢٢٢٦) الرحيق المختوم ص١٨٩.

المبحث الثالث

المسير إلى لقاء العدو ببدر

١١٠٨- النبي ﷺ يستكشف أحوال العدو:

قلنا: إن رسول الله ﷺ ارتحل ومن معه من وادي (ذَفِران) متوجهاً إلى بدر. وهناك في المكان الذي نزله رسول الله ﷺ قريباً من بدر، قام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين. وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم. فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال له رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم. فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً- ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟[٢٢٢٧].

١١٠٩- الأخذ بالقرائن:

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل عليه الصلاة والسلام عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: أخبراني عن جيش قريش، فقالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير. قال ما عدتهم؟ قالا: لا ندري. قال الرسول ﷺ: كم ينحرون

(٢٢٢٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣١.

كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف» فقال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها(٢٢٢٨).

١١١٠- الأخذ برأي الحباب بن المنذر:

ثم سار النبي ﷺ مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم - أي جيش المشركين - فننزله ونُغَوِّر - نخرب - ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشربُ ولا يشربون. فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار(٢٢٢٩).

(٢٢٢٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣٢.

(٢٢٢٩) الرحيق المختوم ١٩١.

المبحث الرابع
النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة ببدر

١١١١- بناء عريش لرسول الله ﷺ:

وبعد نزول النبي والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين كما قلنا، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: «يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك» فأثنى النبي ﷺ عليه خيراً ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ(٢٢٣٠).

١١١٢- من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(٢٢٣١). النعاس هو النوم الخفيف وهذه الآية تتضمن بيان ما أنعم الله به على المسلمين قبل قتالهم للمشركين في بدرٍ. ووجه الامتنان عليهم بالنعاس أنه حال الآمن الذي لا يخاف، وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال في غدها، فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم فناموا، فكان في نومهم استراحة وبالتالي قوة لهم على القتال مع زوال الرعب من قلوبهم.

(٢٢٣٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ص١٣٤.

(٢٢٣١) سورة الأنفال الآية ١١.

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ وهذا المطر كان بعد النعاس ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي ليرفع عنكم به الأحداث والجنابة، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي وسوسته وما ألقاه ويلقيه في قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف من الأعداء وفشلكم في قتالهم، ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فيثبتها فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن القتال، ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي تثبيتها في مواطن القتال حتى يتم النصر، كما ثبتها ويثبتها بما أنزله من السماء من ماء تلبدت به الأرض السبخة فسهلَ على المسلمين السير عليها[٢٢٣٢].

١١١٣- وصايا القرآن للمسلمين لاستجلاب النصر على الكفار:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ، وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٢٢٣٣]. اللقاء: اسم يطلق على القتال غالباً. والفئة: الجماعة، وغلب استعمالها في جماعة المقاتلين.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم جماعة من الكفار - ولم يبين وصفها للعلم بوصفها من قرينة الحال وهي أن المؤمنين لا يقاتلون إلا الكفار أو البغاة - فاثبتوا في قتالكم ولا تفروا من أمام أعدائكم ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره تعالى مستنصرين به، داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبة، أي كونوا على رجاء الفلاح والنصر على الأعداء والثواب من الله تعالى. وفي هذه الآية الكريمة إشعار وتعليم بأن على المسلم أن لا يفتر عن ذكر ربه في جميع الأحوال والظروف، وأن تكون نفسه مجتمعة على ذكر ربه، بذكره في قلبه: بتذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبعهم، وبتذكر نهيه تعالى عن اليأس مهما اشتد البأس، وبأن النصر بيده تعالى ومن عنده، ينصر من يشاء وهو القوي العزيز. فمن ذكر هذا لا تهوله قوة عدوه واستعداده لإيمانه بأن الله

(٢٢٣٢) تفسير القرطبي ج٧ ص٣٧٢-٣٧٣، تفسير فتح البيان ج٥ ص١٤٠-١٤٢.

(٢٢٣٣) سورة الأنفال الآيات ٤٥-٤٧.

أقوى منه. وليذكر المسلم والمسلمون في الحرب بألستهم ما انطوت عليه قلوبهم من معاني الذكر والتذكر. وبالتكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما سواه، مع الدعاء والتضرع إليه عز وجل، ومع اليقين بأنه لا يعجزه شيء. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أطيعوا الله فما يوصيكم ويأمركم به، مما يرشدكم إلى أسباب النصر والفلاح في القتال وفي غيره، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه في شؤون القتال وغيرها من شؤون الحياة. وفيما يخص القتال وولاية قيادته العامة ﷺ فيه وفي الحرب، فإنَّهُ تلزم طاعته؛ لأن طاعة القائد العام ضرورية للنصر والغلبة على الأعداء، فكيف إذا كان القائد العام هو رسول الله ﷺ المؤيد بالله. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ وهذا نهي عن التنازع وهو الاختلاف في الرأي الذي يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب، ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ أي قوتكم ودولتكم ويفوتكم النصر على أعدائكم. وكلمة «الريح» تطلق ويراد بها القوة والغلبة والنصرة والدولة، وكل هذه المعاني تفوت بسبب التنازع والاختلاف المقيت المذموم ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي اصبروا على شدائد الحرب وما تلاقونه من بأس العدو وكثرة عدده وعُدده، فإن الله أخبرنا ووعَدنا بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل أمر ينبغي الصبر فيه، ومن كان الله معه فلا يغلبه شيء، فالله غالب على أمره وهو القوي العزيز. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ البطر نوع من إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة. ورئاء الناس أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ويثنوا عليه ويعجبوا به. ومعنى الآية: لا تكونوا في خروجكم مثل أهل مكة في خروجهم حيث خرجوا بطرين بما أُوتوا من قوة ونعم لم يستحقوها أو كفروا بها، مرائين للناس بها ليعجبوا بهم ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والمنعة، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي والحال أنهم - أي مشركوا مكة - يصدون بخروجهم عن سبيل الله، وهو الإسلام، بحمل الناس على عداوة رسول الله ﷺ، والإعراض عن دعوته، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ علماً وسلطاناً فهو يجازيهم عليها في الدنيا والآخرة[٢٢٣٤].

(٢٢٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٦-٢٢٧، فتح البيان ج٥ ص١٨٧-١٩٠، تفسير المنار ج١٠ ص٢٤-٣٠.

١١١٤- الرسول ﷺ ينظم جيشه:

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة - يوم معركة بدر الكبرى - نظم رسول الله ﷺ جنوده للقتال، فجعلهم صفوفاً متراصة كما يشير إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٢٢٣٥).

١١١٥- الرسول ﷺ يصدرُ أوامره لجيشه:

ولما تم تنظيمُ جيش المسلمين كما ذكرنا أصدر ﷺ أوامره إلى جنده، ومن هذه الأوامر ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال لهم: «إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم»، وجاء في شرحه: إذا قربوا منكم فأمكنوكم من أنفسهم فارموهم. «واستبْقوا نبلكم» أي استبقوه ولا ترموه وهم بعيدون عنكم على نحو لا تصيبهم نبالكم غالباً لبعدهم، بل استبقوا نبلكم حتى يقربوا منكم، بحيث إذا رميتموهم أصبتموهم غالباً لقربهم منكم. ثم ذكر ابن حجر العسقلاني وهو يشرح هذا الحديث، قال: وذكر ابن إسحاق في سيرته: أن رسول الله ﷺ أمرهم - أي أمر جيشه - أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم، وقال لهم: إذا أكثبوكم فانضحوهم عنكم بالنبل أي إذا قربوا منكم(٢٢٣٦).

١١١٦- التحريض على القتال:

ولما اقترب المشركون من جيش المسلمين، قال رسول الله ﷺ مخاطباً جنده يحرضهم على القتال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، وقال أيضاً مخاطباً جنده المسلمين: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». فلما سمع عُمَيْر بن الحُمَام الأنصاري ذلك، قال يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم. قال عمير: بخ بخ، فقال ﷺ: ما يحملك على قول بخ بخ؟ فقال عمير: رجاء أن أكون من أهلها. فقال له الرسول ﷺ: أنت من أهلها، وكان معه تمرات في يده يأكل منها، فقال:

(٢٢٣٥) سورة الصف، الآية ٤.

(٢٢٣٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٠٦.

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بها ثم قاتل وهو يقول:

ركضــا إلــى الله بغيــر زاد إلا التقــى وعمــل الــرشــاد

والصبـر فـي الله علـى الجهـاد وكــل زاد عــرضــةُ النفــاد

غيـر التقـى والبـرّ والـرشـاد

وقاتل رضي الله عنه حتى قتل شهيداً[٢٢٣٧].

١١١٧- الرسول ﷺ يشارك في القتال:

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالتحريض على القتال بل شارك فيه، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[٢٢٣٨].

١١١٨- الرسول ﷺ يدعو ربه:

ولما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم، وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه. واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبَدُ بعد في الأرض أبداً» وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذهُ أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجزٌ لك ما وعدك[٢٢٣٩].

١١١٩- رؤيا الرسول ﷺ:

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان رأى المشركين، عددهم قليل، وقد قصّ رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيراً، قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى

(٢٢٣٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٤٠.

(٢٢٣٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٤٣.

(٢٢٣٩) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٦٢.

﴿ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢٢٤٠). المعنى أن النبي ﷺ رآهم - أي رأى المشركين - في منامه قليلاً فقصَّ ذلك على أصحابه فكان ذلك سبباً لثباتهم، قاله مجاهد ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا، والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءةِ في المنام. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ(٢٢٤١).

١١٢٠- وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى:

وبعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به، خرج من العريش، فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»، ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] أي هو الذي أوصل ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت، وعن محمد بن قيس ومحمد القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(٢٢٤٢) فالآية أثبتت الرمية لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه ونفاها عنه لأن أثرها وهو وصولها إلى أعينهم هو فعل الله فكأن الله هو الفاعل.

(٢٢٤٠) سورة الأنفال، الآية ٤٣.

(٢٢٤١) فتح البيان ج٥ ص١٨٦.

(٢٢٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٩٥.

المبحث الخامس
نشوب القتال وانتصار المسلمين

١١٢١- ابتداء القتال بالمبارزات الفردية:

ابتدأ القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول ﷺ أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، وبارز حمزة شيبة فقتله وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة، فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلوه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ ولكن ما لبث أن توفي متأثراً من جراحته، وقد قال عنه ﷺ: «أشهد أنك شهيد»[٢٢٤٣].

١١٢٢- الهجوم العام والهجوم المضاد:

ولما رأى المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضباً وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ وكان شعار المسلمين: أحد أحد. ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضاً لهم على القتال وقائلا لهم: «شدّوا» وواعداً من يُقتَل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنة. وممّا زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي ﷺ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] وعلمهم وإحساسهم بإمداد الله لهم بالملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين[٢٢٤٤].

(٢٢٤٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٨.

(٢٢٤٤) الرحيق المختوم ص١١٦-١١٨.

١١٢٣- تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين وبالعكس:

ذكرنا قبل قليل رؤيا النبي ﷺ في النوم عدد المشركين قليلاً، وأنه قصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيت لهم وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين، رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقيناً ويجدّوا في قتالهم ويثبتوا. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين إنما هم أكلةُ جزور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم وجرأهم على قتال المشركين، ونزعَ الخوف - من قلوب المسلمين - من أعدائهم. ووجه الحكمة في قليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجدّ واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم[٢٢٤٥].

١١٢٤- إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

لا خلاف في أن الله تعالى أمدّ المسلمين بالملائكة في معركة بدر فقد ثبت ذلك بالقرآن والسنة النبوية المطهرة، ولا يسع أحداً إنكاره؛ لأنه تكذيب لصريح القرآن. ونذكر فيما يلي ما ورد في كتاب الله العزيز بشأن هذا الإمداد، ثم نتبعه بما ورد بشأنه في السنة النبوية المطهرة.

(٢٢٤٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٥، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣١٥، وآية: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ...﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٤٤.

١١٢٥- أولاً- ما ورد في القرآن بشأن إمداد المسلمين بالملائكة:

١٢٢٥-مكرر- أ- من سورة الأنفال:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الاستغاثة طلب الغوث، وهو العون والتخليص من الشدة، وظاهر الآية الكريمة أن المستغيثين هُم المؤمنون؛ لأنهم لما علموا أنه لا بد من قتال المشركين باعتبارهم الطائفة ذات الشوكة، أخذوا يقولون: يا رب انصرنا على عدوك، وأغثنا يا غياث المستغيثين. وقال الزهري: إن المستغيث هو رسول الله ﷺ والمسلمون معه. وظاهر بعض الأخبار يدل على أنه الرسول ﷺ، فقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ وزيادة، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه وجعل يهتف بربه قائلاً: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك؛ فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ...﴾ الآية في ذلك. وعلى هذا القول وهو أن المستغيث هو الرسول ﷺ فيكون ورود الاستغاثة بصيغة الجمع للتعظيم(٢٢٤٦). ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ أي أني ممدكم بوعدي إياكم بالإمداد، وذلك لأنه وقت الإجابة لم يحصل الإمداد بالفعل؛ لأن الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال. ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين. وعنه قال: وراء كل ملك ملك. ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشرى، أي بشارة لكم بنصره، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا من عند غيره، فليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليس غيره كائناً من

(٢٢٤٦) تفسير الآلوسي ج٩ ص١٧٢-١٧٣، والآيتان في سورة الأنفال ورقمهما ٩، ١٠.

كان أو ما كان ذلك الغير(٢٢٤٧).

١١٢٦- ب- من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾(٢٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أي يوم بدر وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين للهجرة. وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدراً فسمي به. وهو يوم الفرقان الذي أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وأخزى حزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ونقص فيما يحتاجون إليه، فقد كان عددهم ٣١٣ رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً والباقون مشاة، وكان العدو يومئذ ما يقرب من الألف مع العدة الكاملة والخيول المسومة، ولهذا قال تعالى ممتناً على عبادة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ وهذا الوعد يتعلق بيوم بدر، على أحد القولين للعلماء، فإن قيل فكيف الجمع بين مضمون هذه الآية وعدد الملائكة الوارد فيها وبين آية الأنفال ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ . . . ﴾ فالجواب: أنَّ التنصيص على الألف في آية الأنفال لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله تعالى ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ يعني يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفٌ أُخرُ مثلُهُمْ. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر. وقال سعيد بن أبي عروبة أو قتادة: أمدّ الله المسلمين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة(٢٢٤٩).

(٢٢٤٧) فتح البيان ج٥ ص١٣٨-١٣٩.

(٢٢٤٨) سورة آل عمران الآيات ١٢٣-١٢٦.

(٢٢٤٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠١.

١١٢٧- ثانياً- ما ورد في السنة النبوية بشأن الإمداد بالملائكة(٢٢٥٠):

روى البخاري في صحيحه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين. قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

وفي البداية والنهاية لابن كثير: خفق النبي ﷺ خفقة في عريشه ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النَّقْع، أتاك نصر الله وعدته.

وفي مسند أحمد في أسر العباس بن عبد المطلب، وأن الذي أسره مَلَكٌ كما أخبر النبي ﷺ، وفي حديث ذكره القرطبي في تفسيره أن رجلاً من المسلمين كان يشتد وراء رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، فنظَرَ إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً قد خطم أنفه وشق وجهه. وقال عنه النبي: إنه من مدد السماء.

١١٢٨- عمل الملائكة في معركة بدر:

أولاً- القول الأول - اشتركوا في القتال:

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٢٢٥١) أي اذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة الذين أمدَّ بهم المسلمين ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والمعونة ﴿ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ أي بشروهم بالنصر والظفر، أو ثبتوهم على القتال بحضوركم معهم وتكثير سوادهم، أو قووا قلوبهم، وذلك بأشياء تلقونها في قلوبهم فتصح بها عزائمهم ونياتهم، ويشتد نشاطهم في القتال، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ كأنه قيل: أني معكم في إعانتهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم. والرعب هو الخوف وانزعاج النفس بتوقع المكروه. ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ خطاب للملائكة، أي اضربوا الرؤوس وكونها فوق الأعناق ظاهر أو واضربوا على الأعناق، ﴿ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والواحدة بنانة، وخصّها بعضهم باليد. وقيل

(٢٢٥٠) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٣، السيرة النبوية للدكتور العمري ج٢ ص٣٦٥-٣٦٦.

(٢٢٥١) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

المراد بها هنا مطلق الأطراف لوقوعها في مقابلة الأعناق والمقاتل، والمراد اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها، وفي الآية دليل لمن قال باشتراك الملائكة في القتال اشتراكاً فعلياً، فقد روي أن رجلاً من المسلمين كان يتبع رجلاً من المشركين يوم بدر قال: فأهويت بسيفي إليه فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه[٢٢٥٢]. وقال ابن عباس ومجاهد لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر وعن سهل بن حُنَيفَ رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه[٢٢٥٣].

١١٢٩- القول الثاني- لم تشترك الملائكة في القتال:

وذهب بعضهم إلى أن الملائكة لم تشترك في القتال، وإنما نزلت لتكثير سواد المسلمين وتثبيتهم على القتال ببشارتهم لهم بالنصر. واستدلوا بقوله تعالى - بعد أن ذكر إمدادهم بالملائكة - ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وجاء في فتح البيان بصدد هذه الآية: وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل إن الله أمدّ المسلمين بهم للبشرى؛ ولتثبت وتطمئن قلوبهم بنزول الملائكة[٢٢٥٤]. وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، قالوا في المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الخطاب في ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ للؤمنين صادر من الملائكة حكاه الله تعالى لنا، وجوز أن يكون ذلك الكلام من جملة المُلقَّن - أي ما لقنه الله للملائكة لتقوله للمؤمنين[٢٢٥٥].

١١٣٠- القول الراجح في عمل الملائكة:

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وإن الحكمة

(٢٢٥٢) فتح البيان ج٥ ص١٤٢-١٤٣، تفسير الألوسي ج٩ ص١٧٧-١٧٩.

(٢٢٥٣) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٤.

(٢٢٥٤) فتح البيان ج٥ ص١٣٩ والآية في سورة الأنفال ورقمها ١٠.

(٢٢٥٥) نفسير الألوسي ج٩ ص١٧٨، والآية في الأنفال ورقمها ١٢.

من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم مُعَانَون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال. ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوّى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآية، وصرحت به الأحاديث النبوية، ولا داعي لمخالفة ظاهر نصوص القرآن في هذا الموضوع، ولا لمخالفة ما ورد صريحاً في الأحاديث النبوية مع احتمال وقوع جميع ما قاله أصحاب القولين.

١١٣١- سؤالٌ وجوابه:

وقد يسأل سائل: مالحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة، وأنهم وحدهم أو بعضهم وليس الألوف منهم لقادرون على إبادة الكفار، وقد حصل الإمداد ولم تحصل إبادة الكفار لا سيما إذا قلنا بأن الملائكة اشتركت في القتال كما رجحناه؟

والجواب: لقد مضت سنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأنَّ الغلبة تكون وفقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل. ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع يجريان وفقاً لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع، فالجهة الأقوى بكل معاني القول اللازمة للغلبة هي التي تغلب. فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصابة المؤمنة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يَستلزمُ الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدمه أولئك المؤمنون من قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه.. الخ ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال

المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار. وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ ١٥﴾[2256].

١١٣٢- انتصار المسلمين:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأُسِر منهم سبعون[2257] وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، ستة منهم من المهاجرين، وثمانية من الأنصار[2258]. ولما تم الفتح وانهزم المشركون، أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة؛ ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين[2259].

١١٣٣- قسمة غنائم الحرب:

وقع تساؤل بين المسلمين الذين اشتركوا في معركة بدر بشأن غنائم معركة بدر، وفي قسمتها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2260]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ أي أنَّ حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد. فقسَّمها ﷺ بين المسلمين على السواء أي بالتساوي فيما بينهم[2261]. والأنفال: هي الغنائم جمع «نَفَل» وهي كل ما يناله ويحصل عليه المسلمون من أموال أهل الحرب. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: سميت بذلك لأنها

(٢٢٥٦) سورة التوبة الآيتان ١٤، ١٥.

(٢٢٥٧) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٨٦.

(٢٢٥٨) الرحيق المختوم ص٢٠٣.

(٢٢٥٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٥٠.

(٢٢٦٠) سورة الأنفال الآية ١.

(٢٢٦١) تفسير الزمخشري ج٢ ص١٩٣-١٩٤، تفسير القاسمي ج٨ ص٥.

زيادة في أموال المسلمين؛ لأن النفل يطلق على الزيادة، ومنه «النافلة» لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة[٢٢٦٢]. وهي ليست في مقابلة الجهاد لأن الجهاد مقابله الأجر والثواب في الآخرة، وهذه الغنائم زائدة عليه خرجت من ملك المشركين بحكم الله ، وصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله، والرسول يعطيها من يشاء على ما أراه الله، فقسّمها ﷺ بينهم بالسوية[٢٢٦٣].

١١٣٤- أسرى المشركين وأخذ الفداء منهم:

ذكرنا فيما سبق أن المسلمين أسروا من المشركين في معركة بدر سبعين رجلاً أكثرهم من قادة المشركين وزعمائهم. ولم يكن قد نزل بحكمهم وحيٌ، فاستشار النبي ﷺ المسلمين بشأنهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة؛ أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: لا، والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنّا فنضربَ أعناقهم، فتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنّي من فلان «نسيباً لعمر بن الخطاب» فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. فهَوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قاله عمر[٢٢٦٤]. وهكذا أُخِذ الفداء من الأسرى اجتهاداً من رسول الله ﷺ بعد مشاورة أصحابه. وكان الفداء مقداراً من المال يتناسب وما عند الأسير من مال. ومن لم يكن له مال من الأسرى جُعِل فداؤه أن يعلِّم عدداً من أولاد الأنصار الكتابةَ. وقد فدت زينبُ بنت رسول الله ﷺ زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة فأطلق الصحابة أسيرها وردوا عليها الذي لها إكراماً لرسول الله ﷺ[٢٢٦٥].

(٢٢٦٢) تفسير القاسمي ج٨ ص٦.

(٢٢٦٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٦.

(٢٢٦٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٨٦.

(٢٢٦٥) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص١٦٢، ١٦٤، والسيرة النبوية للعمري ج٢ ص٣٦٨.

١١٣٥- ما روي عن العباس وفدائه:

أخرج البخاري عن أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اختنا العباس فداءه. فقال: «والله لا تذرون منه درهماً»(٢٢٦٦). أَي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئاً. وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: يا عباس افدِ نفسك وابن أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال. فقال العباس: إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني على الخروج معهم، قال ﷺ: الله أعلم بما تقول، إن كنت ما تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا(٢٢٦٧).

١١٣٦- ما نزل من القرآن بشأن الفداء بعد أخذه:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾(٢٢٦٨). والإثخانُ كثرة القتل والمبالغة فيه. والمعنى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك حتى يذل الكفر وأهله، ويعز الإسلام وأهله، بالاستيلاء والقهر على أعدائهم ثم الأسر بعد ذلك، وإنما عُبرَّ بـ«النبي» تلطفاً به ﷺ حتى لا يُواجَه بالعتاب. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي متاعها الزائل بأخذكم فداء أُسارى بدر، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل الجنة في الآخرة من الطاعة بإعزاز دينه وقمع أعدائه والإثخان في القتل. ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أنه لا يؤاخذ على خطأ في الاجتهاد لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم. ووجه الخطأ في اجتهادهم أنهم نظروا في أنَّ استبقاء الأسرى ربما يكون سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفلّ لشوكتهم. وقيل: المقصود بـ﴿كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كتابه أنه تعالى

(٢٢٦٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٢١.

(٢٢٦٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٢٣.

(٢٢٦٨) سورة الأنفال، الآيات من ٦٧-٦٩.

سيحل لهم الفدية التي أخذوها من الأسرى، أو أن أهل بدر مغفور لهم ما يصدر عنهم من ذنب أو تقصير، أو أن الله تعالى لا يعذب قوماً إلا بعد قيام الحجة عليهم وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن أخذ الفداء، ولا يُبعَد أن يكون المانع من مساس العذاب كل ما قيل في معنى ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾؛ لأن تعدد موانع شيء واحد أمرٌ جائز، وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة عن ابن عباس وغيره في المقصود بـ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾(٢٢٦٩). وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٢٧٠). روي أنه لما نزلت الآية الأولى التي قبل هذه الآية كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت هذه الآية. فالمراد بـ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ إما الفدية وإما مطلق الغنائم والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية(٢٢٧١).

(٢٢٦٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٢٥-٣٢٦، تفسير الكشاف ج٢ ص٢٣٥-٢٣٧، تفسير الآلوسي ج١٠ ص٣٢-٣٥، تفسير فتح البيان ج٥ ص٢١٣،٢١٦، تفسير القاسمي ج٨ ص٩٧-٩٨.

(٢٢٧٠) سورة الأنفال الآية ٦٩.

(٢٢٧١) تفسير الألوسي ج١ ص٣٦.

المبحث السادس
نصر المسلمين يوجب شكر الله

١١٣٧- معركة بدر وقعت من غير تخطيط مسبق، ولكن بتدبير من الله:

قال تعالى: ﴿... يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٢٧٢).

لقد وقعت معركة بدر من غير تخطيط مسبق لها، لا من جانب المسلمين ولا من جانب المشركين، أما من جانب المسلمين فإن النبي ﷺ خرج للتعرض إلى عير قريش القادمة من الشام في طريقها إلى مكة، وهي محملة بأموال قريش كما ذكرنا من قبل(٢٢٧٣). فلم يكن من نية رسول الله ﷺ الدخول في معركة مع المشركين. قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد(٢٢٧٤). وقوله: إنما خرج النبي ﷺ يريد عير قريش أي ولم يرد القتال، وقوله حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد أي: ولا أراد قتالاً(٢٢٧٥). هذا من جانب المسلمين، أما من جانب المشركين، فإن أبا سفيان أخبر قريشاً بنجاة قافلته من تعرض المسلمين لها فلا حاجة لقدومهم، ولكنهم أصروا على الخروج للمباهاة والفخر والرياء فما كان

(٢٢٧٢) سورة الأنفال الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢٢٧٣) الفقرة ١٠٩٦.

(٢٢٧٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٢٨٥.

(٢٢٧٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٨٦.

خروجهم إلا لطلب السمعة ولكن الله جمع بين الفريقين ولله الحكمة البالغة.

١١٣٨- كان نصر المسلمين بتأييد من الله(٢٢٧٦):

قوله تعالى: ﴿. . . يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المراد بيوم الفرقان: يوم بدر، والجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين. ﴿إِذْ أَنتُم﴾ أيها المسلمون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بشفير الوادي الأدنى من المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي جيش المشركين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي البعدى عن المدينة مما يلي مكة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي العير التي يقودها أبو سفيان بما فيها من أموال أسفل من موقع المسلمين إلى ساحل البحر إلى ثلاثة أميال من بدر، والفائدة من ذكر كيفية تلاقيهم. وتعيين مواقع الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم، هي -أي فائدة ما ذكر- الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته وحصانة موقعه، وتوافر أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين، واختلاط أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحالة ليست إلاّ صنعاً من الله سبحانه، ودليلاً على أن ذلك أمرٌ لم يتيسر إلا بتأييد من الله، وإلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التي نزل فيها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا التي نزل فيها المسلمون كما أنها كانت رخوة تسوخُ فيها الأرجل ولا يمشي فيها الإنسان إلاّ بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم وتزيد من ثباتهم في القتال، وفي هذا كله تصوير ما دبرّه سبحانه وتعالى من أمر وقعة بدر، وما هيأه الله تعالى من جمع الفريقين: المسلمين والمشركين ليظهر إعزاز دينه وغلبة أوليائه، وإذلال وقهر أعدائه المشركين، وهكذا التقى الجمعان على غير ميعاد لتقع أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وانتصار المسلمين، وهزيمة المشركين. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي: تواعدتم أنتم أيها المسلمون مع المشركين، مشركي مكة، وتواضعتم واتفقتمْ بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال لخالفَ بعضكم بعضاً فثبطتكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالمجيء في الموعد المحدد، ولثبطهم عن الوفاء بالموعد ما كان في

(٢٢٧٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٢٣-٢٢٤.

قلوبهم من تهيب رسول الله ﷺ والمسلمين، فلم يكن يتفق لكم من التلاقي ما يسرّه الله بقدرته من أسباب هذا اللقاء، ليقضيَ الله تعالى بهذا اللقاء وما ترتب عليه من قتال أمراً وهو نصر أوليائه المسلمين وقهر أعدائه المشركين. ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح وبيّنةٍ لا تبقى حجة معها لمن كفر، وليصدرَ إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه هو الدين الحق الذي يجب الإيمان به والانقياد له، وذلك أن ما حصل في موقعة بدر من الآيات الباهرة الدالة على أن الإسلام هو الدين الحق تجعل من كفر بعدها مكابراً معانداً للحق بعد وضوحه.

١١٣٩- انتصار المسلمين ببدر يوجب شكر الله:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢٢٧٧]. أي اذكروا أيها المسلمون وقت كونكم أذلة مستضعفين في أرض مكة قبل الهجرة، تستضعفكم قريش، تخافون أن يتخطفكم الناس، لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء، فآواكم الله تعالى إلى المدينة. وأيدكم بنصره في بدر، بما هيّأ لكم من أسباب النصر، ومنها تقليلهم في أعينكم وتقليلكم في أعينهم، وبإمدادكم بالملائكة، ورزقكم من الطيبات أي من الغنائم؛ لعلكم تشكرونَ هذه النعم، أي إرداة أن تشكروا هذه النعم[٢٢٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢٢٧٩].

والخطاب في هذه الآية للمسلمين تذكيرٌ لهم بنصر الله في معركة بدر. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي نصركم في حالة ذلة كنتم فيها على قلتكم كما يفيده لفظ أذلة، إذ هو جمع قلة ليدلَّ على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً. وذلتهم هي قلتهم وما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال والمركوب، فكان يعتقب النفرُ منهم على البعير الواحد. إلا أنهم ما كانوا في أنفسهم إلا أعزة، أما عدوهم، وهم المشركون، الذين

(٢٢٧٧) سورة الأنفال الآية ٢٦.

(٢٢٧٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٣.

(٢٢٧٩) سورة آل عمران الآية ١٢٣.

خرجوا لحماية عيرهم فإذا هم يلاقون جمع المسلمين من غير ميعاد سابق، أقول هؤلاء المشركون فقد كانوا في حال كثرة من جهة العدّةِ والعدد. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن التقوى هي التي تعدّكم للقيام بواجب الشكر لله تعالى على النعم التي يسديكم إياها، فمن لم يروض نفسه بالتقوى، ويحملْها على معاني التقوى ويقيمها على مقتضياتها ولوازمها فإن اتباع الهوى سيكون هو الغالبَ على سلوكه الظاهر والباطن، وبالتالي لا يرجى له أن يكون شاكراً لله مستعملاً نعمه تعالى إلى ما وهُبِتْ لأجله من حكم ومنافع[٢٢٨٠].

(٢٢٨٠) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٠، تفسير المنار ج٤ ص١٠٩ -١١٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٤١١.

المبحث السابع
أحداث بعد معركة بدر مباشرة

١١٤٠- أولاً- اتفاق على قتل النبي ﷺ[٢٢٨١]:

أراد صفوان بن أمية الانتقام من المسلمين والثأر لقتلى قريش بقتل النبي ﷺ، واتفق مع عمير بن وهب الجمحي على أن يقوم الأخير بالذهاب إلى المدينة لاغتيال النبي ﷺ لقاء مكافأة يقدمها له صفوان. وفعلاً ذهب عمير إلى المدينة متوشحاً سيفه الذي حدّه وسَمَّهُ. فلما وصل المدينة لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأوجس من خيفةً، ووقع في نفسه أنه جاء بشرّ، فأخبر النبي ﷺ بخبره، فأمره أن يدخله عليه، فلما دخل قال: انعموا صباحاً. فقال ﷺ قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة. ثم قال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فذكر سبباً. فأخبره ﷺ بالغرض الذي جاء من أجله والاتفاقِ مع صفوان على تنفيذه لقاء مكافأة وعده إياها. فلما سمع ذلك عمير قال: أشهد أنك رسول الله، فهذا هو الذي حصل بيني وبين صفوان ولم يطلع عليه أحد غيرنا. ثم أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين. فقال ﷺ لمن كان معه: فقهوا أخاكم في دينه واقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره وهو ابنه. ثم رجع عمير إلى مكة وأقام فيها ، وأخذ يدعو إلى الإسلام فأسلم على يده كثير من الناس.

١١٤١- ثانياً- إجلاء يهود بني قَيْنُقاع من المدينة:

وهؤلاء طائفة من اليهود كانت تسكن في أطراف المدينة، وقد عقد معها النبي ﷺ معاهدة أمن وسلام فنقضتْها فحاصرها النبي ﷺ وأجلاهم. وسنفصل القول فيما بعد إن شاء الله تعالى، عند كلامنا عن موقف الرسول

(٢٢٨١) الرحيق المختوم ص٢١٢-٢١٣.

ﷺ من يهود المدينة، ومن جملتهم بنو قَيْنُقاع[٢٢٨٢].

(٢٢٨٢) سيأتي بيانُ موقفِ الرسولِ من يهودِ المدينةِ بعد غزوة بني المصطلق في الفصل العاشر الفقرة: ١٣١٩.

المبحث الثامن
المستفاد من غزوة بدر ومما حدث قبلها وأثناءها وبعدها

١١٤٢- تربية الأولاد على الجهاد:

ذكرنا إرجاع النبي ﷺ البراء بن عازب وعبد الله بن عمر لصغر سنهما. ومعنى ذلك أنهما خرجا مع من خرج من المسلمين عندما ندب النبي ﷺ المسلمين إلى الخروج، مما يدل على رغبتهما في المشاركة في أعمال الجهاد التي يقوم بها الرجال المسلمون. ومعنى ذلك أنهما لقيا تربية إسلامية حببت إليهما الجهاد بحيث إنهما صارا يتطلعان إليه، فعلى الدعاة أن يولوا الكثير من عنايتهم وما يرشدون إليه الناس في تربية الأولاد، أولاد المسلمين عامة وأولاد الدعاة خاصة، تربية إسلامية تحبِّبُ إليهم أعمال الجهاد بجميع صوره وأنواعه.

١١٤٣- الرغبة في الجهاد لا تكفي وحدها بل لا بُدَّ من القدرة عليه:

وفي إرجاع النبي ﷺ للبراء بن عازب وعبد الله بن عمر لصغر سنهما مع رغبتهما في الجهاد ومشاركة المسلمين في أعماله، دليل على أن الرغبة وحدها في الجهاد، وفي أي عمل من أعمال البرّ، ومنها ما يتعلق بالدعوة، أقول: إن الرغبة وحدها في هذه الأمور لا تكفي لأن يستجيب أمير جماعة الدعاة إلى طلبات الراغبين في المشاركة في أعمال الدعوة، أو في نوع معين منها، بل لا بد من تحقق القدرة أي قدرتهم على عمل ما يرغبون فيه، والقدرة على العمل المرغوب فيه لا تقف عند حدّ القدرة البدنية التي لم توجد في البراء وفي ابن عمر، ولذلك ردّهما النبي ﷺ، وإنما تشمل القدرة على كل ما هو لازم وضروري لإنجاز العمل المرغوب فيه. فعلى الدعاة وعلى جماعتهم ملاحظة ذلك جيداً، فلا يجوز لجماعة الدعاة أن تضع خططها على أساس رغبات اتباعها فقط دون التأكد من قدرتهم على تنفيذ ما يرغبون فيه، سواء أكانت القدرة المطلوبة قدرةً ماديةً كالقدرة البدنية، أو معنويةً وأعلاها

القدرة الإيمانية التي تهوّن على صاحبها الصعاب التي يلقاها، وما يتطلبه تنفيذ العمل المرغوب فيه من أعمال الدعوة، ويترتب على ما قلناه أن على الدعاة وقادة جماعتهم أن لا يستعجلوا في إناطة أعمال الدعوة ومتطلباتها إلى من لا تتحقق فيهم القدرة الحقيقية على القيام بهذه الأعمال. وهذه القدرة ترتكز في الأساس على الإيمان الصافي العميق، وعلى القدرة الخاصة بالعمل المرغوب فيه والمراد تكليف الراغب فيه به.

١١٤٤- القاعدة والاستثناء في الاستعانة بغير المسلم:

ذكرنا في الأحداث التي سبقت معركة بدر أن مشركاً لحق بجيش المسلمين وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، فهذا المنطِقُ النبوي الكريم يعطينا القاعدة في مسألة الاستعانة بغير المسلم، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يعرفوها، ويعملوا بموجبها، وهي أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ومنها شؤون الدعوة. ولكن لهذه القاعدة أو الأصل استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذهِ الاستعانة، وأن لا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها. وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به. وأن يكون تابعاً لجماعة الدعاة لا متبوعاً، ومقوداً فيها لا قائداً لها. وأن لا يترتب عليها أي ضرر بالجماعة، وأن لا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد الجماعة أو لغيرهم، وأن تكون هناك حاجة حقيقية بهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش، إذ لا حاجة به أصلاً. وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك - عبد الله بن أريقط - الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ليدلهما على الطريق إليها، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه أن يأتي إلى الغار الذي اختفيا فيه بعد ثلاث ليال. وكذلك على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار

من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم. فعلى الدعاة ملاحظة ما ذكرناه من القاعدة والاستثناء عند الاستعانة بغير المسلم.

١١٤٥- الاستعانة بعصاة المسلمين:

ما قلناه بشأن الاستعانة بغير المسلم، والقاعدة والاستثناء في هذه الاستعانة نقوله هنا أيضاً بالنسبة إلى الاستعانة بعصاة المسلمين، فالأصل عدم الاستعانة بهم في أمور الدعوة، والاستثناء الجواز إذا توافرت شروطه، لأنه إذا أجاز تطبيق الاستثناء بشروطه بحق غير المسلم فتطبيقه بحق المسلم العاصي أولى. وتكون هذه الاستعانة في الغالب في دفع الأذى والشر عن الدعاة وجماعتهم.

١١٤٦- المقصود بعصاة المسلمين:

والمقصود بعصاة المسلمين الذينَ نطبق عليهم القاعدة والاستثناء اللذيْنِ ذكرتهما بشأن الاستعانة بغير المسلم، العصاة المتجاهرون بعصيانهم من مثل تركهم بعض فرائض الإسلام على نحو يُعرَف منهم، أو ارتكابهم بعض محظورات الإسلام الظاهرة مثل معاونتهم للحكام الظلمة.

١١٤٧- ما كل جائز يجوز الأخذ به:

ويجب أن يعلم الدعاة وتعلم جماعتهم أن ليس كل جائز يجوز الأخذ به. أي ليس كل جائز بذاته يجوز الأخذ به، فهذا الجواز مشروط به أن لا يؤديَ إلى ضرر بالجماعة أو بالدعوة ذاتها، فيكون في هذه الحالة تركه وعدم الأخذ به هو الأولى، أو هو المطلوب فعله من قبل الدعاة وجماعتهم. ومن الأمثلة على ما أقول، إذ رأت الجماعة أن الأخذ بالاستثناء يؤدي إلى سوء الظن بقيادة جماعة الدعاة من قبل أفراد الجماعة، أو من قبل عموم الناس، فعدم الأخذ بالاستثناء هو الواجب في هذه الحالة.

١١٤٨ - متطلبات الأخذ بالاستثناء:

والأخذ بالاستثناء الذي ذكرناه وهو الاستعانة بغير المسلم أو بالمسلم العاصي، هذا الأخذ قد يتطلب من أمير الجماعة أو من أحد الدعاة لقاءات مع من يراد الاستعانة به، أو يتطلب زيارة هؤلاء في بيوتهم، أو دعوتهم إلى بيوت ومقرات

الجماعة. فهذه الأمور قد تكون من متطلبات الاستعانة الاستثنائية، فعلى جماعة الدعاة تفهيم أفرادها بذلك حتى لا يقع في نفوسهم سوء الظن بقيادة الجماعة أو بأميرها. ولكن على قيادة الجماعة أن لا تسرف في القيام بهذه المتطلبات من زيارات لهؤلاء أو قبول دعواتهم أو دعوتهم إلى بيوت الجماعة ومقراتها؛ لأن هذه المتطلبات للضرورة وما كان للضرورة يقدربقدرها.

١١٤٩- الأمير يشارك أتباعه متاعبهم:

ذكرنا في خروج النبي ﷺ ومن معه من المسلمين للتصدي إلى عير قريش، وكان عند المسلمين (٧٠) بعيراً مما اضطرهم على أن يتعاقب على ركوب البعير كل ثلاثة أو أربعة. وقد سرى هذا الترتيب على رسول الله ﷺ فلم يختص ببعير لنفسه بل كان ثالث ثلاثة يتعاقبون على بعير واحد، ولما عرض عليه اللذانِ كانا معه أن يبقى راكباً ويكفياهُ مؤنة المشي رفض ذلك، فعلى أمير جماعة الدعاة، أَو أي أمير على جمع من الدعاة، أن يشارك أتباعه في أتعابهم؛ لأنه بهذه المشاركة يزداد تعلقهم بأميرهم ويزداد نشاطهم في أعمال الدعوة. وقديماً شارك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عام المجاعَةِ ما حلّ بالمسلمين من ضيق وقلة طعام، ولم يخص نفسه وعائلته بطعام يمتاز به عن رعيته، وإنما شاركهم في محنتهم وأكل مما يأكلون كأي واحد منهم. إن هذه المشاركة من أمير الجماعة تقوّي صلتها به؛ لأنها تجد فيه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، والتطبيقَ العمليَّ لمعاني الدعوة. كما أن من المرغوب فيه جداً أن يشارك الدعاة متاعب الناس، ويسعوا إلى تخفيفها جهد المستطاع، فإن هذا الصنيع من الدعاة دعوة صامتةٌ ولكنها مؤثرة في الناس، وكم من صامت أبلغ من متكلم أو خطيب.

١١٥٠- أعداء الدعوة يحاربونها ويصدون الناس عنها:

ذكرنا من قبل أن أبا سفيان استنفر قريشاً لتخليص عيرها من المسلمين، وأنه بعد هذا الطلب طلب أبو سفيان من قريش أن ترجع ولا تقدم؛ لأن قافلتهم نجت من تعرُّضِ المسلمين لها، ولكنَّ قريشاً وعلى رأسها أبو جهل رفضوا هذا الطلب، ورأَوْا في تحركهم وخروجهم بحجة تخليص قافلتهم فرصة جيدة لإظهار قوتهم وإرهاب المسلمين وصد الناس عن دعوة المسلمين. . ؛ لأن أعداء دعوة الإسلام لا يقرّ لهم

قرار ولا يهدأ لهم بال إلا إذا قضوا على دعوة الإسلام وعلى دعاتها. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يفقهوا هذه الحقيقة الواضحة البسيطة، وأن يعرفوا يقيناً أن ما يسمى بـ«التعايش السلمي» بين الدعوة ودعاتها من جهة وبين الباطل وأهله من جهة أخرى، هذا التعايش السلمي المزعوم هو من قبيل الوهم والتوهم، فلا يجوز أن ينخدع به الدعاة إلى الإسلام حتى لا يقعوا في مخططات أعدائهم.

١١٥١- لا بد من المواجهة والصدام مع أعداء الدعوة إذا اضطر الدعاة إليها:

ذكرنا فيما سبق أن لقاء المسلمين لجيش المشركين الذي خرج بطراً ورئاء الناس جعل المقابلة العنيفة القتالية أمراً لا بد منه، اضطر عليه المسلمون؛ لأن انسحابهم من هذا اللقاء القتالي سيؤدي إلى ضعفهم وانهزامهم أمام المشركين، وزيادة غرورهم وعنجهيتهم، وإيغالهم في الصد عن سبيل الله، إلى غير ذلك مما ذكرنا من قبل[٢٢٨٣]، وقد يجِدُ الدعاة أو جماعتهم أنفسهم أمام خيارين: إما التراجع والتقهقر أمام أعداء الدعوة وما حشدوه ضد الدعوة والدعاة إلى الله، وإما مقابلتهم بقوة وحزم وثبات، وإحباطُ كيدهم وكشفُ باطلهم وإن ترتب على ذلك أذى قد يصيبهم. والذي نطلبه هو أن تكون مقابلة جماعة الدعاة لأعدائهم في هذه الحالة مقابلة قوليةً تقوم على كشف مكائد أعدائهم، وأن تبتعد جماعة الدعاة عن أعمال العنف، وإن بدأها أعداؤهم. إن على جماعة الدعاة أن تكشف حقيقة ومضمون دعوتهم وأن هذا المضمون هو مضمون الإسلام الذي يدين به المسلمون وأن الواجب الشرعي يقضي بأن يتحمل المسلمون مسؤوليتهم الدينية، وينصروا الدعوة ودعاتها ضد من يريد الكيد لهم ولها، وأن يثير الدعاة وجماعتهم معاني الإيمان في نفوس المسلمين ضد أعدائهم الذين هم في الحقيقة أعداء الإسلام؛ لأن الدعاة إلى الله لا يعملون لمنافعهم الشخصية وإنما يعملون لخدمة الإسلام الذي هو دين المسلمين، فعلى المسلمين أن يدافعوا عن دينهم بالوقوف إلى جانب الدعاة لا بجانب أعدائهم.

(٢٢٨٣) انظر الفقرتين ١١٠٣، ١١٠٤.

١١٥٢- مشاورة الأمير لأتباعه:

ذكرنا من قبل أن رسول الله ﷺ شاور المسلمين الذين كانوا معه في مسألة قتال المشركين بعدما تبين له خلاص قافلة أبي سفيان ومجيء قريش بجموعها. ويستفاد من ذلك أن على أمير جماعة الدعاة أن يشاورهم فيما هو مقدِمٌ عليه، أو فيما يحتمل قدومه عليه، أو فيما يضطر على القدوم إليه من أمور صعبة جسيمة من مثل مقابلة العدو، أو مواجهته وجهاً لوجه، وما يترتب على ذلك من نتائج. وليحذرْ أمير الجماعة من ترك المشاورة وانفراده بالرأي. فإن هذا الترك يفوّت عليه خيراً كثيراً مع مخالفته لأمر الشرع وإيحاش قلوب أتباعه، وعليه وهو يشاور أتباعه أن لا يضيق صدره بآرائهم، وإن عليه أن يشجعهم بأن يقولوا كل ما يرونه هو الصواب فيما يُستشارون فيه من أمور. وعليه أن يأخذ بالرأي الصواب إذا ظهر، بل أنْ يأخذ به حتى لو تقدم به صاحبه دون سبق مشاورة من الأمير له، كما رأينا في أخذ النبي ﷺ برأي الحباب بن المنذر بشأن المكان المختار لجيش المسلمين.

١١٥٣- لا بد من استكشاف أحوال أعداء الدعوة:

الدعوة الإسلامية لها خصومها وأعداؤها في كل مكان وزمان، فعلى جماعة الدعاة استكشاف أحوال هؤلاء الخصوم والأعداء لأخذ الوقاية من شرورهم. وقد رأينا كيف أن النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه قاما باستكشاف أحوال المشركين. ويقوم بهذا الاستكشاف جميع أفراد الجماعة بمن فيهم أميرها بالأسلوب الشرعي الحذر. كما أن على أي فرد إذا بلغه أي شيء من أقوالِ وأفعالِ أَعداء الدعوة متعلقٍ بالدعوة والدعاة أن يوصلها إلى أمير الجماعة وقادتها، كما كان يفعل عبد الله بن أبي بكر، حيث كان ينقل إلى رسول الله ﷺ وصاحبه وهما في الغار ما كان يسمعه من أقوال قريش وما يريدون فعله، مما له علاقة بالنبي ﷺ. والغرض من ذلك إحباطُ خطط أعداء الدعوة وإفشالُ مؤامرتهم ضدها وضد الدعاة. ويجوز - لغرض الوقوف على أحوال أعداء الدعوة وما يبيتونه لها - استعمال التورية في الكلام والجواب حتى لا ينكشف أمر الداعية، وقد ذكرنا جوابَ النبي ﷺ لمن سأله: من أين أنت أو من أين أنتما؟ فقال نحن من ماء. وجواب أبي بكر لمن سأله عن النبي ﷺ وهما في طريق الهجرة إلى المدينة: هذا هادٍ يهديني السبيل.

١١٥٤- الحفاظ على أمير جماعة الدعاة:

ذكرنا فيما سبق أن المسلمين بنوْا للرسول ﷺ عريشاً في ساحة معركة بدر حفاظاً على سلامته ﷺ مع إمكان إشرافه على جيشه وسير المعركة المنتظرة، معركة بدر. ويستفاد من هذا الصنيع أن على جماعة الدعاة أن تحرص على سلامة أميرها. لأنه هو العقل المدبر لسيرهم وحسن عملهم، وإن الجند مهما كثر عددهم لا يستغنون عن أمير راشد يقودهم حسب مناهج الإسلام وأحكامه في الدعوة إلى الله تعالى، وتكون له كلمة الفصل في أمور الدعوة. والحفاظ على سلامة أمير الجماعة، جماعة الدعاة، يتحقق في حمايته من كل ما يعرضه للخطر والضرر، فلا يشترك مع الدعاة في الجهاد باليد إذا وجب مثل هذا النوع من الجهاد، ولا يشاركهم بالقول الصريح باسمه الصريح إذا كان من شأن هذه المصارحةأن تضرَّهُ ولا تنفعُ الدعوةَ أو لا تحتاجُها الدعوة. وبكلمة موجزة: إذا لم تكن هناك ضرورة لهذه المشاركة من قبله باليد أو بالقول الصريح باسمه فإنه لا يشارِكُ بها، لقد أراد عمر بن الخطاب أن يخرج بنفسه في قتال المسلمين لفارس فأشارَ عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن لا يفعل ذلك، وليبق في المدينة يوجه ويسيِّرُ الجنود ويعطي التعليمات. إن قائد الجيش يحتاج فيما يحتاج إليه، إلى وضع الخطط النافعة للمعركة في ضوء المعلومات التي ترد إليه عن أحوال العدو وأحوال جنده؛ ولذلك فهو يحتاج إلى محل آمن. وراحة بال، وصفاء فكر، وهدوء، وطول تأمل، واستشارة من هم عنده من أهل الشورى، ولا يمكنه ذلك إذا زجَّ نفسه في المعركة وشارك جنوده مشاركة فعلية ودائمة في جهادهم القتالي. وكذلك الحال بالنسبة إلى أمير جماعة الدعاة؛ فيجبُ أن يكون بعيداً عن المباشرات الفعلية التي يقوم بها الدعاة المنتسبونَ إلى هذه الجماعة والتي ليس من ضرورة أدائها والقيام بها قيام الأمير بها بنفسه أو مشاركةُ غيره فيها. إن عليه أن يضع ضوابط العمل الدعويِّ للدعاة؛ وإعطاءَ التوجيهات اللازمة لهم فيما يلاقونه من صعاب وعقبات في عملهم، ولا يباشرَ نفسَ أعمالهم إلا بقدر ما تقضي به الضرورة، ولا يتعارض مع واجباته الأصلية الدعوية، وهي كثيرة عادة.

١١٥٥- قد يشارك القائد جنوده في جهادهم القتالي:

قلنا في الفقرة السابقة: إن الحفاظ على سلامة القائد أمر مشروع ومطلوب،

ولتحقيق ذلك قلنا يجب أن يكون في مأمن مما قد يتعرض له جنوده، وبنينا قولنا على أساس بناء عريش لرسول الله ﷺ في معركة بدر، وقسنا على ذلك ضرورة الحفاظ على سلامة أمير جماعة الدعاة، ولغرض تأمين الحماية له والسلامة من المخاطر. قلنا يجوز إعفاؤه من مباشرة الأعمال بنفسه إذا لم تكن هناك ضرورة، فإذا وجدت الضرورة أو المصلحة الراجحة في مشاركة القائد جنوده في جهادهم وقتالهم في الحرب جازت هذه المشاركة، وكذا القول في مشاركة أمير الجماعة؛ جماعة الدعاة، إخوانه الدعاة في أعمال معينة من أعمال الدعوة، للمصلحة الراجحة، فتجوز المشاركة أو تترجح أو تجب حسب الظروف والأحوال. وعلى هذا الأساس نفهم وجه مشاركة رسول الله ﷺ لجنوده في أعمال القتال في معارك بدر وأحد وحنين، وفي خروجه معهم في غزوة تبوك كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى. فإذا جازت هذه المشاركة في القتال. كما حصلت من سيدنا محمد ﷺ للمصلحة في هذه المشاركة، فجوازها لأمير جماعة الدعاة فيما دون القتال أولى. ولكن يجب أن يكون مفهوماً ومعلوماً أن تقدير المصلحة الداعية إلى مشاركة الأمير في بعض أعمال الدعوة، يرجع - أي تقدير هذه المصلحة - لأمير الجماعة بعد مشاورة أهل الشورى في جماعته.

١١٥٦- الأخذ بالقرائن:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ سأل الغلامين اللذين جيء بهما إلى رسول الله وكانا يستقيان لجيش قريش، سألهما عن عددهم فقالا: لا نعلم، فسألهما: كم ينحرون كل يوم، فقالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. فاستدل بذلك على أن عددهم بين التسعمائة والألف، وكان الأمر كما قال ﷺ. فعلى الدعاة وجماعتهم الاستدلال بالقرائن على ما يريدون معرفته من الأمور، وأن لا يتحرجوا من الأخذ بها بحجة أن القرائن لا تعطينا يقيناً وإنما ظناً، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، لأن غلبة الظن تنزل في المعاملات منزلة اليقين، والقرائن تعطينا غلبة الظن وهذا يكفي. ثم إن الأخذ بالقرائن في مجال الدعوة وأعمالها محمولٌ على الأخذ بالاحتياط وبالحذر وهما من الأمور المشروعة وليس فيهما شيء ممنوع شرعاً. ومن موجبات أو من دواعي الأخذ بالقرائن وبالتالي الأخذ بالاحتياط والحذر أنه قد يندس في صفوف

جماعة الدعاة من ليس منهم، ليتجسّسَ عليهم أو ليكيد لهم، وقد تظهر قرائن على سوء نية هذا المندس وخبث قصده، ومن هذه القرائن أقواله المريبة وأفعاله وحركاته التي يمكن الاستدلال بها على باطنه، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن المنافقين يمكن معرفتهم في لحن القول، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[٢٢٨٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ أي في لحنه وأسلوبه. وقيل اللحن: أن تلحن بكلامك أي تميلُهُ إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية[٢٢٨٥]. وفي تفسير ابن عطية: لحن القول معناه مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إنسان قولاً معتقداً له وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول. أو ما يفهمه عنك صاحبك ويخفى على غيرك[٢٢٨٦]. فلا حرج على الداعية أو الدعاة أو جماعتهم أن يأخذوا بالقرائن التي تثير الشكوك والريب في بعض المندسين في صفوف الجماعة فيحتاطوا للأمر فلا يظهروهم على أعمال الجماعة، ولا يكلفوهم بأعمال الدعوة، ويراقبوهم عن بعد حتى ينكشف أمرهم ولا يُؤخَذوا من قبلهم.

١١٥٧- النظام والتنظيم في العمل الجماعي:

ذكرنا أن النبي ﷺ نظم جيشه في صفوف وذلك في صبيحة يوم ١٧ رمضان وهو يوم معركة بدر، مما يشير إلى أن التنظيم لا بد منه في كل عمل جماعي كالقتال وما دونه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يضبطوا أعمالهم الدعوية بنظام وتنظيم، لا أن تصدر أعمالهم الدعوية عفوية من غير منهج ولا هدف ولا نظام ولا تنظيم، إن العمل المنظم الصادر بموجب منهج محدد يؤتي من الفوائد والثمار وإن كان قليلاً ما لا يؤتيه العمل المنفلت غير المنظم وإن كان كثيراً.

(٢٢٨٤) سورة محمد الآية ٢٩-٣٠.

(٢٢٨٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٢٧.

(٢٢٨٦) تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤١٥، ٤١٧. وفي تفسير القاسمي ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾: أي أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به: تفسير القاسمي ج١٥ ص٥٨.

١١٥٨- التحريض والتشجيع على أعمال الدعوة:

لقد ذكرنا تحريض رسول الله ﷺ على القتال، وأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم وهم في ساحة قتال معركة بدر محرضاً لهم ومشجعاً على القتال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، فعلى أمير جماعة الدعاة أن يحرض إخوانه أفراد جماعته ويشجعهم على أعمال الدعوة؛ مذكراً إياهم بأن لهم الجنة إن شاء الله تعالى. إن النفوس والهمم قد تفتر وتكسل عن العمل الدعوي فتحتاج إلى شحنة إيمانية تعيد لها حرارة الإيمان؛ وذلك بتذكيرهم بجزاء العاملين في الدعوة إلى الله، وبأن من سبقهم جاهدوا وجادوا بأنفسهم؛ وأنهم اليوم يجاهدون بالكلمة الطيبة وهي على كل حال أيسر من الجهاد بالنفس، وأن أجرهم على جهادهم مضمون ومدخّر عند رب العالمين؛ وسُيعطَوْنَهُ أحوج ما يكونون إليه، يعطونَهُ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

١١٥٩- عوامل نصر الدعوة والدعاة:

وعلى الدعاة وأمير جماعتهم أن يتذكروا ما بيَّنَهُ الله تعالى من عوامل نصر المؤمنين، وذلك في الآيات التي وردت في سياق ما نزل بشأن معركة بدر، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، فعوامل النصر على الكفار ثبات في مواجهتم، ودوام الاتصال بالله بدوام ذكره، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع والاختلاف؛ والصبرُ بالله ولله، وإخلاص العمل لله، وهذه هي عوامل نصر المسلمين على الكفار وهي نفسها عوامل نصر الدعوة والدعاة إلى الله.

١١٦٠- أولاً- الثبات:

الآية التي ذكرناها تخاطب المؤمنين، وتأمرهم بالثبات أمام الكفار في مواجهتهم لهم بالقتال، وعدم الفرار من أمامهم؛ لأنهم على الحق ويدافعون عن

الحق، وخصومهم على الباطل ويدافعون عن الباطل، فهم أولى بالثبات منهم، وإذا كان هذا الثبات مطلوباً من المسلمين في القتال، فهو مطلوب من الدعاة من باب أولى؛ لأن جهادهم بالكلمة أيسر من الجهاد بالقتال. فلا يجوز للدعاة وجماعتهم أن يفروا من أمام خصومهم ويتركوا جهادهم القولي. نعم؛ قد يضطرون إلى ترك العلانية وغيرها من صيغ تبليغ الدعوة، والاستعاضة عنها بصيغ أخرى، ولكن لا يجوز لهم مطلقاً ترك جهادهم القولي، أي تبليغ الدعوة ما دام هناك سعة للتبليغ بصيغة تناسب الظروف والأحوال. إن على جماعة الدعاة أن تذكّر أفرادها بأن مما يشين الداعية ولا يليق به أن يترك الساحة لأهل الباطل يعبثون بها ويملؤون الدنيا بضجيج باطلهم، وهو ساكت يبخل عن الدعوة بكلمة حق يقولها فراراً منه أمام أهل الباطل.

١١٦١- ثانياً- دوام الاتصال بالله بدوام ذكره:

الآية الكريمة تخاطب المؤمنين وهم في ساحة القتال أن يذكروا الله كثيراً، بقلوبهم وبألسنتهم؛ وبما يستحضرونه في آذانهم من وعد الله للمؤمنين بالنصر والتأييد، وإن من كان الله معه فهو المُؤَّيدُ المنصورُ.. فهذا الذكر الدائم هو الذي يجعل المسلم باتصال دائم بربه القوي العزيز، وبهذا الاتصال الدائم يحس الداعية بمعية الله له، وبرجاء يملأ قلبه بأن الله ناصره وناصر دعوته على الباطل وأهله.

١١٦٢- ثالثاً- طاعة الله ورسوله:

وطاعتهما تكون باتباع ما أمر الله به في كتابه العزيز، وما أمر به رسوله ﷺ في سنته المطهرة. ومن هذا الأوامر ما يتعلق بالدعوة وتبليغها وما تقتضيه وتستلزمه من وسائل وأساليب التبليغ الفردي أو عن طريق الجماعة، وما يقتضيه العمل الجماعي من طاعة لأمير الجماعة بالمعروف؛ لأن طاعته بالمعروف طاعة لله ولرسوله ﷺ، وبهذه الطاعة الرشيدة الشرعية تنجو الجماعة من الفرقةِ والاختلاف، وتتحقق الأخوة الإيمانية ووحدة القلوب، فينالها من عون الله وتأييده الشيء الكثير إن شاء الله تعالى؛ لأن يد الله مع الجماعة.

١١٦٣- رابعاً- عدم التنازع والاختلاف:

لا أضرَّ على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، من التنازع أو الاختلاف؛ ولهذا حذرنا الله منه، وقدَّم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يُشعِر بأن العاصم من التنازع والاختلاف المقيتِ هو الالتزام بطاعة الله ورسوله، هذه الطاعة التي تستلزم طاعة أمير جماعة الدعاة فيما يأمر به من معروف أي في غير معصية الله تعالى، وطاعته في هذه الحالة في حقيقتها وجوهرها طاعة لله ولرسوله، فلا يجوز لأفراد جماعة الدعاة أن يمتنعوا من طاعة أميرهم في المعروف؛ لأنها كما قلت هي في جوهرها طاعة لله ولرسوله، وعليهم أن يعتبروها كطاعة المأموم في صلاة الجماعة لإمام الجماعة في متابعته له. وليفرق أفراد الجماعة بين إبداء الرأي وبين الرأي الواجب الأخذ به. فإبداء الرأي مشروع غير ممنوع، وهو حق لأفراد الجماعة، ولكن الرأي المطاع هو رأي أمير الجماعة لا رأيُ غيره ما دام في حدود المشروع.

١١٦٤- خامساً- الصبر:

والصبر ضروري لكل عامل يريد الوصول إلى هدفه وغايته، والدعاة أحوج من غيرهم إلى الصبر ومصابرة خصومهم حتى يصلوا إلى هدفهم وغايتهم؛ لأنهم بهذا الصبر والمصابرة يكونون أكثر ثباتاً، وأقرب إلى الفوز من خصومهم. وعلى الدعاة أن يجعلوا صبرهم بالله ولله، يجعلوه بالله أي يستعينوا بالله ليصبّرهم، ويجعلوه لله أي في سبيل مرضاة الله. وبدون هذا الصبر ربما يصيب الدعاة فتور وكسل ثم قعود عن العمل للدعوة، لما يلاقونه من أذى في سبيل دعوتهم، وعقبات في طريقهم، ولذلك يقرن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر؛ لحاجة القائم بالأمر بالمعروف الناهي عن المنكر إلى الصبر.

١١٦٥- سادساً- إخلاص العمل لله:

إن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صحيحاً وخالصاً لوجه الله تعالى. ويكون صحيحاً إذا كان وفق الشرع، ويكون خالصاً لله إذا لم يشرك العاملُ غيرَ الله في عمله، أي أن يكون خالياً من الرياء، فعلى الدعاة أن يحرصوا على جعل أي

عمل يقومون به من أعمال الدعوة خالصاً لوجه الله وطلباً لمرضاته، وطاعة له، حتى يبارك الله في أعمالهم ويسدد خطاهم ويمدهم بعون من عنده.

١١٦٦- وما النصر إلا من عند الله:

على الدعاة أن يفقهوا هذه الحقيقة الواضحة وهي: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٢٦، الأنفال:١٠] مهما باشر المسلمون من أسباب فهذه الحقيقة باقية، وهي ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إن على الدعاة أن يأخذوا بأسباب نجاح دعوتهم وهذا شيء حسن ومطلوب شرعاً، ولكنَّ اعتمادهم في بلوغ الهدف على الله وليس على ما يباشرونه من أسباب. وقد أرشدتنا إلى هذه الحقيقة مواقف رسول الله ﷺ في معركة بدر، فبعد أن نظم رسول الله ﷺ جيشه وأعطاهم تعليماته، ذهب إلى عريشه وهناك دعا ربه مع إلحاح في الدعاء واستغاثة به. ومع أن الله استجاب لدعوة رسوله ﷺ فأمدّ المسلمين بالملائكة، ومع هذا الإمداد الذي أخبر المؤمنين به بقيت الحقيقة الخالدة الواضحة وهي: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بل وأعلمهم الله بها مع إخباره لهم بإمدادهم بالملائكة فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٢٢٨٧]. إن على الدعاة أن يستحضروا هذه الحقيقة في نفوسهم ويفقهوها جيداً مع أخذهم بالأسباب، مما يجعلهم بعيدين جداً عن معاني الغرور والعجب والفخر والتلفت إلى ما عندهم. إن عليهم أن يعرفوا بأن كل ما ينالونه من نصر على خصومهم ونجاح في عملهم الدعوي هو محض فضل الله عليهم؛ وأن ما يأخذون من أسباب هي نفسها من فضل الله عليهم إذ أرشدهم إليها وهداهم إلى الأخذ بها ويسرّ لهم حصولها. والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى بوضوح؛ فينفي عن المسلمين في بدر أنهم قتلوا المشركين بقوتهم، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة لتعينكم وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر لكم، وقوّى قلوبكم، وأذهب عنها الفزع والجزع[٢٢٨٨]. فعلى الدعاة أن يستحضروا في

(٢٢٨٧) سورة الأنفال، الآيتان ٩-١٠.

(٢٢٨٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٩٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٠٧.

نفوسهم فضل الله عليهم في جميع أعمالهم، وأن لا يفتخروا بشيء منها؛ لأنها من فضل الله لا بفضلهم. وليعلموا على وجه اليقين أن كل نصر ينالونه هو محض فضل الله عليهم على وجه الحقيقة لا المجاز. وبهذا العلم والإحساس بمضمونه تزكو نفوسهم وتزكو أعمالهم، ويتطهرون من أقذار العجب بالنفس، والفخر والتعالي على الناس والغرور، فيقبلون على الناس بدعوتهم، وهم بهذا القدر من الطهارة، فيكلمونهم بتواضع ورفق ونصح، لا بفخر واستعلاء عليهم، فيكون احتمال إجابتهم كبيراً.

١١٦٧- نعم الله على الدعاة تستوجب شكره:

على الدعاة أن يتذكروا نعمة الله عليهم أن وفقهم إلى الإسلام، وجعلهم دعاة إليه، وهذا يستوجب شكره تعالى. وعليهم أن يشكروه تعالى على أي نجاح في تبليغهم الدعوة، لأن الله يثيبهم عليه، وثواب الله من أعظم نعمه على الإنسان. والذي يعينهم على شكر الله الشكر المرضي عنده هو تقواهم؛ لأن التقوى هي التي تبصّر المسلم بعظم نعِم الله عليه وبواجب الشكر لله على هذه النعم التي لا تُعَد، ولهذا ذكرّ الله تعالى المسلمين بنعمة النصر عليهم في معركة بدر، وأمرهم بتقوى الله حتى يمكنهم شكر الله كما يجب، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢٢٨٩].

١١٦٨- من كثَّر سواد أعداء الدعوة عومل مثلهم:

وعلى الدعاة وجماعتهم أن يكونوا حازمين فلا يسمحوا لأحد أن يكثّر سواد أعداء الدعوة، فيكون معهم مكثراً عددهم مدعياً أنه ليس منهم، فهذا التكثير والادعاء غير مقبول منه، ولا يجوز أن تتساهل فيه جماعة الدعاة، أو تقبله أو تغضّ الطرف عنه؛ لأنه يخلط الأمور، ويمنع التمايز بين المسلمين الدعاة إلى الله وبين القاعدين والمخذلين والكارهين للدعوة أو الأعداء لها. ثم إن في السماح للشخص بأن يكون مع خصوم الدعوة، يغشىٰ مجالسهم وأنديتهم وتجمعهم، ويشاركهم بحضوره في أعمالهم ضد الدعوة، يدفع الآخرين إلى أن يفعلوا نفس هذا الفعل.

(٢٢٨٩) سورة آل عمران، الآية ١٢٣.

فعلى جماعة الدعاة أن تعامل هؤلاء الأشخاص معاملتهم لخصوم الدعوة. ودليلنا على ذلك ما ذكرناه من قبل في قصة أسرى بدر، فقد جاء في أخبارها أن النبي ﷺ قال لعمه العباس وقد كان من أسرى بدر: «يا عباس افدِ نفسكَ». فقال: «إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني» أي إن قريشاً أكرهتني على الخروج معهم لقتالكم- فقال ﷺ: الله أعلم بما تقول، إن كنت تقول حقاً فإن الله يجزيك، ولكنَّ ظاهر أمرك أنك كنت علينا[٢٢٩٠]. فعامله النبي ﷺ معاملة أسرى المشركين فأخذ منه الفدية.

١١٦٩- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم:

قد يحب المسلم شيئاً ويؤثره على غيره، وقد يكره شيئاً ويؤثر غيره عليه، ويكون الخير فيما يكرهه لا فيما يحبه. وهذا ما وقع في الأحداث التي سبقت معركة بدر، فقد خرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين للتصدي لعير قريش «قافلتهم»، وقال لهم رسول الله ﷺ: عسى الله أن ينفلكموها بالاستيلاء عليها، ولكن العيرَ أفلتت، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن الله وعدني إحدى الطائفتين: العير، أو النفير- جموع قريش- فكان ميل المسلمين أن تكون لهم العير لا النفير لسهولة الإستيلاء عليها، ولم يتبين لهم آنذاك الخير العظيمُ الذي سيتحقق لهم في مواجهتهم لنفير قريش والتغلب عليهم، وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الحق، وتقوية نفوس المسلمين، وإرهاب أعداء الإسلام؛ إلى غير ذلك من النتائج الحميدة، التي ما كان يمكن أن تحصل لو كان نصيب المسلمين الاستيلاء على عير قريش، وقد أشار القرآن إلى ما قلناه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٢٢٩١]. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يؤثروا دائماً ما فيه الخير وما هو الأصلح والأنفع للدعوة وإن كان فيه شيء من الصعوبة والمشقة؛ لأن الأصلح والأنفع للدعوة هو ما يحبه الله. والشأن في السملم أن يؤثر ما يحبه الله على ما تحبه نفسه وإن كان ما تحبه نفسه مباحاً.

(٢٢٩٠) انظر الفقرة ١١٣٥.

(٢٢٩١) سورة الأنفال، الآية ٧.

١١٧٠- كيف نعرف أن الخير فيما نكرهه لا فيما نحبه:

وقد يقول قائل: كيف لنا أنَّ نعرف أن الخير فيما نكرهه والشر فيما نحبه، وهل كل ما نكرهه يكون فيه الخير وكل ما نحبه يكون فيه الشر؟ والجواب: لا شك أن معرفة ذلك قد تصعب؛ لأن ما هو الأصلح للدعوة والذي فيه الخير لها قد يدقُّ جداً ولا يظهر ظهوراً بيناً، وقد يلتبس بغيره، ولكن مع هذا لا تستحيل معرفته. وسبيل معرفته أن يعرض الدعاة ما يحبونه ويؤثرونه على غيره مع هذا الغير الذي يكرهونه ونتائج فعل كل منهما، أن يعرضوا ذلك كله على معاني الإسلام ومقاصد الدعوة إلى الله، يعرضوا ذلك بتجرد وموضوعية متجردين من أهواء النفس؛ ملاحظين فقط ما ينفع الدعوة ويحقق مقاصدها، ومتضرعين إلى الله أن يلهمهم الصواب، ويقولون في تضرعهم ودعائهم ما كان يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية في دعائه وتضرعه إلى الله: «يا معلم إبراهيم علمني» فإذا فعلوا ذلك، فالغالب إن شاء الله تعالى أن يوفقوا إلى الصواب ويختاروا ما فيه الخير وما هو الأصلح والأنفع للدعوة.

١١٧١- الأخذ بالاجتهاد المرجوح في تقدير مصلحة الدعوة:

وقد تدقُّ المصلحة الحقيقة للدعوة أو يدق ما هو الأصلح لها إلى حدّ الأخذ بالاجتهاد المرجوح في تقدير مصلحة الدعوة، أو تقدير ما هو الأصلح لها، ومن أمثلة ذلك أخذ الفداء من أسرى المشركين فقد تبين مما أنزله الله تعالى أن أخذ الفداء كان من قبيل الاجتهاد المرجوح بدليل وقوع العتاب عليه، إذ كان الراجح عدم أخذ الفداء منهم[٢٢٩٢]. ولم يؤاخذهم الله عليه، لأنه لم يكن قد نزل وحيّ بحكم الأسرى، فكان ما فعلوه في هذه الحالة من قبيل الاجتهاد السائغ وإن لم يوفقوا فيه إلى الراجح أو إلى الصواب.

١١٧٢- ما تفعله جماعة الدعاة فيما لا نصّ فيه:

وبناء على ما ذكرته في الفقرة السابقة، فإذا واجهت الدعاةَ أو جماعتَهم أحداثٌ لا يوجد لها حكم شرعي صريح، جاز لهم الاجتهاد لمعرفة الحكم الشرعي في ضوء اجتهادهم، وفق ضوابط الاجتهاد السائغ المقبول. فإذا أخذت جماعة الدعاةِ برأي

(٢٢٩٢) انظر الفقرة ١١٣٦.

ما في مسائل الاجتهاد، فعلى أفراد الجماعة أن يعملوا بهذا الرأي الذي توصلت إليه باجتهادها، وينفذوه كأنه رأيهم، ولا يسوغ لأفراد الجماعة أن يخالفوا هذا الرأي الاجتهادي للجماعة، ولا أن يشيعوا بين أفراد الجماعة أن هذا الرأي خطأ، وأننا ننفذه مكرهين، فهذا القول محظور شرعاً؛ لأن فيه إضعافاً لوحدة الجماعة وبالتالي مدخلاً للشيطان؛ لإحداث الفرقة والانشقاق، فليحذر الدعاة ذلك وليتذكروا أن عليهم واجب الطاعة لجماعتهم وأميرها بالمعروف، ومن الطاعة بالمعروف الطاعة في الأمور الاجتهادية، ولأن رأيهم ليس بأولى وأحق بالاتباع من رأي الجماعة وأميرها.

١١٧٣- التصفية الجسدية للدعاة:

ذكرنا اتفاق صفوان وعمير على قيام الأخير باغتيال رسول الله ﷺ، لقاء مكافأة يقدمها صفوان له، وهذا يدلنا على أن أعداء الإسلام لا يكتفون برفض الإسلام أو الدعوة إليه بل يريدون قتل حملته ودعاته، ولا يسلم من إرادتهم الشريرة هذه حتى رسول الله ﷺ، فقد أرادوا قتله وهو بمكة، وأرادوا قتله بعد هجرته إلى المدينة. فعلى الدعاة أن يضعوا في حسابهم أن أعداء الدعوة قد يبلغ بهم الحقد، وبغض الدعوة والدعاة إلى حدّ العمل الحثيث، والسعي الخبيث إلى تصفيتهم جسدياً، بحبك المؤامرات لاغتيالهم. فعلى الدعاة أن يحذروهم، لأن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة إليها أنفسهم، وتدبير المؤامرات لقتلهم. وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ غرضهم الخسيس هذا: قتل الدعاة. وقد يكون أعداء الدعوة من أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة فيستغلون سلطانهم ومراكزهم فيلفقون التهم الباطلة التي تكون عقوبتها الإعدام بموجب قوانينهم الباطلة. وما نقوله ليس من قبيل الخيال والمبالغات وإنما هو من الواقع المتكرر هنا وهناك، فعلى الدعاة أن يكونوا حذرين جهد الإمكان والاستطاعة، ويعتمدوا على الله في حفظهم ورد كيد الأعداء عنهم، فالله هو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وليكرروا دائماً قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

١١٧٤- من أجل العقيدة يقاتل الأخ أخاه:

من أجل العقيدة قاتل المسلم أخاه المشرك في بدر؛ لأن العقيدة تعلو على ما سواها، ولأن رابطتها تعلو على رابطة النسب، فيكون الولاء لها ولمعتنقيها، والبراء ممن يرفضها ولو كان ذا رحم محرم؛ فليعرف الدعاة ذلك وليبينوه للناس، حتى لا يقعوا في العصبيّةِ الجاهلية التي يقدمونها على رابطة العقيدة الإسلامية.

١١٧٥- يُسَامَحُ أهل بدر على ما لا يُسامح عليه غيرهم، ودلالة ذلك:

أهل بدر، المسلمون الذين قاتلوا في معركتها، لهم منزلة عالية جداً في الإسلام، وعلى أساسها سومحوا بما لم يسامح غيرهم عليه، فلم يحُاسَب من صدر منهم تقصير يستوجب الحساب والعقاب، لما قدموه من تضحيات جسام في أول معركة وقعت بين المسلمين والمشركين، فاستحقوا العفو والصفح عما قد يقع منهم من زلات وسيئات، فقد عفا ﷺ عن حاطب بن بلتعة على ما صدر منه من عمل يُؤاخَذ عليه حتى قال عنه عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضربْ عنقه، لما تبيّن أنه كتب إلى قريش كتاباً يخبرهم فيه عن نية توجُّهِ النبي ﷺ والمسلمين معه إلى فتح مكة. ولكنَّ رسول الله ﷺ لم يسمح لعمر تنفيذ ما قاله، وإنما قال عليه الصلاة والسلام لعمر: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت الجنة - أو قال: قد غفرت لكم. فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[٢٢٩٣]. فعلى الدعاة وجماعتهم وأميرهم أن يعرفوا منازل إخوانهم وسوابقهم في الدعوة وجهادهم فيها. فيعفوا ويصفحوا عن هفواتهم وتقصيرهم في بعض الأحيان؛ وأن يغضُّوا الطرف عن هفواتهم التي قد تصدر منهم، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وحسنات الدعاة القدامى كثيرة جداً يستحقون بها العفو والصفح عما قد يصدر منهم من هفوات، وليتذكروا قصة حاطب وعفوَ الرسول ﷺ؛ فلا يستوي المجاهدون المضحُّونَ من الدعاة في أوقات الشدائد وفي بدء الدعوة مع المجاهدين الذين جاؤوا من بعدهم ولم يُمتَحنوا امتحانهم، وكلاً، يصيبه وعد الله

(٢٢٩٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٠٥.

للمجاهدين بالحسنى إن شاء الله، ولكن هي العدالة وما تستلزمه من إعطاء كل ذي حق حقه، وإنزال كل مسلم منزلته التي يستحقها في ضوء جهاده في مجال الدعوة.



الفصل السابع
غزوة أُحُد

١١٧٦ - تمهيد وتقسيم:

غزوة أحد أو معركة أحد وقعت بعد غزوة بدر، وفيها من العبر والعظات ما يجب على الدعاة وجماعتهم معرفته وعدم إغفاله، وقد رأيت تقسيم هذا الفصل إلى مباحث حتى يسهل الوقوف بحوادث ووقائع هذه الغزوة وما سبقها وما لحقها. ثم أبين المستفاد من ذلك كله للدعوة والدعاة. وعلى هذا جاءت مباحث هذا الفصل على النحو التالي:

المبحث الأول - أسباب هذه الغزوة والإعداد لها.
المبحث الثاني - خروج النبي ﷺ لملاقاة العدو.
المبحث الثالث - النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة.
المبحث الرابع - نشوب القتال وما جرى فيه.
المبحث الخامس - ما نزل من القرآن بشأنِ معركةِ أحدٍ.
المبحث السادس - المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة.

البحث الأول

أسباب غزوة أحد والإعداد لها

١١٧٧- أسباب غزوة أحد وإعداد قريش لها:

سميت غزوة أحد، أو معركة أحد، لأنها وقعت بقرب جبل أحد، وهو يبعد عن المدينة بما يقرب من فرسخ، وقد وقعت هذه المعركة في السنة الثالثة للهجرة، وكان من أهم أسبابها ما أصاب قريشاً من هزيمة منكرة وقتلٍ لآكابرها في معركة بدر، فأرادوا الانتقام من المسلمين في معركة يعدون لها ما استطاعوا من القوة. وكان رئيس المحرضين لقتالِ المسلمين أبو سفيان، فراح يحرض الناس على الانتقام من المسلمين، وطلب هو وغيره من أهل مكة التبرع بما لهم من أموال في قافلته التي أفلتت من المسلمين، وكانت هي سبب القتال في معركة بدر، فقبلوا بالتبرع للمشاركة في إعداد الحملة لقتال المسلمين، كما تبرع أبو سفيان وغيره بأموالهم سواء التي لهم في القافلة التي أفلتت من المسلمين أو من غيرها، وذلك لغرض الإنفاقِ على إعداد الجيش لقتال المسلمين[٢٢٩٤].وفي هؤلاء المنفقين أموالهم لإعداد الجيش لقتال المسلمين نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ، لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٢٢٩٥]. وقد جاء في سبب نزولها: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع أبو سفيان بعيره - بقافلته - كلّم بعضهم أبا سفيان ومن كانت له أموال في تلك القافلة؛ بالتبرع بهذه الأموال لمحاربة المسلمين وصد الناس عن اتّباع سبيل محمد ﷺ وهو سبيل الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية أو الآيتين، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن

(٢٢٩٤) الرحيق المختوم ص٢٢٤.

(٢٢٩٥) سورة الأنفال الآيتان ٣٦،٣٧.

عينية وقتادة والسدي أنها نزلت في أبي سفيان وإنفاقه الأموال لقتال المسلمين. وقال ابن كثير: هي عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً(٢٢٩٦).

١١٧٨- قريش تستعين بالشعراء:

وكان من شدة حقد قريش على المسلمين وعزمها على محاربتهم أن صفوان بن أمية أغرى الشاعر أبا عزة على القيام بتحريض القبائل ضد المسلمين، ووعده بمكافأة مجزية إن فعل ذلك. علماً بأن أبا عزّة كان أسيراً مع أسرى بدر وأطلق النبي ﷺ سراحه بغير فداء، وأخذ منه عهداً بأن لا يقوم بشيء ضد المسلمين. فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تثير الحماس فيهم على مساعدة قريش فيما تعده لمحاربة المسلمين، وكذلك اختارت قريش شاعراً لنفس الغرض هو مسافع بن عبد مناف الجمحي(٢٢٩٧).

١١٧٩- إكمال إعداد جيش قريش:

وبعد سنة من التحريض على قتال المسلمين استطاعت قريش أن تجمّع جيشاً من رجالها وحلفائها بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل مع ثلثمائة بعير ومائتي فرس. وقد رأوا إخراج النساء معهم ليكون ذلك أبلغ في استماته الجند على القتال. ثم تحرك الجيش نحو المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، بقيادة أبي سفيان، وقد جعل خالد بن الوليد على قيادة الفرسان(٢٢٩٨).

١١٨٠- العباس يخبر الرسول ﷺ بتحرك جيش قريش:

وكان العباس في مكة وهو يراقب ما تفعله قريش، فلما أتمّت إعداد الجيش وأمرته بالتوجه إلى المدينة أرسل العباس رسولاً على عجل ليبلغ رسول الله ﷺ بذلك. وقد وصل رسول العباس إلى المدينة وسلّم الرسالة إلى النبي ﷺ فقرأها عليه أبيّ بن كعب وأمره بكتمانها(٢٢٩٩).

(٢٢٩٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢١٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٠٧.

(٢٢٩٧) الرحيق المختوم ص٢٢٤.

(٢٢٩٨) الرحيق المختوم ص٢٢٥.

(٢٢٩٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٧.

١١٨١- وصول جيش المشركين إلى أحد:

وصل جيش المشركين، جيش قريش، الذي جمعته، وصل إلى جبل أحد قريباً من المدينة، وكان ذلك في ٦ شوال من السنة الثالثة للهجرة. وكانت أخبار هذا الجيش وتحركاته تصل إلى النبي ﷺ عن طريق من يرسلهم لاستكشاف أخباره، فجاءت أخبار هؤلاء المُرسَلين تؤكد ما أخبره به العباس، وتفيد بأن جيش المشركين قد اقترب من المدينة، ونزل فعلاً بالقرب من جبل أحد، مما جعل المسلمين في المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارقهم سلاحهم حتى وهم في الصلاة. وقامت جماعة من المسلمين في المبيت في المسجد وعلى باب بيت رسول الله ﷺ ومعهم سلاحهم لحراسة رسول الله ﷺ. كما قامت جماعات من المسلمين على مداخل المدينة ترصد العدو لئلا يتسلل إلى المدينة ويأخذ أهلها على حين غرة وغفلة منهم[٢٣٠٠].

١١٨٢- النبي ﷺ يشاور أصحابه[٢٣٠١]:

ولما تبيّن للنبي ﷺ أن جيش المشركين صار قريباً من المدينة، وأن القتال أصبح لا مفرَّ منه، شاور ﷺ أصحابه في الأمر، فكان ذلك في يوم الجمعة، وكان ﷺ قد رأى رؤيا ليلة الجمعة قصّها على أصحابه فقال لهم: «إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تُذَبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة». وتأول ﷺ البقر بنفر من أصحابه يُقتَلون. وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيتِهِ. وتأول الدرع بالمدينة، فمن ثَمَّ كان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة والتحصن فيها، فإن دخل عليهم العدو قاتلوه. ورأى هذا الرأي شيوخُ المهاجرين والأنصار، وكان هذا أيضاً رأيَ عبد الله بن أبي بن سلول باعتباره من زعماء الخزرج، ولكن الكثيرين ولا سيما الشباب منهم ممن لم يشهد بدراً أو شهدها وأمتعهم الله بالنصر، قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ولا يرون أنّا قد جبنّا عنهم. ثم دخل بيته عليه الصلاة والسلام فلبس لأمته - عدة الحرب كالدرع ونحوها

(٢٣٠٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٧-١٨٨.

(٢٣٠١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٠، صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٦، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٨، الرحيق المختوم ص٢٢٦-٢٢٧.

- ثم خرج عليهم، فلما رآه الذين أشاروا بالخروج ندموا، وقالوا: يا رسول الله لقد ألححنا بالخروج ولم يكن لنا ذلك، يا رسول الله إن شئت أن نمكث في المدينة، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له» وفي رواية: «ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

المبحث الثاني
خروج النبي وأصحابه لملاقاة العدو

١١٨٣- الإعلام بخروج النبي ﷺ:

ثم أذَّنَ مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج، فخرج ﷺ بألف من الصحابة، وقد جعلهم ثلاث كتائب: كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها إلى مصعب بن عمير، وكتيبة الأوس من الأنصار وأعطى لواءها أسيد بن حضير، وكتيبة الخزرج من الأنصار وأعطى لواءها الحبّاب بن المنذر[٢٣٠٢].

١١٨٤- إنا لا نستعين بكافر على مشرك:

وفي طريق سيره ﷺ رأى عليه الصلاة والسلام كتيبة كثيرة العدد وافرة السلاح منفردة عن جيش المسلمين، فسأل عنها فقيل له: إنهم من اليهود حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول، يرغبون في المساهمة مع المسلمين في قتال المشركين، فقال ﷺ: هل أسلموا؟ فقالوا: لا، يا رسول الله. فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم، إنا لا نستعين بكافر على مشرك»[٢٣٠٣].

١١٨٥- إرجاع النبي الصغار في جيشه[٢٣٠٤]:

ولما وصل النبي ﷺ وجيشه إلى مكان يسمى «الشيخان» استعرض عليه الصلاة والسلام جيشه، فأخرج منه من رآه صغيراً لا يطيق القتال وكان قد لحق بالجيش وانضم إليه وخرج معه، وكان من هؤلاء الصغار عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت بن أرقم وغيرهم. وأجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج وأبقاه في الجيش؛ لأنه كان ماهراً في رماية النبل بالرغم من صغر سنه، وقد كان في

(٢٣٠٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٨.

(٢٣٠٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٨.

(٢٣٠٤) الرحيق المختوم ص٢٢٨-٢٢٩.

الجيش فتى هو سمرة بن جندب، احتج على عدم قبوله في الجيش مع قبول رافعٍ مع أنه أقوى منه وأنه يستطيع أن يصرعه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعاهما وأمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا فصرع سمرة رافعاً، فأجاز النبي ﷺ سمرة وأبقاه في الجيش.

١١٨٦- انسحاب عبد الله بن أبي وأصحابه من جيش المسلمين:

فلما وصل النبي ﷺ وجيشه إلى (الشوط) وهو مكان بين المدينة وأحد، أظهر عبد الله بن أبي بن سلول تمرده وعصيانه وخرج وأصحابه من الجيش، وعددهم (٣٠٠) مقاتل وهو يقول: علام نقتل أنفسنا أيها الناس؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه بالبقاء في المدينة وأخذ برأي غيره. والواقع أن تمرد المنافق وأصحابه المنافقين كان مكيدة منه، وبقصد إحداث البلبلة والارتباك في صفوف المسلمين، وتقويةً لجيش الكافرين الذين كانوا على مقربة شديدة من المسلمين[٢٣٠٥].

١١٨٧- تزلزل طائفتين من المسلمين:

وقد همت طائفتان من جيش المسلمين هما بنو سلمة وبنو حارثة، همت هاتان الطائفتان أن ترجعا؛ وتخرجا من جيش المسلمين ولا تشتركا في القتال؛ لولا أن ثبتهما الله تعالى وعصمهما من الوقوع في هذه الخطيئة، قال تعالى فيهما: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢٣٠٦] والهمُّ من الطائفتينِ كان بعد خروج المنافق عبد الله بنِ أبي بن سلول؛ فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا فذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم[٢٣٠٧]. والظاهر أنَّ همهما كان حديث نفس كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطئها على احتمال المكروِه، ولو كان الهم عزيمة لما ثبتت لهما معها الولاية والله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

(٢٣٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٨٩، الرحيق المختوم ص٢٢٩.

(٢٣٠٦) سورة آل عمران، الآية ١٢٢.

(٢٣٠٧) تفسير القرطبي ج٤ ص١٨٦.

ويجوز أن يكون المراد بالآية: والله ناصرهما ومتولي أمرهما فمالهما تفشلان أي تجبنانِ ولا تتوكلان على الله تعالى[2308].

١١٨٨- اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم:

ولما رجع المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه المنافقون، تبعهم الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام ليردهم إلى جيش المسلمين فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا رسول الله، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، ونحو هذا القول. فقال له ابن سلول: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكنّا معكم. فلما يئس منهم عبد الله قال لهم: اذهبوا أعداء الله، فسيغني الله رسوله عنكم، ومضى مع النبي ﷺ واستشهد رحمه الله[2309]. وفي هؤلاء المنافقين: ابن سلول وأصحابه، نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ. وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾[2310]. وجاء في تفسير هاتين الآيتين: قوله تعالى: ﴿نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ﴾ الإشارة بهذا القول إلى عبد الله بن أُبي بن سلول وأصحابه المنافقين الذين خرجوا من جيش المسلمين ورجعوا إلى المدينة. ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ أي ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المسلمين وإن لم تقاتلوا معهم المشركين؛ لأن كثرة السواد - أي تكثير عدد المسلمين - مما يروّع العدو ويضعف عزيمته. قوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾. وقوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن القتال كانوا قبل ذلك اليوم يتظاهرون بالإيمان؛ فلما انسحبوا من جيش المسلمين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر[2311].

(٢٣٠٨) تفسير الكشاف ج١ ص٤٠٩-٤١٠.

(٢٣٠٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣١٠) سورة آل عمران الآيتان ١٦٦، ١٦٧.

(٢٣١١) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٣٧.

المبحث الثالث
النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة

١١٨٩- تعبئة النبي جيشه:

ومضى رسول الله ﷺ وجيشه بعد رجوع المنافق ابن سلول وأصحابه، حتى وصل عليه الصلاة والسلام الشعْب من أحد فجعل ظهره وجيشه إلى أحد؛ أي إلى جبل أحد. ثم بدأ بتنظيم جيشه فجعلهم صفوفاً للقتال، وعرَّفَ كلاً منهم موقعه، وقال لهم ﷺ: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتى نأمره بالقتال». واختار ﷺ خمسين رجلاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وأقامهم فوق جبل يمنْينَ المقابل لجبل أحد لحماية المسلمين من خطر التفاف المشركين عليهم(٢٣١٢). وفي هذا التنظيم نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهو غدوه عليه الصلاة والسلام إلى موقع أحد(٢٣١٣).

١١٩٠- وصية رسول الله ﷺ للرماة بأن لا يتركوا أماكنهم:

أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب قال: «لقينا المشركين يومئذ - أي يوم أحد - وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا...»(٢٣١٤). وجاءت روايات أخرى في تحذير النبي ﷺ الرماة من ترك أماكنهم مهما كان حال المسلمين، ونهاهم صراحة عن ترك مواقعهم، فمن تلك الروايات ما ذكره ابن حجر العسقلاني: أن النبي ﷺ قال للرماة: «لا تبرحوا حتى أرسل إليكم». «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» «لا تبرحوا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير». «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا

(٢٣١٢) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٣٨٣.

(٢٣١٣) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٠٨، والآية في سورة آل عمران ورقمها ١٢١.

(٢٣١٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٤٩.

قد غنمنا فلا تشركونا»[٢٣١٥].

١١٩١- النبي يحرض المسلمين على القتال:

وبعد أن نظم النبي ﷺ جيشه، واختار الرماة، وأوصاهم بما أوصاهم به، حضهم على القتال ومصابرة العدو. وكان من سُبُلِ تشجيعه المسلمين على القتال أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيده سيفاً وقال من يأخذه، أي من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام أبو دجانة سِماك بن خرشة فقال: ما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، وكان من عادتِهِ أنه يختال في مشيته عند مقابلة الأعداء في الحرب؛ وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها عُرِف أنه سيقاتل، فأخرجها واعتصب بها ثم مشى متبختراً بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[٢٣١٦].

١١٩٢- محاولات العدو لإيقاع الفرقة بين المسلمين:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش أن توقع الفرقة بين المسلمين وتحدث البلبلة في صفوفهم، ومن ذلك أنَّ أبا سفيان أرسل إلى الأنصار يقول لهم: «خلّوا بيننا وبين ابن عمنا - يريد محمداً ﷺ - فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم» فردَّ عليه الأنصار بما يكره، ومحاولة أخرى من قريش لتفريق المسلمين وإحداث النزاعِ فيما بينهم فقد جاءهم كافر من المدينة يسمى أبا عامر الراهب؛ ولكن النبي ﷺ سماه (أبا عامر الفاسق)؛ لكفره وعداوته لرسول الله ﷺ؛ حتى إن عداوته بلغت به إلى حدّ أنه ذهب إلى مكة يحرض قريشاً على محاربة رسول الله، فلما جمّعتْ قريش الجموع وكونّت جيشها كان هو أول القادمين مع هذا الجيش، فلما اقترب جيش المشركين من جيش المسلمين خرج أبو عامر الفاسق وأخذ ينادي بأعلى صوته يا معشر الأوس - وكان هو منه نسباً - أنا أبو عامر، فقالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا

(٢٣١٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩١.

(٢٣١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩١.

فاسق، فلما سمع ردّهم قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثم قاتلهم قتالاً شديداً ورماهم بالحجارة[2317].

(2317) الرحيق المختوم ص233.

المبحث الرابع
نشوب القتال وما جرى فيه

١١٩٣- انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في أول القتال:

وبعد الذي ذكرناه من مواجهة الجيشين، نشب القتال بين الفريقين؛ وثبت المسلمون فأنزل الله نصره عليهم وفرّ من أمامهم المشركون. روى الإمام البخاري عن البراء بن عازب أنه قال: «فلما لقينا المشركين، هربوا حتى رأيت النساء -النساء المشركات- يشتدون في الجبل؛ رفعن عن سوقهن؛ قد بدت خلاخيلهنَّ. . »[٢٣١٨].

١١٩٤- استشهاد ثلة من المسلمين:

وقد استشهد في هذا القتال، حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، قتله وحشي إذ كَمَنَ له وراء صخرة فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غيلة. واستشهد مصعب بن عمير حامل الراية، وهو الذي كان قد أرسله النبي ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة إليها ليفقه أهلها ويعلمهم الإسلام. قال خباب: «هاجرنا إلى المدينة مع النبي ﷺ. . إلى أن قال: كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا كساءً كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلا وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه، واجعلوا الإذخر على رجليْهِ»؛ واستشهد آخرون[٢٣١٩].

١١٩٥- مخالفة الرماة لوصايا رسول الله ﷺ:

ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ اختار خمسين رجلاً، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وأجلسهم على الجبل؛ وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم مهما كانت الظروف حتى يأذن لهم. ولكن الذي حصل أن أكثر الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ بالرغم من تحذير أميرهم لهم، وتذكيرهم بأوامر رسول الله ﷺ، جاء في صحيح البخاري في حديث

(٢٣١٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٩.

(٢٣١٩) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٣٨٤.

البراء بن عازب وهو يتحدث عما جرى بعد هزيمة المشركين: «فأخذوا - أي الرماة - يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير أميرهم: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرِفَ وجوههم فأصيب سبعون قتيلا...»[٢٣٢٠] وجاء في شرح العسقلاني لهذا الحديث: وفي رواية: «فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة- أي يوم الغنيمة- ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟» وزاد: فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينَّ الناس فلنصيبَنَّ من الغنيمة»[٢٣٢١].

١١٩٦- وقوع الهزيمة بالمسلمين:

وترتب على عصيان الرماة أوامرَ رسول الله ﷺ بترك أكثرهم مواقعهم في الجبل طلباً للغنيمة، أقول: ترتب على ذلك أن خلا موضعهم من المدافعين؛ لأن ما بقي منهم لا يتجاوز العشرة مع أميرهم وهو عدد لا يكفي لحماية ظهور المسلمين من الالتفاف عليهم. وقد انتهز هذه الفرصة خالد بن الوليد وكان يومذاك مشركاً وهجم على عبد الله بن جبير ومن بقي معه من الرماة وقتلهم جميعاً، ثم اندفع خالد ومن معه على المسلمين من خلفهم وأخذوا يصيحون ليعلموا المشركين بموقعهم وبما فعلوه بالمسلمين؛ فرجع المشركون من هزيمتهم وصار المسلمون بين المشركين: من الأمام برجوع المشركين، ومن الخلف بمهاجمة خالد بن الوليد ومن معه من فرسان المشركين[٢٣٢٢].

١١٩٧- الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين[٢٣٢٣]:

لما وقع المسلمون في تطويق العدو، خالد وفرسانه من ورائهم، والمشركون الذي رجعوا من أمامهم حصل في صفوف المسلمين اضطراب وعمتهم الفوضى، وألقى كل واحد ما في يده من الغنيمة وأخذ سلاحه يدافع به عن نفسه. وإزاء هذه

(٢٣٢٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٤٩.

(٢٣٢١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٥٠.

(٢٣٢٢) الرحيق المختوم ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢٣٢٣) الرحيق المختوم ص٢٤٠-٢٤١.

الحالة صار المسلمون طوائف: طائفة فرت من المعركة وتوجهت إلى جهة المدينة حتى إن بعضها وصل إليها. وطائفة انطلقت في فرارها إلى ناحية الجبل صعوداً إلى قمته. وطائفة رجعت إلى العدو تريد قتاله ولكنها اختلطت به والتبس عليها الأمر، ولم يعد أفرادها يميزون إخوانهم من المشركين لشدة الهلع والفوضى التي عمتهم، حتى إن بعض المسلمين قتل «اليمان» أبا حذيفة بالرغم من صياحه: يا عباد الله إنه أبي، إنه أبي. ولكنَّ القوم في فورة اضطرابهم كأنهم لم يسمعوا صياحه حتى قتلوه. ومما زاد في الطين بلّة وزاد في ارتباك هذه الطائفة التي لم تفرَّ وظلت تقاتل مختلطة بالمشركين سماعها قائلاً يقول: إن محمداً قد قُتِلَ فأصابها الهلع والجزع حتى إن كثيراً منهم توقف عن القتال وألقى سلاحه.

١١٩٨- ثبات بعض المسلمين(٢٣٢٤)

ولكن من المسلمين من لم تضعفه هذه الحالة وظل متماسكاً مسيطراً على إرادته، منهم أنس بن النضر، وقد مرَّ بنفرٍ ألقوا سلاحهم فقال لهم: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ. قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني المشركين- ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرفته إلا أخته بعد انتهاء المعركة وكان فيه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم. ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال: يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإنَّ الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم فإن الله مظهركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار فقاتلوا حتى قتلوا.

١١٩٩- الدفاع عن رسول الله ﷺ(٢٣٢٥).

لما بدأ المشركون عمل تطويق المسلمين لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر فلما نادى: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، وفي رواية: هلمَّ إليّ أنا رسول الله، سمع صوته ونداءه المشركون وعرفوه فرجعوا إليه يريدون قتله، فاستبسل في الدفاع عنه

(٢٣٢٤) الرحيق المختوم ص٢٤١.

(٢٣٢٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.

النفر الذين كانوا معه فاستشهد منهم كما جاء في صحيح مسلم سبعة من الأنصار الذين كانوا معه، وبقي معه الرجلان وهما من قريش[٢٣٢٦]. وهما سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وأما سعد بن أبي وقاص فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال له: ارم فداك أبي وأمي. وأما طلحة بن عبيد الله فقد شُلَّتْ يداه إذ أصابها سهم وهو يقي بها رسول الله ﷺ. وكان من الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ وفدوه بأنفسهم أبوطلحة؛ فقد كان يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو؛ ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ومن المدافعين عن رسول الله ﷺ أبو دجانة فقد ترَّسَ بنفسه على رسول الله فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه حتى كثرت به الجراح. ومنهم أيضاً السيدة نسيبة بنت كعب الأنصارية انحازت إلى النبي ﷺ لما انهزم المسلمون؛ وأخذت تباشر القتال وتذب عن النبي ﷺ بالسيف، وهي التي اعترضت مع مصعب بن عمير وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله اعترضوا ابن قمئة الذي جاء يريد قتل رسول الله ﷺ فضربها وترك بضربته جرحاً فيها؛ فضربته ضربات ولكن كان عليه درعان فلم يصبه أذى بضربها. وقد غشي عليها من جراحها فلما أفاقت قالت: أين رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فقالوا لها: بخير وروى الواقديُّ بسنده عن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما التفت يوم أحد يميناً وشمالاً إلا وأراها- أي نسيبة بنت كعب- تقاتل دوني».

١٢٠٠- ما أصاب النبي ﷺ في معركة أحد:

«أخرج البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب الماء بالمجنِّ؛ فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرةً أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم. وكسرت رباعيتُه يومئذ- أي يوم أحد- وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه». وأخرج البخاري أيضاً عن ابن عباس: «اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دمّوا وجه نبيِّ الله ﷺ». وقال ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: ومجموع ما ذكر في الأخبار عمّا أصاب النبي ﷺ في

(٢٣٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٤٧.

معركة أحد من جراحات: أنه شُجَّ وجهه؛ وكسرت رباعيته؛ وجرحت وجنته؛ وشفته السفلى من باطنها؛ وجحشت ركبته. وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: «اشتد غضب الله على قوم دمّوا وجه رسوله». ثم سكت ﷺ ساعة ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وعن ابن مسعود كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢٣٢٧].

١٢٠١- سعد بن أبي وقاص يحرص على قتل أخيه لِما فعله برسول الله:

وقال ابن حجر العسقلاني، وهو يشرح ما رواه البخاري فيما أصاب النبي ﷺ يوم أحد، قال ابن حجر: وذكر ابن هشام في حديث أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته السفلى، وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد»[٢٣٢٨].

١٢٠٢- عدد من استشهد في أحد وكيفية دفنهم:

وبلغ عدد من استشهد في معركة أحد سبعين شهيداً؛ منهم ستة من المهاجرين وأربعةٌ وستون من الأنصار؛ «وأمر ﷺ بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم ولم يغسلوا»[٢٣٢٩].

(٢٣٢٧) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٧٢- ٣٧٣ والمنتقىٰ من الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٠٠.

(٢٣٢٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦.

(٢٣٢٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٧٤.

المبحث الخامس
ما نزل من القرآن بشأن معركة أحد

١٢٠٣- أولاً-:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢٣٣٠] وقد ذكرنا تفسير هاتين الآيتين من قبل[٢٣٣١].

١٢٠٤- ثانياً- ليس لك من الأمر شيء:

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[٢٣٣٢] جاء في تفسير القرطبي أن النبي ﷺ كسرت رباعيته في أحد وشج في رأسه فجعل يَسْلِتُ الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٢٣٣٣] وفي تفسير الزمخشري: أي أنَّ الله مالك أمرهم، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبدٌ مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم[٢٣٣٤].

١٢٠٥- ثالثاً- إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله:

قال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ

(٢٣٣٠) سورة آل عمران، والآيتان ١٢١، ١٢٢.

(٢٣٣١) الفقرة ١١٨٩.

(٢٣٣٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٨.

(٢٣٣٣) تفسير القرطبي ج٤ ص١٩٩.

(٢٣٣٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٣.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢٣٣٥). والمعنى: إن نال منكم المشركون يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أوقات الظفر والغلبة نصرفها بين الناس، يكون الظفر لهؤلاء تارةً وتارةً لهؤلاء ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف، أو فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم مَنْ الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت؛ وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة، يريد المستشهدين يوم أحد. ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والتمحيص: التطهير والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يهلكهم. يعني إن كانت الغلبة والدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو أصلح لهم. وإن كانت الغلبة والدولة على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم(٢٣٣٦).

١٢٠٦- رابعاً- تمني القتال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(٢٣٣٧) أي لقد كنتم تمنون أسباب الموت من قبل أن تلقوها. وذلك أن كثيراً من المسلمين ممن لم يحضروا معركة بدر كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزم كثير منهم، وكان منهم من ثبت حتى استشهد، ومن هؤلاء أنس بن النضر. فالآية عتاب في حق من انهزم من المسلمين في معركة أحد لا سيما وكان منهم من ألحّ على رسول الله ﷺ بالخروج إلى قتال المشركين. هذا وإن تمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد؛ لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى

(٢٣٣٥) سورة آل عمران الآيتان ١٤٠،١٤١.

(٢٣٣٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٩-٤٢٠.

(٢٣٣٧) سورة آل عمران الآية ١٤٣.

إلى القتل[٢٣٣٨].

١٢٠٧- خامساً- لا بد من الثبات وإن قُتِلَ القائد:

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٢٣٣٩].

لما انهزم المسلمون يوم أحد وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه وقتل مصعب بن عمير وهو يحسب أنه قتل محمداً، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فحصل فيهم ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه، وهذا ما كان يستحضره بعض المجاهدين. فقد روى ابن أبي نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: «إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم»، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ أي رجعتم القهقرىٰ، أي أدبرتم عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره. ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ وإنما يضر نفسه؛ وإن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع وهو الغني عن عباده، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وهم الذين لم ينقلبوا على أعقابهم بل صمدوا وثبتوا في القتال كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين؛ لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا من صمود وثبات وصبر وقتال ومدافعة للعدو[٢٣٤٠].

١٢٠٨- سادساً- الآجال مفروغ منها:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ

(٢٣٣٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٢٠-٢٢١.

(٢٣٣٩) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢٣٤٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٢-٤٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩-٤١٠.

﴿ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2341]. أي لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ولهذا قال: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾. وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض بالذين شغلتهم المغانم يوم أحد، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الجزاء المبهم الذينَ شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد[2342].

١٢٠٩- سابعاً- ثبات المسلمين في جميع الأحوال:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ . فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2343]. والمعنى: إن كثيراً من النبيين الذين خلوا أي الذين مضوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وأعمالهم؛ المعتقدين أن المرسلين هداة ومعلمون لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضَهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبي نفسه؛ لأنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته؛ لأن حظهم من نبيّهم تبليغ رسالة الله إليهم. وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجافِ بقتل رسول الله ﷺ، وكما أنهم لم يصبْهُمُ الوهن لما أصابهم، كذلك لم يضعفوا عن الجهاد ولا استكانوا لعدوّهم، ولا ولَّوا الأدبار، بل ثبتوا بعد قتل نبيهم، كما ثبتوا معه في حياته؛ لأن علة الثبات في الحالتين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله. ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ . . .﴾ الخ قالوا: هذا القول وفيه إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضماً لنفوسهم واتهامها بالتقصير في جنب الله، والدعاء بالاستغفار مقدم على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب،

(٢٣٤١) سورة آل عمران الآية ١٤٥.

(٢٣٤٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣-٤٢٤.

(٢٣٤٣) سورة آل عمران الآيات ١٤٦-١٤٨.

ليكون طلبهم التثبت والنصر على الأعداء عن زكاة وطهارة وخضوع لربهم والتجاء إليه. ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ من النصرة والغنيمة والعزّ وطيب الذكر. ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ وخصّ ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المُعتَدُّ به عنده[٢٣٤٤].

١٢١٠- ثامناً- موالاة الله وطاعته؛ لا موالاة الكفرة وطاعتهم:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ. سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾[٢٣٤٥]. ﴿ إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال علي رضي الله عنه: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة في معركة أحد: ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن السدّي: إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتطلبو منهمُ الأمان ﴿ يَرُدُّوكُمْ ﴾ إلى دينهم ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي ناصركم لا تحتاجون معه إلى نصرة أحد وولايته. ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة، وقيل: ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئاً قتلنا منهم ثم تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا[٢٣٤٦].

١٢١١- تاسعاً- منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

(٢٣٤٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤، تفسير المنار ج٤ ص١٧١-١٧٢.

(٢٣٤٥) سورة آل عمران الآيات ١٤٩-١٥١.

(٢٣٤٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٥.

عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2347].

قال محمد بن كعب القرظيُّ: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ إياكم بالنصر، حيث كان الظفر ابتداءً للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة؛ وترك بعض الرماة أيضاً مراكزهم طلباً للغنيمة؛ فكان ذلك سبب الهزيمة[2348]. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي المشركين أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً ﴿بِإِذْنِهِۦۖ﴾ أي بعنايته تعالى وتأييده لكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي جبنتم وضعفتم، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ أي اختلفتم، يعني الرماة حين قال بعضهم: ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون فلنترك مكاننا ونلحق الغنائم، وقال الآخرون: بل نثبت في مكاننا الذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ يعني من النصر والظفر والغلبة التي كانت للمسلمين يوم أحد أول أمرهم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ كالرماة الذين تركوا مكانهم، وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ﴾ كالذين ثبتوا من الرماة في مكانهم مع أميرهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة، وكان الرماة خمسين رجلاً، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ وهم ثلاثون رجلاً. ومعنى ما تقدم: إن الله صدقكم وعده بالنصر فقد كان النصر لكم ابتداءً على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا النصر إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، فعندما وصلتم إلى هذه الغاية لم تعودوا مستحقين لهذه العناية الربانية[2349]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ﴾ أي بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصالٍ صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم فانهزمتم؛ وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك؛ أي ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاءً واختباراً لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾ أي لم

(٢٣٤٧) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

(٢٣٤٨) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٤.

(٢٣٤٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٥-٢٣٧، تفسير المنار ج٤ ص١٨٢-١٨٣.

يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة. والخطاب في الآية الكريمة قيل هو للجميع، وقيل هو: للرماة الذين خالفوا ما أمِروا به، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة(٢٣٥٠).

١٢١٢- عاشراً- لكيلا تحزنوا على ما فاتكم:

قال تعالى: ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(٢٣٥١) قوله: ﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ أي ذهبتم وأبعدتم في الأرض وفي الجبل منهزمين، ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي لا تعرّجون ولا تقيمون أي: لا يلتفتُ بعضكم إلى بعض ولا إلىٰ من وراءكم لشدة الدهشة التي عرتكم والذعر الذي فاجأكم. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أي تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم إليه وأنتم مدبرون، وهو ثابت في مكانه في نفر يسير من أصحابه. وروي أنه كان يقول ﷺ: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة». ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أي فجازاكم الله غماً بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم، أو جازاكم غماً متصلاً بغم، يعني غم الهزيمة وغمَّ القتل والجرح وغمَّ صرخةِ الشيطانِ فيهم بأن محمداً قد قتل؛ وغم فوات النصر والغنيمة. والغم هو الألم أو الضيق في الصدر يكون من الأمر الذي يسوؤك وإن لم تتبين حقيقته أو سببه. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي لأجل أن لا تحزنوا بعد هذا التأديب، والغم الذي أصابكم بعد الغم، لا تأسوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، ولا تحزنوا على ما أصابكم من الهزيمة والجراح، فإن التربية إنما تكون بالمران على تجرع الغموم وتحمل الصعاب(٢٣٥٢).

(٢٣٥٠) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٧، تفسير المنار ج٤ ص١٨٣.

(٢٣٥١) سورة آل عمران، الآية ١٥٣.

(٢٣٥٢) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٣٩-٢٤٠، تفسير المنار ج٤ ص١٨٤، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٥٥-٢٥٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٧، تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٤.

١٢١٣- أحد عشر- الأمر كله لله:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢٣٥٣). ﴿أَمَنَةً﴾ أي أمناً، ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهذه الطائفة هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر. ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهذه هي الطائفة الثانية وهم معتب بن قشير وأصحابه وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة وجعلوا يتأسفون على الحضور. ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي حملتهم على الهمّ، وأهمني الأمر أي أقلقني، وقيل إن المعنى: صارت أنفسهم همهم لا همَّ لهم غيرها، فلا رغبة لهم إلا نجاتها دون النبي ﷺ وأصحابه. وفي إلقاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظمة؛ لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين، وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم. ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي يجب أن يُظَن به، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل وأنه لا ينصر ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من غير الحق وهو الظن المختصُّ بملة الجاهلية، أي ظن أهل الجاهلية وأهل الشرك. ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله ﷺ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وهذا الاستفهام معناه الجحد، أي ما لنا شيء من الأمر وهو النصر والغلبة على العدو، وقيل هو الخروج أي: إنما خرجنا مكرهين فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وليس لكم ولا لغيركم منه شيء فالنصر بيد الله والظفر منه. ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يضمرون في أنفسهم ويقولون فيما بينهم بطريق الخفية، ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ من الكفر والشرك والشك في وعد الله. وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، فردّ الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ﴾ قاعدين ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ بالمدينة كما تقولون، ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لم يكن بدٌّ من خروج من

(٢٣٥٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٤.

كتب عليه القتل في اللوح المحفوظ إلى هذه المصارع التي صُرِعوا فيها، فإنَّ قضاء الله لا يُردُّ وحكمه لا يُعقَّب. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ أي يمتحن ﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي قلوبكم من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي يخلصه وينقيه ويهذبه؛ فإن القلوب يخالطها بغلبة الطبائع وميل النفوس ما يضاد ما صار فيها من معاني الإيمان والإسلام، فلو تُرِكتْ في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يقضى لها من المحن والبلاء ما يكون كالدواء المكروه لمن عرض له داء، فكانتْ نعمته سبحانه وتعالى عليهم بهذه الهزيمة، وقتلُ من قُتِل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم[٢٣٥٤].

١٢١٤- اثنا عشر- إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٢٣٥٥]. أي إن الذين تولوا عن القتال يوم التقى جمع المسلمين وجمعُ الكفار في معركة أحد ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حملهم الشيطان على الزلل - أي على هذا التولي عن القتال - بشؤم ما اكتسبوه من الذنوب كما قال بعض السلف: إن مِن جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شكٍّ في وعد الله لهم بالنصر؛ ولأنهم ندموا على ما صدر منهم، وتابوا إلى الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم[٢٣٥٦].

١٢١٥- ثلاثة عشر- الذنوب سبب المصائب:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٣٥٧]. وقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾

(٢٣٥٤) تفسير فتح البيان ج٢ ص٢٥٧-٣٥٩، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٦٨.

(٢٣٥٥) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(٢٣٥٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٨، فتح البيان ج٢ ص٣٦٠، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٦٩.

(٢٣٥٧) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل سبعين منهم - أي من المسلمين - ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ يعني يوم بدر فإن المسلمين قد قتلوا من المشركين سبعين رجلاً وأسروا سبعين أسيراً، ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا، ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي قل يا محمد جواباً لسؤالهم: إن هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل حال. قال ابن القيم: وذكر سبحانه هذا المعنى بعينه فيما هو أعم من ذلك في السورة المكية ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾[٢٣٥٨].

١٢١٦- أربعة عشر- حكمة ما أصاب المسلمين يوم أحد:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[٢٣٥٩]. أي وما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة فبعلم الله وقضائه وقدره؛ ليميّز المؤمنين من المنافقين؛ أو ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم في القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشماتة بالمؤمنين؛ أو ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية، يتميز في أحد الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً. والإشارة بقوله تعالى: ﴿ نَافَقُوا، وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ هي إلى عبد الله بن أبي رأس المنافقين وأصحابه الذين انصرفوا معه عن نصرة النبي ﷺ وكانوا ثلثمائة، فمشى في أثرهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما يخيف العدو ويكسر من حدته وقوته. ووجه آخر في تفسير قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ يعنون أنَّ ما أنتم فيه - أيها المسلمون المجاهدون - لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء، ولا يقال لمثله قتال؛ إنما هو إلقاء بالأنفس إلى

(٢٣٥٨) تفسير القاسمي ج٤ ص٢٨٥، والآية التي ذكرها ابن القيم في سورة الشورى ورقمها ٣٠.

(٢٣٥٩) سورة آل عمران الآيتان ١٦٦، ١٦٧.

التهلكة، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعني أن هؤلاء المنافقين قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أَمارة تعلم المؤمنين بكفرهم، فلما انسحبوا من صفوف المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم، واقتربوا من الكفر. وقيل: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانسحاب منهم تقوية للمشركين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ولا تعي قلوبهم منه شيئاً. وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأنَّ إيمانهم موجود في أفواههم، معدوم في قلوبهم، خلاف صفةِ المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق وبما يجري بعضهم مع بعض من ذم المؤمنين وتجهيلهم، وتخطئة رأيهم، والشماتة بهم، وغير ذلك؛ لأنكم أيها المؤمنون تعلمون بعض ذلك منهم علماً مجملاً بأمارات وأنا أعلمُهُ كُلَّه عِلْمَ إحاطة بتفاصيله(٢٣٦٠).

١٢١٧- خمسة عشر- لا بد من التمايز بين المؤمنين والمنافقين:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢٣٦١). كان من بعض الحكم والغايات المحمودة التي حصلت في وقعة أحد تمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وبيان ذلك: أن المسلمين لما أظهرهم الله تعالى على أعدائهم في معركة بدر، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبَّب لعباده المؤمنين محنة ميزت بين المؤمن والكافر، وكانت تلك المحنة ما أصاب المسلمين في معركة أحد، فأطلع المنافقون رؤوسهم وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وعاد تلويحهم تصريحاً، وهكذا انقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم وهو معهم لا يفارقهم فاستعدّوا له وتحرزوا منه، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ما كان الله

(٢٣٦٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٣٧-٤٣٨، تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٥-٢٦٦، تفسير القاسمي ج٤ ص٢٨٦-٢٨٧.

(٢٣٦١) سورة آل عمران، الآية ١٧٩.

ليترك المؤمنين على الحال التي أنتم عليها من اختلاط المؤمنين الخلص بالمنافقين. ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلصِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما كان ليؤتي أحداً منكم علم الغيوب الذي يميز به ما في قلوب الخلق من الإيمان والكفر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بإطلاعه على الغيب كما أوحى إلى النبي ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويخلصكم من سوء جوارهم[٢٣٦٢].

(٢٣٦٢) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٤٥، تفسير القاسمي ج٤ ص٣٠١.

المبحث السادس
المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة

١٢١٨- المسلمون أولى بالإنفاق لدعوتهم من الكفار لباطلهم:

ذكرنا أن كفار مكة تبرعوا بأموالهم التي لهم في تجارتهم التي جاء بها أبو سفيان من الشام، تبرعوا لإعداد جيش يقاتلون به المسلمين انتقاماً لما أصابهم ببدر، وصداً عن سبيل الله بمحاربة النبي ﷺ والمسلمين، وفي إنفاقهم نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ . . . ﴾. فعلى الدعاة تذكير المسلمين بهذا الأسلوب القديم والحديث في محاربة الإسلام والدعاة إليه، وهو أسلوب إنفاقهم أموالهم للصد عن دعوة الإسلام، ومحاربة الدعاة إليه. عن طريق إنفاق أموالهم في طرق شتى، وأساليب مختلفة، وعلى جهات ومؤسسات متنوعة؛ لغرض صدّ الناس عن دعوة الإسلام ومحاربة الدعاة إليه. وهذا الأسلوب الذي تبعه كفار قريش، إنفاق أموالهم، لمحاربة الإسلام ودعاته عن طريق قتالهم، يفعله اليوم أعداء الإسلام ودعاتهم، يقول محمد رشيد رضا رحمه الله، وهو يفسر هذه الآية التي ذكرناها في إنفاق أموالهم للصد عن سبيل الله. قال: (ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين؛ ومن حيث أفرادهم الفوز بإحدى الحسنيين. . . والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطير المقنطرة من الأموال للصدّ عن الإسلام. .)[٢٣٦٣] فالكفار يبذلون أموالهم للصد عن سبيل الله، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب الدعاة إليه في كل أرض وفي كل حين. إن أعداء الإسلام لم يتركوا ولن يتركوا

(٢٣٦٣) تفسير المنار ج٩ ص٦١٠ وآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ . . . ﴾ الخ في سورة الأنفال ورقمها ٩.

الدعاة إليه في راحة وأمن[٢٣٦٤]. فعلى المسلمين أن يقاتلوهم بإنفاق أكثر وجهد أكبر لإفشال خططهم في محاربة الإسلام ودعاته.

١٢١٩- يجب توظيف جميع المواهب والقدرات لدعوة الإسلام:

لقد ذكرنا أن المشركين من شدة حقدهم على المسلمين وعزمهم على محاربتهم والإعداد لهذه الحرب، استعانوا بالشعراء لتحريض القبائل على قتال المسلمين ومعاونة قريش على هذا القتال[٢٣٦٥]. وعلى هذا فيجب على الدعاة حث جميع ذوي المواهب والقدرات من الأدباء والشعراء المسلمين على استعمال مواهبهم وقدراتهم الأدبية والشعرية في سبيل نصرة الإسلام والدعوة إليه. إن الإسلام ودعاته يتعرضون اليوم لحملة شرسة من أعداء الإسلام لم يشهد مثلها التاريخ من قبل، فعلى الدعاة تبصير ذوي القدرات والمواهب من المسلمين بهذا الواقع المرعب، فلا يجوز في دين الله أن يعيش الأدباء والشعراء في ترف عقلي وفي خيالات الشعراء وفي نظم القصيد في الحب والغزل ورصد الجمال وإنشاء القصص الخيالية التي تدغدغ أحاسيس الشباب والمراهقين.. حرام عليهم أن يفعلوا ذلك ولا يستعملوا شعرهم وأدبهم في الدفاع عن دينهم والدعوة إليه. فقد صار دينهم هيناً على كل من يريد أن يهاجمه بالباطل وبالافتراءات بحجة حرية الرأي.. على الدعاة أن يُبَصِّروا الأدباء والشعراء بذلك ويثيروا فيهم الغيرة على دينهم، حتى لا يكونوا أقل غيرة وحمية على دينهم من غيرة الكفار على باطلهم.

١٢٢٠- لا بد للأمير من مشاورة أتباعه:

ذكرنا أن النبي ﷺ شاور أصحابه قبل أن يخرج إلى ملاقاة العدو في أحد، شاورهم: أيخرج بهم إليهم، أم يبقون في المدينة يقاتلون المشركين إذا دخلوها؟[٢٣٦٦].

فعلى أمير جماعة الدعاة إلى الله أن يتأسى برسول الله ﷺ ويقتدي به في

(٢٣٦٤) تفسير سيد قطب ج٣ ص١٥٠٦-١٥٠٧.

(٢٣٦٥) الفقرة ١١٧٨.

(٢٣٦٦) الفقرة ١١٨٢.

مشاورته لأصحابه.. فقد كان ﷺ يشاور أصحابه وهو رسول الله وتنفيذاً لأمر الله؛ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فهل يجوز أن يهمل أي رئيس جماعة مسلمة مشاورة أفرادها؟ إن مشاورة أي أمير جماعة مسلمة لأفرادها مطلوبة شرعاً، فلا يجوز أن يهملها ولا ألاّ يأخذ بها، فكيف يجوز لجماعة الدعاة وهي تدعو إلى الله وحسب مناهج الإسلام أن يترك أميرها مشاورة أفرادها من الدعاة فيما يخصُّ أمور الدعوة ومناهجها في التبليغ، وسياستها في معالجة الأمور التي تتعلق بها؟ إن ترك المشاورة معصية ومخالفة لشرع الله، والشأن في أمير الجماعة المسلمة؛ جماعة الدعاة؛ أن لا يتعمد المعصية والمخالفة لشرع الله، ومنها ترك المشاورة، ولا يصرَّ على هذه المخالفة.

١٢٢١- الشورى واجبة ولكنها مُعْلِمة وليست مُلزِمة:

ويجب أن يعلم الدعاة بأنَّ مشاورة أميرهم لهم في شؤون الدولة وإن كانت واجبة عليه بحكم الشرع، ولكنها معلمة غير ملزمة، بمعنى أن واجب الأمير أن يشاور وليس واجباً عليه أن يأخذ برأي الأكثرية، فإذا شاور فقد خرج من عُهْدَة هذا الواجب؛ واجب المشاورة. أما بأي رأي يأخذ، فهذا متروك له؛ غير مقيّدٍ برأي الأكثرية. ولا يُحتَج علينا بأن النبي ﷺ كان رأيه عدم الخروج للقاء العدو في أحد والبقاء في المدينةِ، ولكنه أخذ برأي الأكثرية القاضي بالخروج وعدم البقاء في المدينة، لا يحتج علينا بهذا القول بأن الشورى ملزمة، أي على الأمير أن يأخذ برأي الأكثرية، لا يحتج علينا بهذا؛ لأن النبي ﷺ هو رأى أن يأخذ برأي الأكثرية وليس لأن رأي الأكثرية ملزمٌ للأمير، وكلامنا في مدى التزام الأمير برأي الأكثرية وإلزامه بهذا الرأي وليس كلامنا بجواز الأخذ برأي الأكثرية إذا رأى الأمير ذلك. وقد فصلنا القول في هذه المسألة في كتابنا أصول الدعوة.

١٢٢٢- لا تردد في العزم على التنفيذ بعد المشاورة:

ذكرنا أن الذين رغبوا في الخروج إلى لقاء العدو وعدم البقاء في المدينة، وكانوا هم الأكثرية، ندموا على ما أشاروا به، وألحوا فيه، وقالوا: لقد رأينا غير ما رأى رسول الله ﷺ، فلما خرج ﷺ من بيته - بيت عائشة رضي الله عنها - وقد لبس لأمته، قالوا: يا رسول الله إن شئت بقينا في المدينة ولم نخرج، فقال لهم ما ذكرناه

وهو قوله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له»[٢٣٦٧]. وبهذا ألقى النبي ﷺ على أصحابه درساً بليغاً عالياً، فللشورى وقتها حتى إذا انتهت جاء وقت العزم على التنفيذ والمضي فيه مع التوكل على الله. ولم يعد هناك مجال للتردد ولا لإعادة الشورى أو التأرجح بين الآراء، وإنما يجب أن يأخذ العزم طريقه في التنفيذ ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء[٢٣٦٨]. فعلى الدعاة وأميرهم أن يفقهوا ذلك. إن من واجب الأمير أن يشاور، ومن حق أتباعه من الدعاة أن يعلنوا آراءهم وإلى هنا ينتهي أداء الواجب واستيفاء الحق، وبعد ذلك يختار الأمير الذي يراه ويعزم على تنفيذه، ويمضي هو ومن شاورهم بجدّ في التنفيذ، كما لو كان رأي الأمير الذي اختاره هو رأي كل واحد من الدعاة؛ لا فرق بين مؤيد له أو معارض له وقت المشاورة. ولا يجوز أن يتردد الأمير في التنفيذ بعد أن عزم على الرأي الذي اختاره، كما لا يجوز للدعاة أن يخالفوا ما اختاره أميرهم، ولا أن يشيعوا بين أفراد الجماعة، أن رأيهم كان خلاف رأي الأمير، وأن رأي الأمير خطأ، ونحن ننفذه ونلتزم به مُكرَهين، لا يجوز مثل هذا الكلام؛ لأنه يفتح باباً للشيطان قد يليه انتقادات من بعض الدعاة ثم تمرد على التنفيذ، وهذا ما يريده الشيطان؛ لأنه يطمع أن يتبعه الانشقاق والفرقة بين أفراد الجماعة وجماعتهم. فليحذر الدعاة ذلك.

١٢٢٣- إظهار القدرة على الجهاد:

قلنا إن النبي ﷺ أرجع من جيشه من رآه صغير السن، وأبقى رافع بن خديج بالرغم من صغر سنه لمهارته في النبل، فاحتج سمرة بن جندب على إرجاعه لصغر سنه بحجة أنّهُ أقوى من رافع ويستطيع أن يصرعه، وأن النبي ﷺ بلغه ما قاله سمرة فأذن له بالمصارعة مع رافع فصرعه؛ فأبقاه النبي ﷺ[٢٣٦٩]. فيجوز لمن يأنس من نفسه القدرة على عمل من أعمال الدعوة أن يعلن ذلك، ويجوز لأمير الجماعة أن يمتحنه ليعرفَ مدى قدرته على العمل الدعويّ. وعلى الدعاة أن يولوا الشباب والفتيان ما يستحقونه من عناية ورعاية؛ وأن يربوهم على أعمال الجهاد، ومنها

(٢٣٦٧) الفقرة ١١٨٢.

(٢٣٦٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٠.

(٢٣٦٩) الفقرة ١١٨٥.

أعمال الدعوة التي تناسبهم، وأن يشدوهم إلى معاني الجهاد حتى يكون شوقهم إلى الجهاد أكثر من شوقهم إلى ما يهواه الصبيان عادة.

١٢٢٤- الحذر من تثبيط المنافقين:

ذكرنا فيما سبق انسحاب المنافق عبد الله بن أبي بن سلول من جيش المسلمين وهم في ساحة المعركة، مدعين بأنهم لا يعتقدون حصول قتال بين المسلمين والمشركين.. إلى آخر ما قالوه واحتجوا به[٢٣٧٠]. حتى إن طائفتينِ من جيش المسلمين أوشكتا أن تنسحبا كما فعل عبد الله بن أبيٍّ بن سلول متأثراً بادعائه بأنَّهُ لا يعتقد أن قتالاً سيحدث بين المسلمين والكفار. فعلى الدعاة أن لا يتأثروا بأفعال وأقوال الآخرين فيقعدوا عن العمل الدعوي المحمود؛ وأن يكونوا على حذر شديد منهم ومن تصرفاتهم حتى لا يتأثروا بها، ولا يرددوا أقوالهم التي فيها تثبيط عن أعمال الدعوة أو تشكيك في فائدتها وغير ذلك مما فيه إضعاف للدعاة، وإضعاف لجماعتهم.

١٢٢٥- لا يجوز تكثير سواد العدو:

في حادثة انسحاب المنافق ابن سلول وجماعته، لحق بهم الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو والد جابر بن عبد الله ليردهم عن خروجهم من الجيش؛ وكان مما قاله لهم: «إذا لم تقاتلوا مع المسلمين فكونوا معهم مكثرين سوادهم، لأن كثرة سواد المجاهدين مما يرعب العدو ويقوي عزائم المسلمين المجاهدين» فرفض ابن سلول ومن معه ما قاله عبد الله بن عمرو[٢٣٧١]. فعلى الدعاة أن يبصّروا المسلمين بأن تكثير سواد الكفار لا يجوز. ومن مظاهر تكثير سوادهم الاستجابة لدعوتهم لحضور اجتماعاتهم أو مشاركتهم في أعيادهم واحتفالاتهم. وكما أن على الدعاة أن يبصروا المسلمين بأن تكثير عدد المسلمين الدعاة إلى الإسلام؛ بإجابة دعوة جماعة الدعاة أو أميرها إلى حضور اجتماعاتهم أمرٌ واجبٌ.

وعلى الدعاة في دروسهم وخطبهم أن يذكروا ما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره

(٢٣٧٠) الفقرة ١١٨٦.

(٢٣٧١) الفقرة ١١٨٨.

ممّا رواه أنس بن مالك قال: رأيت يوم القادسية - عبد الله بن أم مكتوم الأعمى وعليه درع وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك فقال: بلى، أنزل الله عذري. ولكني أريد أن أكثّر سواد المسلمين بنفسي(٢٣٧٢). إن المسلمين اليوم بحاجة إلى مثل هذه القصة.

١٢٢٦ - الاعتصام بمعاني الإيمان يحبط مكائد الأعداء:

ذكرنا فيما سبق محاولة أبي سفيان في إيقاع الفرقة بين المسلمين بإرساله من يخبر الأنصار بأنْ لا خلاف بينهم وبين قريشٍ، ويطلب منهم التخلية بينهم وبين محمد ﷺ؛ فردوا عليه بما يكره؛ لأن إيمانهم عصمهم من الوقوع فيما أراده أبو سفيان منهم. ومحاولة أخرى من أبي عامر الفاسق الذي ظهر في مواجهة جيش المسلمين وأخذ يناديهم: يا معشر الأوس - لأنه منهم نسباً - أنا أبو عامر، يريد منهم متابعته والانصراف عن محمد ﷺ، ولكن إيمانهم عصمهم من ذلك فقالوا له: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق(١٣٧٣). فعلى الدعاة أن يحذروا من مكائد العدو وسعيه الحثيث في إيقاع الفرقة بينهم بما يثيرونهم فيهم من معاني العصبية القبلية أو غيرها من العصبياتِ الأخرى، ولْيعلوا بإيمانهم على كل ما يناقضه مما يتشبث به العدو.

١٢٢٧ - مخالفة القائد تسبب الفشل لجنوده:

ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ أوقف خمسين رجلاً بإمرة عبد الله بن جبير على الجبل؛ لحماية ظهور المسلمين من أن يأتيهم العدو من خلفهم، وأمرهم أن لا يتركوا أماكنهم مهما كانت الظروف والأحوال، ولكنهم خالفوا هذا الأمر إلا قليلاً منهم، فهجم العدو على من بقي من الرماة وقتلهم، ثم هجم على جيش المسلمين من الخلف، ورجع المشركون المنهزمون يقاتلون المسلمين الذين وقعوا في حصار المشركين من الأمام ومن الخلف، وهكذا حلّت بالمسلمين الهزيمة بعد أن كان النصر لهم في أول القتال، وكل ذلك كان بشؤم مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ

(٢٣٧٢) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣٧٣) الفقرة ١١٩٢.

بالبقاء في أماكنهم[٢٣٧٤].

فعلى الدعاة الاعتصام بطاعة أميرهم ما دامت هذه الطاعة في غير معصية، ولا يسوغ لهم مخالفة أوامره ما دامت في الأمور الاجتهادية؛ ولا تقع في دائرة معصية الله. إن التزامهم بهذه الطاعة أمر ضروري لنجاحهم في دعوتهم وقبول الناس منهم ما يدعون إليه. وليعلموا أن طاعتهم لأميرهم طاعة لشرع الله؛ لأنه أمر بطاعة الأمير في غير معصية الله. وإذا لم يلتزموا بهذه الطاعة وقعوا في الفوضى والفرقة وتشتت الآراء؛ وكل هذه الأمور معوقات للنصر.

١٢٢٨- إيثارُ الدنيا على الآخرة يوقع في الخطيئة:

ذكرنا من قبل أن الرماة الذين أوقفهم النبي ﷺ على الجبل لحماية ظهور المسلمين من التفاف العدو عليهم، هؤلاء الرماة اختلفوا فيما بينهم، فأكثرهم أراد النزول واللحاق بالمسلمين طلباً للغنيمة؛ لما ظنوه من انهزام المشركين أمام المسلمين، وقلة من الرماة رفضوا ترك أماكنهم تمسكاً بأمر رسول الله ﷺ، ثم كان ما كان من التفاف المشركين وضربهم المسلمين من ورائهم. إنَّ في هذا الذي حدثَ لعبرةً عظيمة للدعاة وتعليماً لهم بأن حبّ الدنيا قد يتسلل إلى قلوب المؤمنين ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر رسول الله ﷺ الصريحة بتأويل ساقط، يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المُحكَم من أوامره. كل هذا يحدث، ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية؛ وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها؛ حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها. عن عبد الله بن مسعود، كما يذكر ابن كثير في تفسيره، قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[٢٣٧٥]. وحب الدنيا لا

(٢٣٧٤) الفقرتان ١١٩٥، ١١٩٦.

(٢٣٧٥) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٣.

يقف عند حب متاعها المادي، وإنما يشمل متاعها المعنوي، وعلى رأس هذا المتاع حب السلطة والرياسة، فليحذر الدعاة من ذلك لئلا يقعوا في مخالفة أوامر جماعتهم المسلمة بحجة إرادة الخير والنصح لها ومصلحة الدعوة، والحقيقة أنهم يتحركون بدافع هوى النفس وحب الدنيا. والمقياس لمعرفة دوافعهم فيما يقولون ويفعلون، وهل هي دوافع الهوى وحب الدنيا؟ هذا المقياس هو: هل يسّرهم أن يتولى الرياسة- أية رياسة- غيرهم ويكتفوا بأن يكونوا جنوداً مغمورين قانعين بعلم الله بهم وبالأجر والثواب من عنده؟ أم لا يقنعون بذلك؛ بل يريدون الظهور والرياسة؟ وهل يحزنهم إعطاء الرياسة في مجال الدعوة وأعمالها لغيرهم أم يسرهم ذلك لتخلصهم من المسؤولية؟ وهل يستمرون في جهادهم واندفاعهم فيه إذا أعطيت الرياسة لغيرهم؛ ولو رياسة أسرة أو حلقة من أسر وحلقات الدعاة؟ وأذكّرهم بشيئين قد يفيدهم في اختبارهم لأنفسهم ومدى تعلقهم بالدنيا؛ (الشيء الأول): إن الحريص على أجر صلاة الجماعة لا يهمه من يكون الإمام في الصلاة ما دام هو يصلي مع الجماعة ويظفر بأجر الصلاة فيها. (الشيء الثاني) إن خالد بن الوليد وهو في أوج انتصاراته وجهاده في سبيل الإسلام يأتيه أمر عزله من قيادة الجيش من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فلم يؤثّر ذلك العزل في جهاده واندفاعه فيه، بل قال قولته المشهورة: «أنا لا أقاتل في سبيل أبي بكر ولا في سبيل عمر وإنما أقاتِلُ في سبيل الله»؛ ورضي أن يصير جندياً لا قائداً.

١٢٢٩- الأماني غير الأفعال:

وعلى الدعاة؛ وجماعتهم المسلمة؛ أن يعلموا أنَّ الأماني الطيبة، والرغبات الحميدة التي يفصح عنها أعضاء الجماعة، لا تعني أن أفعالهم بقدر أمانيهم ورغباتهم، فكثيراً ما تقل الأماني وتضعف الرغبات عند محك الواقع ومواجهة الأحداث؛ فلا يقدّمون إلا القليل من الأفعال المطلوبة؛ وربما لا يقدمون شيئاً ويفرون من المعركة. إن هذه المعاني التي أذكرها وأذكّر الدعاة والجماعة المسلمة بها هي بعض ما نستفيده من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[٢٣٧٦]. فلا يجوز للقيادة الرشيدة للجماعة المسلمة أن تضع

(٢٣٧٦) الفقرة ١٢٠٦.

خططها على أساس ما تسمعه من الرغبات والأماني من أعضائها الدعاة أو الأنصار والمؤيدين، فالرغبة في الشيء شيء والقيام به وبمتطلباته شيء آخر. إن الفرق بينهما كالفرق بين كلمة (أقاتل) تقولها وبين (تقاتل) فعلاً. إن الكلمة التي يقولها قائلها مبيناً بها رغبته في عمل ما؛ لا تصدق في الواقع ويتحقق مضمونها إلا بشيئين؛ (الأول): رصيد وراء هذه الكلمة (والثاني): إرادة جازمة لتنفيذ مضمونها بناء على هذا الرصيد، فكلمة (أبذل كذا من المال) لا يمكن تحقيقُها إلا بوجود رصيد مالي عند القائل وإرادة جازمة لتنفيذ مضمون ما قاله. فعلى الدعاة وأنصار الإسلام وأعوان الجماعة المسلمة أن يتأكدوا مما عندهم من رصيد إيماني؛ يمكّنهم من تحقيق ما تجيش به نفوسهم الطيبة من رغبات طيبة حتى إذا رأوْا أنَّ ما عندهم من رصيد إيماني لا يمكّنهم من تنفيذ رغباتهم انكفؤوا إلى نفوسهم يحثونها بمعاني الإسلام والإيمان حتى تصير حاضرة وجاهزة لتنفيذ أمانيهم ورغباتهم..

١٢٣٠- الدفاع عن القائد مطلوب:

الدفاع عن قائد الجماعة المسلمة أمرٌ مطلوب شرعاً، لأنه يقوم بجماعته بحماية الدين ونصرته، فهو كربّان السفينة، حمايته حماية للسفينة ولركابها. وقد ذكرنا دفاع المسلمين عن نبيهم وقائدهم ﷺ في معركة أحد؛ مما يشير إلى ضرورة حماية قائد الجماعة، لأن بحمايته حماية لجماعته ولاستمرارها في عملها المبرور في نصرة الإسلام. وقد يكون من المفيد للدعاة ذكر بعض مظاهر دفاع الصحابة الكرام عن نبيهم وقائدهم ﷺ لما في ذكر هذه الوقائع من أمثلة لمحبّتهم لنبيهم ﷺ؛ ومن إشارة إلى وجوب حماية إمامِ المسلمين ومَنْ دونه ممن يتولَّوْنَ إمرة جماعةٍ تَنصرُ الإسلام وتدعو إليه، فمن وقائع دفاع المسلمين عن النبي ﷺ ما ذكرناه من قبل فليُرجَعْ إليه[٢٣٧٧].

١٢٣١- القائد لا يوقف الجهاد والدعوة إلى الله:

وقد تبتلى الجماعة المسلمة بموت قائدها أو بقتله، وهو ابتلاء شديد، ولكن

(٢٣٧٧) انظر الفقرة ١١٩٩.

على شدته لا يجوز أن يوقَفَ جهاد الجماعة المسلمة، وعليها أن تقابل هذا الابتلاء بالصبر الجميل وبالثبات على المعاني التي جاهد من أجلها أميرهم وقائدهم؛ فإنهم إذا فقدوا قائدهم وغيَّب الثرى جسده الطاهِرَ عنهم فإن دعوته باقية لا تموت. إن جماعة المصلين في مسجد المحلة لا تُوقِفُ الصلاة ولا صلاة الجماعة إنْ مات إمام المسجد، وهكذا يجب أن يفعل الدعاة والجماعة المسلمة إذا فقدوا أميرهم فلا يوقفوا جهادهم. وقد حذر الشرع الصحابة الكرام من إيقاف الجهاد في سبيل الله لموت رسول الله ﷺ، أو قتله فقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢٣٧٨]. وجاء في تفسيرها: إن الرسل ليست باقية في أقوامها أبداً فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أُرسِلَ به وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله، فقال تعالى: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد، والانقلابُ على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته، ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حياً أو ميتاً[٢٣٧٩].

١٢٣٢- تأسي الدعاة بمن لم يدهشهم موت النبي أو قتله:

وإذا ابتليت جماعة الدعاة بموت أو قتل أميرهم فأصاب بعضهم الذهول واعترتهم الدهشة؛ وأفقدتهم توازنهم، فلتكن قدوتُهم بمن ثبت بالرغم من سماعه خبر قتل النبي، فقد ثبت بعض المسلمين في معركة أحد عندما نادى المنادي من المشركين بأن محمداً قد قتل، وأثّر هذا النداء في بعض المسلمين أو في كثير منهم، وفرّ من فرَّ من المسلمين وثبت بعضهم، ومنهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك فقال: يا قوم؛ إن كان قُتِل محمد فإن ربّ محمد حي لا يموت، وما تصنعونَ

(٢٣٧٨) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٢٣٧٩) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣.

بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم شدّ بسيفه على الكفار فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين: أنه مرَّ بأنصاري وقد علاه دمُ جراحه، فقال يا فلان أَشعرتَ أن محمداً قد قُتِلَ؟ فقال: إن كان قُتِلَ فقد بلَّغ الرسالة؛ قاتلوا على دينكم. وعندما مات رسول الله ﷺ وأصاب المسلمين الذهول حضر أبو بكر رضي الله عنه والناس في هرج وهلع فلم يكلم أحداً ودخل إلى بيت عائشة رضي الله عنها وكشف عن وجه رسول الله ﷺ وقبلّه من وجهه الشريف وبكى وعلم أنه قد مات فخرجَ إلى الناس في المسجد وخطب فيهم وقال فيما قاله: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ . . .﴾ فكان ذلك من أبي بكر موقفاً وثباتاً عظيماً ثبَّت الله به المسلمين[٢٣٨٠]. فعلى الدعاة أن يستحضروا في أنفسهم سيرة الصحابة الكرام الذين ثبتوا عند سماعهم خبر قتل محمد ﷺ وهم في المعركة، وَعَمَلَ أبي بكر عندما تيقن موت النبي ﷺ وليعلموا أو يستحضروا هذا المعلومَ في أنفسهم وهو أن البشر إلى فناء، وأن العقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ. . . إن الدعوة أقدم من الداعية، وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية، فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول وهو الله الحي القيوم الذي لا يموت[٢٣٨١].

١٢٣٣- تذكير العاملين للإسلام بما يثبتهم عليه:

وعلى جماعة الدعاة أن تذَكِّرَهُمْ وتذكرَ سائر العاملين للإسلام؛ تذكرهم بما يثبتهم على الإسلام وعلى الدعوة إليه؛ وعلى متطلبات الدعوة والصمود أمام أعدائها. وقد ذكرنا كيف أن النبي ﷺ أخذ ينادي الفارين المنهزمين من المسلمين بقوله ﷺ: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، إني رسول الله، هلّم إليَّ»، فكان لهذا النداء أثره في الفارين المنهزمين، جعلهم يرجعون إلى رسول الله ﷺ. ومما يثبت الدعاة

(٢٣٨٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٣، تفسير ابن كثير ج١ ص٤٠٩.

(٢٣٨١) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٥.

وعموم العاملين للإسلام؛ بل ويثبت عموم المسلمين أمام الأعداء وهجمتهم الشرسة على الإسلام وأهله ودعاته أن يقوم الدعاة بتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ . . .﴾ وبقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ فإذا كان الكفار يتحملون الأذى والقتل في سبيل باطلهم فأنتم أيها المسلمون أولى منهم في تحمل الأذى في سبيل دعوتكم، وهي الحق. ثم أنتم أيها المسلمون ترجون من الله في جهادكم ثواب الله ورضوانه، وهم لا يرجون ذلك، فأنتم أولى منهم بالجهادِ والثبات على دعوتكم. ومن العار أن يغلبكم أهل الباطل في ثباتهم على باطلهم، إذا أنتم جبنتم عن الوفاء بحق دينكم عليكم. إن تذكير اندعاة والمسلمين بهذه المعاني وضربَ الأمثال والقصص مما يثير حميَّةَ المسلمين؛ ويدفعهم إلى الاستمساك بدينهم وبالعمل له والجهاد في سبيله.

١٢٣٤- الآجال مفروغ منها:

ومما ينفع لتثبيت الدعاة والعاملين للإسلام وللمسلمين عموماً تذكيرهم بأن الآجال قد فرغ منها فلا يزيد في عمر الإنسان جبنٌ ولا فرار من مواجهة الأعداء، ولا ينقص من عمر الإنسان إقدامه ومجاهدته للأعداء، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[٢٣٨٢] وفي هذه الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه[٢٣٨٣]. وبذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ولا تجعله في حسابها وهي تفكر في أداء التكاليف والالتزامات الإيمانية؛ ومنها الجهاد في سبيل الله والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله، فلا يقعد بها عن ذلك خوف ولا فزع، وبذلك تستقيم على الطريق، طريق الدعوة إلى الله، بكل تكاليفه والتزاماته في صبر وطمأنينةٍ وتوكل على الله الذي يملك الآجال وحده. وإذا كان الأمر كما ذكرنا من تحديد الأجل فلينظر المسلم ماذا يريد؟ هلْ يريد أن يقعد عن تكاليف الإيمان ويحصر همه في الدنيا أو لينال شيئاً من متاعها

(٢٣٨٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

(٢٣٨٣) تفسير ابن كثير ج١ ص٤١١.

- وفي هذا تعريض بالذين شغلتهمُ الغنائم يوم أحد -، أو يريد المسلم ما هو أعلى وأجل وأبقى من متاع الدنيا وهو ثواب الآخرة، وشتان بين المرادين، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الجزاء المبهم الذي تتطلَّعُ إليه نفوس المؤمنين الذين شكروا نعمة الله عليهم، نعمة الإسلام، فلم يشغلهم غيره عن الجهاد في سبيله(٢٣٨٤).

١٢٣٥- ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

ومما ينفع في تذكير الدعاة والعاملين للإسلام؛ لحملهم على الثبات عليه وعلى الدعوة إليه، ضرب المثل بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعات كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٢٣٨٥) وفي هذا تعريض بالمسلمين الذي أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ؛ وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٢٣٨٦) وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربانيين هضمٌ لها واعترافٌ منهم بالتقصير. ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو؛ ليكون طلبهم إلى ربهم النصرَ عن زكاة وطهارة وخضوع(٢٣٨٧). وهكذا يجب على الدعاة أن يفعلوا، يتوجهون إلى ربهم تعالى متضرعين مستغفرين تائبين، قبل أن يطلبوا منه الثبات والنصر على الأعداء. ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى

(٢٣٨٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤، تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٧-٤٨٨.

(٢٣٨٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

(٢٣٨٦) سورة آل عمران الآية ١٤٧.

(٢٣٨٧) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤.

الله، وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخصّ الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده[٢٣٨٨].

١٢٣٦- النظر إلى الماضي للعبرة والاتعاظ لا للحزن والبكاء:

وعلى الدعاة أن لا يستبد بهم الهم والغم والحزن على ما فاتهم من فرص كان من الممكن فيها تحصيل خير للدعوة، وإنما عليهم النظر إلى الماضي للعبرة والاتعاظ فقط؛ لا للحزن والبكاء، والنظر إلى المستقبل ليعرفوا ما ينبغي لهم فعله في ضوء ما وقع في الماضي؛ وما هم عليه في الحاضر، وإن الماضي مضى بما فيه، وما وقع فيه لا يمكن تعديله وإنما يمكن أخذ العبرة منه؛ فلا وجه للحزن عليه؛ لأن الحزن لا يرد مفقوداً ولا يعيد معدوماً. قال تعالى عما أصاب المسلمين في أحد ﴿... فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾[٢٣٨٩]. كما يجب على الدعاة أن لا يقولوا: لو فعلنا كذا لكان كذا على وجه التفجع والحزن ورد المُقَدَّر، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، وإنما عليهم كما قلت التأملُ فيما صدر منهم من خطأ أو غفلة أو تقصير؛ كانت من أسباب ما وقع ليتقوا ذلك في المستقبل، فإن وقائع الحياة والتجارب تعلّم الإنسان ما لا يعلّمه الكتاب، وإن كان ثمن هذا التعليم باهظاً..

١٢٧٣- تحميل النفس وليس الغير سوء ما وقع ويقع:

على الدعاة أن يعلموا ويستحضروا هذا العلم في أنفسهم، ويعلموه غيرهم وهو أَنَّ ما أصابهم ويصيبهم هو بسبب من أنفسهم؛ فليحمّلوها المسؤولية ولا يحمّلوا غيرهم المسؤولية؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ...﴾[٢٣٩٠] والمصيبة التي أصابتهم هي قتل سبعين منهم، وقد أصاب المسلمون مثليها يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين،

(٢٣٨٨) تفسير الزمخشري ج١ ص٤٢٤-٤٢٥، تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٨.

(٢٣٨٩) سورة آل عمران الآية ١٥٣.

(٢٣٩٠) سورة آل عمران الآية ١٦٥.

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾. أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمر الرماة أن لا يبرحوا مكانهم الذي أنزلهم فيه رسول الله ﷺ، فعصوا أمره وترك أكثرهم مكانه[2391]. قلنا : إن سبب المصائب يرجع إلى فعل الإنسان وهو يتحمل مسؤولية ذلك، فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك. وما يحل بالإنسان يرجع إلى أحد شيئين، (الأول): معاصيه، (والثاني): مخالفته لسنة الله أو سننه التي وضعها الله لتجري عليها أمور الحياة. ومخالفة المسلم لسنن الله في الحياة نوع من مخالفته لشرع الله؛ لأن الله تعالى أمر بأن نلاحظ سننه فيما نأخذ ونترك؛ ولن تُخرَق هذه السنن للمسلم لكونه مسلماً؛ وقد قصّر في مراعاتها وخالفَ الشرع في أمره بهذه المراعاة. فالمعاصي لشرع الله هي سبب ما يحل بالإنسان، وهي سبب ما حلّ بالمسلمين وما يحلّ بهم، وما يحلّ بالدعاة وبجماعتهم المسلمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فمن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا؛ وبما شهد في كتابه أن المعاصي سبب المصائب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[2392] وقال المفسرون في هذه الآية: أي وما أصابكم أيها الناس؛ أي مصيبة من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات والأحوال المكروهة كالآلام والأسقام والقحط وأشباهها ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾؛ أي ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها عاجلاً، قيل: وآجلاً[2393]. فعلى الدعاة أن يبينوا هذا للناس في خطبهم ومواعظهم، لأنَّ مما ابُتلي به المسلمون أفراداً وجماعاتٍ أنهم يلقون المسؤولية واللوم على غيرهم وينسون أنفسهم، فنراهم إذا وقعت عليهم مصيبة أو نكبة، راحوا يفتشون على من يحملوّنه مسؤولية ما وقع عليهم من نكبات ومصائب؛ مثل فقد ديارهم واستيلاء العدو عليهم، وهزائمهم في الحروب، وينسون أنفسهم فلا يحملونها شيئاً. وكذلك الحال في الجماعات المسلمة التي تقع في مخالفات الشرع، ومخالفات سنن الله، وفي العمل الجماعي ومتطلباته فتقع عليها النكبات

(٢٣٩١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٤-٤٢٥.

(٢٣٩٢) كتابنا السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص٢١٢.

(٢٣٩٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص١١٦، تفسير الرازي ج٢٧ ص١٧٢، تفسير الألوسي ج٢٥، ص٤٠.

والمصائب، فترمي المسؤولية على الغير فيما حلّ بها من مصائب. إن القرآن الكريم حدّد الجهة التي تلام وتقع عليها المسؤولية بالدرجة الأولى بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾؛ فالله تعالى حددّ الجهة التي تلام عند حلول النكبة والمصيبة وهي أنفسنا؛ فلا يجوز شرعاً أن نبرىء أنفسنا مما يقع علينا من النكبات والمصائب ونلقيَ اللوم والمسؤولية على غيرها.

١٢٣٨- فائدة لوم النفس وتحميلها المسؤولية:

وفائدة لوم النفس وتحميلها المسؤولية حثُّ المسلم على السعي الجاد لإزالة ما قام في النفس أو ما صدر عنها من أسبابٍ أدت إلى وقوع هذه النكبات والمصائب؛ والسعي لإزالة هذه الأسباب بالعمل الجاد والسريع لعدم وقوعها في المستقبل. وهذا ما يخشاه أعداء الإسلام والمسلمونَ؛ فإنهم لا يخشون شتم المسلمين لهم وصراخهم بأنَّ ما حلّ بهم هو من تدبير الكافر المستعمر ما داموا لا يحمّلون أنفسهم مسؤولية ما حلّ بهم، ويظلونَ جاهلين أنهم هم السبب لتقصيرهم وعدم قيامهم بمتطلبات دينهم، وعدم مراعاتهم لسنن الله في الأمم والجماعات والأفراد، فعلى الدعاة تبصير المسلمين بذلك وعدم إغفاله.

١٢٣٩- من آثار الإيمان في ميدان القتال:

الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة جهاد باللسان، فهو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله، والجهاد من آثار الإيمان، وأعلى أنواع الجهاد الجهاد بالسنان؛ لأن فيه بذل الأرواح في سبيل الله؛ والدعاة وهم يجاهدون بالقول، يحتاجون إلى ما يُبقِي اندفاعهم في الدعوة، ويُبقِي حماسهم ونشاطهم فيها، ومن سُبل ذلك استحضار صور الجهاد التي حفظها لنا التاريخ عن أولئك المجاهدين من السلف الصالح. وعلى رأسهم صحابة رسول الله ﷺ. فإنَّ في استحضار بطولاتهم وجهادهم في سبيل الله ما ينعش نفوس الدعاة إلى الله، ويمدهم بطاقة هائلة من الإيمان والاندفاع في الدعوة؛ لأنهم مهما يقدموا من جهدٍ في سبيلها فلن يبلغوا ما قدمه أولئك المجاهدون من أصحاب رسول الله ﷺ؛ وبالتالي فلن يستكثروا ما يقدمونه من جهد في دعوتهم. ومن جهاد الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ في معركة أحد. أن خيثمة - وكان ابنه قد استشهد يوم بدر - قال لرسول الله ﷺ: قد رأيت البارحة ابني

في النوم في أحسن صورة؛ يسرح في ثمار الجنة وأنهارها يقول: الحقْ بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنّي ورقّ عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد، ابني، في الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك، فقتل في معركة أحد شهيداً. وقصة أخرى من قصص المجاهدين بشأن عمرو بن الجموح، فقد كان أعرج شديد العرج؛ وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه ﷺ إلى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدتَ ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أُستشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه؟ لعلّ الله عز وجل أن يرزقه الشهادة؟ فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً[٢٣٩٤]. وبقي هذا الحماس والاندفاع إلى الجهاد يغشى المؤمنين الذين وضع الله عنهم الجهاد بالقتال، فقد جاء في أخبار معركة القادسية في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قول أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى - صاحب رسول الله ﷺ - وعليه درع يجرّ أطرافها وبيده راية سوداء، فقلت له أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى ولكني أكثّر سواد المسلمين بنفسي[٢٣٩٥].

١٢٤٠ - الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله:

وجاء في أخبار معركة أحد: أن النبي ﷺ ظاهر بين درعين، وعبأ جيشه فأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المجنبتين من الجيش الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو، واختار خمسين من الرماة وأجلسهم خلف الجيش على الجبل، وأمرهم أن لا يفارقوا مكانهم ولو رأو الطير تتخطف العسكر وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم[٢٣٩٦]. وكل هذه الأمور

(٢٣٩٤) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٥.

(٢٣٩٥) تفسير القرطبي ج٤ ص٢٦٦.

(٢٣٩٦) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦١.

تدل على أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب: بالأسباب المادية مثل اتخاذه درعين، أو بالأسباب التنظيمية مثل تعبئته للجيش ووضع الرماة لحراسة الجيش من ورائهم. وكذلك جاء في أخبار معركة أحد أنه لما حلّت الهزيمة بالمسلمين وثبت رسول الله ﷺ؛ وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قتل، توجه رسول الله ﷺ إلى جهة المسلمين؛ وكان أول من عرفه كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار عليه الصلاة والسلام بيده: أن اسكتْ(٢٣٩٧). وإشارته ﷺ لكعب بالسكوت لئلا يعرف المشركون مكانه فيصيبوه بمكروه، فكان من الحذر المحمود أن يسكت كعب، والأخذ بالحذر أخذٌ بالأسباب. فعلى الدعاة أن لا يغفلوا عن الأسباب التي يرونها ضرورية لنجاح دعوتهم؛ أو ضرورية لدفع الشر عنها وعنهم، أو ضرورية لصرف عيون الأعداء عن نشاطهم وجهادهم(٢٣٩٨).

١٢٤١- من جزاء السيئة السيئةُ بعدها:

وعلى الدعاة أن يحذروا من المعاصي وقوعاً فيها أو اقتراباً منها؛ لأن المعصية تجر صاحبها إلى المعصية؛ ولذلك قال بعض السلف: إن من جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، فإذا وقع الدعاة في معصية فعليهم الإسراع إلى الاستغفار والتوبة منها؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾(٢٣٩٩). أي إن الذين تولوا عن القتال في معركة أحد ففروا وانهزموا، إنما استزلهم الشيطان، أي حملهم على الزلل بالتولي عن القتال بسبب ما اكتسبوه من الذنوب، والتي منها مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ بالبقاء في أماكنهم، فلما خالفوا وتركوا أماكنهم ونزلوا في ساحة المعركة للغنيمة، ورجع المشركون يقاتلون المسلمين فروا مع الفارّين. فالذنوب بالنسبة إلى مرتكبيها

(٢٣٩٧) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٦٤.

(٢٣٩٨) كتابنا: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد- فصل الأسباب والمسببات.

(٢٣٩٩) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

كالأمراض بالنسبة للمصاب بها؛ تضعف مقاومته وتفتح ثغرة في بدنه تتسلل منها الجراثيم؛ أو تقوّي فيه الموجود منها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي عما كان منهم من الفرار لندمهم عما فرط منهم؛ ولتوبتهم النصوح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يغفر الذنوب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم[٢٤٠٠].

١٢٤٢- التمييز بين المؤمنين والمنافقين:

قد يندس في تجمع المؤمنين من ليس منهم، فقد يندس فيه المنافق، والراغب في الحصول على مغنم دنيوي، كما قد يلحق بهذا التجمع ضعيف الإيمان. وقد جرت سنة الله أن يُحدث في هذا المجتمع ما يميِّزُ به المؤمن الصادق في إيمانه، من المنافق المبطن لنفاقه، ومن المؤمن الضعيف الإيمان، ومن جاء لهذا التجمع الإيماني لمغانم دنيوية، والغالب في أداة الفرز والتمييز بين أفراد هذا التجمع هي أداة المحن والشدائد. وهكذا حصل التمييز والفرز في تجمع المؤمنين في زمن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ...﴾[٢٤٠١] وقد بينا دلالة هذه الآية الكريمة على ما نقوله[٢٤٠٢]. فعلى جماعة الدعاة أن يفقهوا ذلك؛ وليعلموا أن جماعتهم قد يكون فيها من ليس منهم، أو من جاء لينال مغنماً دنيوياً عن طريقهم وبواسطتهم، أو هو مسلمٌ ضعيف الإيمان لا يثبت في شدة فيخرج من الصف عند أول محنة فيحدث فيه خللاً واضطراباً ولهذا فقد كان من فضل الله على تجمع المؤمنين أن يجري فيهم سنته فيحدث لهم بعض المحن والشدائد ممّا يحصل به التمييز والفرز، إذ ليس من شأن الله تعالى ولا من سنته في خلقه أن يدع الصف المسلم؛ صف المؤمنين الدعاة إلى الله، غير مُميَّز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان؛ ومظهر الإسلام؛ بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان.. وكل هذا يقتضي أن يُصهَر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يُضغَط لتتهاوى اللبنات الضعيفة؛ وأن تسلط عليه الأضواء لتنكشف الدخائل والضمائر؛

(٢٤٠٠) تفسير الرازي ج٩ ص٥١، تفسير ابن كثير ج١ ص٤١٨، فتح البيان ج٢ ص٣٦٠، تفسير المنار ج٤ ص١٩٢.

(٢٤٠١) سورة آل عمران الآية ١٧٩.

(٢٤٠٢) الفقرة ١٢١٧.

ومن ثم كان من شأنه تعالى أن يميز الخبيث من الطيب[٢٤٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ . وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾[٢٤٠٤] فما أصاب المؤمنين في معركة أحد من جرح وقتل فبعلم الله وقضائه وقدره، وبموجب سنته في الأسباب والمسببات، وله الحكمة في ذلك كله، ومن هذه الحكمة يتميز المؤمنون ويُعرَفون، ويتميز المنافقون ويُعرَفون. فيحصل الفرز والتمييز بين الفريقين، فلا ينخدع المؤمنون بالمنافقين الذين كشفتهم أحداث معركة أحد. وما حصل للمؤمنين من تمييز فيما بينهم وبين المندسين فيهم من المنافقين؛ يحصل أيضاً بين جماعة الدعاة إلى الله تعالى بما تحدث لهم من محن وشدائد لا يثبت فيها إلا المؤمنون الصادقون، وتنكشف فيها حقيقة المنافقين بما يتقولونه على جماعة الدعاة، وبما يظهرونه من شماتةٍ بهم؛ وفرح بما أصابهم من ضرر وأذى، وبما يدعونه من أن قيادة الجماعة بسياستها وتصرفاتها أوقعت الجماعة بهذا الضرر والأذى. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك؛ وأن يحمدوا الله على ما هيأه لهم من محنٍ وإن كانت شديدة فقد عرفتهم بالمنافقين المندسين في صفوفهم.

١٢٤٣ - التمحيص بعد التميز:

قال تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢٤٠٥]. والمراد بالأيام وتداولها بين الناس: أوقات الظفر والغلبة، وصرفها بين الناس مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء. والقرح: الجرح والقتل، والتمحيص: التطهير والتصفية[٢٤٠٦] والآية تبين أن ما أصاب المسلمين في أحد من قتل وجرح أصاب المشركين مثله من قتل وجرح؛ وهكذا تكون الغلبة والنصر فيما بينهم.

(٢٤٠٣) تفسير سيد قطب ج١ ص٥٢٥.

(٢٤٠٤) سورة آل عمران الآية ١٦٦.

(٢٤٠٥) سورة آل عمران الآيتان ١٤٠، ١٤١.

(٢٤٠٦) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٨-٤١٩.

وتبين الآية أيضاً أن من حكمة ما أصاب المسلمين في أحد إظهار التمايز بين المؤمنين والمنافقين؛ لأن مداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء محك لا يخطىء؛ وبه تنكشف أحوال أهل الإيمان وأحوال أهل النفاق، والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين، ولكن الأحداث، ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوءَ وتجعله واقعا بين الناس، وتُحَوِّل الإيمان إلىٰ عمل ظاهر يُعرَف به أهل الإيمان وتُحَوِّل النفاق إلى عمل ظاهر يُعَرف به أهل النفاق[٢٤٠٧]. فعلى الدعاة وجماعتهم أن يعرفوا ذلك ويعرفوا أنَّ مِنْ حكمة الله أن يُحدث للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، من المحن والشدائد، وما يتخلل ذلك من أوقات السعة والرخاء، ما تنكشف به حقائق أهل النفاق فيستطيع المؤمنون الدعاة وجماعتهم التحرز من هؤلاء المنافقين، وكما يحصل بهذه المحن والشدائد تمييز المؤمنين من المنافقين، يحصل بها أيضاً تمحيص المؤمنين. والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. يكون بها تطهير النفس وتصفيتها من الشوائب، وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله سبحانه بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء؛ وبين السراء والضراء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمحن والشدائد والمواقف العملية الصعبة. وقد يظن المسلم في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والإخلاص، والخلاص من الشح والحرصَ والانقياد للحق، ثم إذا هو يكشف على ضوء التجربة العملية،وفي مواجهة الأحداث الواقعية، أنَّ في نفسه كدورات وشوائب لم تُمحَّص،ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليقوم بعملية التمحيص لنفسه وبنفسه[٢٤٠٨].وفي ضوء ما ذكرناه:على الدعاة أن يتفحصوا نفوسهم في ضوء الأحداث والوقائع والصعاب والشدائد التي تواجههم ليتبين لهم مدى ما فيها من قوة وضعف وتماسك وتخلخل،وثبات على مقتضيات الدعوة،كما أن على قيادة جماعة الدعاة أن تراقبهم في مختلف الأحداث؛ لتعرف مدى ثباتهم وقوة إيمانهم وجوانب الضعف فيهم،فتعالج ذلك وتضع خططها على أساس سليم من الواقع المحسوس ولا مانع أن تجري لهم اختبارات عملية لتعرف ما تريد معرفته

(٢٤٠٧) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨١.

(٢٤٠٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٤٨٢-٤٨٣.

منهم من قوة أو ضعف في الإيمان، ومن شجاعة أو خور، ومن تحمل للشدائد، وغير ذلك مما يجب أن تعرفه الجماعة؛ حتى لا تخطىء في إسناد المسؤوليات والأعمال الدعوية إلى منتسبيها من الدعاة.

١٢٤٤- إحساس المؤمن بأنه هو الأعلى:

من توجيهات الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بعد أن حصل لهم ما حصل في معركة أحد نهيه لهم أن يحسوا بهوان نفوسهم وانحطاطها عن المستوى الذي يريده الله لها، وأنَّ عليهم الإحساس الغامر لكيانهم بأنهم هم الأعلون على غيرهم بسبب ما يحملونه من الإيمان، فبإيمانهم يكونون هم الأعلون على كل الفاقدين هذا الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢٤٠٩] وجاء في تفسيرها، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وللمؤمنين عما أصابهم في معركة أحد، أي لا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، أي لا يورثنكم ذلك وهناً وجبناً، ولا تبالوا بما أصابكم، ولا تحزنوا على من قتل منكم أو جرح، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم في بدر أكثر مما أصابوا منكم في أحد، وأنتم أعلى شأناً منهم؛ لأنكم على الحق؛ وتدعون إلى الحق وتقاتلون لله لإعلاء كلمة الحق؛ وهم يقاتلون للشيطان؛ ولإعلاء كلمة الكفر، ومن أجل هذا فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، وأيضاً فأنتم الأعلون في العاقبة؛ لأنكم جند الله، والله يقول عن جنده: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم. على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بتأييد الله ونصره، وقلة المبالاة بأعدائه[٢٤١٠]. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يحسوا بمعاني هذه الآية، فلا تضعف عزائمهم مهما كانت الظروف والأحوال وأن يحسوا الإحساس الكامل بأنهم الأعلون على غيرهم مهما بلغت قوة أعدائهم المادية؛ ومهما بلغ عليهم التضييق والحبس؛ فإن الأسد يبقى أسداً في شكله ومظهره وإحساسه وإن كان مقيداً حبيساً...

(٢٤٠٩) سورة آل عمران الآية ١٣٩.

(٢٤١٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٤١٨.

١٢٤٥- الدعاة يصيبهم الأذى:

وليكن معلوماً لدى الدعاة إلى الله أنه لا يلزم من كونهم على الحق ويدعون إلى الحق أن لا يصيبهم أذى من أعداء الله، ويكفي للدلالة على ذلك أن رسول الله ﷺ -وهو حامل الحق ومبلغه للخلق- أصابه من الأذى من المشركين في مكة قبل الهجرة وبعدها في معركة أحد التي نتكلم عليها الآن، حيث قد شج وجهه الشريف وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفتُهُ السفلى من باطنها ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[٢٤١١]. كما أصاب أصحابه الكرام من أذى المشركين في مكة قبل الهجرة وبعدها في معركة أحد التي نتكلم عليها الآن، فقتِل من قُتِل منهم، وجرح من جرح؛ وهم خير خلق الله بعد رسله تعالى. فلا عجب ولا غرابة أن يلقى الدعاة في وقتنا الحاضر أنواع الأذى من أعداء الدعوة، سواء كان هذا الأذى بدنياً من القتل إلى ما دونه أو كان هذا الأذى معنوياً من إلصاق التهم بهم وتشويه سمعتهم إلى غير ذلك، فعلى الدعاة أن لا تضعف عزائمهم في جهادهم وقيامهم بما تتطلبُهُ الدعوة، بل ينبغي أن يحملهم ذلك على مضاعفة جهودهم في الدعوة إلى الله، وأن يعتبروا ما يلقونه من أذى من أعداء الدعوة علامة على إيمانهم؛ لحديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل...»[٢٤١٢]. وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»[٢٤١٣].

١٢٤٦- القائد يشارك جنوده في مواجهة العدو:

ذكرنا أن الرسول ﷺ شارك أصحابه في معركة أحد، حتى إنه ﷺ أصابته الجراح في وجهه الشريف؛ وكسرت رباعيته، وكان ﷺ ثابتاً عندما حلّت الهزيمة بجيش المسلمين، وكان لثباته أكبر الأثر في رجوع الفارين والعوْدِ إلى مقاتلة المشركين. فيفهم من ذلك أن على أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يشارك أفراد

(٢٤١١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري.

(٢٤١٢) جامع الترمذي ج٧ ص٧٨-٧٩.

(٢٤١٣) سنن الدارمي ج٢ ص٣٢٠، ورواه الطبراني في معجمه الكبير كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي.

جماعته من الدعاة وأنصارهم في مواجهتهم لخصوم الدعوة كلما كانت هذه المشاركة ضرورية، ولكن تقدير ذلك يرجع إلى أمير الجماعة وأهل الشورى في الجماعة، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ لم يشارك في جميع الغزوات التي خاضها وقام بها المسلمون، إلا أنه ﷺ شارك في معظمها وفي كل الغزوات المهمة والخطيرة(٢٤١٤). فعلى الجماعة المسلمة ملاحظة ذلك واتخاذ القرار المناسب في مسألة مشاركة أميرها لأعضائها في مواجهة أعداء الدعوة بصورة مباشرة وظاهرة؛ في ضوء المصالح والمفاسِدِ التي يمكن أن تترتب على هذه المشاركة. ومعنى ذلك أنْ ليس من الضروري دائماً أن يشارك أمير جماعة الدعاة أعضاءها في مواجهاتهم لأعداء الدعوة، وإنما يشاركهم كلما رأى ضرورة أو مصلحة ظاهرة في هذه المشاركة. ويدل أيضاً على ما نقول إضافة إلى ما قلناه، أن أبا بكر ومن بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لم يشاركا المسلمين في مواجهاتهم للكفار في حروب الردة وفي فتوحات العراق والشام.

١٢٤٧- الولاء والبراء ولمن يكونان في حكم الإسلام:

إن الذين تقاتلوا في أحد وقبل أحد في بدر كانوا كلهم من العرب تجمعهم رابطة النسب القريب أو البعيد، ولم يكن بينهم أعاجم أو غيرهم من الأجناس والقوميات الأخرى؛ وهذا يعني بكل بساطة ولكن بجلاء ووضوح أن الذي فرّق بينهم إلى حدّ القتال فيما بينهم هو اختلافهم في العقيدة وما يؤمن به كل فريق. هذا الإيمان هو الذي جعلهم فريقين متمايزين؛ فريق المسلمين وفريقِ المشركين، ولم يكن هذا التمايز فيما بينهم تمازياً ظاهرياً لا أثر له في الواقع، أو لا أثر له في نوع العلاقات فيما بينهم، أو لا أثر له في طبيعة الولاء أو البراء الذي يحمله كل فريق - فالواقع أن التمايز الذي ذكرناه والذي قام على أساس إيمان كل فريق بما يؤمن به كان له أكبر الأثر؛ إلى درجة أن جعل ولاء كل منهما وكذا براؤه يعلو على رابطة النسب والعصبية الجاهلية، فصار ولاء المسلمين للإسلام ولمن يؤمن به، وبراء المسلمين ممّنْ يكفر بالإسلام ولا يؤمن به؛ وإن كان هذا الكافر قريباً للمسلم من حيث النسب، وكذلك الحال بالنسبة للكافرين صار ولاؤهم لمن يشاركهم في عقيدتهم

(٢٤١٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٨٠-٢٨١.

وإن اختلفوا في النسب إذ آل الأمر إلى مواجهة المسلمين وإن كانوا مشتركين معهم في النسب. وهذا الولاء والبراء وما قام عليه كل منهما أدى إلى القتال بين المسلمين والكافرين في بدر وأحد؛ وما تلا هاتين المعركتين من معارك بين الفريقين. فعلى الدعاة أن يفقهوا ذلك فقهاً عميقاً يتغلغل في كيانهم؛ فيكون ولاؤهم لله ورسوله وللمؤمنين وإن كانوا أجانب منهم من حيث النسب القريب والبعيد، ويكون براؤهم من الكفر وأهله وإن كانوا أقرباءهم الأقربين من الآباء والأبناء والأخوة. لأن رابطة الإيمان أقوى من أي اختلاف في الروابط الأخرى كرابطة النسب، وإن رابطة النسب ونحوها أضعف من أن تعلو على رابطة العقيدة. ويكون مُحصّل القول في الولاء والبراء إنهما يقومان على أساس العقيدة وما يؤمن به كل شخص وليس على أي أساس آخر يراد الاستعاضة به عن أساس العقيدة، كرابطة القومية أو الوطنية أو الحرفة أو المهنة أو اللغة أو غيرها من الروابط.

١٢٤٨- ما يترتب على الولاء والبراء في حكم الإسلام:

ويترتب على الولاء والبراء في حكم الإسلام وقد ترتب عليهما فعلاً أن ولاء المؤمن صار للمؤمنين، وولاء الكافر صار للكافرين. وبراء المؤمن صار من كل كافر وإن كان قريباً له، وبراء الكافر صار من المسلم ومن كل من لا يدين بكفره وإن كان قريباً له. ومن مظاهر هذا الولاء والبراء الجديدين وما قام عليه كل منهم؛ أن تَقَاتَلَ العرب فيما بينهم في بدر وأحد بالرغم من رابطة النسب لاختلافهم في الولاء والبراء إلى حد أن كلاً من الفريقين كان حريصاً على قتل الآخر من الفريق الآخر ولو كان قريباً له من النسب، ومن ذلك أن أبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح قتل أباه في معركة بدر ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير في معركة أحد. وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام في معركة بدر، وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة ابنيْ ربيعة والوليد بن عتبة في معركة بدر على وجه المبارزة الفردية[٢٤١٥]. وفي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة بن أبي وقاص لما صنع

(٢٤١٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٤٩٧، تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٢٩، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص١٣٨-١٣٩.

برسول الله ﷺ في معركة أحد»[٢٤١٦] فعلى الدعاة الالتزام بمعاني الولاء والبراء في الإسلام وعدم الخروج عليهما.

١٢٤٩- ما نزل في القرآن في الولاء والبراء:

وقد يكون من المفيد جداً للدعاة أن أذكر ما نزل في القرآن من آيات الولاء والبراء ليعرفوا أهميتهما وضرورتهما في حياة المسلم وفي علاقته بغيره وحتى يفهموا الناس ما فهموه من معاني الولاء والبراء في الإسلام.

١٢٥٠- الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[٢٤١٧]. «الأولياء» جمع ولي بمعنى الموالي من الوَلْي وهو القرب. فكلمة «أولياء» تعني أنصاراً وأعواناً وأحباباً. والولي ضد العدو. والموالاة ضد المعاداة. وفي الآية نهي للمؤمنين عن موالاة الكافرين بسببٍ من أسباب المصادقة والمعاشرة كقرابة أو صداقة، ونهي عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية[٢٤١٨]. وحمل الموالاة المنهي عنها على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو ونحوه هو ما ذهب إليه بعض أهل العلم. وقال بعضهم تجوز الاستعانة بهم بشرط الحاجة والوثوق بهم أما بدونها فلا تجوز. على أن بعض المحققين ذكر أن الاستعانة المنهي عنها إنما هي استعانة الذليل بالعزيز؛ أما إذا كانت من باب استعانة العزيز بالذليل فقد أذن بها الشرع؛ ومن ذلك أن يتخذ المسلمون الكفار عبيداً أو خدماً[٢٤١٩]. وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن لكم أيها المؤمنون في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين؛ فلا تؤثروهم على المسلمين ولا تتجاوزوهم

(٢٤١٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦.

(٢٤١٧) سورة آل عمران الآية ٢٨.

(٢٤١٨) فتح البيان ج٢ ص٢١٤، تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠، تفسير الزمخشري ج١ ص٣٥١.

(٢٤١٩) تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠.

إلى الكافرين فتوالوهم استقلالاً أو اشتراكاً مع المؤمنين[٢٤٢٠].

١٢٥١ - الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾[٢٤٢١]. وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ دلت على وجوب اختصاص الموالاة بالمذكورين. وإنما قيل: ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ ولم يقل: «أولياؤكم» لأن أصل الكلام ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ فجُعِلتْ الولاية له تعالى عن طريق الأصالة؛ ثم نظم في سلك إثباتها له تعالى إثباتها لرسوله ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع لولاية الله، ولو قيل «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصل ولا تبع[٢٤٢٢].

١٢٥٢ - الآية الثالثة:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٤٢٣] والمعنى: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصاقونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علّل النهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله[٢٤٢٤]. وفي تفسير الألوسي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم، وهو مخرج مخرجَ التشديد والمبالغة في الزجر؛ لأنه لو كان المتولي منهم حقيقة لكان كافراً وليس بمقصود وقيل: المراد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ كافر مثلهم حقيقة، وحُكِي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢٤٢٥].

(٢٤٢٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٥١، فتح البيان ج٢ ص٩٤، تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٠.

(٢٤٢١) سورة المائدة الآية ٥٥.

(٢٤٢٢) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٤٨.

(٢٤٢٣) سورة المائدة الآية ٥١.

(٢٤٢٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٤٢.

(٢٤٢٥) تفسير الألوسي ج٦ ص١٥٧.

وفي تفسير القاسمي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ لاخلافَ في أنه صار عاصياً لله كما عصوه. ولكن أين تبلغ معصيتُهُ؟ وقد اختلف في ذلك فقيل: معنى قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي حكمه حكمهم في الكفر، وهذا حيث يقرهم على دينهم فكأنه قد رضيه. وقيل: من تولاهم على تكذيب رسول الله ﷺ. وقيل: المراد أنه منهم في وجوب عداوته والبراء منه، وقال الحاكم ودلالة الآية مجملةً فهي لا تدل على أنه كافر إلا أن يحمل على الموافقة في الدين[٢٤٢٦].

والذي أرجحه في دلالة الآية أن من يتولاهم على معنى موافقته لهم في الدين ورضاه عليهم وإن خالفوا الإسلام فهو كافر مثلهم؛ لأن الراضي بالكفر كافر، وأما إذا لم تصل موالاته لهم إلى حدّ الرضا بكفرهم فهو منهم في وجوب عداوته والبراءة منه.

١٢٥٣- الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢٤٢٧]. والمعنى: إن الشأن في المؤمنين أنهم لا يوادون المحادين لله ورسوله ولو كانوا من الأقربين، وإن أولئك المؤمنين المتصفين بهذه الصفةوهي عدم موادتهم لمن حاد الله ورسوله، كتب في قلوبهم الإيمان أي جعل في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه أي قواهم. وفي قوله تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ سرّ بديع وهو أنه لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم؛ والفوز العظيم؛ والفضل العميم. وهؤلاء المؤمنون هم حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته، وهم لهذا هم المفلحون في الدنيا والآخرة[٢٤٢٨]. وفي تفسير ابن

(٢٤٢٦) تفسير القاسمي ج٦ ص٢٤٦.

(٢٤٢٧) سورة المجادلة الآية ٢٢.

(٢٤٢٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٢٩.

عطية بشأن هذه الآية: نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شُعبَه على الكمال يواد كافراً أو منافقاً. ومعنى «يواد» يكون بينهما من اللطف بحيث يود كل واحد منهما صاحبه، وتحتمل هذه الآية أن يراد بها: لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يوادُّ من حادّ الله من حيث هو محادٌّ؛ لأنه حينئذ يود المحادّة وذلك يوجب ألّا يكون مؤمناً(٢٤٢٩) وفي تفسير الألوسي: المراد بموادَّةِ المحادّين: موالاتهم ومظاهرتهم. وقيل في معنى الآية: لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وبين موادة أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ. وقيل: لا تجد قوماً كاملي الإيمان على هذه الحال وهي موادّة من حادَّ الله ورسوله(٢٤٣٠).

١٢٥٤- الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢٤٣١). هذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الفتح وعلم بذلك حاطب فكتب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ، وأرسل كتابه مع امرأة، وأخبر الله رسوله بذلك فأرسل ﷺ علياً والزبير ورجلاً آخر ليأتوا بالكتاب من المرأة التي توجهت به إلى مكة؛ فأتوها واستحصلوا الكتاب منها وأتوا به إلى رسول الله ﷺ؛ فأرسل إلى حاطب وقال له: من كتب هذا؟ فقال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليَّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه؛ ولكني كنت امرأً حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يدٌ يرعونني بها في قرابتي. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت

(٢٤٢٩) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٦.

(٢٤٣٠) تفسير الألوسي ج٢٨ ص٣٥.

(٢٤٣١) سورة الممتحنة، الآية ١.

الآية لهذا السبب. وروي أن حاطباً كتب في كتابه لقريش: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم وأقسِمُ بالله لو غزاكم وحده لنُصِرَ عليكم فكيف وهو في جمّ غفير»[2432].

هذه الآية وما في معناها أصل في النهي عن موالاة الكفار، وقوله: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ أي في الظاهر، وإلقاء المودة مجاز عن إظهارها بإرسال أخبار النبي ﷺ إلى كفار مكة. وقال الزجاج: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم[2433]. وقوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ معناه: أي منفعة وأي طائل لكم في إسراركم؛ أي في إيصال أخبار النبي ﷺ إلى كفار مكة سراً؛ وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما[2434]. وفي بيان حال الكفار الذي أوصل حاطب إليهم أخبار النبي ﷺ، تلك الحال التي تستدعي معاداتهم لا موالتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي من الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ولم يكفهم ذلك حتى آذوا المسلمين وألجأوا الرسول ﷺ والمسلمين بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة لا لسبب سوى إيمانكم بالله ورسوله، فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي[2435]. وقال ابن كثير: وفي هذه الآية تهيج للمسلمين وحث لهم على عداوة المشركين وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولهذا قال تعالى: ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين وبرسوله الأمين ﷺ[2436].

١٢٥٥- الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(٢٤٣٢) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٩٧-٣٩٨.

(٢٤٣٣) تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٢، تفسير الألوسي ج١٤ ص٦٦.

(٢٤٣٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٢.

(٢٤٣٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص١١٨.

(٢٤٣٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٧.

بَصِيرٌ﴾[٢٤٣٧]. لما اعتذر حاطب بن أبي بلتعة لرسول الله ﷺ عما فعله بأنَّ له أولاداً وأرحاماً بين المشركين في مكة، وأراد بإرسال أخبار النبي ﷺ إليهم أن يمنع عن أولاده وأهله أذى المشركين بيَّن الله تعالى أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عصىٰ المسلم ربه من أجلهم[٢٤٣٨]. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بينكم وبين أقاربكم وأولادكم، أي لا نفع لمن اخترتم موالاة العدو الحقيقي لأجله؛ لأن القيامة مفرقة وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[٢٤٣٩] وقال ابن كثير بصدد هذه الآية: أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء[٢٤٤٠].

١٢٥٦ - الآية السابعة:

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢٤٤١]. أي كان فيهم مذهب حسن مرضي بأن يؤتى أي يُقتدَى به ويتبع أثره وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا حيث كاشفوهم بالعداوة وأظهروا لهم البغضاء والمقت، وصرحوا لهم بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائماً كانت العداوة قائمة، فإذا زال السبب بأن آمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة والبغضاء محبة. ومعنى ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبما تعبدون من دون الله: أنا لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم، وما أنتم عندنا على شيء[٢٤٤٢]. أو ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾

(٢٤٣٧) سورة الممتحنة الآية ٣.
(٢٤٣٨) تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٥.
(٢٤٣٩) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٠.
(٢٤٤٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٧.
(٢٤٤١) سورة الممتحنة الآية ٤.
(٢٤٤٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٤.

أي: كذبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيء منها(٢٢٤٣). وفي تفسير فتح البيان في قوله ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي من دينكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي مما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم أي لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم(٢٤٤٤). وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ قال ابن جرير: أي قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرؤا من أعدائه المشركين به ولا تتخذوا منهم أولياء، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرّؤوا عن عبادة ما سواه(٢٤٤٥).

١٢٥٧- الآية الثامنة:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(٢٤٤٦). في الآية تكرير لوجوب التأسي بإبراهيم وأصحابه لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين، فإن محبتهم أو موالاتهم توهين لقوى المؤمنين وتشكيك لضعاف القلوب، مما يفسد عمل المصلحين ويفتن أعداءهم بهم؛ لذلك كان البغض في الله من شعب الإيمان؛ لأن الحق لا يقوى إلا باجتماع أهله على كلمته ومعاداة أعدائه. وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ دلالة على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي من يتولَّ عما أُمِرَ به. ويوالي أعداء الله فإنه لا يضر إلا نفسه والله هو الغني عنه(٢٤٤٧).

(٢٤٤٣) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٣.

(٢٤٤٤) فتح البيان في مقاصد القرآن ج١٤ ص٧٨.

(٢٤٤٥) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٥-١٢٦.

(٢٤٤٦) سورة الممتحنة الآية ٦.

(٢٤٤٧) تفسير القاسمي ج١٦ ص١٢٧.

١٢٥٨- الآية التاسعة:

قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾[٢٤٤٨] بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بمعاداة الكافرين، وظهر منهم الجدّ كل الجدّ في تنفيذ ما أمرهم الله به من عداوة أقربائهم الكفرة، أنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها وعدٌ منه تعالى مستفاد بكلمة ﴿عَسَى﴾ بأن يجعل بين المؤمنين وبين الذين عادوهم مودة بأن يسلموا فيصيروا من المسلمين؛ فتزول عداوة المؤمنين لهم لزوال سببها وهو كفرهم. وقد حصل ووقع هذا الوعد فأسلم قوم كثيرون بعد فتح مكة وحسن إسلامهم ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله[٢٤٤٩].

١٢٥٩- الآية العاشرة:

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ. إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢٤٥٠] هذه الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم، وكان قدوم أم أسماء عليها في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش. ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ أي لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم، أي تحسنوا إليهم ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي تعدلوا. وقال ابن العربي المالكي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل. ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ...﴾ الخ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم

(٢٤٤٨) سورة الممتحنة الآية ٧.

(٢٤٤٩) فتح البيان ج١٤ ص٨٠.

(٢٤٥٠) سورة الممتحنة الآيتان ٨، ٩.

ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكدّ الوعيد على موالاتهم فقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٢٤٥١)].

١٢٦٠- الاستثناء من موالاة الكفار:

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٢٤٥٢)] والآية صريحة في النهي عن موالاة الكافرين، واستثنت من ذلك الحالة التي يُرخَّص فيها بالتقية فما المقصود بها وما مدى هذا الاستثناء وشروطه وما يتعلق به، ذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى آية ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا منهم خوفاً وهذا هو معنى التقية، واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأيَّ شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقيةُ فكل قادر غالب يخشى شره وضره، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا، وحكام الجور والظلم، ونحوهم، وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل وبالخوف على الجوارح وبالضرب بالسوط وبسائر التعذيب فإذا فُعِل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً، فهو مُكرَه وله حكم التقية. والسجن والتقيد والتهديد والوعيد وعداوة أصحاب السلطة والنفوذ كل هذه الأشياء تدخل في نطاق التقية وما تبيحه. إلا أنها بحسب حال الذي يتعرض إلى هذه الأشياء وبحسب الذي يكره عليه أو يخاف وقوعه عليه. فكم من الناس السجن لا يرهبه ويستطيع تحمله فلا يسرى عليه حكم التقية. وأما أي شيء يبيحُ التقيّة؟ فقد اتفق العلماء على إباحاتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه ممّا يريده الكفار من المسلم فيقوله لينجوا من شرهم، ويدخل في ذلك المدارة والمصانعة، وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلاّ كنت متكلماً به، وأما ما تبيحه التقيّة من الأفعال فقال جماعة من أهل العلم: تبيحُ كل ما حرمَ الله فعله وينجي نفسه بذلك، كما لو أكره على شرب الخمر وهدد بالقتل إن لم يفعل. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحةٌ

(٢٤٥١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٥، تفسير القرطبي ج١٨ ص٥٩، أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج٤ ص١٧٨٥.

(٢٤٥٢) سورة آل عمران الآية ٢٨.

للأقوال؛ فأما الأفعال فلا[2453]. وقال الإمام ابن كثير في تفسير الآية والاستثناء الذي فيها: نهى الله عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، وعن ابن عباس التقية باللسان[2454].

وفي تفسير الألوسي: وعدَّ قوم من باب التقيّة مداراة الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم، وإعطاءهم لكف أذاهم وقطع لسانهم وصيانة الأعراض منهم، ولا يُعَدّ ذلك من باب الموالاة المنهي عنها[2455].

ويلاحظ هنا أن النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين إنما هو فيما يظهره المرء، فأما أن يتخذه بقلبه مودةً لهم ورضا بهم فهذا لا يفعله مؤمن. فالنهي هنا إنما هو عبارة عن إظهار اللطف للكفار والميل لهم[2456]. وهذا القدر الظاهري هو الذي يمكن أن يأتيه المؤمن على سبيل التقية إذا تعين ذلك وسيلة لدفع الشر والضر عنه. وفي تفسير القاسمي في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه[2457]. وفي تفسير سيد قطب يرحمه الله تعالى: ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات.. ولكنها تقية اللسان لاولاء القلب ولاولاء العمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان» فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر ولا أن يعاون المؤمن الكافر؛ بالعمل في صورة من الصور باسم التقية[2458]. وقال الفقيه ابن العربي المالكي:

(٢٤٥٣) تفسير ابن عطية ج٣ ص٧٤-٧٦.

(٢٤٥٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٥٧.

(٢٤٥٥) تفسير الألوسي ج٣ ص١٢٢.

(٢٤٥٦) تفسير ابن عطية ج٣ ص٧١.

(٢٤٥٧) تفسير القاسمي ج٤ ص٧٩.

(٢٤٥٨) تفسير سيد قطب ج١ ص٣٨٦.

﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ ﴾ إلا أن تخافوا منهم، فإن خفتم منهم فساعدوهم ووالوهم وقولوا ما يصرف عنكم من شرهم وأذاهم بظاهرٍ منكم لا بإعتقاد يبين ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[٢٤٥٩].

١٢٦١- الخلاصة في هذا الاستثناء:

والخلاصة في المراد بالاستثناء من موالاة المسلمين للكافرين أن المسلم إذا رأى أن لا سبيل لوقاية نفسه من أذى وضرر الكفار ونحوهم إلا بأن يظهر لهم بعض مظاهر الولاء لهم بلسانه فله أن يفعل ذلك على وجه الرخصة، وكذلك في الإتيان ببعض الأفعال المحرمة كشرب الخمر. ولا تجوز التقية إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. ولكن لا يجوز للمسلم المودّة بقلبه للكافر ولا الرضا بكفره ولا أي معنى من معاني الولاء القلبية، لأن الأخذ بالتقية للضرورة ولا ضرورة لعقد الولاء القلبي للكافر.

١٢٦٢- الدعاة والأخذ بالتقية:

الأصل في عمل الدعاة الصراحة والوضوح وعقد الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وعقدُ البراء من الكفار والفسقة وحكام الجور ومن أعمال هؤلاء: الكفر والفسق والجور. ولكن يجوز لهم على وجه الرخصة أن يأخذوا بالتقية في نطاق ضيق جداً، لأن التقية استثناء والاستثناء لا يتوسع به؛ ولأن التقية حالة ضرورة، والضرورات تقدر بقدرها؛ ولأن الأخذ بالتقية يلاحظ فيه المصالح الشرعية والمفاسد الشرعية؛ لأن الظاهر من أعمال التقية إظهار بعض معاني الولاء والموافقة لمن يريد الشرع البراءَ منه، وليس كل الناس يفقه أن عمل الدعاة الموافق لأعداء الإسلام أو لأعداء الدعوة إنما هو عمل صدر على وجه التقية، فيكون أخذ الدعاة بالتقية منفراً للناس منهم ويجعلهم يظنون ظن السوء بالدعاة، وهذا ضرر جسيم بالدعوة وبجماعة الدعاة. ولهذا أرى أن يأخذ الدعاة بالسكوت عمن يستحقون البراء منهم وعدم مهاجمتهم بالقول إذا كان نقدهم ومهاجمتهم بالقول يلحق ضرراً بهم وبجماعتهم.

(٢٤٥٩) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ج١ ص٢٦.

١٢٦٣- إشراك المؤمنات بالدعوة إلى الله:

ويجب على الدعاة أو على جماعتهم أن يحرصوا على إعداد المؤمنات للقيام بأعمال الدعوة إلى الله في أوساط النساء، فهن أقدر من الرجال في الدعوة في مجال النساء، كما يمكن أن يقمن ببعض متطلبات الدعوة وتبليغها، ومن شأن هذه المتطلبات السرية وعدم الظهور والانكشاف. ودليلنا على ما نقول أن النساء المؤمنات كن يشاركن في غزوات النبي ﷺ؛ فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُلَيم ونسوةٍ من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى[٢٤٦٠]. وفي معركة أحد التي نتكلم عنها وعما يستفاد منها، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك وهو يتحدث عن معركة أحد «. . . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرّتان تنقلان القِرَب على متونهما ثم تُفرغانه في أفواههم؛ ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم»[٢٤٦١]. وشاركت أم سُلَيط من نساء الأنصار في معركة أحد، وقد آثرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمرط جيد، مفضلاً إياها في هذا العطاء على زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب؛ مجيباً من ذكرّه بأم كلثوم زوجته، بقولِهِ رضي الله عنه: أم سُلَيط أحق به- أي بالمرط- فإنها كانت تُزفِر لنا القرب يوم أحد[٢٤٦٢]. وعلى الدعاة أن يحاولوا أن يجعلوا نساءهم- كزوجاتهم أو أمهاتهم أو أخواتهم أو قريباتهم- داعيات معهم ليسهل على الدعاة ذوي العلاقة بهن تكليفهُن بأعمال الدعوة التي تناسبهن؛ ويكونوا- أي الدعاة- على اتصال سهل ميسور معهن. وإنما نطلب من الدعاة أن يعُدّوا المؤمنات ليكن داعيات؛ لأنه إذا جاز واستحبّ للنساء المسلمات أن يشاركن في حرب المسلمين مع الكفار؛ ويقمن بما يحتاجه المقاتلون ويناسب قدرات النساء، فمن باب أولى أن يكون من المرغوب فيه شرعاً أن يساهمن في الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة في أوساط النساء، وأن يقمن بالأعمال الأخرى من أعمال الدعوة التي هنّ أقدر

(٢٤٦٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٨٨.

(٢٤٦١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٨٩.

(٢٤٦٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٦٦- ٣٦٧.

عليها من الرجال كتبليغ خبر أو إيصال معونة إلى عوائل الشهداء من الدعاة ونحو ذلك.

١٢٦٤- على الدعاة تشجيع الداعيات:

وعلى الدعاة وهم يعدون المسلمات ليكنّ داعيات، أن يذكروا المسلمات بأن الدعوة إلى الله تعالى من وجائب الإسلام عليهن، كما أنها من وجائب الإسلام على الرجال المسلمين؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢٤٦٣]. كما أن على الدعاة أن يذكّروا المسلمات والداعيات منهنّ بمواقف المسلمات السابقات في عصر النبي ﷺ من الفواجع التي تصيب أهلهن في سبيل الله، ومن تعلقهن برسول الله ﷺ وبالحرص على سلامته؛ لتكون هذه القصص عنهن مشجعات للداعيات على أعمال الدعوة والاندفاع فيها. فمن هذه القصص أن حمنة بنت جحش لما أخبرت باستشهاد أخيها عبد الله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب في معركة أحد؛ استرجعت واستغفرت. ولما مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ في معركة أحد، فلما نعوا لها ذلك- أي أخبرت بقتلهم- قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيهِ حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل- تعني صغيرة[٢٤٦٤].

(٢٤٦٣) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

(٢٤٦٤) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٣٩٥.

الفصل الثامن

غزوة حمراء الأسد

المبحث الأول

ملخص الغزوة وأحداثها

١٢٦٥- أسباب هذه الغزوة:

وقعت معركة أحد يوم السبت الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة؛ وقد أصيب فيها النبي ﷺ وأصحابه كما أشرنا من قبل. ورجع النبي ﷺ وأصحابه متعبين إلى المدينة، وتوجه المشركون راجعين إلى مكة، وفي الطريق تلاوموا فيما بينهم؛ فقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً؛ قتلتم من قتلتم من المسلمين ولكن لم تقضوا عليهم فارجعوا إليهم حتى تقضوا عليهم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، وفي صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام خاف أن يرجعوا[٢٤٦٥]. ولا مانع أن يكون ما بلغه من رغبة المشركين في الرجوع إلى المسلمين هو نفس ما كان يتخوفه منهم. وعلى ذلك رأى ﷺ أن يخرج إليهم إرهاباً لهم وإعلاماً بأن ما أصابه وأصاب المسلمين لم يضعفهم عن الخروج إليهم لقتالهم.

١٢٦٦- لا يخرج معنا إلا من شهد قتال أحد:

وفي صباح اليوم التالي لمعركة أحد وبعد أن صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أمر بلالاً أن ينادي في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم بالخروج لطلب العدو وأنه لا يخرجْ معنا إلا من شهد القتال أمس. أي قتال أحد. فخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير وكلهم جريح فقال لهم: إن رسول الله يأمركم أن تطلبوا عدوكم، فقال أسيد بن حضير - وبه سبع جراحات يريد أن يداويها - سمعاً وطاعة لله ولرسوله، وأخذ سلاحه وترك الدواء ولحق برسول الله ﷺ، وخرج من بني سلمة

(٢٤٦٥) صحيح البخاري ج٧ ص٣٧٣.

أربعون جريحاً، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبالحارث بن الصمة عشر جراحات، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم قال: اللهم ارحم بني سلمة[٢٤٦٦].

وذكر ابن كثير في تفسيره عن محمد ابن إسحاق قال: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان قد شهد أحداً قال: شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي ورجعنا جريحين؛ فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي - أو قال لي - أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها؛ وما منا إلا جريح ثقيل؛ فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحاً منه، فكان إذا غلب حملته[٢٤٦٧].

١٢٦٧ - القرآن ينزل في مدح المستجيبين لرسول الله ﷺ:

وفي صحابة رسول الله ﷺ الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو أنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢٤٦٨] أي أن أصحاب رسول الله ﷺ الذين استجابوا لنداءه بالخروج لملاقاة العدو من بعد ما أصابتهم الجراح في معركة أحد، ودون أن تمنعهم جراحهم من الخروج طاعة لله ولرسوله، لهؤلاء أجر عظيم من الله سبحانه وتعالى وكلمة (من) في ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للتبيين وليس للتبعيض، ومثلها في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا، لا بعضهم[٢٤٦٩].

١٢٦٨ - الرسول ومن معه يصلون حمراء الأسد:

وخرج النبي ﷺ ومن معه من المسلمين متعقبين أبا سفيان قائد جيش المشركين،

(٢٤٦٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٨-٤٢٩، تفسير المنار ج٤ ص١٠٦، إمتاع الأسماع للمقريزي ص١٦٧.

(٢٤٦٧) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٨-٤٢٩.

(٢٤٦٨) سورة آل عمران الآية ١٧٢.

(٢٤٦٩) تفسير الزمخشري. ج١ ص٤٤٠-٤٤١.

حتى وصلوا (حمراء الأسد) وهو موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة. وأقبل معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم؛ وأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله[٢٤٧٠]. وفي تفسير ابن كثير: إن معبد الخزاعي كان يومئذ مشركاً[٢٤٧١] ويضيف ابن كثير على قوله في معبد بأنه كان مشركاً: وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح - أي موضع سره - لرسول الله ﷺ بتهامة لا يخفون عنه شيئاً كان بها[٢٤٧٢].

١٢٦٩ - معبد الخزاعي يخذّل أبا سفيان:

لحق معبد الخزاعي بأبي سفيان قائد جيش المشركين بالروحاء - موضع على طريق مكة يبعد عن المدينة أربعين ميلاً - فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابُهُ قد تحرقوا عليكم وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم. فقال أبو سفيان: ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة[٢٤٧٣].

١٢٧٠ - أبو سفيان يريد إرهاب المسلمين:

وفي طريقه إلى مكة لقي أبو سفيان بعض المشركين ممّنْ يريد المدينة؛ فقال أبو سفيان: هل لك أن تبلغ محمداً رسالة، وأوقر لك راحلتك زبيباً إذا أتيت مكة؟ قال: نعم. قال أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه. ولما بلغ النبيَّ ﷺ والمؤمنين قولُهُ وهم في حمراء الأسد قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل[٢٤٧٤]. فأنزل الله عز وجل فيهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

(٢٤٧٠) تفسير المنار ج٤ ص١٠٦.

(٢٤٧١) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٩.

(٢٤٧٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٢٩.

(٢٤٧٣) تفسير المنار ج٢ ص١٠٦-١٠٧.

(٢٤٧٤) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣٠، تفسير الألوسي ج١٤ ص١٢٥.

وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2475]. وقوله ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للمحسنين المذكورين في الآية قبلها ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . .﴾ وهذا القول هو الذي قاله أبو سفيان وحمّله بعض المشركين المتوجهين إلى المدينة ليبلغوه إلى النبي ﷺ. فكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الأولى الواردة في الآية هم هؤلاء المبلغون رسالة أبي سفيان إلى رسول الله ﷺ. وكلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثانية تعني أبا سفيان وجيش المشركين ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي ثبوتاً واستعداداً، والمراد أنهم لم يلتفتوا إلى تهديد أبي سفيان من أنه وجيشه عازمون على الرجوع إلى المدينة لاستئصالهم، هذا القول الذي أرسله أبو سفيان لتبليغه إلى النبي ﷺ لم يرهب النبي ﷺ ولا أصحابه؛ بل ثبت به يقينهم بالله ورعايته لهم، وازدادوا طمأنينة وثقة بربهم. وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. وهذا ظاهر إذا جعلنا الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، وإذا أريد بالإيمان نفس التصديق والاعتقاد فإنه يزداد بكثرة التأمل وتعدد وكثرة الحجج والأدلة والبراهين. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي الله كافينا، ونعم الوكيل أي نعم الموكول إليه وهو الله تعالى. ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فخرجوا إليهم ورجعوا بنعمة عظيمة من الله تعالى. والمراد بها السلامة والظهور في اتباع العدو، أو الثبات على الإيمان وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ أو إذلالهم أعداء الله تعالى وإرهابهم على بعدٍ. أو المراد ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مجموع هذه الأمور ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي انقلبوا بفضل من الله تعالى وهو الأجر الذي حازوه والفخر الذي تجللوه كما قال ابن عطية في تفسيره، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي لم يصبهم قتل ولم يؤذهم أحد. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فيما يأتون ويتركون وأطاعوا الله ورسوله، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة، والله ذو فضل عظيم حيث تفضل عليهم بما تفضل[2476].

(٢٤٧٥) سورة آل عمران، الآيتان ١٧٣، ١٧٤.

(٢٤٧٦) تفسير ابن كثير ج١ ص٤٣٠-٤٣١، تفسير ابن عطية ج٣ ص٤٢٤-٤٢٦، تفسير الزمخشري ج١ ص٤٤٢، تفسير الألوسي ج١٤ص١٤٥-١٤٩، فتح البيان ج٢ص٣٨٠.

المبحث الثاني
المستفاد من غزوة حمراء الأسد

١٢٧١- العدو لا يفهم غير لغة القوة:

عندما بلغ النبيّ ﷺ خبرُ عزم أبي سفيان على الرجوع بجيشِهِ إلى المدينة، أو أنَّ النبي ﷺ قدَّرَ في نفسه الشريفةِ هذا الرجوع، نهض بكل جدٍّ وحماس، وأمر مناديه باستدعاء أولئك الذين شاركوا في قتال العدو في معركة أحد، دعا منادي رسول الله هؤلاء للخروج لتتبع العدو، ولإظهار قوة المسلمين؛ وإعلام المشركين بأنَّ ما أصاب المسلمين يوم أحد لم يضعفهم، ولم يوهن عزيمتهم، وأن لرسول الله من القوة ما يمكّنه من ملاحقتهم. إن الأعداء؛ أعداء الإسلام وأعداء الدعوة إليه وأعداء دعاته لا يفهمون غير لغة القوة؛ لأن الضلال بلغ بهم مبلغاً حملهم على عداوة المسلمين لعقيدتهم لا لشيء آخر، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فلا ينفع معهم إلا القوة، وإظهار القوة وإرهابهم بالقوة، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ. وعلى هذا فيجب على الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يبذلوا كل ما يستطيعون لإعداد القوة بأنواعها: قوة الإيمان في نفوس منتسبيها وفي نفوس المسلمين عموماً، وقوة العلم، وقوة العدد من الدعاة والأنصار، وقوة النظام والتنظيم، وقوة العزيمة، وقوة الصبر على المكاره، وكل هذه القوة بأنواعها يراد بها مواجهة أعداء الدعوة لكشف شرهم.

١٢٧٢- الأعمال الصعبة تناط بالقادرين عليها:

لم يأذن رسول الله ﷺ بالخروج لملاحقة العدو إلا لمن اشترك في معركة أحد؛ لأن هؤلاء المشتركين فيها قد جُرِّبوا وامتحِنوا وتلقوا درساً قاسياً وعبرة وموعظة مما وقع لهم في تلك المعركة. فهم، إذن، وحدهم لا غيرهم المأهَّلون للقيام بهذه المهمة الخطيرة، مهمة ملاحقة العدو، فلا يخرج لها إلا المؤمنون الثابتون الذين يعلونَ بإيمانهم على جراحاتهم. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة أن يعتبروا بذلك؛

ولا يتجاوزوا الذين جُرِّبوا وامتُحِنوا أو ثبتوا في مختلف الظروف والأحوال، وأن تناط أعمال الجماعة المهمة بهذا النوع من الدعاة لا بغيرهم، وأن لا يُقدَّم عليهم غيرهم ممن لم يُمتَحنوا بعد.

١٢٧٣- حرب الدعايات:

رأينا كيف حمَّل أبو سفيان بعض المشركين المتوجهين إلى المدينة رسالة لإبلاغها إلى رسول الله ﷺ خلاصتها أنه وجيشه عازمون على الرجوع إلى المدينة لإبادة المسلمين جميعاً. وأراد أبو سفيان برسالته تلك إرهاب المسلمين وإحداث الخلاف فيما بينهم فيما يجب أن يفعلوه. وقد فطن النبي ﷺ لهذا الغرض؛ غرض أبي سفيان، فقال وقال معه أصحابه الكرام: حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أُلقِيَ في النار فكفته. وقالها محمد ﷺ وأصحابُهُ فكفتهم، ثم نهض عليه الصلاة والسلام لملاحقة أبي سفيان وجنده. وهكذا جمع بين الأمرين: توكل كامل على الله، وأخذ بالأسباب بملاحقة العدو، فعلى جميع الدعاة وجماعتهم المسلمة أن لا تخيفهم دعايات العدو؛ ولا تزلزل أقدامهم ولا توهن عزائمهم، وإنما عليهم أن يتذكروا عناية الله بهم وكفايته لهم فهو خير من تُوكَل إليه الأمور، وبالتالي فليقولوا بألسنتهم وبقلوبهم: حسبنا الله ونعم الوكيل.. مع أخذ بالأسباب المادية. إن أهل الحق، أهل الدعوة إلى الله، لا يمكن أن تحوّلهم عن دعوتهم ومسيرتهم فيها دعايات أعداء الدعوة، ولا قوتهم؛ لأن قوة الله أكبر من قوتهم، ولأنهم يقومون بما يفرضه الله عليهم من واجب الدعوة إليه. أما النتائج، أما ما قد عسى أن يحدث أو ما يصيبهم، فهذا كله موكول إلى الله يحكم فيه وهو خير الحاكمين.

١٢٧٤- تخذيل العدو:

ولا بأس بالأخذ بأسلوب تخذيل العدو لحمله على عدم المضي في شره وفي تنفيذ ما هو عازم عليه، وأن تستعين جماعة الدعاة وأميرهم بالقادرين على مهمة تخذيل العدو، كالذي قام بتخذيل أبي سفيان وحمله على عدم الرجوع إلى المدينة، بعلم ورضا من رسول الله ﷺ. ويستحسن لهذه المهمة اختيار المخلصين للدعوة؛ غير المعروفين لدى المؤمنين مع اطمئنان العدو بهم وبما يشيرونه عليهم، وهذا ما

كان متحققاً في معبد الخزاعي الذي أسلم ولم يعلم بإسلامه المسلمون ولا أبو سفيان؛ وأذن له النبي عليه السلام بتخذيل أبي سفيان؛ وحمله على عدم الرجوع إلى المدينة.



الفصل التاسع

غزوة الخندق (الأحزاب)

المبحث الأول

أسبابها وأحداثها

١٢٧٥- تاريخ حدوثها وسبب تسميتها:

وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة(٢٤٧٧). وسميت بغزوة «الخندق» لأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ. وأما تسميتها بغزوة «الأحزاب» فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين. وهم قريش وغطفان وآخرون من قبائل العرب واليهود ومن تبعهم(٢٤٧٨).

١٢٧٦- اليهود يحرضون قريشاً على قتال المسلمين:

قريش كانت في حرب مع المسلمين، حاربتهم في بدر وأحد، وظلت تتحين الفرص لقتال المسلمين واستئصالهم، ولذلك لما جاءها وفد من اليهود يحرضهم على قتال المسلمين وغزوهم في عقر دارهم، لقي تحريضهم هوى من نفوس قريش، لا سيما وأن هذا الوفد وعد قريشاً بنصرتهم وقتال المسلمين معهم. ومن أخبار هذا الوفد أنهم لما قدموا على قريش سألهم بعض رؤساء قريش: أديننا - أي دين قريش - خير أم دين محمد؟ فقالوا: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾(٢٤٧٩).

(٢٤٧٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٢٩٣، السنة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٤١٨.

(٢٤٧٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٤٧٩) تفسير ابن كثير ج١ ص٥١٣، والآية في سورة النساء ورقمها ٥١.

وفي تفسير الزمخشري بصدد هذه الآية: إن حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ. فقالوا لليهود: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. فهذا إيمانهم ﴿ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ ﴾؛ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب بن الأشرف: أنتم أهدى سبيلاً. فأنزل الله هذه الآية[٢٤٨٠].

١٢٧٧ - اليهود يحرضون القبائل على قتال المسلمين:

ثم خرج الوفد اليهودي من مكة إلى نجد يحرض القبائل على قتال المسلمين، فحالف قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، ثم طاف هذا الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ما دعا إليه قريشاً وغطفان فاستجاب له من استجاب، وبعد إجراء هذه التحالفات اتفق الجميع على تجمعهم في مرّ الظهران التي تبعد عن مكة أربعين كيلو متر، ومن هناك توجه الأحزاب جميعاً: قريش وحلفاؤها، وغطفان وحلفاؤها، وبقية من استجاب لتحريض اليهود، توجهوا جميعاً نحو المدينة المنورة يريدون غزوها واقتحامها ومقاتلة المسلمين فيها[٢٤٨١].

١٢٧٨ - النبي ﷺ يشاور أصحابه:

ولما بلغت النبيّ ﷺ أخبار قريش وحلفائها وتوجههم نحو المدينة استشار النبي ﷺ أصحابه في هذا الأمر وفيما يجب عمله. فأشار كل من عنده رأي برأيه، وكان رأي الصحابي الجليل سلمان الفارسي أن يحفر المسلمون خندقاً حول المدينة ويقاتلون خلفه، فقد قال سلمان وهو يبدي رأيه: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل أن يأتي المشركون ويحاصروهم[٢٤٨٢]. وقد

(٢٤٨٠) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٢١.

(٢٤٨١) السيرة النبوية الصحيحة للعمري ج٢ ص٤١٩-٤٢٠، الرحيق المختوم ص٢٧٥.

(٢٤٨٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٢،٣٩٣، تفسير الألوسي ج٢١ =

أعطى كل أربعين ذراعاً لعشرة يحفرونه.

١٢٧٩- الرسول ﷺ يشارك أصحابه في حفر الخندق:

أخرج البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخندَقَ رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدةَ بطنه - وكان كثير الشعر - يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصـدقنـا ولا صلينـا
فـأنـزل سكينـة علينـا ... وثبـت الأقـدام إن لاقينـا
إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادو فتنـة أبينـا

قال البراء ثم يمدّ ﷺ صوته بآخرها[٢٤٨٣].

١٢٨٠- الرسول ﷺ يشجع أصحابه على الحفر ويدعو لهم:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فقالوا - أي أصحابه الكرام - مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[٢٤٨٤]

١٢٨١- أحداث وقعت في أثناء حفر الخندق:

أولاً- الإذن لابن عمر بالقتال:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنْ النبي ﷺ عرَضه يوم أحد وهو ابن أربع عشر سنة فلم يُجْزهُ، وعرضه يوم الخندق

= ص١٥٥.

(٢٤٨٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٩-٤٠٠.

(٢٤٨٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٢.

وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه»[2485]. وقوله «فأجازه» أي أمضاه وأذن له في القتال وفي حديث أبي واقد الليثي: «رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق فأجاز من أجاز ورد من ردَّ إلى الذراري»[2486]. وقوله «عرضه يوم أحد» عرض الجيش اختبار أحوالهم قبل مباشرة القتال للنظر في هيئتهم وترتيب منازلهم ومن يصلح للقتال ومن لا يصلح وغير ذلك[2487].

١٢٨٢ - ثانياً- النبي ﷺ يثير أصحابه وهو يحفر الخندق:

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق فعرضت كُدْية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق. فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل، أو أهيم»[2488]. قوله فعرضت كُدْيه هي القطعة الشديد الصلبة في الأرض. وكان بطنه ﷺ معصوب بحجر من الجوع، وقوله «ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً» هي جملة معترضة أوردها لبيان السبب في ربطه ﷺ الحجر على بطنه. فأخذ المعول أي المسحاة فضرب في الكدية فعاد كثيباً أي رملاً، أهيل أي يسيل ولا يتماسك. ووقع في رواية أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله» فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض» ثم ضرب الثالثة وقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر» أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر

(٢٤٨٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٢.
(٢٤٨٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٤.
(٢٤٨٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٣.
(٢٤٨٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٥.

أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة». ففرح المسلمون واستبشروا[٢٤٨٩].

١٢٨٣- ثالثاً- تكثير الطعام:

في حديث جابر رضي الله عنه الذي أخرجه الإمام البخاري في حفر الخندق «.. فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبيِّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت عندي شعير وعَناق - وهي أنثى المعز - فذبحتُ العناق وطحنَتِ الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبُرمَة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافيِّ قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيّهم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له. فقال: كثير طيب. قال ﷺ: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فقال قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال ﷺ: ادخلوا ولا تضاغطوا: فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبر ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية؟. قال: كلي هذا وأهدي، فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة»[٢٤٩٠]. قولها «عندي شعير» جاء في رواية أنه صاع. «وعناق» هي الأنثى من المعز. قوله «فذبحتُ، وطحنَتِ» فالذي ذبح هو جابر وامرأته هي التي طحنت «والعجين قد انكسر» أي لان ورطب وتمكن منه الخمير. «والبرمة بين الأثافيِّ» أي الحجارة التي توضع عليها القدر وهي ثلاثة، وفي رواية لهذه القصة جاء فيها «فلما دخل - أي جابر - على امرأته قال: ويحكِ جاء رسول الله ﷺ بالمهاجرين والأنصار، قالت: «هل سألك أي النبي ﷺ؟ قال: نعم..» وفي رواية أخرى: «فدخلتُ - أي جابر - على امرأتي أقول: افتضحت: جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين. فقالت، هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، قال جابر: فكشفت عني غماً شديداً. وفي محاورتها لزوجها جابر ما يدل على وفور عقلها وكمال فضلها؛ لأنها فهمت أن النبي ﷺ لم يحضر معه المهاجرون

(٢٤٨٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٦-٣٩٧.

(٢٤٩٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣٩٥.

والأنصار مع إخباره بقلة طعامهم إلا أن يكون وراء ذلك سرّ أو خارق للعادة. قوله: «ولا تضاغطوا» أي لا تزدحموا وقوله: «ويخمر البرمة» أي يغطيها. وقوله: «ثم ينزع» أي يأخذ اللحم من البرمة. وفي رواية لهذه القصة: قال ﷺ: «ادع خابزة فلتخبز معكم أي تساعدكم» وفي رواية أبي الزبير عن جابر «وأقعدَهم عشرة عشرة فأكلوا» فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعون، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا. قوله: «كلي هذا وأهدي» أي أن النبي ﷺ أمر امرأة جابر أن تأكل وتهدي لجيرانها وللمحتاجين، ثم بيَّن ﷺ سبب قوله لها ذلك، بقوله: «فإن الناس أصابتهم مجاعة». قالت امرأة جابر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع وفي رواية أخرى: فأكلنا نحن وأهدينا لجيراننا»(٢٤٩١).

١٢٨٤- الاستئذان ثم إذن النبي ﷺ لمن يشاء:

كان المؤمنون في حفر الخندق لا يخرجون لقضاء حوائجهم الملحة إلا بعد أن يستأذنوا رسول الله ﷺ، فإذا أذن لمن استأذن خرج ثم عاد سريعاً إلى عمله في حفر الخندق، وإن لم يأذن له النبي ﷺ لم يخرج وبقي في الخندق. أما المنافقون فكانوا يخرجون بدون استئذان، فأنزل الله تعالى في بيان هذه الحالة قول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢-٦٣] والمعنى: إنما الكاملون في الإيمان هم الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه، أي الأمر الذي يُجمَع له الناس نحو مقاتلة عدو أو إرهابه أو تشاور في حدث مهم أو تجمع لإرهاب منافق أو تهيؤ لحرب أو جهاد أو أمر يعم الناس نفعه أو ضرره وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع لغرض من الأغراض المشروعة ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي لم يذهبوا عنه ﷺ وجمعه حتى يستأذنوه في الذهاب فيأذن لهم به فيذهبون. وهذا الاستئذان علامة

(٢٤٩١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٩٧-٣٩٨.

على إيمان المستأذن وللميز للمؤمن عن المنافق فإن عادته التسلل للفرار. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض أمرهم المهم ومساس الحاجة إليه، ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وهذا تفويض للأمر إليه ﷺ. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن والأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه. وقال الحسن: وغير الرسول ﷺ من الأئمة مثله في ذلك لما فيه من أدب الدين وأدب النفس. وقال الزمخشري: وقال العلماء كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مفوض للإمام إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه. وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي إذ احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمر من الأمور فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجتمع بغير إذن الداعي. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ هذا وعيد لمن هو بضد أولئك المؤمنين الذين لم يذهبوا حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام، أي قد يعلم - وقد للتحقيق هنا - الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على التدريج والخفية.﴿لِوَاذًا﴾ أي ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج. واللواذ من الملاوذة وهي أن تستتر بشيء مخافة من يراك. ولواذاً من الآية مصدر في موضع الحال أي متلاوذين أي يلوذ بعضهم ببعض كما قلنا، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يخالفون أمره ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يصيبهم عذاب أليم في الآخرة(٢٤٩٢).

١٢٨٥- وصول المشركين ومقابلتهم لجيش المسلمين:

وصلت جموع المشركين إلى المدينة وإذا بالخندق يفاجئهم، إذ لم يكن لهم به عهد كأسلوب في الدفاع والحماية في الحروب. وكان جيش المشركين عشرة آلاف مقاتل كما ذكرنا من قبل. وكان جيش المسلمين الذي قابل جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، وقد جعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق

(٢٤٩٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٥٩-٢٦٠، تفسير القرطبي ج١٢ ص٣٢٠-٣٢١، تفسير الألوسي ج١٨ ص٢٢٣-٢٢٦.

بينهم وبين جيش المشركين. ولم يحدث التحام مباشر بين الجيشين، وإنما اقتصر القتال بين الفريقين على المراماة بالنبل والمناضلة والمبارزة، ومنها مبارزة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو بن ود العامري حيث اقتحم الخندق من ناحية ضيقة فيه حتى صار بالسبخة فبارزة علي رضي الله عنه فقتله[٢٤٩٣].

١٢٨٦- أحداث وقعت أثناء حصار المشركين للمدينة:

أولاً- إرسال حذيفة بن اليمان للتعرف على أحوال العدو:

وقد حدث هذا الإرسال بعد مضي أيام كثيرة من الحصار وقبيل أن يرحل المشركون، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أنه قال: «لقد رأيتَنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب - أي في حصار المشركين للمدينة - وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا ولم يجبه منا أحد، فقال ﷺ: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذعْرهم عليَّ. فلما وليت من عنده جعلتُ كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يَصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرمَيه فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم عليَّ، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ قُرِرتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان»[٢٤٩٤]. وجاء في شرحه: قوله: «وأخذتنا ريح شديدة وقرّ» القرّ هو البرد. وقوله بعد هذا: «قُرِرتُ» أي بردت. وقوله: «اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَذعْرهم عليَّ» معناه لا تفزعهم عليّ، والمراد: لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً عليَّ لأنك رسولي وصاحبي، وقوله: «كأني أمشي في حمام حتى أتيتهم» يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك

(٢٤٩٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٠٠.

(٢٤٩٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٤٥-١٤٦.

الريح الشديدة شيئاً بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ. فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذا من معجزات رسول الله ﷺ. ولفظة الحمام عربية وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار. قوله: «فرأيت أبا سفيان يَصْلي ظهره» أي يدفّئه ويُدنيه من النار. قوله: «كبد القوس» هو مقبضها. وكبد كل شيء وسطه. وقوله: «قم يا نَوْمَان» وهو كثير النوم. وقوله: «أصبحت» أي طلع الفجر. وفي هذا الحديث أنه ينبغي للإمام وأمير الجيش أن يرسل من يكشف له أحوال العدو[٢٤٩٥]. وأن يلتزم بأوامر ووصايا أميره.

١٢٨٧- ثانياً - بنو قريظة تنقض العهد مع رسول الله ﷺ:

بنو قريظة طائفة من اليهود جرى عهد بينها وبين رسول الله ﷺ على المهادنة وعدم إعانة العدو عليه، ولكنها نقضت العهد بتحريض من حيي بن أخطب اليهودي، كما سيأتي بيانه فيما بعد. فلما بلغ النبي ﷺ ذلك بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوَّات بن جبير، وقال انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم - أي بني قريظة - فتنظروا أحقٌّ ما بلغنا عنهم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه - يعني بأسلوب التعريض والتلويح لا التصريح - ولا تفتّوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوا بني قريظة فوجدوا أن الخبر صحيح، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد له عندنا. فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: عَضَلٌ والقارة، أي غدرٌ من بني قريظة كغدر عَضَل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم ليعلموهم الإسلام والقرآن فقتلوهم، فقال رسول الله ﷺ «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين، أبشروا بفتح الله ونصره»[٢٤٩٦].

١٢٨٨- ثالثاً - صفية تقتل يهودياً من بني قريظة:

كان ﷺ قد وضع النساء والأطفال في حصن فارع وهو حصن قوي، حماية لهم؛

(٢٤٩٥) شرح النووي لصحيح مسلم ج١٢ ص١٤٥-١٤٦.

(٢٤٩٦) السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٢٨١-٢٨٢ تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٣.

لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لمواجهتهم جيش المشركين، فلما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ وأعلمت بذلك الوفد الذي أرسله النبي ﷺ ليستجلي خبر نقضهم، أخذوا يعلنون موقفهم العدائي من رسول الله ﷺ والمسلمين، فأخذوا يمدون جيش المشركين بالمؤن حتى إن المسلمين أخذوا من مؤنهم عشرين جملاً. كما أرسلوا يهودياً ليستطلع وضع الحصن الذي فيه نساء المسلمين وأطفالهم، فأبصرته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته. وكان هذا الفعل من صفية رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنت يهود بني قريظة أنه محمي من قبل الجيش الإسلامي، أو أن فيه على الأقل من يدافع عنه من الرجال[٢٤٩٧].

١٢٨٩- رابعاً- مشاورة النبي ﷺ السعدين:

وشاور ﷺ السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة بشأن مصالحة عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا من جيش المشركين ويكفوا عن تحالفهما مع قريش في هذا الحصار للمدينة، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة واجتمعوا عليكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرىً - ما يقدم للضيف - أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. وهكذا لم يحصل هذا الصلح[٢٤٩٨].

(٢٤٩٧) الرحيق المختوم ص٢٨٣-٢٨٤.

(٢٤٩٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٨٤.

١٢٩٠- حال المؤمنين والمنافقين في أثناء الحصار:

كانت حال المؤمنين في حصار المشركين للمدينة شديدة، وزاد من شدتها نقض بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ وإعلانهم الحرب عليه، وإرجاف المنافقين، وقد نزل القرآن بوصف تلك الحالة وما كان عليه حال المؤمنين والمنافقين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢٤٩٩] تبدأ الآية الأولى بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم يوم الأحزاب أي معركة الخندق، فتذكر بدء المعركة وختامها بصورة مجملة مع ذكر العناصر الحاسمة فيها وهي: مجيء جنود المشركين، وإرسال الله الريح عليهم، وإنزال الملائكة التي لم يرها المؤمنون، ثم نصر الله المرتبط بعلم الله بهم وبصره بعملهم[٢٥٠٠]. ثم تفصل الآية ما أجملته في صدرها فتقول: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم الأحزاب: قريش ومن حالفها أو وافقها على محاربة المسلمين وغزو مدينتهم مثل غطفان وغيرها، وكذلك يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، وأعلنوا الحرب عليه، وانضموا إلى جيش المشركين في قتالهم للمسلمين. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي أرسل الله على المشركين ريحاً آذتهم وأقلقتهم وقلعت خيامهم، ولم تؤذ المسلمين بشيء مع أنهم قريبون من المشركين لم يفصل بينهم سوى الخندق ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي وأنزل الله ملائكة زلزلت المشركين، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق وترتيب أمور الحرب والاستعداد لها. إعلاءً لكلمة الله ونصرة لدينه ﴿بَصِيرًا﴾ ولذلك فعل تعالى ما فعل لنصركم عليهم. وتبدأ الآية الثانية بتفصيل لما كان عليه حال المسلمين من شدة وهلع بعد أن أحكم المشركون حصارهم للمدينة، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي وأسفله بقصد الإحاطة بالمدينة وإحكام الحصار عليها وعلى مداخلها. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي مالت عن

(٢٤٩٩) سورة الأحزاب الآيات من ٩-١١.

(٢٥٠٠) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٨٣٦.

سننها ومستوى نظرها حيرة ودهشة فلم تعد تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي خافت خوفاً شديداً أو فزعت فزعاً عظيماً حتى كأن القلوب لشدة اضطرابها لما انتابها من خوف بلغت الحناجر، وهذا مثل يضرب لشدة الخوف الذي يصيب الخائف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة، فيظن المؤمنون المخلصون منكم أن الله تعالى سينجز وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه ﷺ، أو أن يمتحنهم فيخافون أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم. ويظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن المشركين سيستأصلون المسلمين ويتغلبون عليهم. وقال بعض السلف في معنى الآية ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾: ظنون مختلفة، ظنَّ المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأَصلون. وأيقن المؤمنون أنَّ ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهر على الدين كله، وتحتمل الآية القول بأن الخطاب فيها للمؤمنين ظاهراً وباطناً، واختلاف ظنونهم بسبب أنهم يظنون تارة أن الله سبحانه سينصرهم على الكفار من غير أن يكون لهم استيلاء عليهم أولاً، ويظنون تارة أنه عز وجل سيدع الكفار ينتصرون على المسلمين فيستولون على المدينة ثم ينصرهم عليهم بعد. أو أنّ بعضهم يظن هذا وبعضهم يظن ذاك. أو يقال: إن ظنون المؤمنين المختلفة هي ظن النصر بدون أن ينال العدو منهم شيئاً، أو ظن النصر بعد أن ينال العدو منهم شيئاً ليمتحن صبرهم وثباتهم. ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف مكان ويستعمل للزمان، أي في ذلك الوقت الهائل الشديد الذي كان فيه المسلمون: من حصار لمدينتهم، ومن كثرة عدوهم، ومن إرجاف المنافقين، ومن غدر بني قريظة ودخولهم الحرب مع المشركين ضد المسلمين، ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي اختبرهم الله تعالى أي اختبر إيمانهم وثباتهم، أي عاملهم معاملة المختبر ليظهر المخلص في إيمانه من المنافق، والراسخ في إيمانه من الضعيف فيه. واختبارهم بالجوع وبشدة الحصار وبالصبر على مقتضيات الإيمان. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي اضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع وكثرة الأعداء. في تلك الحالة الشديدة ظهر أهل النفاق بأقوالهم التي كشفت عن نفاقهم والتي أخبرنا الله عنها[٢٥٠١].

(٢٥٠١) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٥-١٥٨، تفسير القاسمي ج٣ ص٢٣٢.

١٢٩١- بعض أقوال المنافقين والمرضى القلوب:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢٥٠٢] يذكر الله تعالى في هذه الآية قول المنافقين والمرضى القلوب على جهة الذم لهم، يعني مُعَتِّب بن قُشير قال: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة، ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما يعدنا إلا غروراً أي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ قالوا ذلك على جهة الهُزْء كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أنَّ من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور[٢٥٠٣]. ومعنى ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرضهم هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب، قيل هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم، فيرددون ما يقوله المنافقون[٢٥٠٤]. وقيل هم قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام[٢٥٠٥].

١٢٩٢- قول آخر لطائفة من المنافقين:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . ﴾[٢٥٠٦] الطائفة تقع على الجماعة والواحد ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أي يا أهل المدينة، ويثرب هي المدينة، وسماها رسول الله ﷺ طيبة وطابة. ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي ها هنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ومدافعة العدو، ﴿ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم[٢٥٠٧] وكان ذلك منهم على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ[٢٥٠٨].

(٢٥٠٢) سورة الأحزاب، الآية ١٢.

(٢٥٠٣) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٤-٢٥.

(٢٥٠٤) تفسير فتح البيان ج١١ ص٥٧.

(٢٥٠٥) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٨.

(٢٥٠٦) سورة الأحزاب الآية ١٣.

(٢٥٠٧) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٤٨.

(٢٥٠٨) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٢٦.

١٢٩٣- فرار المنافقين من القتال بأعذار واهية:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٢٥٠٩]. أي ويستأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ في الرجوع إلى المدينة ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي سائبة ضائعة ليست بحصينة وهي مما يلي العدو. وقيل: يسهل سرقتها لخلوها من الرجال. وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة. فاستأذنوا النبي ﷺ ليحصنوا بيوتهم ثم يرجعوا إليه، ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ فأكذبهم الله تعالى فيما ادعوه، وبيّن حقيقة ما يريدون وهو ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي لا يريدون بعذرهم الكاذب إلا الفرار من القتال ومدافعة العدو[٢٥١٠].

١٢٩٤- بعض أوصاف المنافقين الفارين:

قال تعالى عن أولئك المنافقين: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾[٢٥١١]. أي لو دُخِلت المدينة، وقيل: بيوتهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفاً منها، لو دخلت هذه العساكر مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها وانصبوا على أهاليهم، أولادهم ناهبين وسابين ثم سئلوا عند ذلك الفزع الذي انتابهم ﴿ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين لأتوها أي لجاؤها وفعلوها ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ ﴾ أي ما تأخروا في إعطاء الفتنة التي طلبها منهم المشركون ﴿ إِلَّا يَسِيرًا﴾ إلا وقتاً يسيراً ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف، أو وما لبثوا بالمدنية بعد ارتدادهم إلا يسيراً فإن الله يهلكهم[٢٥١٢].

١٢٩٥- المنافقون المعوقون:

قال تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا

(٢٥٠٩) سورة الأحزاب، الآية ١٣.

(٢٥١٠) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٤٨-١٤٩.

(٢٥١١) سورة الأحزاب الآية ١٤.

(٢٥١٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٨.

قَلِيلًا﴾[٢٥١٣]. يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، المثبطين عن نصرة رسول الله ﷺ والقتال معه وهم المنافقون، والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي أقبلوا إلينا أو قربوا أنفسكم إلينا أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار. و(هَلُمَّ) في لغة أهل الحجاز تستعمل للواحد والجماعة وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً خوفاً من الموت، فهم يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم خرجوا معهم للقتال ولكن في الواقع لا يبارزون ولا يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه[٢٥١٤].

١٢٩٦- المنافقون أَشحة على المؤمنين:

قال تعالى عن المنافقين المعوقين المثبطين عن رسول الله ﷺ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢٥١٥]. قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله والقتال معكم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي من العدو ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي أبصرتهم ينظرون إليك في تلك الحالة خوفاً من القتال. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً من شدة خوفهم وجزعهم حتى لا يستقر منهم النظر إلى جهة، وقيل تدور أعينهم لشدة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه. ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كدوران عين الذي قرب من الموت وغشيته أسبابه، فيصيبه الذهول، ويذهب عقله، ويشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف.﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة وهم يكذبون في ذلك. وآذوكم بالكلام

(٢٥١٣) سورة الأحزاب الآية ١٨.

(٢٥١٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٩-٥٣٠، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

(٢٥١٥) سورة الأحزاب الآية ١٩.

الشديد. والسلق: الأذى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة. وقال قتادة: المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنائم يقولون: أعطونا فإنا قد شهدنا معكم القتال، فعند الغنيمة هم أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي أشحة على فعل الخير، فهم قليلو فعل الخير بأنواعه سواء بإنفاق المال في سبيل الله، أو في غيره من أنواع الخير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ إيماناً خالصاً، بل هم منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها، بمعنى أظهر بطلانها؛ لأنها لم تكن صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله وتحبط. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك الإحباط لأعمالهم على الله تعالى هيناً[٢٥١٦].

١٢٩٧- المنافقون لا يصدقون بهزيمة الكفار:

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٥١٧] أي إن أولئك المنافقين من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف، ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي لم ينهزموا بما أرسل الله عليهم من الريح والجنود وأن لهم عودة إليهم يحسبون هذا الحساب ويظنون هذا الظن لخورهم واضطرابهم. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي مرة أخرى ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ أي القادمين ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي عما جرى لكم مع عدوكم، ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة لو أتى الأحزاب بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ عند حدوث واقعة ثانية ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كانوا بينكم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم، وحتى هذا القتال القليل

(٢٥١٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥٢-١٥٣، وتفسير فتح البيان ج١١ ص٦٣-٦٤.

(٢٥١٧) سورة الأحزاب الآية ٢٠.

لا يفعلونه إلا رياء وخوفاً من التعيير بالقعود عن القتال[2518].

١٢٩٨- للمؤمنين الأسوة الحسنة في رسول الله:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2519]. هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج والنصر من ربه سبحانه وتعالى صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. ولهذا قال تعالى للذين قلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب -معركة الخندق-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ فصبرتم، ولم تقلقوا ولم تضجروا ولم تتزلزلوا وأنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2520] أي لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال. أو لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر، وذكر الله كثيراً خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه[2521].

١٢٩٩- قول المؤمنين لما رأوا الأحزاب:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[2522] اختلف المفسرون: ماذا أراد المؤمنون بوعد الله ورسوله؟ فقال بعضهم: أرادوا ما أعلمهم به رسول الله ﷺ حين أمرهم بحفر الخندق، فإنه أعلمهم بأنهم سيُحصَرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وبأنهم ينتصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب وحصارهم للمدنية قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله فسلموا الأمر وانتظروا أجره. وقال البعض الآخر وهو المروي عن ابن عباس وقتادة أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن

(٢٥١٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤، تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٣٦.

(٢٥١٩) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢٥٢٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤.

(٢٥٢١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٥٦.

(٢٥٢٢) سورة الأحزاب الآية ٢٢.

﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٢٥٢٣). أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾(٢٥٢٤). وقال الإمام ابن عطية في تفسيره: ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية - آية البقرة - وفي قول رسول الله ﷺ عند أمرهم بحفر الخندق، وأشاروا بالوعد - أي بقولهم ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ - إلى جميع ذلك وهما مقالتان. إحداهما من الله تعالى، والأخرى من رسوله ﷺ(٢٥٢٥). وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله وتسليماً أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ. وفي هذه الآية دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة: الإيمان يزيد وينقص(٢٥٢٦).

١٣٠٠- نشوب الخلاف بين بني قريظة وبين المشركين:

وكان من لطف قضاء الله وتقديره ولطف تدبيره للمسلمين، أن أسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، فأتى إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامه فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئنا، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذّلتَ عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعه». فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: فلستَ عندما بمُتَّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نهزة - فرصة - أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل - يريد محمداً ﷺ - ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا

(٢٥٢٣) سورة البقرة الآية ٢١٤.

(٢٥٢٤) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٣٨، تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٤-٤٧٥.

(٢٥٢٥) تفسير ابن عطية ج١٢ ص٣٩.

(٢٥٢٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٥.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لهم: قد عرفتم وِدّي لكم معشر قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحق أنْ أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عليّ. قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضربَ أعناقهم ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غطفان فقال مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عِكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: إنا لسنا بدار مُقَام فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمداً. فأجابتهم بنو قريظة: إن اليوم يوم السبت لا نقاتل فيه، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن، فلما أخبرت قريش بذلك، قالت: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً. فاخرجوا معنا حتى نقاتل محمداً وإلا فلا عهد بيننا وبينكم. فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان(٢٥٢٧)، وكان ذلك من أسباب استعجال قريش بالرحيل وتوقف بني قريظة من الاستمرار في معاونة قريش في حصارها المدينة وحربها مع المسلمين.

١٣٠١- عزم قريش ومن معها على الرحيل والرجوع إلى مكة:

ومع اختلاف بني قريظة مع قريش وحلفائها الذي أضعفهم، بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليالٍ شديدة البرد، فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم وتطفىء نارهم وألقت الملائكة في قلوبهم الرعب، حتى قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقَام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ونقضت العهد معنا، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أُطلق عقاله إلا وهو قائم. قال حذيفة - وكان قد أرسله النبي ﷺ يستجلي أخبار قريش وما بلغه من اختلافِ بينهم وبين بني قريظة - قال حذيفة وقد سمع مقالة أبي سفيان هذه:

(٢٥٢٧) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٣٥-١٣٧.

ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تُحِدثَ شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم. وفي هذه الرواية في إرسال حذيفة إلى المشركين للوقوف على أخبارهم وما عندهم، قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجند الله تفعل بهم ما تفعل، قام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر كل امرئٍ من جليسه، قال حذيفة رضي الله عنه: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت: مَنْ أنتَ؟ فقال: أنا فلان بن فلان(٢٥٢٨). وإنما قال أبو سفيان ذلك خوفاً من أن يكون بينهم أحدٌ من المسلمين فطلب من كل واحد أن يتأكد من هوية جليسه فبادر حذيفة بسؤال جليسه، وكان ذلك منه مبادرة جيدة دلّت على حسن بديهة وحسن تخلصه.

١٣٠٢- تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم بنصرهم على المشركين:

وبرحيل وفرار المشركين من حصار المدينة زال ما كان يتهددها ويتهدد المسلمين من خطر المشركين، وكان ذلك من نعمة الله عليهم التي يجب أن تُذكر ولا تُنسى. وقد ذكَّر الله بها المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾(٢٥٢٩).

كما ذكّرهم بنعمته تعالى بكف شر المشركين عنهم فقال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا. وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا. وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾(٢٥٣٠). أي ردّ المشركين الذين حاصروا المدينة مغيظين خائبين خاسرين لم ينالوا خيراً لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في محاربتهم لرسول الله ﷺ والمسلمين. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعزّ جنده، ولهذا كان ﷺ يقول: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده» وفي قوله تعالى:

(٢٥٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧١.

(٢٥٢٩) سورة الأحزاب، الآية ٩.

(٢٥٣٠) سورة الأحزاب الآيات ٢٥-٢٧.

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم، ولهذا لما رجع المشركون عن حصارهم وولوا إلى ديارهم مخذولين، ورجع المسلمون إلى المدينة قال ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم». ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ والمقصود بهؤلاء يهود بني قريظة بإجماع المفسرين، وذلك لغدرهم ونقضهم العهد مع رسول الله ﷺ ومعاونتهم لقريش في حصارها للمسلمين. ﴿ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أي حصونهم. وقذف الله في قلوبهم الخوف، لأنهم مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ ولم يرعوا عهدهم معه، وهكذا أصاب هؤلاء اليهود عكس ما أرادوا: أرادوا العزّ فذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستئصلوا، وأرادوا الغلبة على المسلمين فغُلِبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والذين أسروا هم الصغار والنساء. ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ إشعار بأنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين ﴿ وَدِيَٰرَهُمْ ﴾ أي حصونهم ﴿ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم التي اشتملت عليها أرضهم وديارهم. وروي أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين، دون الأنصار فقالت الأنصار في ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: إنكم في منازلكم، فقالوا: رضينا بما صنع الله تعالى ورسوله. ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ قيل هي خيبر، وقيل مكة، وقيل فارس والروم. قال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مراداً. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يملككم ما يشاء(٢٥٣١).

١٣٠٣- تاريخ غزوة الخندق ومدتها:

وقعت غزوة الخندق، الأحزاب، في السنة الخامسة للهجرة، كما أشرنا من قبل ودام حصار المشركين للمدينة عشرين ليلة وفي رواية أربعاً وعشرين. وقال قتادة دام الحصار شهراً(٢٥٣٢).

(٢٥٣١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٧٦-٤٧٨، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٤٦-٤٩، تفسير الألوسي ج٢٢ ص١٧٩-١٨٠.

(٢٥٣٢) السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٢٨.

المبحث الثاني
المستفاد من غزوة الخندق (الأحزاب) للدعوة والدعاة

١٣٠٤- الأخذ بالأسلوب النافع وإن كان الكفار يستعملونه:

ذكرنا أن النبي ﷺ استشار أصحابه عما ينبغي فعله لمواجهة زحف المشركين على المدينة، وكان رأي سلمان الفارسي أن يحفروا حول المدينة خندقاً، معللاً ذلك بقوله: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا» فاستحسن النبي ﷺ رأيه وأخذ به وأمر بحفر الخندق، وإن كان هذا الأسلوب من الحرب ومدافعة العدو كان من أساليب فارس. ومعنى ذلك أن النافع من الأمور الدنيوية قد يعرفه الكفار عن طريق التجربة وأن لا مانع من فعله من قبل المسلمين، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يستفيدوا من وسائل وأساليب الكفرة فيما يتعلق بنشر الدعوة أو في خططهم في مواجهة أعدائهم ونحو ذلك. وهكذا فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عندما وضع الدواوين وهو ما كان يفعله الفرس في بلادهم.

١٣٠٥- على قادة جماعة الدعاة مشاركة أفرادها في أعمال الدعوة:

ذكرنا أن النبي ﷺ شارك أصحابه في حفر الخندق وحمل التراب بنفسه الشريفة وكان يشجعهم على عملهم ويذكرهم بالأجر والثواب الحسن من الله، وأن العيش الطيب الرغيد هو عيش الآخرة، فعلى قاعدة الجماعة المسلمة، قادة جماعة الدعاة، أن يشاركوا أعضاءها من الدعاة والأنصار فيما يقومون به من أعمال الدعوة مثل بناء دار لاجتماعاتهم، أو بناء مسجد خاص بهم أو عام لجميع المسلمين ونحو ذلك. وكذلك يشاركونهم وسائر أعضاء الجماعة في أعمال البرّ العامة كبناء مدرسة ونحو ذلك؛ لأن هذه المشاركة من أساليب الدعوة.

١٣٠٦- أمير الجماعة يعفي من العمل من لا يستطيعه وإن رغب فيه:

فقد ذكرنا أن النبي ﷺ ردّ ابن عمر ولم يقبله في معركة أحد، ولكنه قبله في معركة الخندق لبلوغه سن الخامسة عشر من عمره. وهكذا ينبغي للجماعة المسلمة أن تعفي من العمل من لا يطيقه، وتعهد إليه بما يقدر عليه؛ لأن أعمال الدعوة كثيرة جداً، وقد يستطيع من لم يبلغ الحلم بعد القيام ببعض الأفعال.

١٣٠٧- على جماعة الدعاة أن تبشر أنصارها بالنصر:

ذكرنا أن النبي ﷺ بشرَ أصحابه بالنصر وبفتح بلاد الشام وفارس وهم يحفرون الخندق استعداداً للدفاع عن المدينة أمام زحف المشركين إليها. ولا شك أن من المندوب إليه أن يفعل قادة الجماعة المسلمة ذلك بأن تذكّر أعضاءها من الدعاة والأنصار بوعد الله بنصر المؤمنين، وبأن العاقبة لهم وإن كانوا الآن في ضيق وحرج وعسرة؛ لأن المصاعب والشدائد قد تنسي المسلم ما وعد الله به المؤمنين من نصر وعون ويسر بعد عسر فيحتاج المسلم إلى تذكره أو تذكيرٍ بذلك.

١٣٠٨- المعجزات حق:

ومعجزات رسولنا ﷺ المادية حق نؤمن بها سواء ما أشار إليه القرآن كحادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج إلى السموات العلى، أو ما ورد في السنة النبوية ومن هذه المعجزات المادية مثل تكثير الطعام وكفاية القليل منه مئات الجياع كما في دعوة جابر للنبي ﷺ مع رجل أو رجلين معه، فدعا النبي ﷺ المهاجرين والأنصار، كانوا يعدون بالمئات فكفاهم ما كان جابر قد هيأه من لحم عَنَاق وصاع من شعير كما ذكرنا، فعلى الدعاة إذا جاء ذكر المعجزات المادية في القرآن أو في السنة أن يبنوا للناس ضرورة الإيمان بها وعدم تأويلها بما يجعلها حدثاً عادياً مع أنها خارق ومن أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ. وإن كان أعظم معجزاته على الاطلاق القرآن الكريم. ولكن معجزة القرآن لا تنفي معجزاته الأخرى صلوات الله وسلامه عليه.

١٣٠٩- التعرف على أحوال العدو:

ذكرنا إرسال النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى جيش المشركين للوقوف على

أحوالهم وما هم عازمون عليه وأمره أن لا يحدث شيئاً حتى يرجع، وأنه لم يقتل أبا سفيان وقد أمكنه ذلك تنفيذاً لوصية رسول الله إليه بأن لا يحدث شيئاً حتى يرجع، وأن حذيفة كان سريع البديهة يوم قال أبو سفيان لجيشه: فليسأل كل جليسه عن هويته خوفاً من اندساس الغرباء في جيشه فبادر حذيفة بسؤال جليسه قائلاً له: من أنت؟ فأجابه أنا فلان. وهكذا تخلص حذيفة من أن يبدأه جليسه بهذا السؤال. فعلى أمير الجماعة المسلمة، أن يختار الكفؤ للعمل الخطير القادر عليه، وأن يكون ذا مقدرة عالية لحسن التخلص من الأمور المحرجة، وأن يلتزم التزاماً كاملاً بما تأمره به الجماعة، أو يأمره أميرها عند إناطة العمل به بحيث لا يسوغ له مخالفته وإن بدا له أن هذه المخالفة نافعة، كما حصل من حذيفة، فقد قال: سنحت لي الفرصة لقتل أبي سفيان ولكني لم أفعل لأمر رسول الله ﷺ أن لا أحدث أي شيء حتى أرجع لأن مهمته كانت رصد ما عند العدو ومعرفة أحواله وما يتكلمون به، وهذا ما حصل عليه حذيفة ولم يتصرف أكثر مما أُمر به. وهكذا ينبغي أن يروض الدعاة وغيرهم من أعضاء الجماعة المسلمة أنفسهم إذا كُلِّفَ أحدهم بعمل معين كاستكشاف أحوال خصوم الدعوة أو غير ذلك من الأمور، أن يلتزموا بأوامر جماعتهم:

١٣١٠- توزيع الأعمال على الدعاة:

ويستحسن للجماعة المسلمة أن توزع أعمال الدعوة على الدعاة. وتجعل لكل واحد منهم أو جماعة منهم عملاً معيناً يقوم به سواء كان تعيين العمل من حيث نوعيته أو مكانه أو زمانه، فقد قسّم رسول الله ﷺ حفر الخندق بين أصحابه فأعطى حفر كل أربعين ذراعاً لعشرة من أصحابه[٢٥٣٣]. وكان من فرغ من المسلمين من حصته في الحفر عاون غيره في الحفر. فحفر الخندق كان مقسوماً على المسلمين فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ منه[٢٥٣٤] فعلى قادة الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - أن يوزعوا أعمال الدعوة على الدعاة بحيث يكون كل واحد مسؤولاً عما يناط به من عمل، وأن يعان عليه إذ قصّر فيه. وتوزيع الأعمال أسلوب جيد للوفاء بمتطلبات النجاح في هذه الأعمال وإيقاعها على الوجه المطلوب، ومعرفة المقصر

(٢٥٣٣) تفسير الألوسي ج٢١ ص١٥٥.

(٢٥٣٤) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٢٩-١٣٠.

فيها ووجه هذا التقصير كما يعين على سير الجماعة بصورة منتظمة بعيد عن الفوضى وانعدام المسؤولية أو ضياعها.

١٣١١- للمرأة أن تدافع عن نفسها إن لم تجد من يدافع عنها:

ذكرنا في الأحداث التي وقعت أثناء حصار المدينة من قبل المشركين، حادثة قيام صفية بنت عبد المطلب بقتل اليهودي من بني قريظة الذي كان يدور حول الحصن الذي وضعت فيه النساء والذراري وليس له من رجال يحمونه، لأنهم ذهبوا إلى القتال، فاضطرت صفية أن تُرِي اليهود أن في الحصن قوة تحميه لا كما قد يظنون أنه خلو ممن يدافع عنه، فبدأته بضربه بعمود نزلت به من الحصن فقتلته، فكان ذلك رادعاً لليهود من التحرش بهذا الحصن لظنهم إن فيه قوة كافية تحميه. ووجه الدلالة بهذا الحادث أن على الدعاة تفهيم نساء المسلمين أن عليهن واجب الدفاع عن أنفسهن ولو بالقتال إذا عدمن المدافع عنهن من الرجال. وأنه لا يجوز لهن الاستسلام أبداً وقد ذكرنا أيضاً أن نسوة مؤمنات كن يخرجن للجهاد مع المسلمين في غزواتهم. ومنها في غزوة أحد وكيف أنهن قاتلن فعلاً ضد العدو بالسيف والرمح عندما اضطررن إلى ذلك. وعلى هذا فلا مانع من تدريب النساء المسلمات على استعمال بعض الأسلحة الضرورية للدفاع عن النفس كالبندقية والرشاشة، ورمي القنبلة على المهاجم ونحو ذلك، وأن يكون اشتراكهن في الحرب في الخطوط الخلفية ويقمن بما يقدرن عليه عادة ويحتاجه الجنود من طبخ ونحوه مع حملهن السلاح الحقيقي الذي تدربن عليه للدفاع به عن أنفسهن عند الحاجة. فعلى الدعاة تبيين هذه الحقائق للناس حتى يكونوا على علم بها. وتعرف النساء حدود الشرع في حمل المرأة السلاح واشتراكها مع الرجل في الحرب.

١٣١٢- رجوع الأمير عن رأيه إذا ظهر الصواب في غيره:

ذكرنا ميل النبي ﷺ إلى التعاقد مع غطفان على إعطائهم جزءاً من ثمار المدينة على أن يرحلوا ويخرجو من تحالفهم مع قريش في حصارهم للمدينة. وتقول بعض الروايات إن النبي ﷺ كلمهم في ذلك ولكن لم يبرم العقد معهم، فاستشار السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على ما بدا له ﷺ من ميل إلى مصالحة غطفان فأجاباه بما ذكرناه من قبل وخلاصته أنهما قالا إن كان هناك أمر من الله أو

هوى من نفسك نحو مصالحتهم فنحن على السمع والطاعة وإن كان ذلك تصنعه لمصلحتنا فنحن لا نرى إعطاءهم ذلك فأخذ برأيهما ولم يبرم الصفقة والمصالحة مع غطفان.فعلى قادة الجماعة المسلمة جماعة الدعاة أن لا يترددوا في الرجوع عن رأيهم إذا ظهر عدم صوابه وعدم رغبة من يتعلق بهم هذا الرأي الذي رؤي لمصلحتهم.

١٣١٣- الخوف قد يصيب المؤمن، ولكن إيمانه من الاستسلام:

قلنا إن المؤمنين أصابهم الخوف والفزع وزلزلوا وفقدوا الثبات في أثناء الحصار، وهذا شيء طبيعي؛ لأنهم بشر لم يخرجوا عن بشريتهم وقد أشار القرآن الكريم إلى حالتهم فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠. هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢٥٣٥] لقد كانوا أناساً من البشر، وللبشر طاقة لا يكلفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم بفتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق على الرغم من هذا كله فإن الهول الذي كان حاضراً يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرّب أنفسهم. ولكن كان إلى جانب الزلزلة وزوغان الأبصار وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر مستحضرين في أذهانهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ومن ثم قالوا لما رأوا الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[٢٥٣٦]. فعلى جماعة الدعاة أن لا يستغربوا من الهزة التي تصيب الدعاة إذا فاجأتهم صعاب وشدائد وتجمع للأعداء مما يبعث الخوف والفزع في نفوسهم، فهذا شيء ممكن الحدوث ولا يدل على زوال الإيمان من نفوسهم أو الشك في دعوتهم وإنما هو الشعور الذي ينتاب الإنسان باعتباره إنساناً ولكن سرعان ما يعود المؤمن بفضل إيمانه إلى حالته المستقرة واستحضاره ما وعد الله المؤمنين.

(٢٥٣٥) سورة الأحزاب الآيتان: ١٠، ١١.

(٢٥٣٦) تفسير سيد قطب ج٥ ص٢٨٤٣-٢٨٤٤.

فعلى قيادة الجماعة المسلمة أن لا تدهشها هذه الهزة والزلزلة التي تصيب أفرادها عند الشدائد الشديدة ولكن لا يجوز لها أن تستسلم أو تيأس لما تراه وإنما عليها أن تذكّرهم بوعد الله وتكون هي القدوة الملموسة في الثبات حتى يثبتوا معها.

١٣١٤- الحذر من المنافقين:

على جماعة الدعاة أن تعلم يقيناً إمكان تسلل بعض المنافقين في صفوف الجماعة. فليسوا هم بأفضل من جماعة المسلمين الأوَل وقد تسلل بعض المنافقين في صفوفها مع وجود النبي ﷺ وتنزل الوحي عليه بفضحهم وبيان خبايا نفوسهم. وإذا كان هذا حدث في عصر النبي ﷺ وبين صفوف المؤمنين من صحابة رسول الله ﷺ، فحدوثه الآن وبين صفوف الجماعة المسلمة أقرب احتمالاً وأيسر وقوعاً. فعلى قيادة جماعة الدعاة، وعلى الدعاة أنفسهم، أن يرصدوا المتصفين بصفات المنافقين التي ذكرها القرآن، ومنها ما ذكره عنهم بصدد معركة الأحزاب حتى يحذرهم المؤمنون ولا يتأثروا بإرجافهم ودعاياتهم وتخذيلهم المؤمنين، فمن صفاتهم استبعادهم النصر لدعوة الإسلام ولدعاته، وإشاعة اليأس في النفوس، وأن لا جدوى من الدعوى ومن العمل للإسلام، وأنهم في وقت الشدائد يفرون، وفي وقت الرخاء يدعّون لأنفسهم الدعاوى الباطلة من الشجاعة والإقدام والحرص على الدعوة ومصلحتها. فعلى الجماعة المسلمة أن ترصد المنافقين من خلال ما يبدو منهم من صفات وأقوال، وأن تحذّر المؤمنين والدعاة من أعضائها حتى لا يتأثروا بإرجافهم وأقوالهم. وقد ذكرنا الآيات التي نزلت في معركة الخندق والمتعلقة بالمنافقين وبيان موقفهم من تلك المعركة، وما كانوا يقولونه ويحرضون غيرهم عليه، فعلى الدعاة وجماعتهم أن يرجعوا إلى ما قلناه بشأن تلك الآيات التي فضحت المنافقين وبينت خبايا نفوسهم. فالوحي قد انقطع ولا سبيل لمعرفة المنافقين اليوم ثم الحذر منهم إلا من خلال ما يظهر من أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم التي بينها القرآن ومن ذلك آيات سورة الأحزاب والتي ذكرناها. وليحذر الدعاة أسلوبهم في تنقيص الدعاة واختلاق العيوب لهم أو تكبيرها وإشاعة سوء الظن فيهم.

١٣١٥- إخفاء بعض الدعاة:

وقد يكون من المفيد للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، عدم إظهار بعضهم

وإخفاء صلتهم بالجماعة، حتى يمكن الإفادة منهم في بعض الأوقات، كما استفاد المسلمون من نعيم بن مسعود حيث إنه أسلم ولم يعلم به قومه، وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بإسلامه وعدم علم قومه بذلك، فقال له النبي ﷺ: «إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلّت عنا إن استطعت كان أحبَّ إلينا من بقائك عندنا، فاخرج فإن الحرب خدعة» فعلى الجماعة المسلمة أن تضع في منهاجها عدم إظهار بعض دعاتها للناس، وعدم إظهار صلتهم بها، حتى يمكن أن يقوم بمثل ما قام به نعيم بن مسعود عند الحاجة إلى ذلك، فإن الدعاة إلى الله الآن في حالة حرب في أكثر البلاد حيث يستبيح الحاكمون في هذه البلاد إيذاءهم بل وقتلهم، فعليهم أن يأخذوا الحذر وما يدفع عنهم الشر، ومن ذلك إخفاء بعض دعاتها للغرض الذي ذكرناه، ولغرض آخر وهو أن يكون الصف الثاني للدعاة إذا سقط الصف الأول أو أزيح أو أبعد أو لم يستطع العمل كان في الثاني عوض وبدل عنهم.

١٣١٦ - الأخذ بالأسباب ولكن التوكل على الله:

وفي حفر الخندق دليل واضح على الأخذ بالأسباب الدافعة للشر والعدوان، ولكن الثقة تكون بالله والاعتماد يكون على الله لا على الأسباب التي يباشرها أهل الإيمان، فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ بكل وسيلة مشروعة من شأنها أو يظن أنها يمكن أن تكون سبباً لدفع الأذى عنها. وإفشال خطط أعدائها في سعيهم الخبيث لإيذاء الجماعة. ولكن اعتمادها على الله لا على ما تباشره من أسباب. والأسباب كما تكون مادية يمكن أن تكون غيرمادية. ونستدل على هذا بما فعله نعيم بن مسعود في تخذيله للمشركين وما فعله للوقيعة بين بني قريظة وبين جيش قريش وحلفائها، والأسباب التي تأخذ بها الجماعة تتناسب وما تريد الوصول إليه أو ما تريد حماية الجماعة منه وهذا يختلف باختلاف الظروف والأحوال. وليكن معلوماً لدى الدعاة أن ما يتعلق بالجماعة وحمايتها وما يقرّبها من أهدافها وبالتالي تعيين الأسباب المؤدية إلى ذلك، كل هذا متروك تقديره إلى أمير الجماعة أو قيادتها ولا يجوز لأفرادها أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الجماعة فيعقبون على ما يقرره أميرها من اتخاذ أسباب معينة لتحقيق أغراض معينة.

١٣١٧- لا ينبغي لجماعة الدعاة تمني لقاء العدو:

لقد ذكرنا تذكير الله عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم ورجوعهم إلى ديارهم خائبين قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ . . .﴾ فهذه الآية تشعر بتذكير الله تعالى عباده المسلمين بنعمته عليهم بكف المشركين عنهم. ذلك أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ . . .﴾ أي فلم يحوجهم إلى مبارزة أعدائهم ومنازلتهم وقتالهم ليجلوهم عن المدينة، بل تولى الله وحده كفاية ذلك. وعلى هذا فلا ينبغي لجماعة الدعاة تعمد مواجهة أعداء الدعوة وتعريض أعضائها الدعاة إلى بطش أعدائهم؛ لأن المطلوب القيام بالدعوة إلى الله وليس المطلوب مصادمة أعداء الدعوة الأقوياء فإن هذا الصنيع يؤذن بوقوع الجماعة بالرياء وطلب السمعة عند الناس، ليقولوا إن جماعة الدعاة أُوذِيت في سبيل الله. وفي وصية رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد وقد أمَّرَه على جيش المسلمين الذي أرسله لإرهاب الروم، قال ﷺ له: «ولا تمنوا لقاء العدوا فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم واكفف بأسهم عنا». ولكن لا يعني ما أقول أن على الدعاة وجماعتهم القعود وعدم القيام بالدعوة إلى الله، وإنما الذي أعنيه بكل تأكيد عدم تعمدهم لقاء الخصوم والدخول معهم في حرب ولهم مندوحة من ذلك، أي يمكنهم أن يدعوا إلى الله، وأن يتجنبوا المخاصمة مع أعداء الدعوة، لا سيما إذا كانت الدولة هي - لسوء فهمها مقاصد الدعوة - خصم الدعاة وجماعتهم، ففي هذه الحالة ينبغي لجماعة الدعاة عدم تصعيد الخصام مع الدولة، مع المضي في متطلبات الدعوة بهدوء مع تحمل شيء من شطط الدولة وبغيها. أما هذا الكلام قد لا ينفع المتحمسين من أعضاء الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيندفعون إلى مخاصمة الدولة دون ضرورة ولا حاجة إلى هذه المخاصمة فيقعون ويُوقِعون جماعتهم في أذى شديد لا طاقة لهم به ولا ضرورة تدعو إليه، فلتحذر الجماعة وأعضاؤها والمنتسبون إليها من الدعاة والأنصار ما قلناه وليدعوا الله أن ينجيهم من كيد أعدائهم ولا يحملوا أنفسهم على مواجهتهم، ولكن إذا واجههم عدوهم فليصبروا وليثبتوا ولا يستسلموا، بل عليهم أن يصدقوا الله في جهادهم ولا يضعفوا أمام عدوهم.

١٣١٨- طاعة الدعاة لأمير جماعتهم:

ذكرنا فيما سبق أن المؤمنين في حفر الخندق ما كان أحدهم يخرج وينصرف لقضاء حاجته إلا بعد أن يستأذن الرسول ﷺ ويأذن له، فإن لم يأذن له بقي ولم ينصرف، فمدحهم الله على ذلك، وجعل استئذانهم من علامة صدقهم في إيمانهم بالله وبرسوله، وأن المنافقين كانوا يخرجون متخفين من غير استئذان الرسول فذمهم الله تعالى على صنيعهم هذا وتوعدهم عليه. وعلى هذا فينبغي للدعاة أن يلتزموا بهذا الأدب الإسلامي الرفيع، فإذا دعاهم أمير جماعتهم لأمر مهم يقتضي اجتماعهم ويتعلق بالدعوة وأعمالها فعليهم أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويحضروا حالاً ولا يخرجوا من هذا الاجتماع إلا بعد انفضاضه، وإن طرأت لأحدهم حاجة تقتضي خروجه من الاجتماع فلا يخرج حتى يستأذن الأمير للخروج، فإن أذن خرج وقضى حاجته وعاد، وإن لم يأذن بقي ولم يخرج. ونستأنس لقولنا هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره وهو يفسر آية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد قال الزمخشري وهو يفسرها: «وقالوا - أي العلماء - كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام، إن شاء أذن وإن شاء أبى على حسب ما اقتضاه رأيه»[٢٥٣٧]. وأمير جماعة الدعاة يعتبر من مقدميهم في الدين والعلم، فينبغي أن يكون له حق الطاعة على أتباعه الدعاة، وأن لا يخرجوا من الاجتماع الذي دعا إليه إلا بعد انفضاضه، أما في أثنائه فلا بد من الاستئذان وحصول الإذن للخروج كما قلنا.

(٢٥٣٧) انظر الفقرة ١٢٨٤ والآية في سورة النور ورقمها ٦٢.

الفصل العاشر

موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة

وما يستفاد منه للدعوة والدعاة

١٣١٩- تمهيد وتقييم:

كان يسكن في المدينة وضواحيها وفي أطرافها يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة. وهذه المجموعات اليهودية هي أشهر قبائل اليهود في المدينة. وقد وادعهم النبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة، وكان من بنود معاهدته أو موادعته معهم أن لا يعينوا عليه أحداً، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه، وأن يكون بينهم سلام لا عداء، ولكن اليهود نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ، وقاموا بأعمال عدائية ضد المسلمين وتحرشات بهم لا تتفق وبنود المعاهدة معهم، فكان ذلك سبباً لغزوهم في حصونهم وإخراجهم من المدينة وقتل بعضهم[٢٥٣٨]. ونذكر فيما يلي ما جرى بين النبي ﷺ وبين هؤلاء اليهود وذلك في ثلاثة أبحاث متتالية ثم نختم هذا الفصل بمبحث رابع لبيان المستفاد من ذلك للدعوة والدعاة.

(٢٥٣٨) السيرة النبوية للدكتور العمري ج١ ص٢٢٨، ٢٧٧، ٣٠٠.

المبحث الأول
غزوة يهود بني قَيْنُقَاع

١٣٢٠- تاريخ وقوعها وسببها:

وقعت في شوال من السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر. وكان سببها ما أظهروه من عداء سافر للمسلمين لا سيما بعد معركة بدر، وتحرشهم بالمسلمين مما لا يتفق مع بنود المعاهدة ومقتضياتها المعقودة بينهم وبين النبي ﷺ، ولهذا قام النبي ﷺ بجمعهم في سوق بني قينقاع ودعاهم إلى الرشد والهدى والكف عن مواقفهم وأعمالهم العدائية ضد المسلمين. ولكن يهود بني قينقاع لم يقبلوا هذا التحذير، ولم يكفوا عن التحرش بالمسلمين وإنما أظهروا للنبي ﷺ عدم مبالاتهم بالمعاهدة، وأظهروا له بأنهم أقوياء ومستعدون للقتال وأنهم ليسوا مثل قريش التي غلبها محمد ﷺ[٢٥٣٩] فأنزل الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله. في فئتين أي في طائفتين التقتا للقتال إحداهما مسلمة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وهي مشركو مكةالذين جاؤوا لقتال رسول الله ﷺ فنصر الله رسوله عليهم[٢٥٤٠].

١٣٢١- استمرار بني قينقاع على موقفهم العدائي من المسلمين:

واستمر يهود بني قينقاع على موقفهم العدائي من النبي ﷺ والمسلمين، فقد روى ابن هشام في سيرته أن امرأة مسلمة جلست إلى صائغ لتشتري منه، فجاء يهود إليها

(٢٥٣٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٠.

(٢٥٤٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٠، شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٣٣٢ والآيتان في سورة آل عمران ورقمهما ١٢، ١٣.

يريدون كشف وجهها فأبت ذلك، فعمد الصائغ أو غيره إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت انكشفت فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ اليهودي، فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع[٢٥٤١].

١٣٢٢- حصار النبي والمسلمين لبني قينقاع:

وقد ظهر جلياً من مجمل فعال بني قينقاع وتصرفاتهم مع المسلمين أنهم لا يلتزمون بمعاهدة السلام والموادعة التي عقدوها مع النبي ﷺ وإنما يريدون نقضها بل ونقضوها فعلاً بتصرفاتهم وعداوتهم المكشوفة منهم للمسلمين. قال محمد بن إسحاق - صاحب السيرة -: «كانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع»[٢٥٤٢]. وبناء على ذلك فقد سار ﷺ وجنوده إلى بني قينقاع، فلما رأوه قادماً مع جيشه إليهم تحصنوا في حصونهم فحاصرهم خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فاستسلموا ونزلوا على حكمه ﷺ.

١٣٢٣- ما فعله ﷺ ببني قينقاع:

أمر ﷺ بفرز أموالهم التي صارت غنيمة للمسلمين حيث خمسها النبي ﷺ ووزع الباقي على المقاتلين - أما الرجال فقد طلب عبد الله بن أبي بن سلول من رسول الله ﷺ أن يمّن عليهم؛ لأنهم حلفاؤه، فأجابه النبي ﷺ إلى طلبه وأمر بإجلائهم من المدينة والذي تولى إجلاءهم عبادة بن الصامت فلحقوا بأذرعات الشام[٢٥٤٣]. وكان عبادة بن الصامت حليفاً لبني قينقاع فلما صدر منهم ما صدر تبرأ من حلفهم وقال لرسول الله ﷺ: إنَّ لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. وقال عبد الله بن أبي بن سلول: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي. ولهذا طلب من رسول الله ﷺ العفو عن بني قينقاع فأجابه إلى طلبه. وبسبب موقف عبد الله بن سلول من تمسكه بحلف بني قينقاع نزل

(٢٥٤١) الرحيق المختوم ص٢١٦.

(٢٥٤٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٩.

(٢٥٤٣) السيرة النبوية للعمري ج١ ص٣٠١-٣٠٢، الرحيق المختوم ص٢١٧.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾(٢٥٤٤).

(٢٥٤٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٨-٦٩، تفسير الكشاف للزمخشري ج١ ص٦٤٣ شرح البخاري للعسقلاني ج٧ ص٣٣٢.

المبحث الثاني
غزوة بني النضير

١٣٢٤- خلاصة قصة بني النضير[٢٥٤٥]:

بنو النضير من يهود المدينة الذين وادعهم النبي ﷺ وعاهدوه على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه كما أشرنا من قبل، وهم على كفرهم، آمنون على أموالهم ودمائهم. ولكنهم لم يفوا بعهدهم، فبدأ بنو قينقاع بنقض العهد فحاصرهم النبي ﷺ ثم أمر بإجلائهم عن المدينة كما بينا من قبل. ثم تبعهم بنو النضير فنقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ إذ تآمروا على قتله. وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، وجلس ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم فتآمروا على قتله بأن يعلو رجل فيلقي صخرة عليه، فانتدبوا لذلك عمرو ابن جِحَاش بن كعب أحدهم، وصعد إلى السطح ليلقي عليه صخرة، ولكن نزل الوحي على الرسول ﷺ بما أراد القوم فعله. فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة وأمر بالتهيؤ لحربهم. ثم سار ﷺ بجنوده من صحابته الكرام حتى نزل بساحتهم فحاصرهم ست ليال فتحضوا منه في الحصون، وكان خروجه ﷺ إليهم ومن معه في ربيع الأول أول السنة الرابعة للهجرة كما ذكر الإمام القرطبي، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقهم ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة -وهي جميع السلاح- ففعل ﷺ، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، وتركوا أموالهم لرسول الله ﷺ فكانت له خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا اثنين من الأنصار هما سهل بن حُنَيف وأبو دُجانة لفقرهما، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان:

(٢٥٤٥) تفسير القاسمي، نقلاً لكلام ابن القيم، ج١٦ ص٩٦-٩٧ وتفسير القرطبي ج١٨ ص٧.

يامين بن عمير بن كعب، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها. ونزل في بني النضير وما جرى لهم سورة الحشر كلها. ونذكر فيما يلي سورة الحشر وما تضمنته وما يستفاد منها.

١٣٢٥- فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾(٢٥٤٦).

والمعني: هو الله تعالى أخرج الذين كفروا وهم بنو النضير من مساكنهم ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾. والحشر هو الجمع والتوجيه إلى ناحية ما، والمقصود بـ ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ في الآية الكريمة هو الجلاء والإخراج، أي جلاء وإخراج بني النضير من المدينة، وهذا أول حشرهم إلى الشام، أي أول ما حشروا وأخرجوا، وكانوا من سبط من أسباط اليهود لم يصبهم جلاء قط، وهم أول على أنهم أول محشورين - أي مخرجين -، من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم أي إخراجهم فهو إجلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام. وعلى هذا التفسير الأخير تكون الآية قد أخبرت بشيء غيبي هو إجلاؤهم الأخير في زمن عمر بن الخطاب، لقول النبي ﷺ: «لا يبقينَّ دينان في جزيرة العرب»(٢٥٤٧). ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي لشدة بأسهم وتحصنهم في حصونهم، وكثرة عددهم وعدتهم. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من بأسه. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمره وعذابه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي لم يظنوا ولم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره تعالى وإنزال بأسه بهم من تلك الجهة، وهو أنه سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ والرعب هو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه، وقذفه يعني إثباته فيه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر».

(٢٥٤٦) سورة الحشر، الآية ٢.

(٢٥٤٧) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٦٦، تفسير الزمخشري ج٤ ص٤٩٩، تفسير الألوسي ج٢٨ ص٣٩.

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء والغلبة عليهم، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون يخربونها من خارج. ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي اتعظوا وتدبروا يا أصحاب العقول والألباب، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر. ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها. ويقال السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه إن فعل فعله، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره. وفي الآية دليل على إتقاء مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، لئلا يصيب المفرط في هذا الاتقاء ما أصابهم[2548].

١٣٢٦- من يشاق الله فإن الله شديد العقاب:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2549].

أي لولا أن كتب الله عليهم الجلاء أي الخروج من ديارهم ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي بالقتل والسبي. ولهم في الآخرة عذاب النار. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الجلاء والعذاب ﴿ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي خالفوا ﴿ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي فيما نهاهم عنه من الفساد ونقض الميثاق ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي له في الدنيا والآخرة[2550].

١٣٢٧- يجوز إتلاف الشجر لضرورة الحرب:

قال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2551]. و(اللِّينَةُ) هي النخلة مطلقاً، والخطاب للمؤمنين المحاصرين لبني النضير، أي ما قطعتم من نخلة من نخيل بني النضير ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾ أي أبقيتموها كما كانت ولم تتعرضوا لها بشيء ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي فذلك أي

(٢٥٤٨) تفسير فتح البيان ج١٤ ص٣٩-٤٠، تفسير القرطبي ج١٨ ص٣-٥، تفسير الألوسي ج٢٧ ص٤١.

(٢٥٤٩) سورة الحشر الآيتان ٣، ٤.

(٢٥٥٠) تفسير القاسمي ج١٦ ص٩٥.

(٢٥٥١) سورة الحشر، الآية ٥.

قطعها أو تركها بأمر الله الواصل إليكم بواسطة رسوله ﷺ أو بإرادته ومشيئته عز وجل. ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ليذلهم، وأذنَ الله للمؤمنين في القطع وتركه. وإخزاؤهم بقطع اللينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي المسلمين، وبتركها دون قطع لحسرتهم على بقائها في أيدي المسلمين[٢٥٥٢]. هذا وإن القطع، قطع أشجار العدو، يجوز لمقتضيات الحرب: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «قطعوا منها - أي من النخيل - ما كان موضعاً للقتال»[٢٥٥٣]. وقد يكون جواز القطع لإرهاب العدو، قاله ابن كثير، فقد جاء في تفسيره «أمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم»[٢٥٥٤]. أو جواز القطع لإغاظتهم ومضاعفة الحسرة لهم، قال الزمخشري: «إن الله أذن لهم في قطعها ليزيدكم - والخطاب لليهود - غيظاً ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتم المسلمين يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا»[٢٥٥٥]. ومن الواضح أن تعليل جواز قطع النخل بإرهاب أو إذلال أو إغاظة العدو كل ذلك يدخل في ضمن مقتضيات الحرب؛ لأن هذه الأغراض المعنوية توهن العدو وتضعف عزيمته في القتال وتشغله. يتحسر ويحزن على ما حلّ به فيشغله عن النشاط المطلوب في القتال. فمقتضيات الحرب غير مقصورة على الأشياء المادية كموضع القتال كما قال ابن مسعود. وبناء على جواز قطع أشجار العدو «اتفق العلماء إن حصون الكفار وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق، وكذلك الثمار لا بأس بقطعها مثمرة كانت أو غير مثمرة»[٢٥٥٦] ومن المعلوم أن ذلك كله يجوز للمصلحة. فإن كانت المصلحة بعدم القطع كان هو الأولى أو المتعين، قال الألوسي في تفسيره بشأن قطع أشجار العدو وحرق زروعهم وهدم بيوتهم: «وحاصل ما ذكره الفقهاء في المسألة أنه إن علم بقاء ذلك في أيدي الكفرة فالتخريب والقطع والتحريق أولى وإلا فالبقاء أولى»[٢٥٥٧].

(٢٥٥٢) تفسيرا لألوسي ج٢٧ ص٤٣.

(٢٥٥٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٣.

(٢٥٥٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٣.

(٢٥٥٥) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠١.

(٢٥٥٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠١.

(٢٥٥٧) تفسير الألوسي ج٢٨ ص٤٤.

١٣٢٨- مآل أموال بني النضير:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ . مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ . . .﴾(٢٥٥٨). والمراد بما أفاء سبحانه على رسوله ﷺ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي من أموالهم أي أموال بني نضير التي بقيت بعد جلائهم، والمراد بإعادة أموالهم هذه إلى الرسول ﷺ أي تحويلها إليه. وإذا كان الفيء يعني الإعادة والرد والتحويل وهذا يقتضي سبق حصول هذه الأموال له ﷺ فيكون فيما ذكر مجازاً، أي ذكر ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ على وجه المجاز ولكن فيه إشعار بأنها- أي أموال بني النضير وأموال غيرهم من الكفرة- بأنها كانت حرية بأن تكون له ﷺ، وإنما وقعت في أيديهم بغير حق فأرجعها الله تعالى إلى مستحقها، وكذا شأن جميع أموال الكفرة التي تكون فيئاً للمؤمنين؛ لأن الله عزوجل خلق الناس لعبادته، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحق فيها مشقة: فيء، مع أنه من فاء الظل إذا رجع(٢٥٥٩). والإيجاف من الوجيف وهو السير السريع، ومعنى ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلاً ولا ركاباً، والركاب ما يركب من الإبل خاصة، والمعنى إنكم لم تركبوا لتحصيله من أموالكم خيلاً ولا إبلاً. ولا تعبتم في القتال عليه وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. والمعنى: إن ما خوّلَ الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم. فالأمر فيه مُفوضٌ إليه يضعه حيث يشاء، يعني: إنه لا يُقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً، وذلك أن المسلمين طلبوا قسمتها كما تقسم الغنائم، فنزلت هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذه الآية بيان للتي قبلها ولذلك لم يدخل العاطف عليها فهي منها غير أجنبية عنها. بُيِّنَ فيها ما يصنع بما أفاء الله عليه، وأمره أن يضعه حيث

(٢٥٥٨) سورة الحشر، الآيتان ٦، ٧.

(٢٥٥٩) تفسير الألوسي ج٢١ ص٤٤.

يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة، سهم لرسوله، وسهم لكلٍ من ذوي القربى- وهم بنو هاشم وبنو المطلب - واليتامى والمساكين وابن السبيل وهو الغريب المنقطع عن أهله ودياره[٢٥٦٠]. ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾. أي كي لا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم فلا يصيب الفقراء منه شيء. والدولة اسم لشيء يتداوله القوم بينهم: يكون لهذا مرة ولهذا مرة. قال مقاتل: المعنى أنه يغلب الأغنياءُ الفقراء فيقسمونه بينهم. أو كي لا يكون الفيء بين الأغنياء منكم خاصة يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بين الأغنياء، ومعنى الدولة الجاهلية: إن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ولا يعطون شيئاً منها للفقراء؛ لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة، فالمعنى كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية[٢٥٦١].

١٣٢٩- وجوب طاعة الرسول في أمره ونهيه:

قال تعالى: ﴿ . . . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢٥٦٢] والمعنى: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر. وأمره هو أمر الله، ونهيه هو نهي الله، وعن ابن مسعود جاءته امرأة فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة أشيء وجدته في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ؟ قال: بل شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ. قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول. قال: فما وجدت فيه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ قالت: بلى. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة. قالت: فلعله في بعض أهلك. تعني أنَّ أهلك يفعلونه. قال: فادخلي فانظري. فدخلت- أي إلى بيت ابن مسعود- ثم خرجت، وقالت: ما رأيت بأساً. فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾. وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ

(٢٥٦٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٢.

(٢٥٦١) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٢- ٥٠٣ تفسير الألوسي ج٢١ ص٤٩، فتح البيان ج١٤ ص٤٧.

(٢٥٦٢) سورة الحشر الآية ٧.

قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ونواهيه فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه[٢٥٦٣].

١٣٣٠ - شهادة الله للمهاجرين من أصحاب رسول الله بصدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[٢٥٦٤]. أي الفيء والغنائم للفقراء المهاجرين؛ لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أُخرِجوا من ديارهم فهم أحق الناس به. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أي ابتغاء مرضاة الله ورضوانه[٢٥٦٥]. والفضل والرضوان يراد به الآخرة والجنة[٢٥٦٦]. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ونصر الله هو نصر شرعه ونبيه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون أي الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من ديارهم وأموالهم لأجله[٢٥٦٧]. وهذه شهادة من الله تعالى لأولئك الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ.

١٣٣١ - شهادة الله للأنصار من أصحاب رسول الله بالإيمان والفلاح:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٢٥٦٨]. التَبَوّؤ: النزول في المكان ونسبته إلى الدار ظاهر والمراد بالدار دار الهجرة أي المدينة المنورة، وأما نسبة التَبَوُّؤ إلى الإيمان فباعتبار جعله مستقراً ومتوطناً على سبيل الاستعارة. وقال بعضهم تبوّؤوا الدار أي المدينة

(٢٥٦٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦.

(٢٥٦٤) سورة الحشر الآية ٨.

(٢٥٦٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٦، وتفسير القرطبي ج١٨ ص١٩.

(٢٥٦٦) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٧٦.

(٢٥٦٧) تفسير الألوسي ج٢٧ ص٥١.

(٢٥٦٨) سورة الحشر الآية ٩.

دار الهجرة وأخلصوا الإيمان. وهم الأنصار من أصحاب النبي ﷺ، فهم قد تبوؤوا الدار قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ حاجة أي حسداً ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني مما أُعطي إخوانهم المهاجرون من الفيء وغيره. أو ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره. والمحتاج إليه يسمى حاجة، يعني أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من الطيبات، ولو كان بهم خصاصة أي حاجة إلى ما يؤثرون به غيرهم على أنفسهم. فهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤن بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، وذلك ينشأ عن قوة الإيمان ووكيد المحبة والصبر على المشقة. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والشح اللؤم وأن تكون نفس الرجل حريصة على المنع، وقد أضيف إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها. وأما البخل فهو المنع نفسه ومعنى الآية ومن يوق بتوفيق ومعونة شح نفسه حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه. والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم الشح بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك كما تفيده إضافة الشح إلى النفس(٢٥٦٩).

١٣٣٢ - قصص في الإيثار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما عندي

(٢٥٦٩) ابن عطية ج١٤ ص٣٧٧-٣٨١، ابن كثير ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨، الزمخشري ج٤ ص٥٠٤-٥٠٥، الألوسي ج٢٧ ص٥١-٥٣.

إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت. وفي رواية: فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنَّا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال: «قد عجب الله عز وجل من صنيعكما لضيفكما»[٢٥٧٠].

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم. فإذا أنا برجل يقول: آه آه، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك! فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه؛ آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. ورجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات[٢٥٧١].

وفي موطأ مالك، كما جاء في تفسير القرطبي، «إنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ إن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه. فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟. فقالت: أعطيه إياه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدِي لنا: شاة وكفَنَها - أي إنها كانت ملفوفة بالخبز - فدعتني عائشة، فقالت: كلي من هذا فهو خير من قرصك[٢٥٧٢].

وقال شاب من بلخ لأبي يزيد البسطامي: يا أبا يزيد ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إن وجدنا أكلنا وإن فقدنا صبرنا. فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا. فقلت: وما حدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا[٢٥٧٣].

(٢٥٧٠) رواه البخاري وغيره كما ذكر ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٣٣٨، والقرطبي في تفسيره ج١٨ ص٢٥.

(٢٥٧١) ابن كثير ج٤ ص٣٣٨، القرطبي ج١٨ ص٢٨.

(٢٥٧٢) القرطبي ج١٨ ص٢٦.

(٢٥٧٣) تفسير القرطبي ج١٨ ص٢٨-٢٩.

١٣٣٣ - المؤمنون لا يبغضون المهاجرين والأنصار:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[٢٥٧٤] وهؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان. كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾. فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم بالسر والعلن[٢٥٧٥] فالآية تشمل لمن جاء بعد السابقين من المهاجرين والأنصار من الصحابة الكرام، المتأخر إسلامهم في عصر النبوة ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة؛ لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار[٢٥٧٦]. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ أي غشاً وحقداً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة. وأمر تعالى بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله تعالى أن ينزع من قلوبهم الغلَّ للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة الكرام دخولاً أولياً لكونهم أشرف المؤمنين ولكون سياق الآية فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ الشيطان وحلَّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يستغفر ويتوب إلى الله، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع في غضب الله وسخطه[٢٥٧٧].

(٢٥٧٤) سورة الحشر الآية ١٠.

(٢٥٧٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.

(٢٥٧٦) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١، فتح البيان ج١٤ ص٥٤-٥٥.

(٢٥٧٧) فتح البيان ج١٤ ص٥٥-٥٦.

١٣٣٤ - ما روي عن أهل البيت فيمن سبّ الصحابة:

عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جده علي بن الحسين رضي الله عنه أنه جاءه رجل فقال له: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾ الآية. قال: لا. قال: أنت من قوم قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ...﴾ الآية. قال: لا. قال فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ...﴾ الآية(٢٥٧٨).

وعن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، روى عن أبيه: أن نفراً من أهل العراق جاؤوا إليه فسبوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ثم عثمان رضي الله عنه، فأكثروا، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا. قال: أفمن الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين. أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢٥٧٩).

١٣٣٥ - وجوب محبة الصحابة، وأن لاحق لمبغضهم في الفيء:

قال الإمام القرطبي في تفسيره: «هذه الآية - أي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية. دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم وأن من سبهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غلّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾ الآية(٢٥٨٠). وقال الإمام ابن كثير وهو يفسر هذه الآية: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في

(٢٥٧٨) تفسر القرطبي ج١٨ ص٣١.

(٢٥٧٩) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣١، تفسير ابن عطية ج١٤ ص٣٨٢.

(٢٥٨٠) تفسير القرطبي ج١٨ ص٣٢.

مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ. . .﴾ الآية[٢٥٨١].

١٣٣٦ - ما وعد المنافقون به بني النضير وتكذيب الله لهم:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢٥٨٢]. يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم[٢٥٨٣].

وقوله: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ أي الذين بينهم وبينهم إخوة الكفر وهم يهود بني النضير، وجعلهم إخواناً له لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم، فهم إخوان في الكفر. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من ديارنا في صحبتكم، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي في شأنكم ومن أجلكم ﴿أَحَدًا﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان. ثم لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنصرة لهم فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ أي وإن قاتلكم المسلمون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي على المسلمين الذين يقاتلونكم. ثم كذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصر لهم[٢٥٨٤].

١٣٣٧- تفصيل تكذيب الله للمنافقين:

ثم لما أجمل سبحانه وتعالى كذب المنافقين فيما وعدوا به بني النضير، فصلّ ما كذبوا فيه، فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[٢٥٨٥]. وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على نبوة محمد ﷺ؛ لأن فيها إخبار بالغيوب، وقد وقع ما أخبر الله به من الغيب فالمنافقون

(٢٥٨١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٣٩.

(٢٥٨٢) سورة الحشر الآية ١١.

(٢٥٨٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠.

(٢٥٨٤) فتح البيان ج١٤ ص٥٧-٥٨.

(٢٥٨٥) سورة الحشر، الآية ١٢.

لم ينصروا يهود بني النضير لما حاصرهم النبي ﷺ والمسلمون، ولم يخرجوا معهم لما أخرجهم النبي ﷺ. فإن قيل كيف نوجه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ أي بعد إخبار الله تعالى بأن المنافقين لا ينصرون يهود بني النضير، والجواب: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ولأن الله تعالى يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: لو نصر المنافقون يهود بني النضير - وهذه الآيات نزلت فيهم - لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون - أي اليهود - بعد ذلك. أو لينهزمن اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين(٢٥٨٦).

١٣٣٨ - لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله:

اليهود والمنافقون يخافون من المسلمين أكثر من خوفهم من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(٢٥٨٧). أي لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور اليهود والمنافقين من الله تعالى، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى، وهذه الحال منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته(٢٥٨٨).

١٣٣٩ - جبن اليهود:

قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(٢٥٨٩). ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متساندين، يعني اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يخرجوا إليكم، فهم لجبنهم وخوفهم، يتسترون وراء تحصيناتهم ولا يخرجون لمبارزتكم، لِقَذْفِ الله الرعبَ في قلوبهم. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾

(٢٥٨٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٦، فتح البيان ج١٤ ص٥٨-٥٩.

(٢٥٨٧) سورة الحشر الآية ١٣.

(٢٥٨٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٧، فتح البيان ج١٤ ص٥٩.

(٢٥٨٩) سورة الحشر الآية ١٤.

يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة؛ لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله والمؤمنين. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي إلفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعني أن بينهم إحناً وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم(٢٥٩٠).

١٣٤٠- المثل المضروب لليهود والمنافقين:

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ. فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢٥٩١). قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع وكذا قال قتادة. قال ابن كثير وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا. وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصرة من المنافقين، وقول المنافقين لهم: لئن قوتلتم لننصّرنكم، ثم لما حقت الحقائق ووقع عليهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للتهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذا سوّلَ للإنسان - والعياذ بالله - الكفر فإذا دخل فيما سوّلَهُ له تبرأ منه وتنصل وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تبرأ الشيطان من الذي أغواه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ﴾ أي فكان عاقبة الآمر بالكفر، وهو الشيطان، والفاعل له، وهو المستجيب للشيطان، أنهما في النار خالدين فيها أبد الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي جزاء كل ظالم(٢٥٩٢).

(٢٥٩٠) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥٠٧.

(٢٥٩١) سورة الحشر، الآيات من ١٥-١٧.

(٢٥٩٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٠-٣٤١، تفسير الألوسي ج٢٨ ص٥٩.

المبحث الثالث

غزوة بني قريظة

١٣٤١- أسباب هذه الغزوة:

كان بين بني قريظة وبين النبي ﷺ معاهدة سلم وموادعة، فلما جاءت الأحزاب: قريش وغطفان وحلفاؤهم من القبائل لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين، ومن أجل ذلك حاصروا المدينة، في ذلك الوقت نقضت بنو قريظة معاهدتها مع رسول الله ﷺ، وظاهرت الأحزاب في حصارهم المدينة. ومحاربتهم لرسول الله ﷺ.

١٣٤٢- الخروج إلى بني قريظة:

فلما هزم الله الأحزاب ورجع النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يدعوه إلى غزو بني قريظة، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق- معركة الخندق- ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام وقال: وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال ها هنا وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم»[٢٥٩٣].

١٣٤٣- لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة:

وقال ﷺ لأصحابه الخارجين معه إلى بني قريظة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم: بل نصلي، ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم[٢٥٩٤].

(٢٥٩٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٠٧.

(٢٥٩٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٠٧- ٤٠٨.

١٣٤٤- الفقه في هذا الحديث:

في هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النصّ معنى يخصه. وفيه أيضاً إن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطىء منهم بدليل أن له أجراً واحداً وللمصيب منهم أجران. وحاصل ما وقع في هذه القصة أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته ولم يبالوا بخروج الوقت- وقت الصلاة- توجيهاً لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها[٢٥٩٥].

١٣٤٥- رئيس بني قريظة ينصحهم:

وعن محمد بن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب، قال: «حاصرهم- أي حاصر النبي ﷺ بني قريظة- خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب، فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا، أو يقتلوا نساءهم وأبناءهم ويخرْجوا مستقتلين، أو يبيتوا المسلمين ليلة السبت. فقالوا لا نؤمن، ولا نستحل ليلة السبت، وأي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا[٢٥٩٦]؟.

١٣٤٦- بنو قريظة يستشيرون أبا لبابة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر وكانوا حلفاءه فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه- يعني الذبح- ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه[٢٥٩٧]. وقد ظل مرتبطاً بالجذع في المسجد ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع حتى نزلت توبته على رسول الله ﷺ، فأراد الناس أن يطلقوه فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح أطلقه[٢٥٩٨].

(٢٥٩٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١٠.

(٢٥٩٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١١.

(٢٥٩٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧٧ ص٤١١.

(٢٥٩٨) الرحيق المختوم ص٢٩٢، شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١٤.

١٣٤٧- استسلامهم ونزولهم على حكم رسول الله:

ولما طال عليهم الحصار استسلموا ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في موالي الخزرج أي بني قينقاع، ما علمتَ أي أنهم أرادوا أن يعفو عنهم كما عفا ﷺ عن بني قينقاع. فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ[٢٥٩٩].

١٣٤٨- حكم سعد في بني قريظة:

وكان سعد بن معاذ قد أصيب في معركة الخندق بجرح، فجعله ﷺ في خيمة رفيدة عند مسجده، وكانت إمرأة تداوي الجرحى، فقال: اجعلوه في خيمتها لأزوره من قريب. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة وحاصرهم واختير سعد ليحكم في بني قريظة، أرسل إليه ﷺ فحملوه على حمار وجيء به إلى رسول الله ﷺ فلما وصل قال عليه الصلاة والسلام للأنصار: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه. فقال سيدنا محمد ﷺ: هؤلاء- أي بنو قريظة نزلوا على حكمك. وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: احكم فيهم يا سعد. قال: الله ورسوله أحق بالحكم. قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد: تُقْتَلُ مقاتلتهم، وتُسبىَ ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم. فقال ﷺ: قضيت بحكم الله. وفي رواية ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». وفي رواية من فوق سبع سموات[٢٦٠٠]. ونفذ هذا الحكم - حكم سعد فيهم.

(٢٥٩٩) شرح البخاري للعسقلاني ج٧ ص٤١٤.

(٢٦٠٠) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤١١-٤١٤.

المبحث الرابع
المستفاد من قصص
ما جرى ليهود المدينة

١٣٤٩- تعميق معاني الولاء والبراء في نفوس الدعاة:

في غزوة بني قينقاع التي انتهت باستسلامهم للنبي ﷺ، ألحّ المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول في طلبه من رسول الله ﷺ بالعفو عن بني قريظة محتجاً بأنهم حلفاؤه، ومصرحاً بأنه لا يبرأ من توليهم. أما المسلم عبادة بن الصامت، فقد أعلن براءته من حلفه مع بني قينقاع بعد أن ظهر نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وإخلاص ولائه كاملاً لله ورسوله، فقال قولته المشهورة لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله. وهكذا يجب على الدعاة أن يعمقوا معاني الولاء، فيجعلونها خالصة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يجعلون في هذا الولاء نصيباً لأعداء الدعوة، وإن كان لهم معهم نسب أو علاقة دنيوية، وأن يجعلوا براءهم من كل من وما يعادي الدعوى التي يحملوها، وأن يستشعروا ويستحضروا في نفوسهم مدى ولاء صحابة رسول الله لله ورسوله وللمؤمنين، ومدى برائهم من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، كما عليهم أن لا ينسوا براءة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل من أبيه، لما تبين له أنه عدو لله. فإذا فعل الدعاة ذلك، واستقرت معاني الولاء والبراء في أنفسهم حتى صارت جزءاً من كيانهم يتصرفون ويتحركون في ضوئها وبناء عليها، عليهم أن يشيعوها ويعمقوا معانيها في نفوس أنصارهم ومؤيديهم، ثم يفعلوا ذلك في المسلمين عموماً عن طريق دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم الهادفة التي يجب أن يريدوا من ورائها تبيين معاني إسلامية معينة وتأكيدها، ومن جملتها معاني الولاء والبراء عند المسلم.

١٣٥٠- الاعتبار والاتعاظ بالماضين:

في قصة غزوة بني النضير التي أنزل الله فيها معظم آيات سورة الحشر، قال تعالى

بعد أن ذكر ما حلّ بهم: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ومعنى ذلك واضح وهو: أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة بنور الإيمان اتعظوا بما حلَّ ببني النضير بسبب عصيانهم وتمردهم على الله. ورفضهم الإيمان بما يجب عليهم الإيمان به. ونقضهم العهود، اتعظوا بما حلّ بهم من نكال وعقاب وإذلال وخروج من ديارهم، اتعظوا بذلك واعتبروا به بأن لا تفعلوا ما فعلوه لا كله ولا بعضه، لئلا يصيبكم من العذاب ما تستحقونه بقدر ما تقومون به من أسباب ودواعي العقاب. إن هذا المعنى الواضح والذي يدعونا الله إليه أصبح غائباً عن أذهان المسلمين، أو حاضراً ولكنه مشوشاً غير واضح؛ لأن المسلمين يغفلون عن العبرة فيما قصّه الله علينا من قصص الماضين، وما حلّ بهم من جراء أفعالهم، ويحسبون أن ذلك لا يعنيهم ولا يتعلق بهم. وهذا خطأ يجب على الدعاة تصحيحه في أذهان المسلمين، وأن يبصروهم بأن سنة الله واحدة في مؤاخذته للعاصين، والمخالفين لأمر الله في اتباع شرعه وملاحظة سننه في الحياة. وأن يؤكد الدعاة هذا المعنى في دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم، ويستشهدوا بآيات القرآن وما وقع للصحابة الكرام. ويذكروهم أيضاً بقوله تعالى في تعليل ما أصاب بني النضير من نكال وعقاب، بأنهم شاقوا الله ورسوله بعصيانهم لما أمروا به من الإيمان بالله ورسوله، ثم قال تعالى مبيناً سنة من سننه في خلقه وهي: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذه الآية تبين لنا قاعدة من قواعد سنن الله في الحياة، فمن يتمرد على الله وشرعه ولا يلتزم بما جاء به محمد ﷺ، فالعقاب ينتظره سواء في الدنيا أو الآخرة، إن مهمة الدعاة في تبصير المسلمين هذه المعاني مهمة صعبة ولكنها ضرورية لتصحيح المفاهيم التي يجب مباشرتها أولاً حتى يمكن مطالبة المسلمين بالأعمال.

١٣٥١- مراعاة مقتضيات الحرب:

موضوع الدعوة هو الإسلام بجميع معانيه، والدعاة يدعون إلى الإسلام، أي إلى معانيه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما استنبطه منهما أهل العلم. ومن جملة معاني الإسلام ما يتعلق منها بحالة الحرب التي قد تكون فيها الدولة الإسلامية. وللحرب مقتضياتها التي يجب مراعاتها، أو يجوز الأخذ بها تحقيقاً لمصلحة شرعية راجحة أو دفعاً لمفسدة، وإن كان المأخوذ في الأحوال العادية لا يجوز الأخذ به. ومن

ذلك ما ورد في غزوة بني النضير، وما صدر عن المسلمين من قطع بعض نخيل بني النضير مراعاة لمقتضيات الحرب على النحو الذي بنياه. فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى لأولي الأمر في البلاد الإسلامية، ولأن القتل وإزهاق النفوس يجوز في الحرب، فما دون ذلك من إتلاف مال العدو جوازه أولى. وإذا كان إتلاف مال يجوز لمقتضيات الحرب ومقتضيات عدائه، فجواز ما دون إتلاف ماله أولى، مثل مقاطعة العدو اقتصادياً إذا أمكن، وعدم ترويج سلعه وبضاعته، واستخدام أفراده وأتباعه. على أن يكون ذلك كله موزوناً بميزان الشرع ومحققاً للمصالح الشرعية، ويمكن أيضاً للجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - حماية لنفسها من أذى أعدائها وأعداء الإسلام، أن تمتنع عما فيه عون لهم اقتصادياً أو معنوياً، فيمتنع أفراد الجماعة المسلمة من شراء بضائع خصوم الدعوة أو مساعدتهم، وترك أنصار الدعوة وأنصار الجماعة المسلمة دون معاونة ومساندة. فعلى الدعاة تبصير أنفسهم وأعوانهم وعموم المسلمين بهذا المعنى البسيط، وهو الابتعاد عن معاونة ومساندة خصوم الدعوة، ولكن لا يجوز إتلاف مال العدو وتحريقه قياساً على ما يجوز للدولة الإسلامية فعله مع أعدائها في حالة الحرب، لأن هذا قياس مع الفارق، ولأن الجماعة الإسلامية إن فعلت ذلك خرجت عن صفتها المميزة وهي جماعة دعاة إسلامية.

١٣٥٢- ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا:

على الدعاة وجماعتهم المسلمة رفع هذا الشعار وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ سواء كان هذا الإيتاء والنهي يتعلقان بنفس المسلم وشؤونه الخاصة أو ما يتعلق بعلاقاته مع غيره، وسواء كان ذلك ما تعلق بالدعاة وبجماعتهم أو ما تعلق بغيرهم.

١٣٥٣- إيثار بعض الدعاة بالعطاء:

ويجوز لجماعة الدعاة أن تؤثر أحد دعاتها أو بعضهم على البعض الآخر في العطاء، أي في الأشياء المادية التي تملكها والمرصدة لأعضائها والدعاة فيها، على أن يكون هذا الإيثار بمبرر شرعي، كما حصل في قسمة أموال بني النضير التي غنمها النبي ﷺ فأعطاها للمهاجرين دون الأنصار إلا اثنين أو ثلاثة منهم لفقرهم، وإنما آثر

النبي ﷺ المهاجرين بأموال بني النضير وقسمتها عليهم لحاجتهم وفقرهم. فعلى الدعاة وأنصار الجماعة المسلمة أن لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً أو سخطاً على الجماعة إذا آثرت بعضهم في العطاء لمبرر شرعي هي تقدره، وعليهم أن يحملوا تصرفها على محمل حسن، ووجود المبرر الشرعي لفعلها، مثل حاجة من آثروه بهذا العطاء، أو أن متطلبات عمله في الدعوة يستلزم هذا العطاء ونحو ذلك.

١٣٥٤- المقام السامي للصحابة الكرام:

ذكرنا ثناء الله تعالى ومدحه لصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في سورة الحشر بمناسبة ذكر المستحقين لأموال بني النضير، وهي أموال الفيء التي أفاء الله بها على رسوله والمشار إليها في سورة الحشر. كما ذكرنا حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، ولم يتأثر بحلف قديم بين قومه «الأوس» وبين يهود بني قريظة، مفضلاً بل وعاملاً بمقتضى ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين، ومتبرئاً من موالاة غيرهم والانحياز إلى هذا الغير. فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة تعريف المسلمين بالمقام السامي للصحابة الكرام، والمنزلة العالية التي نالوها في خدمة الإسلام، وتفهيم المسلمين وجوب محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وحرمة بغضهم أو الحقد عليهم أو سبهم أو تنقيصهم، وتفهيم المسلمين بأن الله مدحهم في كتابه العزيز، وشهد لهم بالصدق والإيمان وبرضوانه عليهم، وأن متبعيهم بإحسان يصيبهم رضوان الله، وأن مبغضهم والحاقد عليهم ومن سبهم أو انتقصهم مستحق لسخط الله. فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك للناس لا سيما في الأماكن التي يعلن بعض الجهلة والمبتدعة سبَّ صحابة رسول الله ﷺ علانية وجهاراً. فعلى الدعاة أن يستشهدوا بما نزل من كلام الله من عقاب سيحل بهؤلاء، كما أن عليهم أن يذكّروهم بما ورد من أحاديث في مدحهم والثناء عليهم، فمن ذلك ما أخرجه البخاري في مدح الصحابة والثناء عليهم، فمن ذلك ما يأتي - كما رواه البخاري[٢٦٠١].

أ- عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم» ويدخل الصحابة في قرنه ﷺ دخولاً أولياً.

(٢٦٠١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٣، ١٢، ٢١، ٤٠، ٥٢، ٧٠، ١١٣، ١٢٠.

ب- وفي فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر».

جـ- وفي النهي عن سب أصحاب النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه».

د- ومن مناقب أو فضل عمر، قوله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ بجانب القصر، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر، فذكرت غيرتك فوليت مدبراً» فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟

هـ- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: إن النبي ﷺ قال: «أُرِيتُ في المنام أني أَنْزِعُ بدلوِ بكرةٍ على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالتْ غَرْباً فلم أرَ عبقرياً يفري فَريه حتى رَوِيَ الناس وضربوا بعَطَن».

«بدلو بكرةٍ» المراد نسبة الدلو إلىٰ الأنثى من الأبل وهي الشابة أي الدلو التي يُسقى بها. «عبقري» العبقري: النافذ الماضي الذي لا شيء يفوته. وقال أبو عمر: عبقري القوم: سيدهم وقَيِّمهم وكبيرهم. و«غَرْباً» والغرب: الدلو العظيمة. و«يفري فريه» الفري: القطع، و«عَطَن»: مبارك الإبل عند الماء، ومرابض الغنم أيضاً، الجمع أعطان واحدها عَطَن(٢٦٠٢).

و- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فضربه برجله وقال: «اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيدان».

هـ- ومن مناقب عثمان بن عفان رضي الله، قول النبي ﷺ: «من يحفر بئر رُومة فله الجنة»، فحفرها عثمان. وقال ﷺ: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»

(٢٦٠٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٦، مختار الصحاح ص١٨٥، ١٩٧، ٢١٠.

فجهزه عثمان.

ز- ومن مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قوله ﷺ في غزوة خيبر: «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجلاً يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله عليه، فإذا نحن بعلي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه. وفي رواية أخرى للبخاري وفيها: أن علياً كان أرمد، فبصق ﷺ في عينه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

حـ- وفي فضل الأنصار من صحابة رسول الله قال ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

ط- وفي حفر الخندق قال ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة».

د- وقال ﷺ في وصيته بالأنصار: «أوصيكم بالأنصار اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

وهناك أحاديث في مناقب تخص أشخاصاً بأعيانهم من الأنصار، وإنما ذكرت مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، لأن أكثر سبّ المبتدعة يتعلق بهم.

١٣٥٥- تحقيق معاني الأخوة والإيثار بين الدعاة:

وعلى الدعاة أن يحرصوا على تحقيق معاني الأخوة الإسلامية ومقتضياتها، ويرتقوا إلى مستوى الإيثار الذي وصل إليه الأنصار في علاقتهم مع المهاجرين، وأن يدعوا المسلمين إلى معاني الأخوة الإسلامية، وتذكيرهم بما كان عليه الصحابة الكرام من هذه المعاني ومن معاني الإيثار، ويرووا لهم القصص في الإيثار التي ذكرتها عن الصحابة الكرام. وعلى هذا فمن غير المقبول من الدعاة أو من أعضاء الجماعة المسلمة، ونحن ندعوهم إلى إقامة هذا المجتمع الإسلامي المتميز فيما بينهم، أقول من غير المقبول أن يقع بينهم حسد أو حقد أو بغض وإذا وقع شيء من هذه القاذورات في قلوبهم، فعليهم أن يبادروا إلى تطهير قلوبهم منها كما يسارعون إلى تطهير أبدانهم من النجاسة إذا وقعت أو حصلت فيها.

١٣٥٦- المسلم يقع في الإثم ولكنه يسرع إلى التوبة:

المسلم قد يقع في الإثم وفي الخطيئة، لأنه غير معصوم، ولكن عليه أن يسرع إلى التوبة «فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» كما جاء في حديث رسول الله ﷺ. وقد رأينا كيف أن أبا لبابة عندما استشاره بنو قريظة في مسألة نزولهم على حكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقة - يريد الذبح -، وأنه سرعان ما تنبه إلى فعله الآثم، فندم وتاب وربط نفسه على جذع في المسجد حتى أنزل الله توبته على رسوله ﷺ، وأبى أن يحله من رباطه أحد غير النبي ﷺ. وعلى هذا فالوقوع بالإثم محتمل من قبل أي مسلم مهما علت منزلته وعمّر ونوّر الإيمان قلبه، لأنه غير معصوم. فعلى الدعاة أن يعلموا ذلك، وأن يستحضروه في أذهانهم ولا ينسوه، والمطلوب منهم إذا وقع أحدهم في الإثم أن ينهض حالاً ويتوب إلى الله تعالى وأن يعينه إخوانه على التوبة، وأن لا يشهروا به، أو يتعجبوا منه على وجه يحملهم على مقاطعته، فهذا ونحوه لا يجوز، لأن التوبة تمحو الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وإن كانت معصية الأخ في حق غيره من إخوته فعلى هذا الغير أن يسامحه ويعفو عنه ويستغفر له الله تعالى، فهذا هو شأن الإخوة في مجتمعهم الإسلامي الصغير: مجتمع الدعاة في جماعتهم المسلمة.

الفصل الحادي عشر

غزوة بني المصطلق (غزوة المريسيع)

المبحث الأول

خلاصة هذه الغزوة

١٣٥٧- تاريخ وقوعها وأسبابها:

وقعت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة على ما رجحه واستظهره ابن حجر العسقلاني. فتكون قد وقعت قبل الخندق، لأن معركة الخندق كانت في شوال من سنة خمس أيضاً. وبنو المصطلق بطن من خزاعة. (والمريسيع) ماء لبني خزاعة[٢٦٠٣].

أما أسبابها فقد ذكر ابن إسحاق عن مشايخه عاصم بن عمر بن قتادة وغيره: أنه ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له لقتاله، وأن قائدهم الحارث بن أبي ضرار. فخرج إليهم النبي ﷺ مع جيشه من أصحابه حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المُرَيسيع قريباً من الساحل. فالتحم الفريقان: المسلمون والمشركون واقتتلوا فهزمهم الله، وانتصر المسلمون عليهم وغنموا أموالهم وسبوا نساءهم وأبناءهم. ولكن الذي ورد في الصحيح من حديث ابن عمر يدل على أنه ﷺ والمسلمون أغاروا على بني المصطلق على حين غفلة منهم فأوقع بهم. ولفظ الحديث الصحيح الذي ورد في هذه الغزوة هو: أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون -أي غافلون- وأنعامهم تستقي على الماء فقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم.. الخ. وأراد ابن حجر التوفيق بين الروايتين، فقال: فيحتمل أن يكون حين الإيقاع ببني المصطلق ثبتوا قليلاً فلما كثر فيهم القتل انهزموا، بأن يكونوا لما دهمهم المسلمون وهم على الماء ثبتوا وتصافوا، ووقع القتال بين الطائفتين ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم[٢٦٠٤].

(٢٦٠٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٣٠.

(٢٦٠٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٣٠-٤٣١.

١٣٥٨- انتصار المسلمين ووفرة ما غنموه:

أشرنا إلى غلبة المسلمين على بني المصطلق، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة من بني المصطلق غنائم كثيرة: ألفي بعير وخمسمائة شاة، هذا عدا السبايا من النساء والأسارى من الرجال[٢٦٠٥].

١٣٥٩- جويرية بنت الحارث:

كان من جملة السبي جورية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها - أي اتفق معها على أداء مبلغ من المال ليعتقها - فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا الزواج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ[٢٦٠٦]. وفي رواية لابن هشام أن النبي ﷺ لم يجعلها في سهم أحد تكرمة لها، ثم قدم أبوها بعدُ في فدائها بإبلٍ. وقد أسلم وأسلم ابنان له وناس من قومه، فدفع الإبل وسلمت إليه ابنته، فأسلمت فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، فمَنَّ الصحابة على من بأيديهم من قومها؛ لمصاهرة رسول الله منهم[٢٦٠٧].

١٣٦٠- من دسائس المنافقين:

لما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى الإيقاع بين المهاجرين والأنصار، بإثارة العصبية فيما بينهم، وخلاصة هذا السعي الحثيث من المنافقين وما آل إليه. ما رواه البخاري عن زيد بن أرقم أنه سمع عبد الله بن أبي يقول - أي لأصحابه ومن حوله -، لا تنفقوا على من عند رسول الله من الفقراء المهاجرين حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فأنزل الله تعالى سورة ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وفيها ذكر ما قاله ابن أبي. وفي حديث آخر رواه البخاري عن جابر، قال: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال

(٢٦٠٥) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٥٣.

(٢٦٠٦) الرحيق المختوم ص٢٩٩.

(٢٦٠٧) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٢٥٣.

الأنصاري ياللأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوة الجاهلية؟ قالوا يا رسول: كسع - أي ضرب برجله - رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال ﷺ: «دعوها فإنها منتة». فسمع بذلك المنافق عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢٦٠٨). ثم إن النبي ﷺ أراد أن يشغل جيشه عما أثاره ابن أبي وما قاله، فأمر الجيش بالرحيل فسار به طيلة اليوم حتى أمسى، وليلهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس وقد أتعبهم السير المتواصل فوقعوا نياماً(٢٦٠٩).

١٣٦١ - يستأذن رسول الله في قتل أبيه:

ولما بلغ عبد الله بن المنافق ابن سلول ما قاله أبوه، استأذن رسول الله ﷺ في قتله، فنهاه، وقال له: «لا، ولكن برّ أباك وأحسن صحبته» ولكنه منع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها، مع شدة برّه لأبيه، وفعلاً لم يسمح عبد الله لأبيه بالدخول حتى أذن له رسول الله بذلك وحتى قال أبوه: النبي هو العزيز وأنا الذليل. وقد علل رسول الله ﷺ منعه لعبد الله من قتل أبيه بقوله: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢٦١٠).

١٣٦٢ - نزول سورة «المنافقون»:

وقد نزلت سورة «المنافقون» في غزوة بني المصطلق، بسبب أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك، وقد ذكر الله فيها ما تقدم من المنافقين من حلفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأنهم كذبة فيما يقولون، لعدم إيمانهم وتصديقهم بما يقولون ويشهدون. كما ذكر الله تعالى في هذه السورة ما تأخر منهم - أي من المنافقين - من

(٢٦٠٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٠، وتفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٢.

(٢٦٠٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٢.

(٢٦١٠) تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٧٢.

أقوال ووقع في تلك الغزوة - غزوة بني المصطلق-[٢٦١١].

١٣٦٣- القرآن يخبر عما قاله المنافقون:

قلنا إن سورة «المنافقون» نزلت كلها بسبب ما قاله المنافقون: ابن أبي بن سلول وأصحابه في غزوة بني المصطلق، وقد أخبر القرآن في هذه السورة ما قالوه، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[٢٦١٢]. قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى المنافق عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن قال بقوله: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ أي لأجل أن يتفرقوا عن النبي ﷺ: بأن يذهب كل واحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك، يعنون بذلك فقراء المهاجرين. ثم سفَّه الله تعالى أحلامهم في ظنهم أن إنفاقهم هو سبب رزق هؤلاء الفقراء المهاجرين، ونسوا أن حرمان الرزق بيد الله تعالى إذا شاءه، وأنه إذا انسدَّ باب انفتح غيره، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي إن الله تعالى هو الرزاق لهؤلاء الفقراء والمهاجرين وغيرهم، لأن خزائن الرزق له، فيعطي من شاء ما يشاء ويمنع من شاء ما يشاء، لا بأيديهم، وهذا ردٌّ وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله ﷺ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي لا يعلمون ذلك، أن الأرزاق بيد الله وأنه هو الباسط القابض، المعطي المانع[٢٦١٣].

١٣٦٤- العزيز هو رسول الله والذليل هو المنافق ابن أبي:

وأخبر الله تعالى أيضاً ما قاله ابن أبي ورضيه أصحابه المنافقون ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢٦١٤] القائل هو المنافق ابن أبي، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل من أعزه الله عز وجل وهو الرسول ﷺ، أو هو عليه الصلاة والسلام

(٢٦١١) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٥٢.

(٢٦١٢) سورة المنافقون الآية ٧.

(٢٦١٣) تفسير ابن عطية ج١٤ ص٤٦٤، تفسير فتح البيان ج١٤ ص١٥٠-١٥١.

(٢٦١٤) سورة المنافقون الآية ٨.

والمؤمنون. وإسناد القول المذكور لجميعهم مع كون القائل هو ابن أبيّ، لكونه رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضوان بما يقوله سامعون له ومطيعون. وردّ الله عليهم مقالتهم هذه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا ما قالوه، والحال أن كل من له بصيرة يعلم أن القوة والغلبة لله وحده، ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم، هذا وإن ثبوت العزة لله ذاتي أي من مستلزمات ذاته تعالى، وثبوتها لرسوله ﷺ بواسطة الرسالة، أي بواسطة اصطفائه تعالى له رسولاً، وثبوتها للمؤمنين بواسطة الإيمان، أي لإيمانهم بما أوجب الله الإيمان به، أي لإيمانهم بالله رباً وإلهاً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وباتباع شرعه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لفرط جهلهم وغرُورهم لا يعلمون أن العزة ليست لهم وإنما هي لله ولرسوله وللمؤمنين. وقد أشار المفسرون، وهم يفسرون هذه الآية، ما ذكرناه من أنّ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لما بلغه ما قال أبوه، قال له: والله لا تدخل المدينة حتى تقرَّ على نفسك أنتَ الذليل ورسولُ الله هو العزيز، وأن يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول. فقال ابن أبي ما طلبه منه ابنه، ثم لم يدخل حتى أذن له ﷺ بالدخول بأن أرسل عليه الصلاة والسلام إلى ابنه عبد الله: أن خلّ عنه يدخل، ففعل وسمح له بالدخول[٢٦١٥].

(٢٦١٥) تفسير القرطبي ج١٨ ص١٢٩، تفسير الألوسي ج٢٨ ص١١٥-١١٦، فتح البيان ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة غزوة بني المصطلق
وما وقع فيها

١٣٦٥- التعجيل في مواجهة العدو:

ذكرنا أن النبي ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون الجموع لقتاله، وأنه عليه الصلاة والسلام سار إليهم بجيشه حتى باغتهم على ماء المريسيع. ويستفاد من هذا أن من حسن التدبير والسياسة الحكيمة لولي الأمر في الدولة الإسلامية أن يباغت العدو إذا انكشفت نيته في محاربة المسلمين كأن يجمع لهم جموعه، وهذا إذا كان للمسلمين القوة الكافية للخروج إلى العدو وقتاله والهجوم عليه. أما إذا لم يكن للمسلمين القوة الكافية للقيام بما ذكرنا فعلى ولي الأمر فيهم أن يأخذ خطة الدفاع وعدم الهجوم، كما فعله ﷺ في معركة الخندق حيث حفر الخندق حول المدينة وتهيأ للدفاع عنها، ولم يخرج ﷺ لقتالهم لعلمه بضخامة جيش العدو، وعدم القدرة على ملاقاته وجهاً لوجه. فالمسألة تقديرية متروكة لولي الأمر. فعلى الدعاة بيان ذلك باعتباره من الفقه الشرعي الذي يشمل مختلف شؤون الحياة. كما ينبغي للجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تباغت خصومها، بإفشال خططهم الخبيثة نحوها وذلك بكشف ما يثبت سوء نيتهم وقصدهم الخبيث لإيذاء الدعاة وجماعتهم المسلمة. ولا ينبغي للجماعة المسلمة الانتظار حتى يباشر أعداؤها فعلاً تنفيذ ما يؤذيهم ويلحق الضرر بهم. ويعتبر هذا الكشف من جماعة الدعاة لخطط الاعتداء عليها وعلى أفرادها من نوع الهجوم على العدو قبل أنْ يبدأ هو بالهجوم. كما أن على الدعاة وهم يقومون بتبليغ دعوتهم، إذا شعروا بما يبيت لهم من سوء وكيد، أن يكشفوا ذلك للمسؤولين في منطقتهم، ويبينوا القرائن الدالة على ذلك حتى لا يؤخذ الدعاة على حين غرة، كما لو أراد أحد الدعاة إلقاء محاضرةٍ في منطقة معينة أو في مسجد، علم بأن خصوم الدعوة يبيتون ما يمنع هذه المحاضرة، كأن يجندوا بعض

الجهال للتحرش بالداعي، أو بمنع من يريد الحضور لسماع المحاضرة من دخول مكان إلقائها، فعلى الداعي أخذ ما يلزم لمنع الخصوم من تنفيذ ما يريدون، كأن يخبر المسؤول الإداري أو الأمني في المنطقة بذلك، ليأخذ ما يلزم لمنع حدوث ذلك. أما إذا لم يعلم الداعي من خصوم الدعوة النية على إفشال عمله الدعوي، فعليه أن يأخذ الحيطة من كيدهم بمراقبة من يريد الإخلال بجو المحاضرة ومنعه من ذلك.

١٣٦٦- محاربة العصبية الجاهلية بجميع أنواعها:

المراد بالعصبية الجاهلية اشتراكٌ في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك. والذي كان في الجاهلية من العصبية: العصبية القبلية. ولكن العصبية الممقوته والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها. واستدل على ما أقول بما وقع في غزوة بني المصطلق، وسبق وأن ذكرته وأعيده هنا، وهو عن جابر بن عبد الله، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة - غزوة بني المصطلق - فكسع - أي ضرب برجله - رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ، فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[٢٦١٦] ووجه الدلالة بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادى استعمل اسماً استعمله القرآن وهو «المهاجرين» و«الأنصار». فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكأنه بندائه هذا يريد عونهم؛ لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو «المهاجرة»، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشترك وإياهم بوصف واحداً ومعنى واحد وهو مدلول كلمة «الأنصار». وكان حق الاثنين - إذا كان لا بد من الاستنصار بالغير - أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً. وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها،

(٢٦١٦) تفسير فتح البيان ج١٤ ص١٥١-١٥٢.

سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، مشترك آخر، من بلد أو مذهب أو حرفة أو حزب، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ويقول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم. . » وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا المحق وأن يكونوا معه لا مع المعتدي. مهما كانت صلاتهم بالمحق أو بالمبطل، بالمعتدي أو بالمعتدي عليه. وأن يحققوا المعنى الصحيح الذي صرح به ﷺ بقوله: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل يا رسول ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم».

إن مهمة الدعاة في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولأهميتها البالغة يجب بذل كل جهد ممكن لقلعها من النفوس.

١٣٦٧- رابطة الإيمان تعلو ما سواها من الروابط:

ذكرنا قول المنافق ابن أبي بن سلول: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ يريد بالأعز نفسه وأتباعه، والأذل من أعزه الله وهو رسوله ﷺ، وإن هذه المقالة الخبيثة بلغت عبد الله ابن هذا المنافق، وكان هذا الابن الصالح من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، فأغاظته وأغضبته؛ لأن رسول الله ﷺ أحب إليه من أبيه، ورباطه أعظم وأقوى من رباطه النسبي بأبيه؛ لأن رباطه برسول الله رابطة إيمان وهي تعلو على ما سواه من الروابط ولو كانت رابطة الأبوة، ولهذا استأذن رسول الله ﷺ أن يقتل أباه، فأبى ذلك ﷺ. ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة وقف عبد الله على مداخل المدينة، فلما قدم أبوه ليدخل منعه ابنه، وأقسم بالله أن لا يدخل حتى يعلن بأن رسول الله هو العزيز وأنه هو الذليل، فقالها الأب، ثم لم يأذن له ابنه حتى يأذن له رسول الله ﷺ بالدخول، فلم يسمح له بالدخول حتى أذن له رسول الله ﷺ. فعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم ومن يدعوهم على هذا الولاء لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين، وأن يكون ولاؤهم وبراؤهم على هذا الأساس، فالقريب منهم الولي لهم هو كل مؤمن، والبعيد منهم من كان عدواً لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين وإن كان قريباً منهم نسباً.

١٣٦٨ - المؤمن لا يكون إلا عزيزاً:

العزة تعني الغلبة والقوة، وهي لله أصلاً فهو القوي الذي لا يغلب، ولمن اتصل به وأيده وأعزه من رسوله وللمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. والعزة غير الكبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، العزة معرفة المسلم بحقيقة نفسه وبقيمة وعظيم قدر ما يحمله من معاني الإسلام، ولذلك فهو يكرمها ولا يضعها لأي غرض من أغراض الدنيا. كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها. فعلى الدعاة أن يربوا نفوسهم وأتباعهم على معاني العزة؛ لأنهم موصولون بالقوى العزيز الذي أعزهم بالإسلام، فلا يجوز أن يذلوا أو يشعروا بمهانة لضعفهم وقوة خصومهم، فإن الأسد يبقى شاعراً بأسديته ولو وقع في أسر الصياد، فلا يجوز أن يكون المؤمن أقل إحساساً من هذا الحيوان، إن على الدعاة أن يحسوا بقدر وعظم ما يحملونه من معاني الإسلام التي لا قيمة ولا قدر للإنسان بدونها، فلا تتضعضع ذايتهم أمام الكافر إذا قدر وآلت السلطة إليه، فإن الخنزير يبقى خنزيراً، ويُرَى على أنه خنزير وإن وقف على مكان عالٍ. إن على الدعاة أن يذكّروا المسلمين بأنهم أعزاء ما أعزوا الإسلام وإن الذلة والهوان من حق ونصيب الكافر. وليعلم الدعاة بأن دعوتهم لا يمكن أن يحملها الذليل الذي لا يستشعر في قلبه عزة الإيمان.



الفصل الثاني عشر

حديث الإفك

المبحث الأول

خلاصة قصة حديث الإفك

١٣٦٩- خلاصة حديث الإفك:

في هذه الغزوة، غزوة بني المصطلق، وقعت قصة الإفك، وهي تتعلق بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبما أثاره حولها المنافق عبد الله بن أبي وتبعه في إفكه من تبعه، وخلاصة ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يخرج لسفر أو لغزوة أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بين أزواجه لما أراد الخروج لغزوة بني المصطلق، فخرجت القرعة لها، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وحدث لها في أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن نصره الله على بني المصطلق ما رواه البخاري ومسلم، فلنذكر ما أخرجه البخاري عن عائشة بشأن هذه القصة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها - هي غزوة بني المصطلق - فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أُحْمَلُ في هودجي وأُنزَلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حتى آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقْدٌ لي من جزع ظَفَار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يُرحِّلوني، فاحتملوا هودجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهبُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة هودجي حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية

حديثة السنّ، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد أن استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ. فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي من وراء الجيش فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي. ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهَوَى حتى أناخ راحلته، فوطىءَ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش مُوغِرين في نَحْر الظهيرة وهم نزول(٢٦١٧).
قالت عائشة رضي الله عنها: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبْر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول. قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيبُني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يَرِيبُني ولا أشعر بالشرّ حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المصانع - وكان متبُرَّزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل - وذلك قبل أن تُتخذ الكنف قريباً من بيوتنا. قالت: فانطلقتُ أنا وأم مسطح، فعثرت أم مِسْطح في مِرْطها فقالت: تَعِس مِسْطح، فقلتُ لها: بئس ما قلتِ أتسبين رجلاً شهد بدّراً؟ فقالت أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ، فسلّم فقال: «كيف تيكم(٢٦١٨)؟» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما. قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟

(٢٦١٧) موغرين: أي نازلين في وقت الوغرة وهي شدة الحر. ونحر الظهيرة أي وقت القائلة وشدة الحر.

(٢٦١٨) كيف تيكم: هذه إشارة إلى المؤنث وكذلك إلى المذكر.

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحلُ بنوم ثم أصبحت أبكي. قالت: ودعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه. فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرَةَ فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يَريبكِ؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمراً قط أَغْمِصُه غير أنها جارية حديثة السن تنام على عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي - وهو على المنبر - فقال: يا معشر المسلمين من يَعْذِرُني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعدُ بن معاذٍ فقال: أنا يا رسول الله أَعْذِرُكَ فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أَمْرَك. قالت: فقام رجل من الخزرج وهو سعدُ بن عُبادة وهو سيدُ الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحَمِيَّةُ فقال لسعد بن معاذ: كذبت لَعَمْرُ الله لا تقتُلُهُ ولا تقْدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ وهو ابن عَمِّ سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتُلَنَّه، فإنك منافقٌ تجادل عن المنافقين. قالت فثار الحيّان: الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهمْ حتى سَكَنُوا وسكتَ. قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأُ لي دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أني لأظُنُّ أن البكاء فالق كَبِدي. قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنتِ بريئة فسيُبَرِّئُكِ الله، وإن كنت أَلْممْتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تابَ تاب الله عليه». قالت: فلما قال رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمْعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلتُ

لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً - : إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتُصدِّقُنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحَوّلتُ فاضطجعْتُ على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأنَّ الله مبرِّئي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزّلٌ في شأني وحياً يُتلَى، ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم اللهُ فيَّ بأمْرٍ، ولكن كنتُ أرجو أن يَرَى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبرِّئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنْزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليتحدَّرُ منه العرق مثلُ الجُمانِ - وهو في يوم شاتٍ - من ثِقَلِ القول الذي أُنْزِلَ عليه، قالت: فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحكُ، فكان أول كلمة تكلم بها أَنْ قال: «يا عائشةُ أما الله فقد برَّأَكِ». قالت: فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أَحْمَدُ إلا الله عز وجل. قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . ﴾ العَشْرَ الآيات ثم أنزل الله تعالى هذا في براءَتي (٢٦١٩).

١٣٧٠- تفسير الآيات ببراءة عائشة رضي الله عنها:

جاء في حديث البخاري بشأن حديث الإفك، أن الله تعالى أنزل في براءة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها آيات بينات تُتْلَى إلى يوم الدين، ولما كان في هذه الآيات من التوجيهات والضوابط التي يجب أن يلتزم بها المسلم إذا سمع ما ينبغي له تكذيبه إلى غير ذلك، فقد رأيت تفسير هذه الآيات ثم أتبعها إن شاء الله تعالى بذكر ما يستفاد منها ومن مجمل قصة الإفك.

١٣٧١- أصحاب الإفك لهم ما يستحقون من العقاب:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ

(٢٦١٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٢٩-٤٣٤.

﴿مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٦٢٠].

الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك. والمراد به في الآية ما أُفِكَ به على عائشة رضي الله عنها. والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة. وهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وحسان بن ثابت ومِسْطح بن أُثاثة وحَمْنَةُ بنت جحش وزيد بن رفاعة[٢٦٢١].

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ والخطاب في ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لكل من ساءه من المؤمنين حديث الإفك وخاصة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل. والشر ما زاد ضره على نفعه. والخير ما زاد نفعه على ضره. والخير الخالص الجنة، والشر الخالص هو النار. ومعنى كونه - أي حديث الإفك - خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبيناً ومحنةً ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لعائشة أم المؤمنين وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذنه[٢٦٢٢].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبر هذا الإفك هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فله عذاب عظيم؛ لأن معظم الشر كان منه[٢٦٢٣].

١٣٧٢- المؤمن يظن خيراً فيما يسمعه عن أخيه المؤمن:

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ

(٢٦٢٠) سورة النور الآية ١١.

(٢٦٢١) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧، فتح البيان ج٩ ص١٧٩.

(٢٦٢٢) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧، فتح البيان ج٩ ص١٧٩-١٨٠.

(٢٦٢٣) تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٧.

﴿مُّبِينٌ﴾[٢٦٢٤] هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء، فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ أي هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري، وهو خالد بن زيد الأنصاري، وامرأته، وذلك أنه دخل عليها، فقالت: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةَ ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة خير منك. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ . .﴾ الخ أي هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به. وقيل كان ينبغي لكم بمجرد سماعه أن تحسنوا الظن بأم المؤمنين فضلاً عن أن تتمادوا في سماعه فضلاً عن الإصرار عليه. وهذا الظن ما يتعلق في الباطن أي في قلوب المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن باعثاً على الشك والريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون - على فرض وقوعه وهو مستحيل - خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة[٢٦٢٥]. ويلاحظ هنا أنه لِمَ لَمْ يقلْ: لولا إذ سمعتموهم ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟ ولِمَ عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر؟ فالجواب للمبالغة في التوبيخ بطريقة الالتفات، وللتصريح بلفظ الإيمان، ليدل على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب أو طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة سوء في أخيه المؤمن أو في أخته المؤمنة أن يظن فيهما خيراً ولا يشك

(٢٦٢٤) سورة النور، الآية ١٢.

(٢٦٢٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٣، تفسير ابن عطية ج١٠ ص٤٥٨، فتح البيان ج٩ ص١٨٣.

السوء فيهما، وأن يقول بناء على ظنه بالمؤمن أو المؤمنة الخير: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ هكذا باللفظ الصريح المصرح ببراءة ساحته وساحتها، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الإسلامي الرفيع الذي قلَّ القائم به والحافظ له، بل وقلَّ من يسمع مقالة السوء عن أخيه أو أخته فيسكت ولا يشيع ما سمعه[٢٦٢٦].

١٣٧٣- الذين جاؤوا بالإفك كذبة:

قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[٢٦٢٧] أي هلا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي على ما قالوه في أم المؤمنين ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك في حكم الله كاذبون فاجرون[٢٦٢٨].

١٣٧٤- لولا فضل الله لعذب الخائضين في الإفك:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٦٢٩] أي لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة، أيها الخائضون في شأن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم؛ لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ولكن الله تعالى واسع الفضل والرحمة يمهل المذنب للتوبة، ويحلم عنه فلا يعاجله بالعقوبة للأوبة، أي لأوبته إلى الله تعالى. قال ابن كثير: وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش. فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه[٢٦٣٠].

(٢٦٢٦) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢١٨.

(٢٦٢٧) سورة النور الآية ١٣.

(٢٦٢٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢٦٢٩) سورة النور، الآية ١٤.

(٢٦٣٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير القاسمي ج١٢ ص١٤٦.

وقال الألوسي: والخطاب - أي في هذه الآية - لغير ابن أبي من الخائضين، وجوز أن يكون الخطاب لهم جميعاً. ويُعقَّبُ بأن ابن أبي رأس المنافقين لاحَظَّ له من رحمة الله تعالى في الآخرة؛ لأنه مخلد في الدرك الأسفل من النار(٢٦٣١).

١٣٧٥- وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾(٢٦٣٢). قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان: كذا وذكر بعضهم كذا، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن التي تتكلون عنها زوجة رسول الله ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يُقَدِّر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة؟ وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض» وفي رواية: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوى به في النار»(٢٦٣٣).. الخ. وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له، فقال: أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم(٢٦٣٤).

(٢٦٣١) تفسير الألوسي ج١٨ ص١١٨.

(٢٦٣٢) سورة النور الآية ١٥.

(٢٦٣٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤.

(٢٦٣٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٠.

١٣٧٦ - تأديب آخر للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٦٣٥] وهذا تأديب آخر بعد التأديب الأول الآمر بظن الخير، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول بشأن الأخيار فينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يكون في نفسه غير ذلك، فإن علق في نفسه شيء من الظن السيء وسوسةً أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» أخرجاه في الصحيحين. ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ » أي كان ينبغي عليكم، أيها المؤمنون، أن تنكروه ولا تتكلموا به ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن نقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان عظيم. وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه[٢٦٣٦].

١٣٧٧ - التحذير من العود لمثل ما وقع منهم من إفك:

قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٦٣٧] أي ينهاكم الله تعالى متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي فيما يستقبل إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله ﷺ. وفي قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تهييج لهم ليتعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود لمثل ما وقع منهم، وهو اتصافهم بالإيمان الذي من شأنه الصدّ عن كل قبيح. ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكم القدرية. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يصلح عباده حكيم في شرعه وقدره[٢٦٣٨].

(٢٦٣٥) سورة النور، الآية ١٦.

(٢٦٣٦) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير القرطبي ج١٢ ص٢٠٥.

(٢٦٣٧) سورة النور الآيتان ١٧، ١٨.

(٢٦٣٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٤، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

١٣٧٨- تأديب ثالث وتحذير:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٦٣٩] وهذا تأديب ثالث وتحذير لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه، وتكلم به فليقطع كلامه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يختارون ظهور الكلام القبيح عنهم، ويشيعون الفاحشة في الذين آمنوا عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي بالحد الشرعي ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ ولهم عذاب الله في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما في القلوب من الأسرار والضمائر، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أنه تعالى قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو تعالى معاقبه عليها. وفي حديث أخرجه الإمام أحمد: أن النبي ﷺ قال: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»[٢٦٤٠].

١٣٧٩- لولا فضل الله لعجل لهم العقاب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٦٤١] كرر الله تعالى المنّة بترك المعاجلة بالعقاب لأولئك الذين جاؤوا بالإفك. فلولا فضل الله تعالى الذي منع التعجيل بالعقاب لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، قضية الإفك، وطهرّ من طهرَّ منهم بالحدّ الشرعي الذي أقيم عليهم[٢٦٤٢].

١٣٨٠- فليعفوا وليصفحوا:

كان من الذين وقعوا في الخطيئة، وشاركوا في الإفك مسطح بن أُثاثة، وكان من أقارب أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره، فلما أنزل الله آيات في براءة

(٢٦٣٩) سورة النور الآية ١٩.

(٢٦٤٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

(٢٦٤١) سورة النور الآية ٢٠.

(٢٦٤٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢١.

عائشة حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح؛ لاشتراكه في الإفك الذي رميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢٦٤٣).

يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الألية وهي الحلف، أي لا يحلف ﴿ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ أي أهل الطول والصدقة والإحسان والسعة في المال ﴿ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكينِ والمهاجرين. وهذا في غايةِ الترفق والعطف على صلة الأرحام. ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى. وهذه الآية، كما قلت، وأشار إليه المفسرون، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح ولا ينفعه بنافعة أبداً بعدما قال في عائشة رضي الله عنها ما قال، وهو قريبه وابن خالته. فلما أنزل الله براءة عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحدّ على من أقيم عليه، شرع الله تبارك وتعالى بعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق كما قلت، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحدّ عليها، وكان الصدّيق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ما أذنبت في حقه تعالى، وكما تصفح عمن أساء إليك يصفح الله عنك، فعند ذلك قال أبو بكر الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً(٢٦٤٤). وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها ما ذكره المفسرون، إلا

(٢٦٤٣) سورة النور، الآية ٢٢.

(٢٦٤٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٧٥-٢٧٦، تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٢.

أنها عامة يتناول حكمها جميع الأمة إلى يوم القيامة بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة، فيحلف ألا ينفع أولى أرحامه الفقراء ونحوهم، وإنما عليه أن يحسن إليهم وإن أساؤوا إليه، أو كانت بينه وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعف عنهم وليصفح وليفعل بهم مثل ما يرجوا أن يفعل الله به من العفو والصفح[٢٦٤٥].

(٢٦٤٥) تفسير الزمخشري ج٣ ص٢٢٢، تفسير القرطبي ج١٢ ص٢٠٧.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة الإفك
للدعوة والدعاة

١٣٨١- الحذر من المنافقين:

على الدعاة وجماعتهم المسلمة الحذر من المنافقين، الذين يعرفون من خلال صفاتهم وأقوالهم، لما فيها من تشكيك بوعد الله أو تثبيط همم المؤمنين، أو غير ذلك. قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٢٦٤٦] أي في فحواه ومعناه وإن لم يصرح به[٢٦٤٧]. أي يُعَرف المنافقون فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، لأن المتكلم يعرف من أي الحزبين هو: أَمِنْ حزب المؤمنين أم من حزب المنافقين. يعرف ذلك منه بمعاني كلامه وفحواه، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسّر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٢٦٤٨]. ووجه الحذر منهم التفطن لما يريده المنافق من إشاعة الفرقة والتهم بين المؤمنين، وإيقاع الشر فيما بينهم، واتهام الأخيار والقادة فيهم، وتأثر بعض المؤمنين بمقالة المنافق، ونشرها ونقلها وإشاعتها كما حصل في حديث الإفك. وليعلم الدعاة وجماعتهم أن تجمعهم الإيماني لا يجعلهم في نجوة وصيانة من التأثر بمقالات أهل النفاق وقيام بعضهم بنقلها، وإن كانوا ليسوا منافقين، كما فعل بعض المؤمنين الذين تأثروا بمقالة أهل الإفك. ففي مجتمع الصحابة الكرام وهو المجتمع الإيماني، وجد فيه من يسمع للمنافقين ويتأثر بأقوالهم. قال تعالى عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ

(٢٦٤٦) سورة محمد الآية ٣٠.

(٢٦٤٧) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٥٢.

(٢٦٤٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٠.

لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2649] وقوله تعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي فيكم أيها المؤمنون نمامون يسمعون حديثكم، فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون المنافقين ويطيعونهم[2650]، فعلى الدعاة الكشف عن مكائد المنافقين، وتحذير إخوانهم وأنصارهم من هذه المكائد.

١٣٨٢ - المؤمن قد يقع في الخطيئة:

وعلى الدعاة أن يعلموا أن المؤمن قد يقع في الخطيئة، كما وقع بعض المؤمنين في جريمة الإفك المتعلقة بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مع علو مقامها ومنزلتها من رسول الله ﷺ، فليحذر الدعاة من الوقوع بمثل ما وقع فيه أصحاب الإفك، كما لو صدقوا أهل النفاق في طعنهم بعرض أو بسيرة أمير جماعتهم متعلقين بالشبهات التي يثيرها خصوم الدعوة، كاتهام أميرهم بالعمالة للأجنبي، لكونه رؤي يتكلم مع بعض أعداء الدعوة أو يختلي به، أو يزوره في سفارة بلاده، وما إلىٰ ذلك.

١٣٨٣ - الظن الحسن بالمؤمنين:

من ضوابط الأخوة الإيمانية الظن الحسن فيما بين المؤمنين، فلا يجوز حمل ما يصدر عن المؤمن محملاً سيئاً مع إمكان حمله على المحمل الحسن، وإذا كان هذا الضابط مطلوباً شرعاً بين عموم المؤمنين، فهو مطلوب طلباً آكد وأشد بين الدعاة أعضاء الجماعة المسلمة، فلا يجوز تأويل تصرفات الداعي من قبل إخوانه الدعاة تأويلاً سيئاً لا يليق به، ولا يتفق وكونه داعية إلى الإسلام. إن خصوم الدعوة يسعون إلى إشاعة سوء الظن فيما بين أعضاء الجماعة المسلمة من الدعاة وأنصارهم بما يلفقوته من اتهامات، ويزعمونه من أحداث ينسبونها إلى هذا أو ذاك من الدعاة. فعلى الدعاة أن يحصّنوا أنفسهم ضد هذا الأسلوب بالضوابط التي أشار إليها القرآن في حديثه عن أهل الإفك، وهذه الضوابط هي:

(٢٦٤٩) سورة التوبة الآية ٤٧.

(٢٦٥٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٧٧.

١٣٨٤- ضوابط الوقاية من تلفيقات أعداء الدعوة:

الضابط الأول - الظن الحسن فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين الدعاة، وأن يتذكر قوله تعالى في تحذيره للمؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

الضابط الثاني - لا يكفي الظن الحسن في القلب بالنسبة لما يسمعه عن إخوانه الدعاة من أقوال السوء، وإنما عليه أن ينفيه بلسانه ويصرح بهذا النفي، لأن المنكر الظاهر يدفع بشيء ظاهر.

الضابط الثالث - ولا يكفي الظن الحسن والتصريح بنفي وإنكار مقالة السوء، بل على الداعي أن لا يسمح بتسرب شيء إلى نفسه مما يخالف الظن الحسن، وإذا حصل شيء من ذلك في نفسه فلا يجوز أن يتكلم بهذا، بل يردد بلسانه حتى يسمع نفسه وغيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

الضابط الرابع - أن يبعد الداعي عن نفسه أي ميل أو محبة أو رغبة في إشاعة الفاحشة، ونهش الأعراض، واتهام الغافلين المؤمنين، ويعرف من نفسه حصول شيء مما ذكرنا فيها، إذا شعر بلذة في سماع أقوال السوء، أو رغبة في ترديدها، أو في قوله سمعت كذا وكذا من مقالة السوء، وليتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٣٨٥- على الدعاة أن يروا في تلفيقات الأعداء خيراً لهم:

ولا يجوز أن تثبط تلفيقاتُ أعداء الدعوة هممَ الدعاة، ولا تضعف عزائهم، وأن لا يحدقوا وينظروا فقط إلى ما في هذه التلفيقات من أذى لهم وضرر عليهم، بل عليهم أن يبصروا من خلالها جانب الخير والمصلحة لهم المتمثلة بالأجر العميم، وبنصرة الله لهم وبتوعد أعداء الدعوة. وليتذكر الدعاة قول الله لرسوله وللمؤمنين الذين تأذوا بحديث الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾.

١٣٨٦- احتمال وقوع أي تلفيق أو اتهام للدعاة:

ومما يجب أن يعرفه الدعاة وجماعتهم المسلمة معرفة جيدة، احتمال اتهامهم واتهام أميرهم ومن ينتسب إليهم بأي اتهام باطل، وإن كان ظاهر البطلان، ودليلنا على ذلك اتهام أم المؤمنين بما هي بريئة منه، بالرغم من القرائن القاطعة على براءتها واستحالة وقوع ذلك منها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا غرابة في اتهام أعداء الدعوة الدعاة بأي اتهام باطل غير مستساغ ولا مقبول ولا معقول، لأنهم لا يقيمون اتهاماتهم على أساس من الحق أو المنطق أو الواقع، إن قصدهم أن يقولوا السوء ويمضوا، ويأتي أنصار الشر ومحبو إشاعة الفاحشة فيكملوا ما بدؤوه، فعلى الدعاة مواجهة هذه الحالة، وتفقيه الدعاة والأنصار بهذا النهج والأسلوب، وليذكروهم بالحكمة التي تقول: «من يسمع يخل» أي من يسمع الباطل أو التلفيقات يقع في قلبه ظن الصدق بالمسموع، كما يذكروهم بقصة الإفك ففيها العبرة والتذكير.

١٣٨٧- إشاعة العفو والصفح بين الدعاة:

وعلى الدعاة وجميع أعضاء الجماعة المسلمة إشاعة حب العفو والصفح فيما بينهم، فيصفح بعضهم عن بعض إذا صدرت منه الإساءة أو التقصير، فإن الشأن بالأخ الصفح والعفو عن أخيه، وليتذكروا بأن الجزاء من جنس العمل، فإذا عفوا عن المسيء إليهم، جازاهم الله بالعفو عن زلاتهم وذنوبهم، وليتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ. . .﴾.

١٣٨٨- المؤمن يرى ذنوبه كالجبال:

وعلى الدعاة أن ينظروا إلى ذنوبهم مهما صغرت كأنها جبال توشك أن تقع عليهم، وأن لا يستهينوا ولا يستصغروا أي ذنب، وأن يعلموا بأن الأقوال كباقي الذنوب، وأن خطورتها عظيمة جداً لسهولة النطق بها، فليحذر الدعاة من زلات اللسان ومن النطق بما يسخط الله، أو يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فرب كلمة لا يلقي قائلها لها بالاً تهوى به في جهنم، وهل أهلك أهل الإفك إلا كلامهم الباطل واتهامهم الآثم لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وليتذكر الدعاة خطر الكلمة تقال

في سخط الله، حتى لا يتكلموا إلا بخير. فقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وقوله: «ما يتبين فيها»: أي ما يتفكر هل هي خير أو شر. وروى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه إلا أنهما قالا في روايتهما: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً»[٢٦٥١].

(٢٦٥١) المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري ج٢ ص٨٥٣.



الفصل الثالث عشر

قصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش

المبحث الأول

خلاصة القصة

١٣٨٩ - خلاصة القصة:

زينب بنت جحش بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة الذي سبق وأن أعتقه وتبناه قبل النبوة، وكان التبني نظاماً شائعاً قبل الإسلام، وبقي نافذاً برهة بعد الإسلام. وكان من جملة أحكام هذا النظام أن المُتبنَّى يصير ابناً للمُتبنِّي لا فرق بينه وبين ابنه الصلبي، وبالتالي ما كان جائزاً في عرف الجاهلية بموجب هذا النظام أن يتزوج المُتبنِّى زوجة من تبناه إذا فارقها بطلاق أو موت، كما هو الحكم النافذ بالنسبة لزوجة الابن الصلبي لا يجوز لأبيه أن يتزوج امرأته إذا فارقها بطلاق أو وفاة، ولما أبطل الله التبني أراد تعالى إبطال أحكامه ومنها حرمة نكاح المتبني زوجة من تبناه بعد فراقه إياها، وأن يتولى رسوله ﷺ هذا الإبطال بنفسه، وذلك بأن يتزوج ﷺ زوجة زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه كما قلنا، وكان يُسمَّى بناء على هذا التبني: زيد بن محمد. فلما أبطل التبني وأنزل الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ قال زيد عن نفسه: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول، أنا زيد بن محمد. وخطب ﷺ بنت عمته زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فتمنعت وأخوها في أول الأمر أن تتزوجه ثم رضيت كما سنبينه. ويفهم من قول أهل التفسير أن هذا الزواج كان بعد إبطال نظام التبني[٢٦٥٢]. ثم بعد هذا الزواج طلقها زيد، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى؛ ليبطل بهذا الزواج أحكام التبني الذي أبطله الله.

(٢٦٥٢) تفسير فتح البيان ج١١ ص٩٦.

١٣٩٠- ما نزل من القرآن بشأن إبطال التبني:

قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢٦٥٣] أي ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجية وأمومة في امرأة، ولا بنوة ودِعوّة - أي بنوة بالتبني - في رجل. والمعنى: إن الله تعالى كما لم يرَ في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لم يرَ أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أماً لرجل وزوجاً له، كما لم يرَ تعالى أيضاً أن يكون الرجل الواحد دَعِيّاً لرجل - أي ابناً له بالتبني - وابناً صلبياً له، لأن البنوة الحقيقة أصالة في النسب، والدِعوّة إلصاق عارض بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً وغير أصيل. وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، الذي سُبِي وهو صغير، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، فلما تزوجها رسول الله ﷺ قبل النبوة وهبته له، فأعتقه وتبناه وكان يُسمَى زيد بن محمد؛ لاعتيادهم نظام التبني، ثم تركوا على هذا النظام بعد الإسلام برهة، ثم أنزل الله هذه الآية إبطالاً لنظام التبني. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي النسب الذي تريدون إثباته لمن تتبنونه هو ﴿ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ﴾: هذا ابني لا غير، ولكن هذا القول لا حقيقة له، فلا يقتضي دعواكم ذلك، أن يكون ابناً حقيقياً لمن ادعاه، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي الثابت المحقق في نفس الأمر ﴿ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل الحق[٢٦٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ﴾ أي انسبوهم إليهم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي أعدل وأحكم، ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ أي فتنسبوهم إليهم ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ أي فإخوانكم في الدين ومواليكم فيه، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي ويا مولاي. ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿ فِيمَآ

(٢٦٥٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٤، ٥.

(٢٦٥٤) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٢٠.

﴿أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة، مخطئين بالسهو أو بالنسيان أو سبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه. ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ففيه الجناح والإثم، لأن من تعمد الباطل كان آثماً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لعفوه عن المخطىء[٢٦٥٥].

١٣٩١- زينب ترضى بزواجها بزيد بعد تمنع:

خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب لزيد بن حارثة فأبت، لكونه مولى لا يماثلها في الشرف، وكذلك أبى أخوها عبد الله، فنزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢٦٥٦] وقالت هي وأخوها: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها[٢٦٥٧]. ومعنى الآية: وما صح لرجل ولا لامرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل من واجبهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ واختيارهم تبعاً لاختياره[٢٦٥٨]. وقال بعضهم: إنما اعتبرت الآية الكريمة إباءها النكاح من زيد عصياناً للرسول ﷺ لما خطبها لزيد، وكأنه أرغمها على زواجه، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك وهو هدم تحريم زوجة المُتبنَّى على المُتبنِّي. وقال بعض آخر من أهل العلم: الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب، ولكن يحتمل أن تكون لا بطريق الوجوب، ولكن مخالفة قوله ﷺ يعتبر معصية لكونه قول الله في الحقيقة[٢٦٥٩].

وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

(٢٦٥٥) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٢٥، ٢٢٧.

(٢٦٥٦) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٢٦٥٧) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٣٩، وتفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٣.

(٢٦٥٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٥٤٠.

(٢٦٥٩) تفسير القاسمي ج٣ ص٢٦١.

حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(٢٦٦٠).

١٣٩٢- زيد يشتكي زينب عند رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ..﴾(٢٦٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وهو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي بالعتق من الرق، ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي زينب بنت جحش وذلك أنها كانت ذا حدة، ولا زالت تغمز على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره، فجاء - رضي الله تعالى عنه - يوماً إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتدَّ علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها. فقال له عليه الصلاة والسلام: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها ولا تطلقها ضراراً وتعللاً بتكبرها واشتداد لسانها عليك. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تقول له: أمسك عليك زوجك، وتخفي في نفسك ما أعلمك الله به بأن زيداً سيطلقها، وأنها ستكون من أزواجه. فهذا هو الذي كان يخفيه في نفسه ولكنه ﷺ فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف، فعاتبه الله تعالى على قوله: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمه الله بأنها ستكون زوجته. ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تخفي في نفسك ما الله مظهره، وهذا التفسير للآية هو الذي يجب المصير إليه، وما قيل خلافه غير صحيح، لأن الآية صريحة في أن الله تعالى سيظهر ما كان يخفيه في نفسه من أنها ستكون زوجة له بعد أن يطلقها زيد، وهذا هو الذي أظهره وأوقعه وهو تزويجها منه ﷺ، فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ كما سنبينه بعد قليل. فلو كان الذي أخفاه وأضمره ﷺ غير ذلك، لأظهره الله تعالى، لأنه لا يجوز أن يخبر الله أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب ﷺ على إخفاء ما أعلمه من أن زيداً سيطلقها، وستكون زوجته ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾

(٢٦٦٠) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٠.

(٢٦٦١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

أي تخاف أو تستحي أن تقول لزيد: طلقها، حتى تتزوجها كما أعلمك الله بذلك خشيةً أو حياءً من قول الناس أنَّ محمداً تزوج حليلة (زوجة) ابنه. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر فتفعل ما أباحه لك. فالعتاب على قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ مع علمه بإعلام الله له أن زيداً سيطلقها ويتزوجها هو ﷺ بعده، وهو عتاب على ترك الأولى، حيث كان الأولى في مثل تلك الحال أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأي زيد رضي الله تعالى عنه، ولكنه لم يفعل خشيةً من قالة الناس.

قالت عائشة وأنس، لو كان رسول الله يخفي شيئاً مما أنزله الله عليه لأخفى هذه الآية، ولكن حاشاه من ذلك. فقد بلَّغ ﷺ كل ما أنزله الله عليه حتى ما فيه عتاب له(٢٦٦٢).

١٣٩٣- تزويج الله نبيه عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾(٢٦٦٣). وقضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وطراً منه: إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه، والمراد هنا أنه - أي زيد - قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته وطابت عنها نفسه، وقيل المراد به الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، فقضاء الوطر كناية عن الطلاق، وقوله تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ أي بعد أن طلقها زيد وانقضت عدتها جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد أصالة أو وكالة، فقد صحَّ من حديث البخاري وغيره أنها رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنّ أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات. فمعنى ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ أي لم نحوجك إلى ولي من الناس بعقد لك عليها تشريفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن

(٢٦٦٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٠-٤٩١، تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٣-٢٤، تفسير ابن عطية ج١٢ ص٦٩- ٧١، تفسير فتح البيان ج١١ ص٩٤- ٩٧.

(٢٦٦٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

ولا عقد ولا مهر وهذا من خصوصياته[٢٦٦٤].

١٣٩٤- تعليل تزويج الله نبيه بزينب:

قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[٢٦٦٥] أي تزويج الله نبيه ﷺ بزينب لكي لا يكون على المؤمنين ضيق ومشقة ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ أي في التزوج بأزواج من يجعلونه ابناً، كما كانت تفعله العرب في الجاهلية، حيث كانوا يتبنون من يريدون ويعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه، كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعي وهو الذي يُدعَى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فأخبرهم الله تعالى أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي إذا طلقهن الأدعياء وانقضت عدتهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، واستدل بهذه الآية على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام يثبت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام بدليل ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالة[٢٦٦٦].

١٣٩٥- لا حرج على رسول الله ﷺ فيما أحلّ الله له:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٢٦٦٧].

والمعنى: ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له أي فيما أحلَّ له وأمره به من تزوجه بزينب رضي الله عنها التي طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبل محمد ﷺ، لم يكن يأمرهم الله تعالى بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌ على من توهم من المنافقين نقصاً في زواجه ﷺ بامرأة زيد - الذي سبق وأن تبناه - بعد

(٢٦٦٤) تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٥-٢٦، تفسير فتح البيان ج١٢ ص٩٦-٩٧.

(٢٦٦٥) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

(٢٦٦٦) تفسير الألوسي ج٢٢ ص٢٦، فتح البيان ج١٢ ص٩٦-٩٧.

(٢٦٦٧) سورة الأحزاب الآية ٣٨.

أن طلقها، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن(٢٦٦٨).

١٣٩٦- ثناء الله على الأنبياء السابقين:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(٢٦٦٩).

مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده وخشيته في كل قول وفعل ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا يخافون إلا الله وحده، ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم فيما أحلّ الله لهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه وتعالى. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظاً لأعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء(٢٦٧٠).

١٣٩٧- ما كان محمد أبا أحد من رجالكم:

ولما قال بعض عن محمد ﷺ: تزوج امرأة ابنه زيد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(٢٦٧١).

قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ هذا دفع وردٌ لمن قال بجهل أو بسوء قصد: تزوج محمد ﷺ زوج ابنه زيد، فدفعه تعالى بأنه إنما يُتصَّور لو كان ﷺ أباً لزيد على الحقيقة، لكنه ليس أباً لزيد على الحقيقة، وليس أباً لأحد من أصحابه حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمه المصاهرة والنكاح، وزيد واحد منهم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمهم. ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكنه عليه الصلاة والسلام رسول الله ومبلغَ رسالته ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهذا نعته وهذه صفته، فليس هو في حكم الأب الحقيقي، وإنما ختمت النبوة به، لأن الله

(٢٦٦٨) تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٩٢.

(٢٦٦٩) سورة الأحزاب الآية ٣٩.

(٢٦٧٠) فتح البيان ج١٢ ص١٠٠.

(٢٦٧١) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

شرع له من الشرائع ما يفي بحاجات الناس في جميع الأمكنة والأزمنة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ أي فلا يقضي إلا بما سبق به علمه ونفذت فيه مشيئته، واقتضته حكمته[٢٦٧٢].

وكان زواجه ﷺ بزينب في السنة الخامسة للهجرة، وهي أول من ماتت بعد النبي ﷺ ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنه[٢٦٧٣].

(٢٦٧٢) تفسير القاسمي ج١٣ ص٢٦٦.
(٢٦٧٣) فتح البيان ج١٢ ص٩٧.

المبحث الثاني
المستفاد من قصة زواج
زينب بنت جحش

١٣٩٨- الأمير هو القدوة لأتباعه فيما يدعو إليه:

رأينا أن النبي ﷺ تولى بنفسه الكريمة إبطال آثار التبني بزواجه بامرأة زيد الذي كان قد تبناه بعد أن طلقها على النحو الذي بيناه، وبذلك زال الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج أدعيائهم إذا فارقوهم بموت أو طلاق على النحو الذي فصلناه. فعلى أمير جماعة الدعاة أن يقوم فعلاً بما يدعو إليه، أو بما يريد تقريره وإحداثه في الجماعة، أو بما يريد إبطاله، ليكون قدوة لأتباعه، ولئلا يقول ما لا يفعل، وكذلك على الدعاة أنفسهم أن يكونوا قدوة عملية فيما يدعون الناس إليه، أو فيما يدعون إليه أنصارهم ومحبيهم، ولهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ.

١٣٩٩- من أدلة النبوة:

وعلى الدعاة أن يجعلوا من قصة زواج النبي ﷺ بزينب دليلاً من أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك أنه ﷺ لو لم يكن رسولاً يبلغ عن ربه ما يوحي إليه لما ذكر الآيات المتعلقة بقصة زينب ومنها قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فهذا دليل واضح على أنه رسول الله ومبلغ ما ينزله الله عليه من آيات، وقد أشارت إلى شيء من هذا عائشة رضي الله عنها وأنس حيث قالا: لو كان محمد كاتماً شيئاً مما أوحاه الله إليه لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا هذه الآية. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك، ليزداد المسلم يقيناً بأن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، وليكون هذا البيان أيضاً حجة من الحجج الكثيرة يقدمها الدعاة للشاكين والمرتابين بنبوة محمد ﷺ.

١٤٠٠- بيان العلة والحكمة في زواج النبي بزينب:

وعلى الدعاة أن يبينوا حيث يحتاجون إلى هذا البيان، أن زواج محمد ﷺ بزينب وهي ابنة عمته كان لما ذكره الله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ..﴾ فكل قول في تعليل هذا الزواج المبارك غير الذي ذكره هو تعليل باطل ومردود ولا يلتفت إليه وإن ذكر في بعض التفاسير، فكل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله ﷺ. وكذلك ما ينفثه المستشرقون من باطل حول زواج محمد ﷺ هو من أقوالهم الباطلة الكثيرة التي قد تروج على الجهال، فكل ما ورد بشأن زواج زينب بزيد أولاً ثم بسيدنا محمد ﷺ ثانياً هو الحكمة التي ذكرها القرآن وهي تأكيد إبطال نظام التبني، وتأكيد إبطال آثاره، ومنها ما كانوا يعتقدونه من حرمة زواج المُتبنِّي بزوجة من تبناه إذا فارقها بطلاق أو موت.

١٤٠١- الطاعة المطلقة لله ولرسوله:

وعلى الدعاة أن يربوا أنفسهم وأتباعهم على الطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ، وإن اقتضت هذه الطاعة المطلقة ما تهواه النفس، فقد ذكرنا كيف أن زينب بنت جحش وأخاها عبد الله كرها أن تتزوج زيد بن حارثة بعد أن عرض عليها النبي ﷺ هذا الزواج وأظهرا تمنعهما، ولكن لما أنزل الله تعالى قوله العزيز: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، قالت زينب وأخوها: رضينا يا رسول الله. وسنة نبينا ﷺ قائمة مقامه، فكأنه ﷺ يكلمنا بها فيأمرنا وينهانا، فعلينا وعلى الدعاة أن يعملوا بها ويتبعوها مستشعرين كأن النبي ﷺ يخاطبنا ويخاطبهم بها. وطاعة الرسول هي من طاعة الله، فلا يجوز أن يكون للمسلم ولا للداعية أي رأي أو قول أو اختيار مع ما يأمر به أو يرشد إليه أو ينهى عنه ﷺ، ويشمل ما أقول سنته في نشر الدعوة وتبليغها، والعمل الدعوي للجماعة وما يستلزمه من تأمير أمير على الجماعة، ومنهج تسير عليه، وطاعة لهذا الأمير ومشاورة منه لهم.

١٤٠٢- لا اعتبار للعرف إذا عارض شرع الله:

ويلاحظ أن السيدة زينب بنت جحش في إبائها الأول خطبة رسول الله ﷺ لها

لزيد بن حارثة، كان هذا الإباء منها مرده اعتياد الناس على مراعاة اعتبارات النسب والمنزلة الاجتماعية، فزينب رأت أنها أعلى شرفاً ونسباً من زيد، فلم ترغب في زواجه، ولم تعتقد أن طلب النبي ذلك منها هو طلب إلزامي، فسوغت لنفسها الرفض ثم رضيت لما نزل قول الله الذي ذكرناه فعلمتْ أنَّ خطبتها من قبل النبي ﷺ لزيد يرقى إلى درجة الإلزام، الذي لا يسعها مخالفته فرضيت، مما يدل أن على المسلم أن لا يلتفت إلى ما يعتاده الناس إذا كان في هذه المراعاة معارضة لشرع الله.
إن على الدعاة أن يحملوا نفوسهم على هذا، فاستمساكهم في تصرفاتهم وفي أعمال دعوتهم تكون حسب شرع الله، شرع الإسلام، ولا يراعوا عادات الناس وأعرافهم إلا إذا لم تعارض أحكام الإسلام، فإذا عارضتها لم يلتفتوا إليها، ومن ذلك على سبيل المثال الترفع عن الفقراء والمساكين إذا اعتاده الناس، فالداعي لا يأخذ بذلك، لأن شرع الله في الدعوة ومتطلباتها تقتضي خلاف ذلك، وليتذكر الداعي سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وعتاب الله لرسوله ﷺ في هذه السورة.



الفصل الرابع عشر

قصة غزوة الحديبية (صلح الحديبية)

١٤٠٣- تمهيد:

رأيت في بحث غزوة الحديبية، أو صلح الحديبية كما يسمى في بعض الأحيان، أن أبدأ بإعطاء موجز عنها ثم أُتبع هذا الموجز بذكر آيات القرآن المجيد التي نزلت بشأنها مع تفسير لهذه الآيات.

ثم أُتبع ذلك ببيان ما يستفاد من أحداث وقعة الحديبية للدعوة والدعاة.

المبحث الأول

موجز غزوة الحُدَيْبِيَة[٢٦٧٤]

١٤٠٤- خروج النبي ﷺ إلى العمرة:

يوم الاثنين مستهل ذي العقدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء العمرة؛ ومعه ما يقرب من ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار ومن لحقهم من الأعراب، واستخلف على المدينة نُميلة بن عبد الله الليثي، وأحرم ﷺ والمسلمون معه بالعمرة، وساق معه الهدي إيذاناً للناس بأنه خرج للعمرة لا لحرب ولا قتال.

١٤٠٥- وصول خبر خروج النبي ﷺ إلى قريش:

ولما وصل ﷺ والمسلمون معه إلى عُسْفَانَ - وهي قرية على بعد مرحلتين من مكة - لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش سمعت بمسيرك فخرجت بجيشها تمنعنك من دخول مكة وقد نزلوا بذي طُوى، وقد سبقهم خالد بن الوليد بخيله ومن معه من الفرسان ونزل قريباً من عُسْفان.

١٤٠٦- تحويل النبي ﷺ طريق سيره:

وقد غيَّر النبي ﷺ طريق سيره فلم يسلك الطريق المألوف؛ لئلا يصطدم بجيش قريش ولا بمقدمته جماعة خالد بن الوليد، ولما وصل الحديبية نزل ﷺ ومن معه فيها. والحديبية اسم لبئر فيها، ويحدث عنها البراء - كما يرويه البخاري - بقوله: فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا

(٢٦٧٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٤٢٩-٤٥٨، وج٨ ص٥٨١-٥٨٩، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٣٥-١٤٥، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ج٢ ص٣٢٥-٣٥١، السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٣٤-٤٥٣، الرحيق المختوم ص٣٠٨-٣١٨.

بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا. أي إنهم رجعوا عنها وقد رووا هم وركابهم أي إبلهم.

١٤٠٧- رسل قريش إلى النبي ﷺ:

ورأت قريش منع رسول الله ﷺ والمسلمين من دخول مكة متظاهرة بالعزم على ذلك وتنفيذه ولو بالقتال، ولكنها بدأت بإرسال مندوبيها إلى النبي ﷺ يستجلون حقيقة موقفه والغرض من مجيئه، وإعلامه بتصميم قريش على منعه، وكان من رسلها عروة بن مسعود الثقفي وهو رجل قدير على التفاوض، وتطمئن قريش إليه وإلى فطنته وشخصيته ورأيه، فلما أتى إلى رسول الله ﷺ أخبره كما أخبر من جاء من قبله من مندوبي قريش، بأنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً، فرجع عروة إلى قريش وأخبرها بما أجابه به رسول الله ﷺ، وقال لهم: يا معشر قريش لقد جئت كسرى وقيصر والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، فهم لا يسلمونه لشيء أبداً، فأذنوا له بالعمرة ودخول مكة. فقالت قريش: لا تكلم بهذا، ولكننا نرده عامنا هذا ويرجع في عام قابل.

١٤٠٨- النبي ﷺ يرسل عثمان بن عفان إلى مكة:

ورأى النبي ﷺ أن يرسل إلى قريش يخبرهم بما جاء من أجله خشية أن رسل قريش لم يخبروها بحقيقة جواب النبي ﷺ، فدعا عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة، فاعتذر وقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي - عشيرته - من يحميني. وعثمان بن عفان أَعزُّبها مني فأرسله، فقبل منه ﷺ اعتذاره واستحسن رأيه، فدعا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرسله إلى أهل مكة ليخبرهم بغرض رسول الله ﷺ من المجيء: وهو زيارة الكعبة وأداء العمرة، ولم يأتِ والمسلمون للحرب، وأمره أيضاً أن يبشر المستضعفين من المؤمنين بالفتح قريباً وأن الله سيظهر دينه. ودخل عثمان مكة فعلاً، وأخبر زعماء قريش بما أمره به ﷺ وهو أنه قد جاء للعمرة لا للقتال، وقد قالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

١٤٠٩- بيعة الرضوان:

احتبست قريش عثمان، وبلغ النبي ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل، فقال ﷺ: لئن كانوا قتلوه لأناجزنهم. فدعا المسلمين إلى البيعة، فجاؤوه وهو ﷺ نازل تحت الشجرة التي كان يستظل بها. فبايعوه على القتال وعلى أن لا يفروا. ولما تمت البيعة للحاضرين ضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه لعثمان». وهذه البيعة تسمى ببيعة الرضوان، وأنزل الله فيها قرآناً نذكره فيما بعد إن شاء الله.

١٤١٠- توجه قريش إلى الصلح:

رأت قريش أن الصلح مع رسول الله ﷺ أنفع لها، على أن يرجع النبي ﷺ والمسلمون ولا يدخلوا مكة للعمرة، لأن عاقبة الدخول في حرب مع النبي مجهولة، فقد لا يتحقق النصر لهم، لا سيما وقد تأكد لديهم أن النبي ﷺ ما جاء لقتالهم. فدعوا سهيّل بن عمرو وقالوا له: ائتِ محمداً وصالحه على أن يرجع في عامة هذا وله أن يعتمر في عام قابل، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

١٤١١- التحرش بالمسلمين لحملهم على الحرب:

جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري فيما رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع، قال: ثم إن المشركين راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض، قال: فاضطجعتُ في ظل شجرة، فأتاني أربعة من المشركين، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فتحولت عنهم إلى شجرة أخرى، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل الوادي: يا آل المهاجرين، قال: فاخترطت سيفي ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، ثم جئت بهم أسوقهم، وجاء عمي برجل يقال له: مِكْرَز في ناس من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم يكون لهم بدء الفجور»، فعفا عنهم. وروى مسلم أيضاً من حديث أنس: أن رجالاً من أهل مكة هبطوا إلى النبي ﷺ من قبل التنعيم ليقاتلوه، فأخذهم فعفا عنهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ

﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن مظاهر التحرش بالمسلمين أيضاً خروج ثلاثين شاباً من قريش على معسكر المسلمين أثناء كتابة معاهدة الصلح، فأسرهم المسلمون وأطلق سراحهم النبي ﷺ. والحقيقة أن النبي ﷺ وأصحابه قابلوا هذه التحرشات والاستفزازات بالصبر وضبط النفس؛ لتفويت الفرصة على مريدي الحرب.

١٤١٢- إبرام معاهدة الصلح:

أرسلت قريش سهيل بن عمرو للتفاوض مع رسول الله ﷺ على شروط الصلح، والتوقيع على المعاهدة مؤكدة على ممثلها سهيل أن تنص المعاهدة على رجوع المسلمين إلى بلادهم بلا دخول إلى مكة، وإجراء شعائر العمرة على أن يأتوا من عام قابل إذا شاؤوا. فلما انتهت المفاوضات حول شروطها أمر ﷺ علي بن أبي طالب بكتابة بنود المعاهدة، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: ما نعرف هذه التسمية ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال ﷺ لعلي: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال عليه الصلاة والسلام لعلي ليكتبه: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر عليه الصلاة والسلام علياً أن يمحو عبارة (رسول الله)، فقال علي لا والله لا أمحاها، وقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه مكانها، فمحاه وأمر أن يكتب بدلها محمد ابن عبد الله، وكانت بنود المعاهدة ما يلي:

أولاً - وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة - أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصلح - فلا إسلال - أي سرقة - ولا إغلال - أي خيانة -.

ثانياً - من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

ثالثاً - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل

في عقد قريش وعهدهم دخل. فدخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.

رابعاً - أن يرجع النبي ﷺ وأصحابه من غير عمرة هذا العام، فإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون، فيدخلها المسلمون ويقيمون بها ثلاثاً ليس معهم من السلاح إلا السيوف في قربها - أي أغمادها-.

١٤١٣- ردّ أبي جَندَل إلى قريش:

وبينما علي يكتب كتاب معاهدة الصلح جاء أبو جَندَل بن سهيل يرسف في قيوده إلى رسول الله ﷺ، فقام إليه أبوه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال سهيل: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ «فأجزه لي» فأبى سهيل، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جَندَل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم».

١٤١٤- كيف تلقّى المسلمون معاهدة الصلح:

الواقع أن عموم المسلمين شعروا بشيء من الإحباط والأسى لما يبدو من ظاهر بعض بنودها أنه إجحاف بهم لم تتسع له صدورهم، كالشرط الذي ورد فيها وهو أن يرد المسلمون إلى قريش من جاءهم مسلماً من غير إذن وليه، بينما لا يُرَدُّ من جاء قريشاً من المسلمين، ولذلك قالوا: يا رسول الله نكتب هذا؟ قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». وكان وقع المعاهدة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديداً، لما ظنه من إجحاف فيها للمسلمين، فقد روى مسلم في صحيحه: أن عمر بن الخطاب جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن

يضيعني الله أبداً». وفي مسند أحمد أن عمر قال أيضاً للنبي ﷺ: أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت - أي الكعبة المشرفة - فنطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه هذا العام؟» قال عمر: لا. فقال ﷺ: «فإنك آتيه ومطوفه». وفي صحيح مسلم أيضاً: أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر رضي الله عنهما، فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى. قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: «نعم» فطابت نفسه - أي نفس عمر - ورجع.

والحقيقة أن ما صدر عن عمر رضي الله عنه من كلام مع رسول الله ﷺ كان قصده منه معرفة وجه الحكمة من موافقته ﷺ على شروط المعاهدة، وفي ظاهر بعضها إجحاف بحق المسلمين، وكان يأمل ويرغب في إذلال المشركين فجميع ما صدر منه كان معذوراً فيه بل هو مأجور، لأنه مجتهد فيه كما يقول ابن حجر العسقلاني، ومع هذا فقد شعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ما كان ينبغي له أن يراجع النبي ﷺ فيما راجعه فيه، ولذلك قال عمر - كما رواه عنه الإمام أحمد -: ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً[٢٦٧٥]. والدليل على أنَّ ما صدر عن عمر كان معذوراً فيه ومجتهداً فيه أن النبي ﷺ لم يعنف عليه فيما قال، بل دعاه وأقرأه سورة الفتح التي أنزلت عليه ﷺ. فلم يكن سؤال عمر رضي الله عنه، وكلامه مع رسول الله ﷺ شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، ورغبة فيه كما عرف من خلقه رضي الله عنه وقوته في نصرة الدين وإبطال المبطلين. وأما جواب أبي بكر رضي الله عنه بمثل جواب النبي ﷺ، فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله، وبارع علمه، وزيادة عرفانه، ورسوخه في كل ذلك، وزيادته فيه كله على غيره رضي الله عنه.

(٢٦٧٥) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٤٤-٤٤٥.

١٤١٥- تعليل ما رضيه رسول الله من شروط المعاهدة وصيغ كتابتها:

وافقهم ﷺ على ترك كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتابة «باسمك اللهم» بدلاً عنها، وكذا وافقهم في كتابة محمد بن عبد الله وترك كتابة رسول الله ﷺ، وكذا وافقهم في ردّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناها واحد، وكذا قوله «محمد بن عبد الله» هو أيضاً رسول الله ﷺ، وليس في ترك وصف الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي ﷺ هنا في الرسالة ما ينفيها، فلا ضرر ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك.

وأما شرط ردّ من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بين النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ثم كان كما قال ﷺ.

هذا وإن المصلحة التي ترتبت على إتمام هذا الصلح ما ظهر بعده من فوائد التي كانت عاقبتها فتح مكة، وإسلام أهلها، ودخول الناس في دين الله أفواجاً؛ لتيسر اختلاطهم - بعد هذا الصلح - بالمسلمين، وسماعهم من المسلمين عن أحوال النبي ﷺ ومعجزاته وحسن سيرته، وتعرفهم على أحوال المسلمين وأثر الإسلام فيهم، ومعاني الإسلام التي يدعو إليها، فهذا وغيره مما ليَّنَ قلوبهم، وقربهم من الإسلام حتى أسلم خلق كثير قبل فتح مكة، كما أسلم أهل مكة بعد الفتح كما قلنا، فأسلمت العرب من غير قريش.

والخلاصة فإنه بهذا الصلح أمكن التنقل واختلاط المسلمين بغيرهم ودعوتهم إلى الإسلام، فحصلوا بهذه الحرية: حرية الدعوة، وحرية التنقل والاختلاط بغيرهم، على نجاح كبير في مجال الدعوة، حتى إن عدد المسلمين صار عند فتح مكة عشرة آلاف بعد أن كان قبل هذا الصلح لا يزيد على ثلاثة آلاف.

١٤١٦- تباطؤ المسلمين في الحلق والنحر ثم إسراعهم إليه:

ولما تم الصلح، وتعذر دخول مكة والقيام بالعمرة، أمر النبي ﷺ بالتحلل من العمرة بأن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا هديهم، ولكن تباطأ المسلمون فلم يقم منهم أحد؛ لأنه أذهلهم هذا الصلح، فلذلك ربما كانوا يأملون الرجوع عن هذا الصلح. فدخل ﷺ على زوجه أم سلمة، وكان قد اصطحبها معه في هذه الغزوة، وذكر لها تباطؤ أصحابه في تنفيذ ما طلبه منهم من نحر هديهم، وحلق رؤوسهم تحللاً من العمرة، فقالت له: يا رسول الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر هديك وتحلق رأسك، فخرج ﷺ ولم يكلم أحداً وفعل ما أشارت به أم سلمة. فلما رأى المسلمون ما فعل رسول الله ﷺ، قاموا فنحروا هديهم، وحلقوا رؤوسهم، بل أخذ بعضهم يحلق بعضاً. فدعا رسول الله ﷺ لمن حلق منهم ثلاثاً، ولمن قصّر - أخذ شيئاً من شعر رأسه - مرة، وكان عدد ما نحره المسلمون من الإبل سبعين.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن بشأن صلح الحديبية
وما يتعلق به

١٤١٧- إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[(٢٦٧٦)]. نزلت هذه السورة - سورة الفتح - لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي العقدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة معه ﷺ، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من عام قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب. فنزلت هذه السورة مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا استوحشوا من ردّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي ﷺ، فنزلت هذه السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت، ومُذهِبةً ما كان في قلوبهم من بنود هذه المهادنة التي هادن بها المشركين ريثما يتقوى هو، كما قال الإمام المفسر ابن عطية. وقال عن هذه رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾» والمقصود بهذا الفتح المبين هو صلح الحديبية باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما رُوِيَ عن ابن مسعود وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وعن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وعن البراء بن عازب فيما يرويه عنه البخاري أنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، وعن أنس فيما يرويه عند البخاري أنه قال: المراد بالفتح صلح الحديبية. وروى القرطبي في تفسيره: أن رجلاً قال عند رجوعهم من

(٢٦٧٦) سورة الفتح، الآيات ١-٣.

الحديبية: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت. فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا».

وقال الإمام الزهري: لقد كان صلح الحديبية أعظم الفتوح، وذلك أن النبي ﷺ كان معه ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى بعضهم في بعض، وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان اللتان بعد صلح الحديبية إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة يوم فتحها في عشرة آلاف[٢٦٧٧].

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الألوسي في تفسيره: والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد يقال: المراد ما هو ذنب في نظره العالي ﷺ، وإن لم يكن ذنباً ولا خلاف الأولى عنده تعالى[٢٦٧٨]. وقال الإمام ابن عطية في تفسيره: والمعنى: التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة[٢٦٧٩]. وفي تفسير فتح البيان: المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى، وسمي ذنباً في حقه؛ لجلالة قدره وإن لم يكن ذنباً في حق غيره، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين[٢٦٨٠]. وقال أبو السعود في تفسيره: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى. وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل[٢٦٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وإظهاره على الأديان كلها، وانتشاره في البلاد، وغير ذلك مما أفاضه الله تعالى عليه ﷺ من النعم الدينية والدنوية. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وبما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم. وأصل الاستقامة وإن كان حاصلاً قبل الفتح، لكن

(٢٦٧٧) ابن كثير ج٤ ص١٨٢، ابن عطية ج١٣ ص٤٢٨، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٦٠-٢٦١، صحيح البخاري ج٨ ص٥٨٢.

(٢٦٧٨) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩١.

(٢٦٧٩) تفسير ابن عطية ج٣ ص٤٣٢.

(٢٦٨٠) فتح البيان ج١٣ ص٨٨.

(٢٦٨١) نقلاً عن تفسير القاسمي ج١٥ ص٦٦.

حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلاً من قبل ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ أي نصراً غالباً قوياً ذا عز لا يتبعه ذل بسبب خضوعك لأمرِ الله عز وجل يتحقق لك هذا النصر على أعدائك[٢٦٨٢].

١٤١٨- إنزال السكينة في قلوب المؤمنين:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾[٢٦٨٣] أي أنزل الله في قلوب المؤمنين السكون والطمأنينة بسبب الصلح الذي وقع بين النبي ﷺ وبين المشركين، وحصول الأمن بعده، ليعرف المؤمنون فضل الله عليهم بتيسير سبل الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال، ليزدادوا يقيناً منضماً إلى يقينهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي من الملائكة والإنس والجن يسلطهم على من يشاء، وينتقم بهم ممن يشاء من عباده، كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن حكمته تعالى وفعله بعباده المؤمنين أن سكنّ قلوبهم بصلح الحديبية، ووعدهم بالفتوحات التي تلت ذلك الصلح، وإنما قضى سبحانه ذلك؛ ليعرف المؤمنون نعمة الله فيما يسَّرَه لهم ويشكروها، فيستحقوا الثواب، فيثيبهم على شكرهم[٢٦٨٤].

١٤١٩- تعذيب المنافقين والمشركين:

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾[٢٦٨٥] أي ويعذب المنافقين والمشركين لما غاظهم من نصر الله للمؤمنين وكرهوه. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، أي ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي ما يظنونه

(٢٦٨٢) فتح البيان ج١٣ ص٨٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٤.

(٢٦٨٣) سورة الفتح الآيتان ٤، ٥.

(٢٦٨٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٣-٣٣٤، تفسير القاسمي ج١٦ ص٦٧.

(٢٦٨٥) سورة الفتح، الآية ٦.

ويتربصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسوء: الهلاك والدمار[٢٦٨٦].

١٤٢٠- توقير الله وتعظيمه:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[٢٦٨٧]. ﴿شَٰهِدٗا﴾ أي تشهد على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ بالجنة للمطيعين لك ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من النار للعاصين؛ ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تؤيدوا دينه وتقووه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوه غدوة وعشياً، أي أول النهار وآخره. والضمائر كلها لله تعالى، وجوز بعضهم إعادة الأولين أي ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للرسول ﷺ والأخير ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ لله تعالى، إلا أن فيه تفيكاً اللضمائر[٢٦٨٨].

١٤٢١- المسلمون يبايعون رسول الله «بيعة الرضوان»:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٢٦٨٩]. أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، وهي بيعة الرضوان بالحديبية. فإنهم بايعوه ﷺ تحت الشجرة على قتال قريش، فأخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية إن هذه البيعة لرسوله ﷺ هي بيعة له تعالى، كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ والمعنى أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما[٢٦٩٠]. وفي تفسير الألوسي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا من قريش، والمبايعة وقعت قبل نزول الآية. فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلة من البيع يقال: بايع السلطان مبايعة إذ ضمن بذل الطاعة له ﴿إِنَّمَا

(٢٦٨٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٤.

(٢٦٨٧) سورة الفتح الآيتان ٨، ٩.

(٢٦٨٨) تفسير القاسمي ج١٦ ص٦٨-٦٩، تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٥.

(٢٦٨٩) سورة الفتح الآية ١٠.

(٢٦٩٠) فتح البيان ج١٣ ص٩٣-٩٤.

﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأن المقصود من بيعة الرسول ﷺ وإطاعته إطاعة الله وامتثال أمره، فمبايعة الله بمعنى طاعته[٢٦٩١]. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئناف مؤكد لما قبله ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة. ويقال: وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه[٢٦٩٢].

١٤٢٢- المخلفون من الأعراب:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢٦٩٣] والمعنى: أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي؛ ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي، ليُعلَم أنه لا يريد حرباً، فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره في المدينة وقتلوا أصحابه، فيقاتلهم، فتركوا الخروج مع النبي ﷺ، واختاروا المقام في أهليهم وشغلهم واعتذروا بشغلهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراد الله فيكم. وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل

(٢٦٩١) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩٦.

(٢٦٩٢) تفسير الألوسي ج٢٦ ص٩٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٦.

(٢٦٩٣) سورة الفتح الآيات من ١١-١٤.

تخلف نفاق، أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتُستأصل شأفتهم ولا يرجع منهم أحد، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزين لكم الشيطان تخلفكم عن رسول الله ﷺ ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو ظنكم عدم نصر الله لرسوله ﷺ، وعدم رجوعه وأصحابه من سفرهم هذا. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين مستوجبين لسخط الله، أو فاسدين في أعمالكم ونياتكم. ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وقد أعدَّ الله للكافرين سعيراً أي نار جهنم. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فمن صفاته أنه غفور رحيم(٢٦٩٤).

١٤٢٣- منع المتخلفين عن غزوة الحديبية من الخروج إلى خيبر:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢٦٩٥). يقول الله تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في خروجه إلىٰ العمرة في عام الحديبية إذا ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم - أي مع المسلمين -؛ ليصيبوا من غنائم خيبر بعد فتحها، وقد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ خوفاً من أن يؤول هذا الخروج إلى القتال مع قريش، فأمر الله رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في الخروج معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو الوعد الذي وعد به الله أهل الحديبية. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية أن غنيمة خيبر تكون لهم وحدهم قبل سؤالكم الخروج معهم، ولهذا فليس لكم أن تتبعوهم إلى خيبر، لأن غنيمتها لغيركم، ولا نصيب لكم فيها. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي يقول هؤلاء المتخلفون

(٢٦٩٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٩، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٦-٣٣٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص٧٩-٨١.

(٢٦٩٥) سورة الفتح الآية ١٥.

من الأعراب: تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً إن خرجنا معكم إلى خيبر، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفقه أولئك الأعراب عن الله تعالى مالهم وعليهم من أمر الدين إلا فهماً قليلاً وهو ما كان من أمور الدنيا(٢٦٩٦).

١٤٢٤- استنفار الأعراب المتخلفين إلى القتال:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لأولئك المخلفين من الأعراب بأنهم سيُدعَون إلى قتال عدو ذي بأس شديد، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام، وإلا فلم يكونوا أهلاً لهذه الدعوة. واختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فقال عكرمة وقتادة وابن جبير: هم هوازن ومن حارب رسول الله ﷺ. وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة. وقال الزهري: هم أهل الردة وبنو حنيفة في اليمامة. وقال الحسن: هم فارس والروم. وقوله تعالى: ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيارهم. ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه يؤتكم الله أجراً حسناً، أي الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي كما توليتم زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لتضاعف جرمكم(٢٦٩٧).

١٤٢٥- رفع الحرج عن أصحاب الأعذار:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(٢٦٩٦) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٠-٨١.

(٢٦٩٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٢، تفسير ابن عطية ج١٣ ص٤٤٩-٤٥١ والآية في سورة الفتح، ورقمها ١٦.

وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢٦٩٨] . تبين هذه الآية الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال الله تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما حذر من يتولى عن الجهاد، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار[٢٦٩٩] .

١٤٢٦- رضوان الله على أهل بيعة الحديبية:

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢٧٠٠] . يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وكانت عدتهم ألفاً وأربعمائة، وإن الشجرة كانت بأرض الحديبية. ولكن أمر عمر بن الخطاب بقطعها خوفاً من الفتنة بها. فقد قال ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري: «ثم وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت»[٢٧٠١] والآية فيها تشريف للمؤمنين، وإعلام برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سميت بيعة الرضوان. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة لرسول الله ﷺ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة عليهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر، وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهي مغانم خيبر، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال،

(٢٦٩٨) سورة الفتح الآية ١٧.

(٢٦٩٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٠.

(٢٧٠٠) سورة الفتح الآيتان ١٨، ١٩.

(٢٧٠١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٤٤٨.

فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي ذا عزة في انتقامه من أعدائه، وحكمة في تدبير خلقه[٢٧٠٢].

١٤٢٧- ما وعد الله به أهل بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[٢٧٠٣].

قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ هي ما وعد الله تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها المقدرة لكل واحدة من الغنائم. ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي مغانم خيبر، ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكصوا على أعقابهم، ورجعوا عما عزموا عليه من نصرة يهود خيبر ﴿ وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح لهم. ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله. ﴿ وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿ هَٰذِهِۦ﴾ أي: فعجل لكم هذه المغانم - مغانم خيبر - ومغانم أخرى ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين. وقال: ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لها. ﴿ قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾أي قدر عليها واستولى،وأظهركم عليها وجعلها غنيمة لكم.أو أن الله أعدّها لكم فهي،كالشيء الذي أحيط به من جميع جوانبه،فهو محصور لا يفوت. فأنتم، وإن لم تقدر عليها في الحال، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم[٢٧٠٤].

(٢٧٠٢) ابن كثير ج٤ ص١٩٠-١٩١، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٧٨، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٦.

(٢٧٠٣) سورة الفتح الآيتان ٢٠، ٢١.

(٢٧٠٤) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٠-٣٤١، القرطبي ج١٦ ص٢٧٩، الألوسي ج٢٦ ص١٠٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٦-٨٧.

١٤٢٨- سنة الله الثابتة في نصر المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢٧٠٥] والمعنى: لو قاتلكم الذين كفروا أي كفار قريش وأهل مكة في الحديبية، ولم يصالحوكم، وقيل أسد وغطفان الذين أرادوا نصر أهل خيبر ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي لَولوْكم أعجازهم في الحرب فعل المنهزم من عدوه في الحرب. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجدون من يواليهم على حربكم وينصرهم عليكم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي هذه طريقة الله وعادته التي قد مضت في الأمم السابقة من نصر أوليائه من الرسل والمؤمنين؛ على أعدائه وأعدائهم. وانتصاب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدرية بفعل محذوف أي سنَّ الله سنةً هي نصر الله أولياءه من رسله والمؤمنين على أعدائهم. أو أن ﴿سُنَّةَ﴾ نصبت على أنها مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من هزيمة الكفار ونصر المؤمنين، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي تغييراً بل هي مستمرة وثابتة[٢٧٠٦]. وقال ابن كثير: أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصَلٍ إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل تعالى في معركة بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم[٢٧٠٧].

١٤٢٩- امتنان الله على المؤمنين بمنع الحرب بينهم وبين المشركين:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٢٧٠٨]. قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كفَّ أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من

(٢٧٠٥) سورة الفتح الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢٧٠٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤١، فتح البيان ج١٣ ص١٠٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٨.

(٢٧٠٧) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٢.

(٢٧٠٨) سورة الفتح، الآية ٢٤.

الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة[٢٧٠٩].
وقال قتادة بطن مكة: الحديبية[٢٧١٠]. وقال بعضهم: أكثر الحديبية من الحرم[٢٧١١].
وفي تفسير الألوسي: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحديبية. وقد تقدم أن بعضها من حرم مكة ويكون إطلاق بطن مكة عليها مبالغة[٢٧١٢]. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد أن أقدركم الله وسلطكم عليهم، لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة. وعن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة أي غفلة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذناهم سَلَماً - أي مستسلمين مذعنين - فعفا عنهم رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية. وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية: أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم وأبصارهم، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فنزلت هذه الآية[٢٧١٣].

والخلاصة أن الله تعالى منع من وقوع الحرب بين المسلمين وبين المشركين، وأن المشركين كلما حاولوا إشعال الحرب وقتال المسلمين خذلهم الله، وطردوا وأبعدوا عن المسلمين، أو أخذهم المسلمون وعفا عنهم النبي ﷺ، وأن المسلمين لم يريدوا قتالاً مع قريش بالرغم من تحرشاتها بالمسلمين، لما أراده الله تعالى من إيقاع الصلح بين الفريقين لحكمة ظهرت آثارها فيما بعد.

١٤٣٠- منع القتال لدرء المفسدة الراجحة على المصلحة:

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ

(٢٧٠٩) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٢.
(٢٧١٠) تفسير القاسمي ج١٥ ص٨٩.
(٢٧١١) فتح البيان ج١٣ ص١٠٩.
(٢٧١٢) تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٣١.
(٢٧١٣) تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٨١، فتح البيان ج١٣ ص١٠٩-١١٠.

مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٢٧١٤). أي هؤلاء المشركون من قريش ومن مالأهم على حرب رسول الله ﷺ، هم الذين كفروا بجحدهم توحيد الله ونبوة محمد ﷺ ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ أي ومع كفرهم صدوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم من الدخول فيه وأنتم أحق به منهم وأنتم أهل في نفس الأمر، وصدوا أيضاً الهدي، وهو ما يُهدَى إلى الكعبة المشرفة ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي محبوساً عن أن يباع، منعوه أن يصل إلىٰ محله وهو مكانه الذي يحل فيه نحره وهو أرض الحرم. وكان رسول الله ﷺ قد ساق معه الهدي حين خروجه إلى مكة سبعين بدنة من الإبل. وفي الآية دليل على أن محل ذبح الهدي هو أرض الحرم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي لولا وجود مؤمنين ومؤمنات بمكة مع الكفار لم تعلموهم بصفة الإيمان، وهم بمكة حبسهم المشركون فيها، فلم يستطيعوا الخروج إليكم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تقتلوهم مع الكفار غير عالمين بهم لو أذن لكم بفتح مكة عنوة بدل الصلح معهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي يصيبكم بقتلهم إثم، لولا هذا المحذور لما كف أيديكم عنهم ولأذن لكم في دخول مكة ومقاتلتهم. وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يؤخر عقوبتهم؛ ليخلّص من بين أظهرهم المؤمنين، وليدَخلَ كثير من المشركين في الإسلام. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لسلطناكم عليهم ولقتلتموهم قتلاً ذريعاً(٢٧١٥).

١٤٣١- صلح الحديبية كان بتوفيق الله:

قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ

(٢٧١٤) سورة الفتح، الآية ٢٥.

(٢٧١٥) تفسير ابن كثير ج٤ ص١٩٣، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٢-٣٤٣، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٠-٩١.

﴿ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾[2716] الحمية: الأنفة، وحمية الذين كفروا أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، وحمية أهل مكة في صد المسلمين عن دخول مكة معتمرين، وحمية سهيل بن عمرو الذي أوفدته قريش لعقد الصلح - صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ - حميته امتناعه من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، ولّج في ذلك حتى قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: امح بسم الله الرحمن الرحيم واكتب بدلها باسمك اللهم، وامح محمد رسول الله واكتب بدلها محمد بن عبد الله، وجعلها الله تعالى حمية الجاهلية، لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها كما قال الإمام ابن عطية، لأن رسول الله ﷺ لم يأتهم محارباً، وإنما جاء معتمراً معظماً لبيت الله، فكانت حميتهم جاهلية صرفاً. والسكينة هي الطمأنينة والوقار وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي فَهِمَّ المسلمون أن يأبوا ذلك أي لا يكتبوا ما أراده سهيل بن عمرو، ويقاتلوا من أجله، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين يعني الوقار والتثبت حتى صالحوهم على ما ذكرناه من بنود الصلح. ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله. يعني أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة، فخصَّ الله بها المؤمنين. و﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ هي التي يُتَّقَى بها من الشرك ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أي أحق بها من كفار مكة، لأن الله تعالى اختارهم لدينة وصحبة نبيه. وقال أبو السعود: أي متصفين بمزيد استحقاق لها. ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أي المستأهل لها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي فيعلم حق كل شيء فيسوقه إلى مستحقه[2717].

١٤٣٢- لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق:

قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا﴾[2718]. رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه

(٢٧١٦) سورة الفتح الآية ٢٦.

(٢٧١٧) ابن عطية ج١٣ ص٤٦٧، الزمخشري ج٤ ص٣٤٤، تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٨٩، تفسير القاسمي ج١٥ ص٩٣.

(٢٧١٨) سورة الفتح، الآية ٢٧.

قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إن رؤيا رسول الله حق، فلما تأخر ذلك، ولم يقع وإن الذي وقع هو الصلح مع قريش ببنوده التي ذكرناها، وحصل تساؤل عن سبب عدم وقوع تحقق الرؤيا في عام الحديبية، فأجاب النبي ﷺ من سأله عن ذلك بأنه ﷺ لم يخبره وهو يقص رؤياه بأنهم يدخلون مكة في عامهم هذا، ونزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ . .﴾ الخ الآية، والمعنى لقد صدّقَ الله رسوله في رؤياه ولم يكذبه، أي جعل رؤياه صادقة محققة، ولم يجعلها أضغاث أحلام، وإن كان تفسيرها لم يقع في عام الحديبية، وإنما في العام الذي تلاه. وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف: أي صدقاً ملتبساً بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو ظهور حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه، ولأجل ذلك أخر وقوع تحقق الرؤيا إلى العام القابل. ويجوز أن تتعلق كلمة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالرؤيا أي ملتبسة بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام.

وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وتعليق الدخول على مشيئة الله هو لتحقيق الخبر كما جاء في الرؤيا وتوكيده وليس هو من الاستثناء في شيء. وقيل إن هذا الاستثناء ورد لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه فيما يعدونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي في حال دخولكم. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، حيث كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره. وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ زيادة تأكيد لما فهم من قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾ فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في مكة لا يخافون من أحد مدة مكثهم فيها. وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة، ودخولكم إليها عام الحديبية ما لم تعلموا أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعُدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين، أي صلح الحديبية الذي قال فيه الإمام الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، ولقد دخل في السنتين اللتين تلتا صلح الحديبية مثل من كان قد دخل في الإسلام قبل ذلك بل أكثر، فإن المسلمين

في سنة ست للهجرة وهي سنة الحديبية، الذين كانوا معه ﷺ ألف وأربعمائة وكانوا معه في سنة ثمان للهجرة، وهي سنة فتح مكة، أكثر من عشرة آلاف[٢٧١٩].

١٤٣٣- وعد الله بإظهار الإسلام:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٢٧٢٠].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي متلبساً بالهدى، والتباسه بالهدى بمعنى أنه هاد. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ﴾ أي يعليه بحججه وبراهينه وآياته على جنس الدين كله، أي على الأديان المختلفة وما يدان به من الشرائع والملل، فيشمل الحق والباطل، وإظهار الإسلام على الحق - أي على الدين الذي في أصله كان حقاً كدين أهل الكتاب - فإظهاره عليه يكون بنسخ أحكامه المتبدلة بتبدل الأعصار، وإظهاره على الأديان الباطلة بإظهار بطلانها، ويبقى الإسلام هو الواجب الاتباع في جميع أصوله وفروعه. وفي هذه الآية تأكيد لما وعد الله المسلمين من الفتوحات، وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ما يستقلون بالنسبة إليه فتح مكة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده الله تعالى كائن لا محالة[٢٧٢١].

١٤٣٤- من أوصاف أصحاب رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[٢٧٢٢].

(٢٧١٩) ابن كثير ج٤ ص٢٠١-٢٠٣، الزمخشري ج٤ ص٣٤٥، الألوسي ج٢٦ ص١٢٠-١٢٢، فتح البيان ج١٣ ص١١٦-١١٨.

(٢٧٢٠) سورة الفتح الآية ٢٨.

(٢٧٢١) تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٢٢، تفسير الزمخشري ج٤ ص٣٤٦.

(٢٧٢٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً على الكفار ورحيماً براً بالمسلم. ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وقوله عز وجل: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ عن ابن عباس سيماهم يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: الخشوع والتواضع. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي وصفهم أو صفتهم في التوراة وفي الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه. قال الإمام ابن عطية في قوله تعالى ﴿كَزَرْعٍ﴾: هو على كل الأقوال، وفي أي كتاب منزَّل فَرْضُ مثلٍ للنبي ﷺ وأصحابه في أن النبي ﷺ بُعِثَ وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهم فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانه وقواه، فيحتمل أن يكون الضمير المستتر في ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ للزرع، والضمير البارز للشطء. وقال النسفي: الضمير المستتر للشطء، والضمير البارز للزرع، وما صنعه النسفي أنسب، فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه فهي تعينه وتقويه، وهو ما رجحه أيضاً الإمام ابن عطية، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ..﴾ الخ: وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام، وترقيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم، لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع بما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع. فمآل قول الزمخشري هو ما ذهب إليه النسفي وابن عطية. وهو ما قاله أيضاً البغوي من أن (الزرع) مثل لمحمد ﷺ (والشطء) أصحابه، فهو مثل لمحمد ﷺ وأصحابه معه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي الزرع فصار من الدقة إلى الغلظ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على سوقه: جمع ساق. ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي يُعجبُ هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحسن نباته وبلوغه وانتهائه، يعجب الذين زرعوه. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم في نمائهم وقوتهم وتقويتهم رسول الله ﷺ بإيمانهم به وجهادهم معه. وقال الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾: علة لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم - أي للصحابة - على الوجه الذي تضمنه التمثيل. وقال الإمام القرطبي في قوله تعالى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ أي فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون ﴿مِنۡهُم﴾ للبيان وليس للتبعيض، كقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾. وقوله تعالى ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي وعدهم مغفرة لذنوبهم وأجراً عظيماً أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبّق والكمال الذي لا يلحقهم فيه، قال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه»[٢٧٢٣].

(٢٧٢٣) ابن كثير ج٤ ص٢٠٣-٢٠٥، ابن عطية ج١٣ ص٤٧٧-٤٧٩، الزمخشري ج٤ ص٣٤٦-٣٤٨، القرطبي ج١٦ ص٢٩٥ تفسير الألوسي ج٢٦ ص١٢٧، تفسير القاسمي ج١٥ ص١٠٣-١٠٤.

المبحث الثالث
المستفاد
من غزوة الحديبية

١٤٣٥- مراجعة الأمير فيما يطلبه لا تعارض واجب طاعته:

ذكرنا أن سيدنا محمداً ﷺ لما نزل في أرض الحديبية، وأراد أن يخبر قريشاً بأنه جاء والمسلمون معه للعمرة لا للحرب، دعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى مكة لهذه المهمة، فاعتذر عمر رضي الله عنه مبيناً وجه اعتذاره بأنه يخاف قريشاً على نفسه، وليس له من عشيرته في مكة من يحميه، وأن عثمان بن عفان أقدر منه على هذه المهمة؛ لوجود قرابته ذات النفوذ في مكة. فأخذ النبي ﷺ بقول عمر، وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة لهذا الغرض. وعلى هذا فمن الجائز أن يُراجَع أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيما يطلبه من أحدهم، مع بيان وجه هذه المراجعة، ولا يعتبر ذلك خروجاً على واجب الاتباع في طاعة الأمير فيما يأمر به. ولكن لو قُدِّر أن الأمير لم يقتنع باعتذار من كلفه بعمل ما، أو لم يوجد غيره للقيام بهذه المهمة ولذلك اختاره لها، فعلى هذا المختار أو الذي لم يقتنع الأمير بعذره، أن يسارع إلى تنفيذ المطلوب منه. كما في مسألة حذيفة بن اليمان لما اختاره النبي ﷺ، لإرساله إلى جيش المشركين في معركة الخندق؛ للتعرف على أحوالهم ومدى عزمهم على البقاء أو الرحيل، حيث سارع حذيفة إلى تنفيذ الأمر.

١٤٣٦- البيعة على أمر مشروع شيء مشروع:

ذكرنا بيعة الرضوان وسببها، وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يطلب منهم مبايعته على أمر مشروع حتى يستوثق من عزمهم على القيام بمتطلبات هذا الأمر الذي يريد البيعة من أجله، كما بايع المسلمون في الحديبية رسول الله ﷺ على مناجزة قريش إذا صح ما بلغه عنهم أنهم قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما أرسله إلى مكة؛ ليخبرهم بسبب مجيء النبي ﷺ.

١٤٣٧- مجاراة العدو في بعض ما يريد لتحقيق مصالح للمسلمين:

رأينا أن مندوب قريش في معاهدة صلح الحديبية أصرّ على كتابة باسمك اللهم، بدلاً عن بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب اسم النبي ﷺ واسم أبيه دون ذكر محمد رسول الله، فوافق رسول الله ﷺ حتى أنه أمر علي بن أبي طالب بمحو ما كتبه من بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله. وأن يكتب بدلهما ما أراده مندوب قريش سهيل، أي باسمك اللهم، وهذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. ولا شك أن هذه المجاراة لرغبات سهيل كانت ضرورية لإتمام عقد الصلح الذي فيه مصلحة كبيرة للمسلمين، يهون معها مجاراتهم فيما طلبوه، وهي شيء لا يغير من الحقيقة شيئاً، وهي أن محمداً هو رسول الله حقاً، وإن أنكر المشركون. وعلى هذا فعلى الدعاة أو جماعتهم أو أميرهم أن لا يصروا على أشياء لا تنفي الحقيقة أو لا تؤثر في جوهر الدعوة، وليس فيها إقرار بمنكر، في سبيل تحقيق مصالح كبرى للدعوة، وعليهم الاستهداء بمسلك رسول الله ﷺ في مجاراته بطلبات المشركين؛ لتحقيق الصلح الذي فيه مصلحة للمسلمين، فيجاروا خصوم الدعوة بتلبية بعض مطالبهم ورغباتهم في سبيل تحقيق مصالح مؤكدة للدعوة وإيجاد المجال المريح لنشر الدعوة.

١٤٣٨- مصالح الدعوة لا تقاس بمصالحها الآنية بل بها وبالمستقبلية:

إن مصالح الدعوة الحقيقة لا تقاس بمصالحها الآنية دون نظر إلى عواقب الأمور، وما تؤول إليه من مصالح مؤكدة في المستقبل، أو من أضرار تقع في المستقبل إذا أريد تحقيق مصالح آنية. ولهذا ضاقت صدور بعض المسلمين، أو كثير منهم من صلح الحديبية لما ظنوه من إجحاف في حقوقهم، وتجاوز عليها، ومن مهانة حلت بهم في منعهم من أداء العمرة في عامهم ذلك. ومرد ذلك أنهم لم يمتد نظرهم إلى مستقبل هذه المعاهدة - معاهدة الصلح مع قريش - وإيقاف الحرب معها لمدة عشر سنوات، وما يترتب على ذلك من مصالح مؤكدة للإسلام، وهذا هو ما لاحظه رسول الله ﷺ وحمله على عقد تلك المعاهدة، التي نزل القرآن بشأنها، وجعلها فتحاً مبيناً للمسلمين.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن لا يجعلوا تأكيدهم على مصالح الدعوة الآنية دون نظر

إلى مصالحهم في المستقبل في سبيلِ تحقيق مصالح وقتية، لأن قدر المصلحة تقاس بمدى ضخامتها بذاتها وإن كانت آجلة، وعلى هذا إذا رأت جماعة الدعاة اتباع سياسة معينة، أو عقد مهادنة مع خصومها لما يُرَى من أن هذه المهادنة، أو السياسة تحقق مصالح عظيمة دلت القرائن والحسابات الصحيحة على احتمال تحققها احتمالاً راجحاً، أقول فعلى الدعاة في هذه الحالة أن لا يعارضوا جماعتهم وقيادتهم فيها في سلوك هذه السياسة ما دام الشرع يبيحها ولا يمنعها.

١٤٣٩- تفويت مقاصد خصوم الدعوة:

ذكرنا أن زعماء قريش وكبراءها أو معظمهم كانوا يريدون الصلح مع النبي ﷺ على أن يرجع في هذا العام ولا يعتمر. إلا أن بعض شباب قريش ومن ورائهم بعض رجال قريش كانوا لا يريدون هذا الصلح، فقاموا بتحرشات بالمسلمين وبمحاولات الغارة عليهم، ولكن المسلمين صدوهم وأسروا كثيراً منهم، ولكن النبي ﷺ عفا عنهم وأرجعهم إلى مكة، وهكذا بهذه السياسة الحكيمة من رسول الله ﷺ فوّت على ذلك النفر مقاصدهم الخبيثة في إفشال توجيه قريش إلى عقد الصلح مع المسلمين. فعلى الدعاة وعلى جماعتهم إذا ارتضوا مع خصومهم سياسة معينة في علاقاتهم فيما بينهم، فقد يقوم بعض أنصار الدعاة أو بعض خصومهم باستفزاز جماعة الدعاة؛ ليحملوها على القيام بأعمال تفسد السياسة التي ارتضوها، وبالتالي عدم الالتزام بها. والسبيل إلى إفشال مثل هذه المساعي صبر الجماعة على تحرشات بعض خصوم الدعوة، وتفهيم الجماعة أنصارها بضرورة ضبط أعصابهم، وعدم الرد على تحرشات هذا النفر من خصوم الدعوة، وأن لا يقوموا هم ابتداءً بما يفسد هذه السياسة على الجماعة؛ لاعتقادهم بأنها سياسة خاطئة لا تجوز.

١٤٤٠- نرضى على من يرضى عليه الله:

أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، قد رضي الله عنهم، وكانوا كما ذكرنا ألف وأربعمائة، وقد أخبرنا الله تعالى برضاه عنهم ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ . . . ﴾ فينبغي للمسلم أن ينطوي قلبه على محبتهم والرضا عنهم، لأن من رضي الله عنه فقد أحبه، فيلزم المسلم ذلك، وهذا هو شأن المسلم. ولكن قد تعم الجهالة فئة من الناس في مكان معين أو زمان معين، فلا

يرضون على أصحاب بيعة الرضوان وهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فعلى الدعاة أن يبينوا وجوب محبة هؤلاء؛ والرضا عليهم وتوليهم؛ لئلا يقعوا في مشاقة الله ورسوله، فيكرهون من أحبهم الله ورضي عنهم. وإذا عرفنا أن سبب رضا الله عليهم هو ما قام في قلوبهم من إيمان وإرادة نصرة رسول الله ﷺ التي ظهرت في إعلان هذه الإرادة ببيعة رسول الله ﷺ، فإن المسلم يرضى على أخيه المسلم، ويحبه إذا رأى أعماله الخيرة المرضية عند الله تعالى، والدعاة يقومون بأعمال مرضية عند الله قطعاً، فالشأن بالمسلمين أن يحبوا الدعاة ويرضوا عنهم وعن عملهم الدعوي، لأنه عمل مرضي عند الله تعالى، ولا يجوز بغضهم أو معاداتهم لعملهم الدعوي، وهذا المعنى والتعليل يجب على الدعاة بيانه وتبيينه للناس في دروسهم ومحاضراتهم، فإنه المدخل السليم السديد الواضح لجمع الأنصار على الهدى، وعلى حب الدعوة والدعاة ومناصرتهم.

١٤٤١- سنة الله التي لا تتغير:

ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي سنّ الله سنة لا تتغير ولا تتبدل، وهي أن الله ينصر أولياءه المؤمنين على أعدائهم[٢٧٢٤]. فعلى الدعاة أن يوضحوا ويبينوا ويكرروا هذا البيان وذاك التوضيح لهذه السنة الإلَهية حتى يبعثوا الأمل في نفوس المسلمين، ويقلعوا من نفوسهم اليأس، ويذكروهم بما وعد الله به المؤمنين، لأن وعده لا يتخلف ويدخل في مضمون سننه في نصره للمؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[٢٧٢٥]. أي ننصرهم في الدنيا والآخرة بأن يغلبوا أعداءهم في الدنيا بالحجة والبرهان وبالقتال، وإن غُلِب المؤمنون في بعض الأحيان؛ لتقصير منهم أو لامتحان لهم من الله تعالى، ولكن العاقبة دائماً لهم ما داموا مؤمنين قائمين بمقتضيات الإيمان[٢٧٢٦].

(٢٧٢٤) انظر الفقرة ١٤٢٨.

(٢٧٢٥) سورة غافر الآية ٥١.

(٢٧٢٦) تفسير الزمخشري ج٤ ص١٧٢، تفسير القرطبي ج١٥ ص٣٢٢.

١٤٤٢- تعمد الخصام والحرص عليه مع خصوم الدعوة:

ومما ينبغي أن يعرفه الدعاة ولا ينسوه أن من نعم الله عليهم، أن يجنبهم الخصام مع خصوم الدعوة مع بقائهم واستمرارهم في أعمالهم الدعوية، ولا يجوز لهم تعمد الخصام معهم أو الحرص عليه، مع أن أعمالهم الدعوية لا تقتضي ولا تستدعي ولا تستلزم هذا الخصام، وإنما الذي تستدعيه نيتهم الخفية، وتطلعهم الخفي إلى هذا الخصام، لينالوا ثناء الناس عليهم، ومدحهم لهم بأنهم مجاهدون مضمون لاسيما إذا كانت الخصومة مع رجال الحكم. فليحذر الدعاة ذلك، وليعلموا أن ساحة العمل الدعوي واسعة جداً، يمكن ولو جهاراً القيام بالأعمال الدعوية الضرورية للدعوة دون حاجة إلى تعمد الاحتكاك والتحرش بخصوم الدعوة وهم غافلون عنهم، فإن فعلهم هذا دليل على ريائهم وإرادتهم لفت النظر إليهم.

لقد ذكرنا امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين أصحاب الحديبية بأن منع المشركين من الاقتتال معهم، كما منع المؤمنين من الاقتتال مع المشركين، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقد ذكرنا في تفسيرها، أن الله تعالى يمتن على المخاطبين - أصحاب الحديبية - بأن منع المشركين كما منع المسلمين من الاشتباك والاقتتال[٢٧٢٧]. إن الدعوة تحتاج إلى الجو والمناخ المريح الخالي من الغبار والخصام، إن الدعاة يبنون ويهيؤون، والبناء والتهيؤ لا يكونان مع الخصام والشجار والتشابك بالأيدي والانشغال بغير البناء، إن الدعاة كالسائرين في طريقهم، فلا يجوز لهم إيقاظ الكلاب النائمة، فتنبح عليهم وتهجم عليهم، وتحسس أصحابها بسير الدعاة فيضطرون إلى التوقف ومهاوشة ومناوشة الكلاب، وليس هذا من حكمة الدعاة ومسيرهم المحمود.

١٤٤٣- درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المنافع:

ذكرنا قول الله تعالى: ﴿. . . وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ . .﴾ وذكرنا قول المفسرين فيها، وهي: لولا وجود رجال

(٢٧٢٧) انظر الفقرة ١٤٢٩.

مؤمنين ونساء مؤمنات يعيشون في مكة، ومختلطين مع المشركين لا تعرفونهم وقد تطؤوهم، أي تقتلونهم، لو أذنا لكم في دخول مكة عنوة وبقتال أهلها فيصيبكم من ذلك إثم، لولا هذا المحذور لأذنا - أي لأذن الله - لكم بدخول مكة وقتال أهلها[٢٧٢٨]. فهذا صريح في أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع. المنفعة هنا دخول مكة واحتلالها عنوة عن طريق القتال. والمفسدة في هذا الأسلوب في فتح مكة: قتل المؤمنين والمؤمنات، وأيضاً قتل المشركين الذين يحتمل في بعضهم أن يسلم فيدخل في رحمة الله، كما جاء في آخر الآية ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وعلى هذا فعلى الدعاة، وجماعتهم، أن يزنوا بالميزان الشرعي الدقيق المفاسد المترتبة على انتهاجهم منهجاً معيناً أو سياسة معينة أو عملاً بالذات، ويزنوا المنافع المترتبة على ما ذكرنا، فإذا رأوا المفاسد - ويدخل في مفهوم المفاسد: الأضرار - أكبر من المنافع وجب ترك ما هم عازمون على فعله أو انتهاجه من سياسة أو منهج، وهذا إذا كانت المنافع المرجوحة القليلة مُؤَكدٌ حصولها، أما إذا كان حصولها على وجه الاحتمال والشك مع بقاء احتمال حصول المفاسد احتمالاً كبيراً، فهنا يتحتم الإقلاع عن العمل المراد فعله، والسياسة المراد اتباعها. وعلى الدعاة وجماعتهم وهم يزنون بالميزان الشرعي الدقيق ما يترتب على عملهم من مفاسد ومنافع أن لا يتأثروا بضجيج الآخرين ولا برغبات المحبين. إن عليهم أن يكونوا كالمحلل في مختبره وهو يختبر مادة بين يديه ليعرف آثارها وصفاتها، كما هي بمعزل عن رغبات الآخرين وضجيجهم، فلا تؤثر فيه صيحات المتظاهرين خارج المختبر، ولا تحرفه عن حرصه في أن يعرف خواص وآثار المادة التي يفحصها، فكذلك يجب أن يكون الدعاة وجماعتهم في وزنهم أعمالهم لمعرفة أضرارها ومنافعها.

١٤٤٤- حذار من الحمية الجاهلية:

قلنا فيما سبق[٢٧٢٩] إن مشركي مكة أخذتهم الحمية الجاهلية، أي الأنفة من قبول الحق والانقياد إليه ومن قبول ما هو صحيح في ذاته. فكانت أنفتهم جاهلية، وعلى أساسها منعوا النبي ﷺ من دخول مكة للعمرة، وفي العمرة تعظيم لبيت الله الذي هم

(٢٧٢٨) انظر الفقرة ١٤٣٠.

(٢٧٢٩) انظر الفقرة ١٤٣١.

يدعون تعظيمه، ومن أنفتهم الجاهلية رفض الإقرار بنبوة محمد ﷺ مع ظهور دلائل نبوته ظهور الشمس في رابعة النهار، ومن أنفتهم امتناع مندوبهم إلى عقد الصلح: سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر المعاهدة بسم الله الرحمن الرحيم، وامتناعه أن يكتب صفة محمد ﷺ بالرسالة، فرفض أن يكتب: محمد رسول الله باعتباره طرفاً في عقد الصلح. وبخلاف أولئك المشركين كان رسول الله ﷺ وأصحابه بعيدين عن كل معاني الحمية الجاهلية دقيقها وعظيمها، لأن الله تعالى كما قال ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ... ﴾ فثبتهم الله تعالى، ولم تستفزهم حمية المشركين، وحمية مندوبهم الجاهلية، فيصروا على رفض ما أراده سهيل من كتابة باسمك اللهم، وبكتابة اسم سيدنا محمد ﷺ، باسمه المجرد واسم أبيه دون نعته بنعت النبوة والرسالة. لأن الصحيح كان عقد ذلك الصلح ولو بإجابة طلبات المشركين ومندوبهم، ولو أن الموقف كان يستدعي رفض طلبات المشركين لتعنتهم في باطلهم، ولكن كان النظر السديد والحكيم والعمل الصحيح، هو المضيّ في عقد الصلح، وعدم التأثر باستفزازهم برفض طلباتهم.

فعلى الدعاة وجماعتهم أن يلاحظوا ذلك، إذا حصلت لهم حاجة ومصلحة في عقد مهادنة مع أعداء الدعوة، أن يركزوا ويؤكدوا على الجوهر والأساس، وعلى ما يسهل عقد هذه المهادنة ما دامت في مصلحة الدعوة، وأن لا تستفزهم طلبات الخصوم غير الصحيحة في نفسها، ولكن الأخذ بها لا يمس الدعوة وأصولها ومعانيها. ومن أمثلة ذلك أيضاً إذا أراد خصوم الدعوة عقد المفاوضات في مكان معين وزمان معين، فلا مانع من الأخذ بما يريدون، وإن كان في إجابتهم شيء من الغضاضة في أعين بعض الناس، أو في أعين أنصار الدعوة، ما دام يؤمل في هذه المفاوضات خير للدعوة.

١٤٤٥- لا حوار مع أصحاب الأديان إلا على أساس دعوتهم للإسلام:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي ليعليه على جميع الأديان السابقة، وعلى ما قد يظهر من أديان باطلة. فالإسلام وحده هو الدين الحق، وهو المهيمن على غيره الناسخ لغيره، الذي لا يسع أحداً من الخلق إلا اتباعه، هكذا أراد الله لدينه الإسلام، وهكذا يجب أن ينظر المسلم لدينه

بذاته وفي علاقته بالأديان الأخرى. وبناء على هذا الذي أقوله على الدعاة وجماعتهم، أن يفقهوا جيداً أنه لا يجوز أي حوار أو عقد مؤتمر مع أصحاب الأديان الأخرى، تحت أي شعار أو عنوان إلا على أساس دعوتهم لاعتناق الإسلام، وبيان أدلته وبراهينه، وبيان بطلان أديانهم ونسخها، فلا يجوز الاعتراف بهم وبإقرارهم على دينهم، واستعداد جماعة الدعاة التعاون معهم بحجة تعاونهم ضد الإلحاد مثلاً، أو ضد الشيوعية، فالدعاة وجماعتهم يحاربون الإلحاد والشيوعية وكل باطل تحت راية الإسلام فقط، وبمنهجهم الإسلامي، ولا يرضون أن يقف معهم في هذه المنازلة للملحدين أصحاب الأديان الباطلة الرافضين دعوة الإسلام المنكرين نبوة محمد ﷺ ورسالته العامة لجميع البشر. إن معاني إظهار الإسلام على جميع الأديان لا تظهر في عقد المؤتمرات مع أصحاب هذه الأديان، وغض البصر عن باطلهم، والرضا بهم ضمناً أو صراحة بحجة التعاون معهم ضد العدو المشترك: الإلحاد. إنهم هم أعداء الإسلام كما أن الملحدين أعداء الإسلام.

١٤٤٦- يسع الفرد ما لا يسع الجماعة ولا عضواً فيها:

كان من بنود صلح الحديبية أن من جاء محمداً ﷺ من قريش مسلماً من غير إذن وليه ردّه النبي ﷺ إلى قريش، ولم يقبله في صفوف جماعة المسلمين في المدينة، وعلى أساس هذا البند أو الشرط لم يقبل النبي ﷺ أبا جندل عندما جاء يرسف بقيوده، فألقى بنفسه بين يدي النبي ﷺ، ولم يفرغ بعد من كتابة بنود المعاهدة، وطلب سهيل ردَّ ابنه أبا جندل إلى قريش حسب بنود المعاهدة المتفق عليها شفهياً، ولكن لم تكتب بعد، فرده النبي ﷺ، وقال له: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً...» وحصل أن انفلت من قريش رجل من المسلمين هو أبو بصير، ثم انفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فصاروا يغيرون على قوافل قريش السائرة إلى الشام، فيقتلون حراسها ويأخذون أموالها، فأرسلت قريش تطلب من رسول الله قبول أولئك المسلمين المنفلتين منها، وعدم ردهم إلى قريش، لتتخلص منهم ومن تعرضهم لقوافل قريش،

فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه في المدينة[2730].

ويستفاد من قصة أبي جندل وأبي بصير أنه يسع الفرد المسلم غير المرتبط بجماعة ما لا يسع الجماعة ولا عضواً فيها، بمعنى أن الفرد المسلم السائب غير المرتبط له أن يعمل من الأعمال المباحة له شرعاً ومنها ما فيه ضرر على المشركين يستحقونه، بينما لا يجوز للجماعة المسلمة ولا عضواً فيها أن يفعل ما يفعله المسلم السائب وإن كان العمل بذاته جائزاً.

فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك وتفقه أعضاءها فيه، حتى لا يعملوا أي عمل لا ترتضيه الجماعة، ولا يتفق وسياستها في العمل، أو لا يتفق مع ما اتفقت عليه مع خصومها، لأن مقياس جواز العمل للجماعة المسلمة لا يقف عند حدّ مشروعية العمل في ذاته، وإنما يتجاوزه إلى مدى ما يحققه من مصلحة راجحة، أو دفع مفسدة راجحة، باعتبارها جماعة ذات هدف معين واسع، تريد الوصول إليه ولا تقف عند حدّ تحصيل المصالح الجزئية، إذا كان من شأن تحصيل هذه المصالح تفويت المصلحة الكبرى، أو تأخير تحصيلها وما في تأخيرها من احتمال تفويتها بالكلية. وإذا كانت الجماعة تلتزم بما قلت فعلى كل عضو في الجماعة أن يلتزم بما التزمت به أو تلتزم به من أعمال فعلاً أو تركاً، لأن أعماله تنعكس على الجماعة، لأنه عضو فيها ولا يمكن براءة الجماعة من أعماله، فليتق الله عضو الجماعة المسلمة وأن يلتزم بكل دقة ما تلتزم به الجماعة من أعمال فعلاً لها أو تركاً لها، وليعتبر الأخ الداعية العضو في الجماعة المسلمة بقصة أبي جندل وأبي بصير وبما فعله النبي ﷺ من رده لأبي جندل ومن التزام المسلمين في المدنية ببنود الصلح - صلح الحديبية - ولا يجوز الخروج على ما ذكرته، هذا ويجب أن يكون معلوماً أن التزام عضو الجماعة المسلمة بما تلتزم به الجماعة، لا يشترط في التزام الجماعة الذي يلتزم به أعضاؤها أن يكون هناك معاهدة أو اتفاق تحريري بين الجماعة المسلمة وبين خصومها، وإنما يكفي لالتزام العضو بما تلتزم به جماعته من سياسة ومن منهج في العمل باختيار منها أو باجتهاد منها أو نتيجة اتفاق مع خصومها، سواء كان اتفاقاً تحريراً أو اتفاقاً شفهياً.

(٢٧٣٠) الرحيق المختوم ص٣١٧ وما بعدها.

١٤٤٧- ثناء الله على أصحاب رسول الله ﷺ:

ذكرت ثناء الله على أصحاب محمد ﷺ، ومدحه لهم، وشهادته لهم، بالعمل الصالح وبنيتهم الصالحة، وأعيد هنا ثناء الله عليهم وإن كان في إعادته تكرار قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾(٢٧٣١) هذه الآية صريحة في دلالتها على علو منزلة أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى كثرة عبادتهم وصلاتهم، وإرادتهم الظفر بفضل الله ورضوانه، وأنهم كانوا أعواناً وتقوية لرسول الله ﷺ، وأن الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وليكونوا جنوده يشدون أزره ويجاهدون معه، ويكونون بين يديه، يأمرهم فيطعيون، يحبونه أكثر من نفوسهم ويفدونه بأرواحهم، ويؤثرون أن يموتوا دونه ولا تصيبه الشوكة.. إن أولئك الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ، لا ينطوي قلب مسلم إلا على محبتهم، وإلا على الحرص على اتباعهم؛ لينال رضوان الله تعالى. فهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده ونشروا الإسلام ونقلوا إلينا كتاب الله وسنة رسوله، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

فعلى الدعاة أن يعرفوا قدرهم ومنزلتهم ويبينوها للناس، ويزيلوا عن أذهانهم الشبهات والأباطيل التي وضعها وأثارها ويثيرها المبتدعة الفجرة الذين يتدينون ببغضهم وسبهم وشتمهم وإلصاق النقائص بهم، وهذا علامة نفاقهم وزيغهم عن سبيل الحق. فعلى الدعاة تفهيم المسلمين منزلة الصحابة وقدرهم عند الله ولا يعوزهم الدليل على ما يقولون، ففي كتاب الله آيات صريحة في الثناء عليهم، ومنها هذه الآية، فليحفظها الدعاة وليقرؤوها على الناس. وكذا في السنة نصوص كثيرة في الثناء على الصحابة، فليقرأها الدعاة على الناس أيضاً، فهذا من معاني دعوتهم، ومن واجبهم في تبيين هذه المعاني للناس.

(٢٧٣١) انظر الفقرة ١٤٣٤، والآية في سورة الفتح ورقمها ٢٩.

الفصل الخامس عشر
غزوة خيبر

المبحث الأول
خلاصة الغزوة وما يتعلق بها

١٤٤٨- وعد الله لأهل الحديبية بفتح خيبر:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[٢٧٣٢]. وهذه المغانم الكثيرة التي وعد الله أهل الحديبية - أصحاب بيعة الرضوان - هي ما يغنمه المسلمون من الكفار إلى يوم القيامة. ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني مغانم خيبر. ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنكصوا ورجعوا ولم ينصروا يهود خيبر[٢٧٣٣].

١٤٤٩- النبي ﷺ يسير إلى خيبر:

كانت خيبر مركزاً لتجمع اليهود بعد أن أخرج النبيﷺ يهود المدينة، ولم تنته دسائس اليهود وتحريضاتهم الآخرين على محاربة المسلمين، فأراد النبي ﷺ القضاء على هذا الوكر الخبيث لليهود فلما انصرف النبي ﷺ من الحديبية نزلت سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، وفيها وعد الله تعالى للمسلمين، أهل بيعة الرضوان، بمغانم خيبر بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني خيبر فقدم ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام فيها حتى سار إلى خيبر في المحرم من سنة سبع للهجرة.

(٢٧٣٢) سورة الفتح الآية ٢٠.

(٢٧٣٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٦٤.

١٤٥٠- لم يشترك في غزوة خيبر غير أهل الحديبية:

هذا ولم يسمح رسول الله ﷺ لغير أهل الحديبية في السير إلى خيبر، ولذلك لما أراد الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية الخروج مع النبي ﷺ إلى خيبر رفض طلبهم، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢٧٣٤]. والمعنى: سيقول المخلفون الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ أي إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يقول هؤلاء المتخلفون: دعونا نتبعكم في ذهابكم وسيركم إلى خيبر، يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية أن غنائم خيبر تكون لهم لا يشاركهم فيها غيرهم[٢٧٣٥]. وهكذا سار سيدنا محمد ﷺ والمسلمون الذين كانوا معه في الحديبية متوجهين إلى خيبر.

١٤٥١- اقتراب النبي ﷺ من خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خيبر، وكان ﷺ قد اختار مكاناً لنزول جيشه، فأتاه حباب بن المنذر، فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلكه الله أم هو الرأي في الحرب؟ قال ﷺ: «بل هو الرأي» فقال حباب: إن غير هذا المكان أحسن من هذا، وبيَّن له سبب ذلك، فأخذ النبي ﷺ برأيه، ثم تحول إلى مكان آخر[٢٧٣٦].

١٤٥٢- لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه:

وفي الليلة التي بدأ القتال في صباحها، قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه»، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه». فبات الناس ليلتهم فلما أصبحوا

(٢٧٣٤) تفسير البخاري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨ والآية من سورة الفتح ورقمها ١٥.

(٢٧٣٥) تفسير البخاري ج٤ ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢٧٣٦) الرحيق المختوم ص٣٣٦.

غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطى الراية فقال ﷺ: «أين عليّ بن أبي طالب»؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله. قال: «فأرسلوا إليه فأتوني به» فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع فأعطاه الراية. فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم». وفي رواية للبخاري في إعطاء الراية في قتال خيبر، قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله عليه» فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه(٢٧٣٧).

١٤٥٣- انتصار المسلمين:

وكانت خيبر تضم ثمانية حصون منيعة، يتحصن بها اليهود، وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان هذا الحصن حصن مرحب اليهودي المشهور بشجاعته، فخرج علي بالمسلمين إلى هذا الحصن فخرج مرحب يريد المبارزة فبارزه علي فقتله، ودارت معارك حول هذا الحصن، وقتل فيها عدد من اليهود انهارت بعدها مقاومة اليهود، فتسللوا منه وتركوه خالياً فهاجمه المسلمون، ثم تهاوت حصونهم الباقية فاستسلمت للمسلمين. وكان من أجل ذلك أن طلب اليهود الصلح، والخروج من حصونهم سالمين على أن تُحقَن دماء المقاتلين منهم، وعلى أن يخرجوا من خيبر ويتركوا أموالهم لرسول الله ﷺ. وهكذا تم فتح خيبر، وقسمت الغنائم على أفراد الجيش الإسلامي.

١٤٥٤- إبقاء اليهود في خيبر لزراعتها ورعاية شجرها:

ولما أراد النبي ﷺ إجلاء اليهود من خيبر، طلبوا بقاءهم أجراء فيها ليزرعوها ويقوموا على رعاية شجرها، فوافق النبي ﷺ على ذلك ما بدا لرسول الله أن يقرهم(٢٧٣٨). وأن يكون لهم الشطر من زرعها وثمرها. فقد أخرج البخاري عن

(٢٧٣٧) صحيح البخاري ج٧ ص٧٠.

(٢٧٣٨) صحيح البخاري ج٢ ص٦٠٩ نقلاً من الرحيق المختوم ص٣٤٣.

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها[٢٧٣٩]. ثم قسمّ النبي ﷺ الغنائم على أهل الحديبية، أي الذين ساروا إليها مع النبي ﷺ كما وعدهم الله تعالى، من شهد منهم القتال ومن غاب عنه[٢٧٤٠].

١٤٥٥- زواج النبي ﷺ بصفية:

كانت صفية بنت حيي بن أخطب من جملة السبي، فعرض عليها ﷺ الإسلام فأسلمت فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها. فصارت من أزواج النبي ﷺ. وجاء في قصة زواجها بالنبي ﷺ أن صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير وقد قتل أبوها مع بني قريظة وقتل زوجها في معارك خيبر، فقال الصحابة: يا رسول الله إنها سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك، فاستحسن رأيهم، فاشتراها من دحية الكلبي التي وقعت في سهمه من غنائم خيبر، وأعتقها وأسلمت، وتزوجها بعد أن خيرها ﷺ بين أن يعتقها وترجع إلى أهلها، أو تسلم ويتزوجها، فقالت: أختار الله ورسوله، فتزوجها ﷺ، وماتت رضي الله عنها في سنة خمسين للهجرة، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة[٢٧٤١].

١٤٥٦- يهودية تهدي لرسول الله ﷺ شاة مسمومة:

أهدت زينب بنت الحارث امرأة اليهودي سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة، وأكثرت من سمّ ذراعها لما علمت أن هذا العضو أحب إلى رسول الله ﷺ من سائر أعضاء الشاة. ثم جاءت بالشاة المشوية المسمومة ووضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، فتناول الذراع فلاك منها قطعة فلم يسغها فلفظها، وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم». وكان معه بشر بن البراء بن معرور وقد أخذ منها قطعة فأساغها - أي بلعها. ثم أرسل إليها النبي ﷺ فاعترفت، فقال لها ﷺ: «ما حملك على

(٢٧٣٩) صحيح البخاري ج٧ ص٤٩٦.

(٢٧٤٠) الرحيق المختوم ص٣٤٣.

(٢٧٤١) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٦٦، تفسير المنار ج٤ ص٣٧٢، صفوة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٢٧.

هذا»؟ قالت: بلغتَ من قومي ما قد علمتَ، فقلتُ: إن كان كذاباً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبره ربه، فتجاوز عنها. ثم مات بشر من أكلته تلك. ويروى أن النبي ﷺ قتلها به قصاصاً. ولم يزل هذا السم يعاود النبي ﷺ كل عام حتى اختاره الله لجواره ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى قطعت أبهري»[٢٧٤٢].

(٢٧٤٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٤٩٧-٤٩٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤١٨.

المبحث الثاني
ما يستفاد من غزوة خيبر
للدعوة والدعاة

١٤٥٧- الأخذ برأي الغير إذا ظهر صوابه:

رأينا أن النبي ﷺ أخذ برأي حباب في ضرورة التحول من المكان الذي اختاره النبي ﷺ لنزوله ونزول جيش المسلمين لما تبين صواب رأي حباب بما ذكره من أسباب. وعلى هذا فينبغي للدعاة وأمير جماعتهم أن يأخذوا برأي أحدهم أو برأي غيرهم إذا ظهر صوابه إذ قد يخفي الرأي الصواب في أمر ما على أمير جماعة الدعاة أو عليهم فيما يباشرونه من أعمال دعوية، فعليهم الأخذ بهذا الرأي الصائب بلا تردد.

١٤٥٨- يجوز ابداء الرأي وإن لم تسبقه استشارة:

يجوز للدعاة أن يبدي أحدهم ما يراه صواباً في أمور الدعوة لأمير الجماعة وإن لم يستشره، لأن إبداء الرأي الصواب من باب الدلالة على الخير، ولا يشترط فيها سبق سؤال الدال، ولأن أمور الدعوة تهم الجميع، ولا يختص هذا الاهتمام بأمير الجماعة ولا بواحد من أعضائها، وقديماً أخبر الهدهد سليمان عليه السلام ما رآه من خلل وشرك في قوم سبأ يستلزم إزالته، ولم ينكر عليه سليمان ذلك أو يقول: أنا لم أكلفك بذلك لتخبرني عنهم.

١٤٥٩- يناط العمل بمن هو أقدر عليه من غيره:

رأينا أن النبي ﷺ أعطى الراية - راية القتال - إلى علي رضي الله عنه، وعلل ذلك: بأن الله سيفتح على يديه. أي يفتح عليه حصن يهود خيبر، فيكون ذلك مفتاح النصر وخذلان اليهود. ويقتضي هذا الفتح قدرة علي رضي الله عنه وصلاحيته، ليكون سبباً للفتح الذي يأتي به الله تعالى. وعلى هذا ينبغي لأمير جماعة الدعاة

تقسيم الأعمال الدعوية على الدعاة، فيعطي كل واحد من أعمال الدعوة ما هو قادر عليه ومتمكناً منه، وهذا هو نهج رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، فقد أعطى ﷺ القيادة في بعث السرايا إلى خالد بن الوليد منذ أن أسلم، وكذلك فعل أبو بكر مع خالد، وأيضاً فإن كل إنسان مُيسَّر لما خلق له، فمن السياسة الحكيمة ومن النصح للأمة أن يلاحظ أمير الجماعة ذلك فيما ينسبه من أعمال إلى أعضاء جماعته، فيكلف كل واحد منهم ما يقدر عليه، بل وأقدر عليه من غيره، ولكن قد يكون الشخص أقدر من غيره على عمل ما وأولى به من غيره، ولكن لا تتحقق به مصلحة الدعوة، فعلى أمير الجماعة ملاحظة ذلك، ويلاحظ ما تتحقق به المصلحة عند إسناد هذا العمل لهذا أو لهذا، فلا ينظر إلى القدرة على العمل بل ينظر أيضاً إلى ما تتحقق به المصلحة. ومن أمثلة ذلك إسناد مسؤولية العمل الدعوي في مكان معين لعضو في الجماعة مع أن غيره أقوى على العمل منه، ولكن مصلحة الدعوة تتحقق على يد العضو المرجوح؛ لكونه معروفاً في هذا المكان، أوله منزلة عند أهل هذا المكان كأن يكون ابن رئيس عشيرة، ونحو ذلك من المرجحات في إسناد العمل له مع وجود من هو أولى بالعمل منه، ولكن المصلحة تقضي بإسناد العمل له لما ذكرناه. وهذا الجواز في إسناد العمل للمفضّول مع وجود الفاضل، مشروط بأن يتحقق الحدّ الأدنى من الصفات والمعاني في عضو جماعة الدعاة، كما أنه في هذه الحالة يجوز لأمير الجماعة أن ينسّب القادر على العمل لمعاونة المفضول الذي أسند إليه هذا العمل للأسباب التي ذكرتها.

١٤٦٠- يجوز استخدام الكفار بشروط:

رأينا أن النبي ﷺ أبقى يهود خيبر في مكانهم كأجراء يقومون بزرع الأرض وبالعناية بالشجر، وشرط عليهم أن استمرارهم في القرار بخيبر مرهون بإقرار النبي ﷺ لهم. كما يشترط أن لا يكون هناك من المسلمين ما يسد مسدهم، والظاهر أن يهود خيبر كانوا أقدر من غيرهم على القيام على أرض خيبر وزروعها وشجرها، وما كان المسلمون بمستطعين أن يفعلوا ذلك وهم في المدينة غير مقيمين في خيبر، ويشترط أيضاً أن لا يكون في المسلمين من يسدّ مسدهم، ويشترط أيضاً الاطمئنان بهم والوثوق بأمانتهم على هذا العمل الذي يناط بهم على سبيل الإجارة أو المزارعة.

١٤٦١- دسائس اليهود وأضرارهم بالمسلمين:

رأينا قصة الشاة المسمومة، ومن قبلها ذكرنا في أسباب إجلاء يهود بني النضير غدرهم وإرادتهم قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر كبير عليه من مكان عالٍ. وعلى هذا فعلى الدعاة وجماعتهم الحذر كل الحذر منهم، لأن حنينهم أو نفعهم مقصور على أبناء دينهم، أما بالنسبة لغيرهم لا سيما للمسلمين فهم يكيدون لهم ويريدون الشرّ بهم، بل ويستحلون إيذاء المسلمين ولا يرون حرجاً في هذا الإيذاء، قال تعالى عنهم: ﴿ . . . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢٧٤٣] أي عدم أدائهم الحقوق بسبب قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وقولهم: وما حَبْسُنا أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يُجعَل لهم في كتابنا حُرْمة[٢٧٤٤]. ومن المعلوم أن اليهود أشد عداوة للمسلمين من غيرهم، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ . .﴾[٢٧٤٥]. ومع هذه العداوة الشديدة فيتوقع منهم كل شر وضرر بالمسلمين.

(٢٧٤٣) سورة آل عمران الآية ٧٥.

(٢٧٤٤) تفسير الزمخشري ج١ ص٣٧٥.

(٢٧٤٥) سورة المائدة الآية ٨٢.

الفصل السادس عشر

معركة مؤتة[2746]

المبحث الأول

خلاصتها وأحداثها

١٤٦٢- سبب المعركة:

إن شرحبيل بن عمرو الغساني وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولاً أرسله النبي ﷺ إلى صاحب بصرى واسم الرسول الحارث بن عمير، فجهز إليهم النبي ﷺ عسكراً في ثلاثة آلاف رجل، وبعثه إلى مؤتة وهي من أرض الشام بالقرب من البلقاء، وكان إرسال هذا الجيش إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة[2747].

١٤٦٣- الرسول ﷺ يعين أمراء للجيش:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة». قال عبد الله كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورَميه.

وفي هذا الحديث جواز تعليق الإمارة بالشرط، وتعيين عدة أمراء بالترتيب[2748]. ويلزم هذا الترتيب، ولا يُصَار إلى غيره، لأن اختياره مقدم على

(٢٧٤٦) موضوع الكتاب قصص القرآن ومعركة مؤتة وإن لم يرد لها ذكر في القرآن ولكن تضمنها الأمر بالجهاد وذكرتها هنا لأنها أول معركة مع دولة الرومان، وفيها فوائد كثيرة للدعوة والدعاة.

(٢٧٤٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٤٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٧ ص٥١٢-٥١٣.

اختيار غيره، لأنه أعرف بالمصلحة، فلو لم يرد هذا الترتيب لاكتفى بالأول وترك اختيار الثاني إذا قتل الأول لأفراد الجيش.

١٤٦٤- النبي ﷺ يودع الجيش ويوصيه:

وخرج رسول الله ﷺ يودع الجيش ويوصيه، فكان مما قاله لهم: «اغزوا باسم الله، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء..»(٢٧٤٩).

١٤٦٥- وصول الجيش إلى معان:

وبعد توديع النبي ﷺ للجيش، مضى في سبيله حتى وصل مَعَانَ من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قيصر الروم قد نزل مآب في أرض الشام في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من متنصرة العرب من لخم وجُذَام وغيرهم. فلما بلغ ذلك جيش المسلمين أقاموا في معان ليلتين وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ بواقع الحال، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، ولكن عبد الله بن رواحة لم يوافقهم على هذا الرأي، وشجعهم على القتال مذكراً بأنهم جاؤوا للنصر أو للشهادة فتشجع القوم ومضوا إلى لقاء العدو(٢٧٥٠).

١٤٦٦- بدء القتال واستشهاد قادة الجيش الإسلامي:

التقى الجيشان، مع هذا التفاوت الهائل في العدة والعدد، ولكن المسلمين لم ترهبهم كثرة عدد العدو فاندفعوا في قتال العدو، فقاتل زيد بن حارثة قتال الأبطال فاستشهد. فتولى القيادة بعده جعفر بن أبي طالب، وحمل الراية وكان راكباً فرسه الشقراء فنزل عنها وتقدم يقاتل وهو حامل الراية ويقول:

يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيبةً وبارداً شرابُها
والروم رومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةً بعيدةً أنسابُها
عليّ إن لاقيتها ضِرابُها

(٢٧٤٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٦.

(٢٧٥٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٦-٤٢٧.

وكان جعفر رضي الله عنه يحمل الراية في يمينه فقطعت، فأخذها بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد، وكان جزاؤه من ربه أن أبدله الله بجناحين عوضاً عن يديه اللتين قطعتا في سبيل الله، فهو يطير بهما في الجنة حيث شاء، وقد ذكرنا أن جراحه بلغت بضعاً وتسعين جرحاً، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وظل يقاتل وهو يحمل الراية حتى استشهد، فاختار المسلمون خالد بن الوليد أميراً عليهم(٢٧٥١).

١٤٦٧- النبيُّ يخبر أصحابه باستشهاد أمراء الجيش الإسلامي:

وقد نعى النبي ﷺ أمراء الجيش قبل أن يأتيه خبر استشهادهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه ﷺ تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(٢٧٥٢) ومعنى «نعى» أي أخبرهم بقتله. «وعيناه تذرفان» أي تدفعان الدموع، وقوله: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله» وفي حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ قال عن خالد: «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره» فمن يومئذ سمي سيف الله. «حتى فتح الله عليهم» وقد اختلف أهل النقل في المراد بهذه العبارة: هل كان هناك قتال فيه هزيمة المشركين، أو المراد بالفتح انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين؟ فقد جاء في المغازي لموسى بن عقبة ما نصه: «ثم أخذ - يعني اللواء - عبد الله بن رواحة فقتل. ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين» والظاهر أن خالداً رأى من مصلحة المسلمين الإنسحاب المنظم الذي لا يفطن إليه الروم، فقام رضي الله عنه بتغيير تنظيم جيشه، فجعل الميمنة مكان الميسرة، والميسرة مقام الميمنة، وغيرّ مقام مقدمة الجيش حتى توهم العدو أن مدداً وصل إلى المسلمين فرعبوا وتراجعوا، وتراجع خالد بجيشه بانتظام، وكان يناوشهم وهو ينسحب. حتى روى البخاري في صحيحه عن خالد أنه قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤته تسعة أسياف، فما بقي في

(٢٧٥١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٢٧-٤٢٨.

(٢٧٥٢) صحيح البخاري ج٧ ص٥١٢.

يدي إلا صفيحة يمانية[2753].

١٤٦٨- حزن رسول الله ﷺ على قتل أمراء الجيش:

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما جاء قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنهم - جلس رسول الله ﷺ يُعَرفُ فيه الحزن... أي لما جعل الله فيه من الرحمة. ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء، ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً بقضاء الله وقدره إذا كان قلبه مطمئناً.

١٤٦٩- لا يجوز التمادي في الحزن:

ولكن إذا كان الحزن عند المصيبة لا يخرج الحزين عن دائرة الصبر، إلا أنه لا يجوز التمادي في الحزن، فقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري في حديث عبد الله بن جعفر: ثم أمهل - أي الرسول ﷺ - آل جعفر ثلاثاً ثم أتاهم، فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم». ومما يخفف الحزن على المصاب الحزين أن يذكر الثواب الذي يُرجَى أن يلقاه الفقيد، فقد ذكر ابن حجر أيضاً وهو يشرح حديث البخاري في حادثة استشهاد أمراء الجيش في معركة مؤتة، قال ابن حجر في رواية للبخاري في هذه الحادثة «وما يسرهم أنهم - أي الذين استشهدوا - عندنا» لما رأوا من فضل الشهادة[2754].

١٤٧٠- النبي ﷺ ولي من لا وليّ له:

ومن أخبار استشهاد أمراء الجيش في معركة مؤتة أن النبي ﷺ ذهب إلى بيت جعفر بن أبي طالب، وقال: «ائتوني ببني أخي» - أي أبناء جعفر - فجيء بهم فدعا الحلاق وحلق رؤوسهم، وقال لأمهم وهي تذكر يتمهم: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[2755] والحقيقة أن رعاية رسول الله ﷺ ليتامى المسلمين عامة فيدخل فيها يتامى الشهداء من باب أولى، فإن كان هؤلاء الشهداء تجمعهم

(٢٧٥٣) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٥٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥١٣.

(٢٧٥٥) المصدر السابق، والسيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٤٧٠.

قرابة الرحم من رسول الله ﷺ، فدخول يتامى هؤلاء الشهداء في رعاية وكفالة رسول الله ﷺ أكثر أولوية. ويدل على عموم رعاية رسول الله ﷺ ليتامى المسلمين قوله عليه الصلاة والسلام: «فأي مؤمن مات وترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه» قال الشوكاني في شرح هذا الحديث ما نصه: «الضياع: قال الخطابي هو وصف لمن خلفه الميت بلفظ المصدر أي ترك ذوي ضياع، أي لا شيء لهم..»[٢٧٥٦].

١٤٧١- ليسوا بالفرارّ ولكنهم الكرار:

وصل جيش المسلمين إلى المدينة بعد أن هيأ خالد بن الوليد خطة ذكية محكمة في الانسحاب بتبديل تنظيم جيشه كما أشرنا من قبل، بحيث جعل العدو يعتقد بأن مدداً جاء إلى جيش المسلمين، فآثر العدو الرجوع وعدم ملاحقة جيش المسلمين. ولما وصل خالد بن الوليد وجيشه إلى المدينة خرج الناس لاستقباله، وأخذوا يحثون عليه التراب ويقولون: يا فرار فررتم من القتال في سبيل الله. والرسول ﷺ يقول: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى»[٢٧٥٧] والحقيقة أن انسحاب خالد يعتبر انتصاراً للمسلمين وإن بدا في ظاهره هزيمة، لأن الثبات في وجه العدو يكون مطلوباً إذا أدى إلى هزيمة العدو والاستيلاء على أرضه، فإذا خلا من هذه الغاية، وصار وسيلة لفناء الثابتين صار الثبات غير مطلوب، بل ربما صار محظوراً، ويكون النجاح في تخليص الجيش من قبضة العدو أو من أسره لجنوده، وهذا ما حققه خالد بانسحابه الجريء الذكي المنظم، وهذا هو ما لاحظه سيد العارفين محمد ﷺ بقوله: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». فقد حفظ خالد قوته وجيشه لمعارك أخرى قادمة يكون النصر فيها قريباً من المسلمين إن شاء الله تعالى.

(٢٧٥٦) نيل الأوطار للشوكاني ج٦ ص٥٧.

(٢٧٥٧) كتابنا أصول الدعوة ص٣٥٤.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة مؤتة

١٤٧٢- إظهار القوة لإرهاب العدو ومن يناصره:

إن إرسال النبي ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل إلى خارج المدينة وبعيداً عنها إلى مشارف الشام حيث يحكم الرومان، وحيث توجد كيانات من القبائل العربية المتنصرة والمتعاونة بل والعملية للرومان وحكامهم في الشام، أقول إن إرسال النبي ﷺ هذا الجيش لم يكن فقط بسبب قتل مبعوثه من قبل أحد الحكام العرب على البلقاء ومن أرض الشام من قبل قيصر الروم، وإنما انضمت إلى هذا السبب أمور أخرى تستدعي إرسال جيش المسلمين إلى تلك النواحي، ومن هذه الأمور إرهاب القبائل العربية الممتدة ما بين حدود الشام والمدينة، والحكام المنصوبين من قبل الرومان، والذين يتربصون بالمسلمين، فكان لا بد من إرهاب هؤلاء جميعاً والتحرك نحوهم، وعدم انتظارهم حتى يأتوا إلى غزو المسلمين في عقر دارهم، ويستفاد من هذا أن لا قرار ولا استقرار للحق وأهله ما دام هناك باطل يتحرك أهله للإجهاز على الحق وأهله.. والحق الوحيد الخالص هو الإسلام، وهذا ما يخيف أهل الباطل، ويحاولون ضرب الحق وإخفات صوته بضرب حملة الحق والداعين إليه. وهذا الذي أقوله ينطبق على الدول الباطلة الكافرة في نظرتها وتخوفها من الدولة المسلمة ولذلك فهي تتربص بها وتسعى للإجهاز عليها، كما ينطبق ما قلته على الجماعات المبطلة في نظرتها إلى الجماعة المسلمة وأعضائها من الدعاة العاملين، كما يشمل ما قلته الأفراد الكفرة في نظرتهم إلى الأفراد المسلمين. وعلى هذا فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يفقه ما قلته، فلا ينتظر أن يهاجمه الأعداء بل عليه أن يريهم قوته وقوة جماعته؛ ليرهبهم ذلك فلا يفكرون في التحرش بالدعاة وبجماعته.

١٤٧٣- تأمير أكثر من أمير:

وعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يختار من يخلفه، ومن يخلف خليفته الأول، وذلك على وجه الحيطة والحذر من حدوث فراغ مفاجىء في قيادة الجماعة لأي سبب كان، مما يزعزع كيان الجماعة ويجعل اختيار أمير جديد في حالة فراغ منصب الأمير المفاجىء أمراً صعباً. ونحبذ أن يكون اختيار من يخلف الأمير الحالي عن طريق مشاورة أهل الحل والعقد، وكذلك ينبغي لأمير الجماعة عند تكليف جماعة من الدعاة بعمل ما أن يؤمّر عليهم أميراً يخلفه ثان وثالث حسب ترتيب الأمير. ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد أمر على الجيش الذي أرسله إلى مؤتة ثلاثة أمراء يتولون أمرة الجيش بالترتيب الذي أمر به رسول الله ﷺ.

١٤٧٤- وصية الأمير لمن يؤمرهم:

وعلى الأمير أن يوصي من يؤمرهم على الجماعة التي يكلفها بالقيام بعمل من أعمال الدعوة بتقوى الله، وإخلاص العمل لله، وبالرفق بمن هم تحت إمرته، وأن يعرفهم بما هو المطلوب منهم، وما يحتاجونه للقيام بما كلفوا به، وما يجب عليهم أو يندب أو يحرم أو يكره أو يباح في قيامهم بما هو مطلوب منهم. وأن يحرص مع جماعته على الوفاق وعدم الاختلاف. وأن يحسن هو وجماعته القيام بدعوة الناس إلى الإسلام، ويجمع بين التبشير والإنذار، وهذا كله يستفاد من سنة النبي ﷺ في وصاياه لمن كان يرسلهم ويؤمرهم على السرايا والبعوث التي كان يرسلها. من ذلك[٢٧٥٨]:

أ- روى الإمام مسلم في صحيحه عن سليمان بن بُرَيدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال له: «اغزو باسم الله في سبيل الله.. الخ» وقال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: في الحديث فوائد. (ومنها) استحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم

(٢٧٥٨) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص٣٧-٤١، وصحيح البخاري بشرح العسقلاني، ج٨ ص٦٠-٦١، وج١٣ ص١٦٢-١٦٣.

وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم وما يحل لهم وما يحرم عليهم وما يكره وما يستحب.

ب- وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا..» وجاء في شرحه للإمام النووي: جمع في هذا الحديث بين الشيء وضده: التبشير والتنفير، والتيسير والتعسير، لأنه قد يفعلهما في وقتين، فإن اقتصر على «يسروا» لصدق ذلك على من يسرَّ مرة أو مرات، وعسرَّ في معظم الحالات، فإذا قال: «ولا تعسروا» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب. وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة - أي فقط - من غير ضمها إلى التبشير، وفي الحديث أيضاً تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ ومن تاب من المعاصي، فهؤلاء كلهم يتُلطَف بهم، ويدرجون في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يسّر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها. ومتى عسّرتَ عليه أوشَكَ أن لايدخل فيها، وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها.

فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يوصي الدعاة ومن يؤمره عليهم الأخذ بالرفق في الدعوة وعدم تنفير الناس منها، وأن يجمع بين التبشير والإنذار، وأن يأخذ المدعوين بالتدريج في حملهم على الطاعة بأن يأمرهم بالواجبات أولاً حتى إذا استقاموا عليها ندبّهم إلى المندوبات، وأن يأمرهم بترك المحرمات، فإذا استقاموا عليها ندبهم إلى ترك المكروهات، وأن يترفق بمن أسلم حديثاً أو بمسلم عاص تاب حديثاً فيأخذ بما قاله الإمام النووي يرحمه الله.

جـ- وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري: أن النبي ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن فقال له: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا

تختلفا» قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث وصية الإمام لولاته وإن كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى.

د- وروى الإمام البخاري عن أبي بردة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال واليمن مخلافان ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا». المخلاف: الإقليم وفي رواية أخرى للبخاري وفيها: «وتطاوعا». وجاء في شرحه لابن حجر العسقلاني: «وتطاوعا» أي توافقا في الحكم ولا تختلفا، لأن ذلك يؤدي إلى اختلاف أتباعكما، فيفضي إلى العداوة ثم المحاربة. والمرجع في الاختلاف إلى ما جاء في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. وفي الحديث الأمر بالتيسير في الأمور والرفق بالرعية وتحبيب الإيمان إليهم وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حدّ التكليف من الأطفال؛ ليتمكن الإيمان من قلبه ويتمرن عليه. وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة وداومت عليها نقلها إلى حالة أخر.

١٤٧٥- لا يجوز التمادي في الحزن وليتذكر المحزون نعم الله عليه:

قد تصاب جماعة الدعاة بنكبة مثل فقد أميرها أو أحد دعاتها أو حبسه أو قتله بغير وجه حق، أو تبتلى بمنعها من نشاطها الدعوي. أو بمصادرة أموالها ونحو ذلك. فهذه أمور تبعث الحزن في القلوب، ولا ذم على حزن الجماعة وأفرادها بسبب هذه النكبات والمصائب التي تصيبها، ولكن تُذَم وتعاب إذا تمادت في حزنها. وجعلت من أيامها مآتم ومن نشاطها الدعوي المقدور عليه مناحة وعويلاً... وعلى الجماعة ودعاتها وسائر أعضائها أن يلحظوا في مصيبتهم نعم الله عليهم في هذه المصائب، يلحظوا منزلة الشهادة التي نالها فقيدهم بقتله من قبل أعداء الدعوة، وبأن المصيبة لم تكن في دينهم ولم تزعزع إيمانهم، وبأن المصيبة مدخل لامتحان الله لهم ليفوزوا بالثواب إن نجحوا في الامتحان، فليجدوا لينجحوا فيه لا أن يبكوا وينوحوا، وأن يتذكروا بأنهم ليسوا أحسن حالاً من رسول الله إيماناً وقرباً من الله

تعالى، ولا أحسن حالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من المؤمنين أتباع رسل الله الماضين، فكلهم أوذوا لإيمانهم، فهذه هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، وليرددوا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ مستحضرين معناها في قلوبهم، وليتذكروا قول رسول الله ﷺ حين بلغه استشهاد من أمرهم على الجيش: «إنهم ما يسرهم أن يكونوا عندنا» لما نالوه من عظيم ثواب الله.

١٤٧٦- أمير الجماعة كربّ العائلة لأفراد جماعته:

ويجب أن يكون أمير الجماعة المسلمة - جماعة الدعاة - لأفراد جماعته كرب العائلة لأفراد عائلته، فهو ينظر إليهم كأبنائه أو إخوانه، يشفق عليهم ويرعاهم ويهتم بأمرهم ويحرص على ما ينفعهم، ويجنبهم الضيق والعنت ولا يتعسف في استعمال سلطته الشرعية عليهم، ويحزنه إن نالهم مكروه، ويدفع عنهم الشر والضرر. وإذا فُقِدَ أحدهم بموت أو قتل أو استشهاد، أو أصابه مكروه دون القتل كالحبس أو النفي أو الفصل من عمله، أو تضييق الرزق عليه في أي عمل يعمله، كان أمير الجماعة نعم المواسي والمعين له دون منة أو تضجر. وإذا ترك الداعي وراءه صبية صغاراً يتامى لا مال لهم ولا معيل ولا كافل كان هو المعيل والكافل. وليتذكر أمير الجماعة قول النبي ﷺ لامرأة جعفر بن أبي طالب وقد زارها بعد استشهاد جعفر وهي تذكر يتم أولادها: «العيلة تخافين عليهم؟ وأنا وليهم في الدنيا والآخرة» كما ذكرنا من قبل. وقد يكون من المرغوب فيه وضع نظام للتكافل والتضامن بين أفراد الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وتهيئة ما يلزم لتحقيقه من أموال وغيرها.

١٤٧٧- مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث:

إن مقياس النصر لا يكون دائماً من خلال ظواهر الحوادث مثل سحق قوات العدو واحتلال دياره، وإنما قد يكون من خلال ظواهر أحداث لا تسرّ عموم المسلمين، وإن كانت هذه الحوادث في جوهرها تحقق نصراً حقيقياً للمسلمين، وإن كان في الآجل وليس في العاجل. ويكفي للتدليل على ما أقول أن أذكر صلح الحديبية، فإن ظاهره ما كان يوحي بأنه نصر للمسلمين، ولكن في حقيقته نصر مبين للمسلمين، وإن كان في الآجل وعلى غير النمط والأسلوب والكيفية التي رغب فيها المسلمون، ولذلك سمى الله تعالى ذلك الصلح «بالفتح» كما جاء في سورة الفتح.

وكذلك انسحاب خالد بن الوليد، وتخليصه جيش المسلمين من الهلاك، وابقاؤهم لمعارك قادمة، كان ذلك نصراً حقيقياً للمسلمين، وقد أبصر ذلك رسول الله ﷺ وعبرَّ عنه بكلمته الخالدة: «إنهم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» فعلى الجماعة المسلمة وأميرها والدعاة فيها أن يفقهوا ذلك ولا يحسبوا النصر، نصرهم، يكون بالضرورة على النمط الذي يشتهون: كثرة الأتباع أو شدة الإقبال عليهم، فإن غيث السماء رحمة للعباد، ولكن لا يشترط أن يبقى على سطح الأرض تراه أعين الناس، فهو رحمة وإن اختفى في باطن الأرض، وإن نصرهم وفوزهم بقدر بذل طاقتهم في عملهم المبرور وبقدر إخلاصهم فيه بأن يفعلوه خالصاً لوجه الله.. ورب تأخير في الوصول إلى المطلوب خير من التعجل والعجلة في الوصول إليه تتبعه نكسة وتراجع..



الفصل السابع عشر
قصة غزوة فتح مكة

المبحث الأول
خلاصة وقائعها

١٤٧٨- أسبابها:

كان سبب هذه الغزوة أن قريشاً نقضوا العهد الذي وقع بينهم وبين النبي ﷺ، وبيان ذلك أنه كان من شروط صلح الحديبية: من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل، فدخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلو عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت معاهدة الحديبية خرج نوفل بن معاوية من بني بكر مع جماعة وبيّتَ خزاعة على ماء لهم يقال له الوتير، فأصاب منهم رجلاً، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال، وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً خفية، فلما انقضت الحرب خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، فأنشده شعراً يستنصره على قريش؛ لنقضها العهد بإعانتها بني بكر على خزاعة، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم» فكان ذلك ما هاج فتح مكة[٢٧٥٩]. وشعرت قريش بخطئها في إعانة بني بكر وما قد يؤدي إليه عونها لبني بكر من نقض الصلح مع رسول الله ﷺ، فأرسلت أبا سفيان لتجديد الصلح ولكن فشل في مسعاه. إذ لم يحصل من النبي على شيء فرجع وأخبر قريشاً بذلك[٢٧٦٠].

(٢٥٧٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

(٢٧٦٠) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٦-٧.

١٤٧٩- استعداد النبيِّ ﷺ لغزو قريش وإخفاء قصده:

وأخذ ﷺ بالاستعداد لغزو قريش في عقر دارها في مكة، ولذلك حرص ﷺ على إخفاء قصده؛ لئلا يبلغ قريشاً ما عزم عليه ويستعد له، حتى يبغتهم فيسهل التغلب عليهم، وبذلك تحقن دماء كثيرة لا تراق في البلد الحرام. ومن مظاهر إخفاء قصده من استعادته:

(أ) أنه ﷺ قال لعائشة: «جهزيني - أي للخروج للغزو - ولا تعلمي بذلك أحداً»[٢٧٦١].

(ب) وأنه ﷺ استنفر المسلمين وأمرهم بالتهيؤ للخروج ولكن لم يعلمهم بقصده ووجهته[٢٧٦٢].

(جـ) وأنه ﷺ بعث سرية من ثمانية أشخاص إلى بطن أضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على مسافة بعيدة من المدينة في أول رمضان سنة ٨ للهجرة؛ ليظن الظان أنه ﷺ يريد التوجه إلى تلك الناحية، وأن السرية طليعة للجيش الذي يعده حتى إذا وصلت هذه الأخبار إلى قريش لم تظن أنها هي المقصودة[٢٧٦٣].

١٤٨٠- خروج النبي ﷺ إلى مكة:

ولما كمل استعداد النبي ﷺ للخروج، وتجمعت الجموع التي استنفرها النبي ﷺ، وتهيأت للخروج والمسير، أخبرهم ﷺ بوجهته وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، وكان خروجه ﷺ لعشر خلون من شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة بجيش بلغ عشرة آلاف مقاتل من الصحابة الكرام وكان فتح مكة في شهر رمضان باتفاق، ولكنهم اختلفوا في أي يوم من رمضان، وقد وقع اختلافهم ما بين ١٣-١٨ من رمضان[٢٧٦٤].

(٢٧٦١) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

(٢٧٦٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ص٤٣٧.

(٢٧٦٣) الرحيق المختوم ص٣٦٥.

(٢٧٦٤) شرح العسقلاني للبخاري ج٨ ص٤ والسيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٣٧، والسيرة النبوية للعمري ج٢ ص٤٧٥.

١٤٨١- قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة:

وقبل أن يخرج النبي ﷺ من المدينة، أعلمه الوحي بما صنع حاطب بن بلتعة من إرساله كتاباً إلى قريش يعلمهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج وغزوهم في عقر دارهم، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد قال: «انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ» - مكاناً خارج المدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فذهبنا حتى أتينا الروضة فإذا بنا بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتُخرِجنَّ الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنت امرأً من قريش ولم أكن من أنفُسِهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذا فاتني من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: «إنه قد صدقكم». فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال: «إنه شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله عز وجل اطلّع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم..»[٢٧٦٥]. وقد استدل باستئذان عمر على قتل حاطب لمشروعية قتل الجاسوس ولو كان مسلماً، وهو قول مالك ومن وافقه، ووجه الدلالة أنه ﷺ أقرَّ عمر على إرادة القتل لولا المانع، وبيّنَ المانع هو كون حاطب شهد بدراً وهذا منتف في غير حاطب، فلو كان الإسلام مانعاً من قتله لما عللّ بأخص منه[٢٧٦٦].

وذكر بعض أهل المغازي أن لفظ كتاب حاطب إلى قريش «أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام»[٢٧٦٧].

(٢٧٦٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٦٣٣-٦٣٤.

(٢٧٦٦) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٦٣٥.

(٢٧٦٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢١.

١٤٨٢- إسلام العباس عم النبي ﷺ:

ولما وصل رسول الله ﷺ وجيشه إلى الجحفة وقيل إلى رابغ لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج من مكة هو وأهله مسلماً مهاجراً إلى المدينة فأسلم. وقد سُرّ الرسول ﷺ بإسلامه غاية السرور، فقد كان ناصراً له ومؤيداً وفي هَمٍّ شاغل به وبدعوته مع بقائه على دين قريش(٢٧٦٨).

١٤٨٣- وصول النبي ﷺ إلى مرّ الظهران:

وصل النبي ﷺ وجيشه إلى (مر الظهران) وهي قرية بالقرب من مكة بوادي الظهران يقال لها اليوم وادي فاطمة. وقد عميت الأخبار عن قريش لا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل بهم، فخرج أبو سفيان بن حرب يستطلع الأمر لقريش.

١٤٨٤- إسلام أبي سفيان:

قلنا إن أبا سفيان خرج يستطلع الأخبار عن النبي ﷺ وما هو عازم عليه بعد أن فعلت قريش ما فعلته في نصرتها لبني بكر حليفها ضد خزاعة حليفة رسول الله ﷺ. كما أن العباس خرج راكباً بغلة رسول الله ﷺ البيضاء؛ لعله يجد من يبلغ قريشاً بضرورة خروجهم، وطلب الأمان من رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة عنوة. وحصل أن تلاقيا: العباس وأبو سفيان، وبعد محاورة بينهما أركب العباس أبا سفيان خلفه عجز البغلة، وأتى به إلى رسول الله ﷺ، وقد لحق بهما عمر بن الخطاب فقال للنبي ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنقه. فقال العباس: أنا أجرته. ثم قال النبي ﷺ: «اذهب يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به». فلما جاء الصباح جاء به العباس إلى النبي ﷺ وأعلن إسلامه، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»(٢٧٦٩).

(٢٧٦٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٣٩.

(٢٧٦٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٠-٤٤٢.

١٤٨٥- اطلاع أبي سفيان على قوة المسلمين:

وقد أمر النبي ﷺ العباس أن يوقف أبا سفيان في مكان عينه له ليرى كتائب الجيش وهي تمر من هذا المكان، فيرى بنفسه قوة المسلمين، فيكون نذيراً لقريش ويأمرهم بالتسليم والجنوح إلى السلام إبقاءً على أرواحهم، وفي حديث أخرجه البخاري عن هشام عن أبيه، وفيه: أن النبي ﷺ قال للعباس، بعد أن أسلم أبو سفيان: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين» فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ: تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان.. حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذِّمار. ثم جاءت كتيبة فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: - أي أبو سفيان مخاطباً النبي ﷺ - ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال أبو سفيان: قال كذا وكذا. فقال ﷺ: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة..» وجاء في شرحه: وفي رواية أن العباس هو الذي عرض على رسول الله ﷺ أن يوقف أبا سفيان في مكان يرى فيه كتائب الجيش وهي تمر أمامه ليرى قوة المسلمين، ففعل ﷺ وأمر بايقافه عند خطم الجبل أي عند أنف الجبل، وإنما أوقفه هناك لكونه مضيقاً؛ ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم. وفي رواية موسى بن عقبة: «وأمر النبي ﷺ منادياً ينادي: لتظهر كل قبيلة معها من الأداة والعدة». وقول سعد لأبي سفيان: «اليوم يوم الملحمة» أي يوم حرب لا مخلص منه، أي يوم قتل. ومراد سعد يوم المقتلة العظمى. وقول أبي سفيان: «يا عباس: حبذا يوم الذمار» أي يوم الهلاك. وقيل المراد: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدرعليه، وقيل المراد: هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي من أن ينالني مكروه، وقد روى الأموي في المغازي: أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه: أمرت بقتل قومك؟ فقال ﷺ: «لا». فذكر له ما قاله سعد بن عبادة ثم ناشده الله والرحم، فقال ﷺ: «يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً» ويبدو لي أن المراد بقوله عليه السلام:

«اليوم يعز الله قريشاً» هو أن تسلم فتنال عزة الإسلام، وهذا ما وقع - ثم أرسل ﷺ إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس. قوله: «فقال - أي رسول الله ﷺ - كذّب سعد» فيه إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع، ولو كان قائله بناه على غلبة ظنه وقوة القرينة. وقوله: «يوم يعظم الله فيه الكعبة» يشير إلى ما وقع من إظهار الإسلام وأذان بلال على ظهرها، وغير ذلك مما أزيل عنها مما كان فيها من الأصنام ومحو ما فيها من الصور وغير ذلك. قوله: «ويوم تكسى فيه الكعبة» قيل إن قريشاً كانوا يكسون الكعبة في رمضان فصادف ذلك اليوم، أو المراد باليوم الزمان كما قال يوم الفتح، فأشار النبي ﷺ إلى أنه هو الذي يكسوها في ذلك العام(٢٧٧٠).

١٤٨٦- رجوع أبي سفيان إلى مكة:

أسرع أبو سفيان في رجوعه حتى دخل مكة، وأخذ يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد إلا من غلبت عليه الحمية وصمم على القتال(٢٧٧١).

١٤٨٧- الرسول ﷺ وجيشه بذي طوى:

ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى ذي طوى، وهناك فرّق جيشه فرقاً، وأوصاهم عند دخولهم مكة أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأمر خالداً وفرقته أن يدخل مكة من أسفلها من كُدي، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل بفرقته من شمالها، وأن يدخل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري من جانبها الغربي(٢٧٧٢).

١٤٨٨- الدخول إلى مكة:

ودخلت كتائب الجيش الإسلامي مكة من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، ودخل هو ﷺ من أعلاها من كَداء، وبين يديه أبو عبيدة بن الجراح في فرقة من الجيش، دخل مكة ﷺ وهو راكب ناقته منكساً رأسه حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعاً

(٢٧٧٠) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٥-١٠.

(٢٧٧١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٣، الرحيق المختوم ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢٧٧٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٣.

لله وشكراً ومعظماً له ومكبراً، وقد أردف وراءه أسامة بن زيد. فلما بلغ الحجون[2773]. أمر ﷺ أن تركز رايته هناك وأن تضرب له قبة، فضربت فاستراح بها هو وزوجتاه: ميمونة وأم سلمة.

ودخلت فرق الجيش الإسلامي مكة ولم تلق منها مقاومة تذكر إلا فرقة خالد بن الوليد، فقد كان يقيم في أسفل مكة أشد قريش عداوة للرسول ﷺ، ومن اشتركوا مع بني بكر في اعتدائهم على خزاعة، ونقضهم باعتدائهم هذا صلح الحديبية، فهؤلاء لم يقنعوا بالأمان الذي منحهم إياه رسول الله ﷺ فأبوا إلا القتال، ومن هؤلاء صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلما دخل خالد بجنده أمطروه بنبالهم، ولكن لم يلبث أن فرقهم، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا الطريق، فقتلهما المشركون. وقتل من هؤلاء الذين تعرضوا لخالد بن الوليد ثلاثة عشر رجلاً وفي رواية أربعة وعشرين رجلاً، ولم يلبث صفوان وعكرمة وسهيل أن ولوا الأدبار منهزمين. ولما قيل لرسول الله ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل، قال: «قم يا فلان فأت خالداً فقل له يرفع يديه من القتل»[2774].

١٤٨٩- تطهير المسجد الحرام والكعبة المشرفة من الأصنام[2775]:

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد، وأقبل إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود، ثم طاف بالبيت سبعاً وفي يده قوس، وحول الكعبة وعليها ثلاث مئة وستون صنماً فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2776]. ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا

(٢٧٧٣) الحجون: مكان بأعلى مكة بالقرب من مقبرتها. و(كَداء) جبل بأعلى مكة و(كُدي) جبل بأسفل مكة.

(٢٧٧٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٠-١١، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٤، الرحيق المختوم ص٣٧٠-٣٧١.

(٢٧٧٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥-١٧، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٦، الرحيق المختوم ص٣٧١.

(٢٧٧٦) سورة الاسراء، الآية ٨١.

يُعِيدُ﴾[٢٧٧٧]. ثم دعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها وكبرَّ في جوانبها وصلى فيها ركعتين، وأمر ﷺ بالصور التي على جدرانها فأزيلت وبالأصنام فأخرجت، ثم أمر ﷺ بلالاً فأذن فوقها.

١٤٩٠- خطبة النبي ﷺ:

وقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة وقد تكاثر الناس في المسجد، وكان مما قاله ﷺ في خطبته: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية أو دم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحج، فإنهما أمضيتهما لأهلها على ما كانت. ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نحوة الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾» ثم قال ﷺ: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢٧٧٨].

١٤٩١- تسليم مفتاح الكعبة إلى أهله:

روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن صفية بنت شيبة: أن النبي ﷺ دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتح له فدخلها، ثم وقف على باب الكعبة فخطب. وروى ابن عائذ من مرسل عبد الرحمن بن سابط: أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، فقال: «خذها خالدة مخلدة، إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم» وفي رواية عن طريق ابن جريج: أن علي بن أبي طالب قال للنبي ﷺ: اجمع لنا الحجابة والسقاية، فنزلت: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فدعا ﷺ عثمان بن طلحة، فقال: «خذوها يا بني شيبة خالدة

(٢٧٧٧) سورة سبأ الآية ٤٩.

(٢٧٧٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٨، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٤٧ - ٤٤٨، وآية ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم﴾ في سورة الحجرات ورقمها ١٣.

تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» ودفع إليه مفتاح الكعبة[٢٧٧٩].

١٤٩٢- إسلام قريش:

لقد كان من أثر عفو النبي الشامل لأهل مكة أن دخل أهل مكة رجالاً ونساءً وأحراراً وموالي في الإسلام طواعية واختياراً، وتبعهم معظم العرب في الدخول في الإسلام، وقد أشارت سورة النصر إلى فتح مكة ودخول قريش وغيرهم في دين الله، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[٢٧٨٠].

١٤٩٣- البيعة لرسول الله ﷺ:

ثم تبع إسلام أهل مكة أن بايعوا رسول الله الرجال منهم والنساء، وبدأ ﷺ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. ولما فرغ ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء على ما جاء في سورة الممتحنة، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٧٨١]. وجاء في تفسيرها: أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه[٢٧٨٢]. وقد بايعهن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلَّها الله له، أو ذات محرم منه. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا والله، ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط. وفي رواية: ما كان يبايعهن إلا كلاماً، ويقول:

(٢٧٧٩) شرح العسقلاني ج٨ ص١٨-١٩.

(٢٧٨٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥٦ وسورة النصر نزلت في حجة الوداع، ولكن لفظ الفتح فيها يشير إلى فتح مكة وما تبعه من الدخول في الإسلام.

(٢٧٨١) سورة الممتحنة، الآية ١٢.

(٢٧٨٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٥١٨.

«إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة»[٢٧٨٣].

١٤٩٤- المحيا محياكم والممات مماتكم:

لما رأى الأنصار سرور رسول الله ﷺ بفتح مكة تخوفوا أن يقيم فيها ويتركهم والمدينة وأخذوا يتساءلون فيما بينهم حول هذه المسألة، فأعلمه الله تعالى بما تحاوروا فيه وتخوفوا منه، فأخبرهم بما قالوه فيما بينهم، فأقروا وطمأنهم قائلاً: «كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله، فقال رسول الله: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»[٢٧٨٤].

١٤٩٥- تكسير الأصنام خارج مكة وداخلها:

فقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم العُزَّى، وكانت بنخلة تعظمها قريش وكنانة ومضر، فذهب وهدمها، كما أرسل ﷺ عمرو بن العاص لهدم سُواع وهو أعظم صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة. وبعث ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة وهي على جبل على ساحل البحر يهبط إلى قُدَيد فتوجهوا إليها وهدموها[٢٧٨٥]. ثم إن النبي ﷺ أمر من نادى بمكة على لسانه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره»[٢٧٨٦].

(٢٧٨٣) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥٨.

(٢٧٨٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٦٢.

(٢٧٨٥) المصدر السابق ج٢ ص٤٦٤-٤٦٦.

(٢٧٨٦) الرحيق المختوم ص٣٧٦.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة فتح مكة

١٤٩٦- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان:

رأينا كيف أن النبي ﷺ لما بلغه غدر قريش بمعاونتها بني بكر على خزاعة حليفة رسول الله ﷺ مما اعتبر نقضاً للصلح، إنه عليه الصلاة والسلام عزم على غزو قريش في عقر دارها، ولكن لم يفصح عن قصده هذا، ولم يبلغ عموم الصحابة بنيته، وأخذ يقوم بالاستعداد لهذا الغزو، واستنفر المسلمين للتهيؤ للخروج للغزو دون أن يعلمهم جهته، فعلى جماعة الدعاة، أن تتأسى برسول الله ﷺ في الأخذ بأسلوب الكتمان فيما هي عازمة على فعله من الأمور الخطيرة التي يجب اخفاؤها حتى لا يعلمها أعداء الدعوة. وعلى الجماعة أن تكتم ذلك حتى على أعضائها من الدعاة وغيرهم، إذ لا حاجة لإخبارهم بذلك، إذ من الجائز أن يتكلموا فيما استُودِعوا من سرّ أو من معلومات حول ما تريد الجماعة فعله. نعم يجوز لأمير الجماعة إعلام بعض الدعاة فيها الذين يخصهم الأمير بثقته الكبيرة، ويستشيرهم في الأمور التي تحتاج إلى سرية ولا تحتاج إلى مشورة عامة لمنتسبي الجماعة. وقد نستأنس لهذا الذي أقوله بما ذكره ابن حجر العسقلاني وهو يتكلم عن استعداد الرسول ﷺ لغزو قريش، فقال رحمه الله: «وفي مرسل أبي سلمة المذكور عند ابن أبي شيبة: ثم قال النبي ﷺ لعائشة: «جهزيني ولا تعلمي بذلك أحداً». فدخل عليها أبو بكر فأنكر بعض شأنها فقال: ما هذا؟ فقالت له، فقال: والله ما انقضت الهدنة بيننا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فذكر له أنهم أول من غدر»[٢٧٨٧].

(٢٧٨٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٧ ص٥٢٠.

١٤٩٧- لا سابقة يقتدى بها في عمل حاطب:

لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحققها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدراً. فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم. مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه. فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه.

١٤٩٨- يُتسَامح مع فاعل الخير الكثير ما لا يتسامح مع غيره:

ذكرنا قصة حاطب وما فعله من إرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه بما عزم عليه رسول الله من المسير إليهم بجيش ضخم لغزوهم. وقد عفا عنه ﷺ معللاً ذلك بقوله: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، قال ذلك لعمر لما أراد قتله. فدلّ ذلك على أن اشتراكه في القتال في معركة بدر أعطاه رصيداً ضخماً من فعل الخير وقاه من إنزال العقاب به، وجعله أهلاً للعفو عنه. مما يستدل به على أن فاعل الخير الكثير يُتَسَامح معه ما لا يتسامح مع غيره. وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تسامح من يصدر منه شيء من التقصير إذا كانت له سوابق معلومة ومشكورة في مجال الدعوة، وأن لا يفقده هذا التقصير مكانته في الدعوة. ولكن لا يبلغ هذا التسامحُ التسامحَ الذي ناله حاطب عن عمله إذا عمل عمله أحد من منتسبي الجماعة، وإن كان له عمل مشكور سابق في مجال الدعوة، كما ذكرنا هذا في الفقرة السابقة.

١٤٩٩- المعاينة تعطي من اليقين ما لا يعطيه مجرد الإخبار:

ذكرنا في إسلام أبي سفيان أن النبي ﷺ أمر العباس أن يوقف أبا سفيان في المكان الذي تمر منه كتائب جيش المسلمين، ليبصر بعينه قوة المسلمين ويخبر قريشاً بذلك عن يقين حصَّله من الرؤية البصرية لجيش المسلمين التي تعطي من اليقين أكثر مما يعطيه مجرد الإخبار بقوة جيش المسلمين. فعلى الجماعة المسلمة إذا أرادت أن تقوي مؤيديها أو المترددين في تأييدها أو المترددين في الكيد لها أن

تُرِي هؤلاء قوتها في كثرة عدد منتسبيها، وانتظامهم واستجابتهم لدعوتها مما يقوى المؤيد الضعيف، أو ينقل المتردد في تأييدها أو في عضويتها فتنقله هذه الرؤية إلى منزلة المؤيد أو مرتبة العضوية، وتمنع المتردد في الكيد لها من المضي في كيده خوفاً منها.

١٥٠٠- الاستعانة بالمباح لتقوية ضعيف الإيمان:

ذكرنا أن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فقال النبي ﷺ: «نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..» الخ والدخول في دار أبي سفيان مباح يتحقق به نفس المقصود إذا دخل الإنسان بيته وأغلق عليه بابه، وهو عدم مقاومة النبي ﷺ، ولكن في تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه، وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة أن يتوسل بالمباح لتقوية الدعاة في إيمانهم بالدعوة، وفي نشاطهم في مجال عملهم الدعوي، كلاً منهم يقويه بما يناسب رغباته المشروعة وتطلعاته المباحة من المباحات التي يقدمها له، فيكلف هذا بالعمل الفلاني، أو يجعل آخرَ مرجعاً في كذا من أمور الدعوة، أو يجعل آخر أميراً على المجموعة الفلانية، أو يجعل فلاناً مسؤولاً عن المنطقة الفلانية التي يعيش فيها وهكذا.

١٥٠١- الاحتياط لمنع وقوع المحظور:

ذكرنا أن النبي ﷺ لما بلغه ما قاله سعد بن عبادة، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. وفي رواية اليوم تستحل الحرمة، سارع ﷺ وأخذ الراية منه، راية كتيبة الأنصار، وأعطاها لابنه قيس خوفاً من إبقائها في يده فيأمر بتنفيذ ما قاله، فكان الاحتياط نزع الراية منه وتسليمها إلى ابنه، وفي هذا النزع والتسليم يحصل الاحتياط المشروع دون إغضاب سعد أو بقاء شيء في نفسه من ذلك، لأن الراية سلمت لابنه. والأب يسره أن ينال ابنه من الفخار ما يريده لنفسه. فكان في أخذ الراية من سعد نوع من الزجر والتأديب لما قال، وفي تسليمها لابنه نوع من السياسة الحكيمة التي تحقق المقصود، وتحقق الحذر والاحتياط المشروع دون إغضاب له.

١٥٠٢- إزالة المنكر فوراً عند القدرة:

ذكرنا أن النبي ﷺ حطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وعليها بالإشارة إليها بعود كان بيده يردد قول الله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ثم دخل الكعبة وأزال ما فيها من أصنام ومحا ما على جدرانها من صور، ولم يتأخر في هذه الإزالة. وحيث كان من المحتمل جداً وجود أصنام في بيوت المشركين فقد أمر ﷺ أن ينادي مناديه في مكة أن يكسروا ما في بيوتهم من أصنام.

فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن لا تتأخر أبداً عن إزالة المنكر عند القدرة عليه، إزالة باليد، وما لا تستطيع إزالته باليد أو لا تصل إليه مع احتمال وجوده فعليها أن تنبه إليه، وتطلب إزالته ممن هو متلبس به أو موجود عنده. ولا يقف وجوب إزالة المنكر عند القدرة حالاً على المنكر الموجود المرئي القريب، بل يشمل البعيد ما دام في الإمكان الوصول إليه وإزالته في مكانه، ولذلك رأينا أن النبي ﷺ قد أرسل خالد بن الوليد وغيره لإزالة الأصنام الموجودة خارج مكة وبعضها بعيد عنها. وعلى هذا فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تبعث بعض الدعاة إلى الأماكن التي هي خارج مقرها؛ لإزالة المنكرات التي توجد في تلك الأماكن ما دامت الجماعة قادرة على هذه الإزالة. ولا يجوز لها التباطؤ في ذلك ما دامت قادرة عليه، ولأن في التأخير عن إزالة المنكرات آفات، ومن هذه الآفات زوال القدرة. وعلى سبيل المثال لما أقول، قد تكون قدرة الجماعة المسلمة على تغيير المنكر وجود حاكم أي موظف إداري هو المسؤول عن تلك المنطقة كالمحافظ في محافظته، وهو رجل مسلم لا يتوانى عن إزالة المنكر بموجب مسؤوليته وسلطته. فمن المطلوب من الجماعة المسلمة أن تسارع وترسل بعض دعاتها لإزالة المنكر هناك بالاستعانة بهذا الموظف المسلم، ولا تتأخر في ذلك، فقد يُنقَل هذا المحافظ ويؤتى بغيره الذي هو ليس مثله في الغيرة على الإسلام، والحرص على إزالة المنكرات، فتعجز الجماعة المسلمة من تغيير المنكر هناك.

والخلاصة فعلى الجماعة المسلمة أن تعلم أن إزالة المنكر باليد تتوقف على القدرة، فإذا وجدت القدرة وجبت الإزالة حالاً وعدم التأخير.

١٥٠٣- العفو عند المقدرة:

ذكرنا عفو رسول الله ﷺ عن أهل مكة، وقال لهم في عفوه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وكان في ذلك العفو أثره السريع حيث أسلم أهل مكة، وبايعوا رسول الله ﷺ كما ذكرنا. فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك ويكون شعارها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وهذا لا يمنع الجماعة من أن تستثني من عفوها من ترى من لا يستحق هذا العفو بأي وجه من الوجوه؛ لإيغاله في عداوته للدعوة، وكما أهدر ﷺ دم بعض المشركين؛ لعظم جرائمهم في حق الله ورسوله وحق الإسلام، ولما كان يخشاه ﷺ منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح. ومن هؤلاء الذين أهدر دمهم رسول الله ﷺ من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول ﷺ، وبعضهم من قتل ولم يتجاوز عدد هؤلاء الذين قتلوا فعلاً أربعة أشخاص(٢٧٨٨).

١٥٠٤- المبايعة لأمير جماعة الدعاة:

ذكرنا مبايعة من أسلم في مكة من الرجال على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ فيما استطاعوا. وبايع النساء اللاتي أسلمن على ما جاء في سورة الممتحنة أي على عدم الشرك بالله وعدم السرقة وعدم الزنا. . الخ. وحقيقة المبايعة توكيد ما أوجبه الشرع على المسلم، وقد تكون ابتداءً للمسلم، كما في مبايعة من أسلم من أهل مكة. وقد تكون المبايعة على عمل شيء جديد مشروع، كما في مبايعة أهل بيعة الرضوان في الحديبية حيث بايعوا رسول الله ﷺ على الثبات في قتال قريش إذا تبين أنهم قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أرسله إليهم ليخبرهم في الغرض الذي من أجله جاء رسول الله ﷺ والمسلمون. وعلى هذا يجوز لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يبايعه من يريد الانضمام إلى جماعته، لأنها تقوم بالدعوة إلى الله وبما يوجبه الله على المسلمين من الجهاد في سبيله، وهذه أمور مشروعة وواجبة شرعاً، فالمبايعة عليها يزيدها وجوباً. كما أن هذه المبايعة تعني القيام بها بصورة جماعية، أي من خلال الجماعة، والعمل الجماعي تعاون

(٢٧٨٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٥١-٤٥٣.

على البر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فالمبايعة على هذا يؤكد وجوب هذا التعاون. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله: إن ما وجب بالشرع إذا نذره العبد أو عاهد الله عليه، أو بايع عليه الرسول ﷺ، أو الإمام، أو تحالف عليه جماعة، فإن هذه العهود والمواثيق تقتضي له - أي ما أوجبه الشرع - وجوباً ثانياً غير الوجوب الثابت له بمجرد الأمر الأول، فتكون - أي الأمور الواجبة بالشرع - واجبة من وجهين، بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهود والمواثيق، وما يستحقه العاصي لله ولرسوله[٢٧٨٩]. وكما تجوز البيعة للرجال تجوز البيعة للنساء، ولهذا بايعن رسول الله ﷺ. فيجوز للداعيات أن يبايعن أمير جماعة الدعاة على الانضمام إلى هذه الجماعة، والعمل من خلالها في مجال الدعوة إلى الله وفقاً للضوابط الشرعية.

(٢٧٨٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٣٥ ص٣٤٥-٣٤٦.

الفصل الثامن عشر

قصة غزوة حنين

المبحث الأول

ملخص الغزوة(٢٧٩٠)

١٥٠٥- سبب غزوة حنين وتاريخ وقوعها:

كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، واستقرت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، بلغه أن هوازن(٢٧٩١) جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النصري ومعه ثقيف بكمالها قد أقبلوا ونزلوا حنيناً، ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بجيشه الذي جاء معه لفتح مكة، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من قبائل العرب، ومعه ﷺ الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء، وعددهم بلغ الألفين، فصار مجموع جيش النبي ﷺ اثني عشر ألفاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له حنين، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات. وكان خروجه ﷺ وجيشه من مكة لست ليالٍ خلت من شوال سنة ثمان من الهجرة.

١٥٠٦- الجولة الأولى من المعركة:

كان مالك بن عوف قد سبق جيش المسلمين في نزوله بوادي حنين، وهناك تهيأ لقتال المسلمين، فوضع الرماة من جيشه على مداخل الوادي وجوانبه، وأقبل النبي ﷺ مع جيشه ونزلوا في الوادي في عماية الصبح، فثارت في وجوههم خيل العدو،

(٢٧٩٠) صحيح البخاري وشرحه للعسقلاني ج٨ ص ٢٦-٣٥، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١١٣-١٢١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٣-٣٤٤، تفسير الألوسي ج١٠ ص٧٤.

(٢٧٩١) هوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إليها.

وبدأ الرماة من العدو يرشقونهم بالنبل، وكانوا ماهرين في الرماية حتى لا يكادون يخطئون، وكان في جيش المسلمين شبان لم يكن معهم سلاح خرجوا متحمسين للقتال، فلما رشقوا بالنبل بكثافة من كل مكان انكفؤوا راجعين مما أحدث خللاً في جيش المسلمين، فقد روى الإمام مسلم عن البراء بشأن غزوة حنين وقد سأله رجل: أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفَّاؤهم حسَّراً ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح، فلقُوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر، فرشقوهم رشقاً ما يكادوا يخطئون.. وجاء في شرحه للنووي: «شبان» جمع شاب و«اخفاؤهم» جمع خفيف وهم المسارعون المستعجلون. وفي تفسير ابن كثير بشأن ما حصل: انحدر النبي ﷺ وجيشه في وادي حنين، وقد كمنتْ فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ورشقوهم بالنبال، وأصلتوا سيوفهم، وحملوا حملة رجل واحد على المسلمين، كما أمرهم أميرهم مالك بن عوف، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين.

١٥٠٧- أسباب فرار المسلمين في الجولة الأولى:

ويبدو أن أسباب تراجع المسلمين وفرارهم من العدو في الجولة الأولى يرجع إلى جملة أسباب.

(منها) أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري: أن يونس بن بكير روى عن الربيع بن أنس قال: قال رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

(ومنها) خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع كما روى الإمام مسلم، وقد تقدموا الجيش فاستقبلهم جمع من هوازن، ومن الكمائن التي نصبت لهم، ومن الرماة على جانبي الوادي، فرشقوهم رشقاً أي رموهم بالنبال، فولوا مدبرين مما سبب خللاً في جيش المسلمين وتراجعاً للآخرين.

(ومنها) أن عدد المشركين، كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

(ومنها) أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هناك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

(ومنها) كان العدو مُهَيَّأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء في شرح العسقلاني لصحيح البخاري بشأن غزوة حنين: وفي حديث أنس عند الإمام مسلم وغيره قال أنس: افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنيناً، قال: فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

(ومنها) وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم.

١٥٠٨- ثبات النبي ﷺ وشجاعته:

في حديث للإمام مسلم، عن العباس عم رسول الله ﷺ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس نادِ أصحاب السمرة» - أي أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان في الحديبية - فقال عباس: - وكان رجلاً صيتاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة. قال: فوالله لكأن عَطْفَتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: لبيك لبيك.. وجاء في شرحه للنووي: قال العلماء: ركوبه ﷺ البغلة في مواطن الحرب، وعند اشتداد الناس هو النهاية في الشجاعة والثبات، ولأنه يكون معتمداً يرجع المسلمون إليه فتطمئن قلوبهم به وبمكانه، وأن فعله ﷺ عمداً، وإلا فقد كانت له ﷺ أفراس معروفة. ومما ورد في هذا الحديث من شجاعته ﷺ تقدمه إلى جهة المشركين، وأنه كان يركض بغلته نحوهم، أي يسرع بها إلى جهتهم، وقد فرَّ الناس عنه إلا القليل. وفي حديث آخر أخرجه مسلم عن البراء قال: كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا

هو الذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. وكان ﷺ يقول وهو يتجه إلى العدو: «أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب». هذا وقد ثبت مع النبي ﷺ عدد قليل، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وأسامة بن زيد، وآخرون لا يتجاوز عددهم العشرة أو الاثني عشر.

١٥٠٩- النبي ينادي الفارين ويأمر بمناداتهم:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر عمه العباس أن ينادي الفارين، ويذكرهم بأنهم أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، كما أنه ﷺ ناداهم بقوله: «إليّ عباد الله إليَّ أنا رسول الله» ومما روي من ندائه لهم: «أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله». كما دعي الأنصار بهذه المناداة باسمهم. ولما سمع المسلمون نداء رسول الله ﷺ ونداء العباس انعطف الناس، ورجعوا مسرعين إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع أخذ سلاحه ونزل عن بعيره، وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ.

١٥١٠- انتصار المسلمين وما غنموه من الكفار:

ولما وصلت جماعة من المسلمين إلى رسول الله ﷺ أمرهم أن يصدقوا الحملة على المشركين، وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بقبضة التراب، وقال: «شاهت الوجوه» وقال: «انهزَموا ورب الكعبة» فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه مما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما رجع بقية الفارين إلا والأسرى من العدو بين يدي رسول الله ﷺ. وقد بلغت غنائم المسلمين من هوازن وثقيف ستة آلاف من النساء وقيل: وبضمنهم الأبناء، وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية من الفضة، ومن الإبل أربعة وعشرون ألفاً، ومن الشياه أكثر من أربعين ألف شاة. وأمر النبي ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانه لحين عودته من حصار الطائف[٢٧٩٢].

(٢٧٩٢) السيرة النبوية للعمري ج٢ ص٥٠٤. والجعرانه موضع بين الطائف ومكة وهو إليها أقرب. أبو شهبة ج٢ ص٤٧٩.

١٥١١- وفد هوازن يأتي رسول الله ﷺ:

وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة أموالاً كثيرة كما وقع في أيديهم من الأسرى والسبي ستة آلاف، وقد جاء وفد من هوازن رسول الله ﷺ مسلمين يسألونه أن يرد إلى هوازن ما غنمه منهم من سبي وأموال. فقد روى البخاري عن المسور بن مخرمة: أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم» - وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف - فلما تبين لهم - أي لوفد هوازن - أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحبَّ منكم أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحبَّ منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم». فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا. وقد ساق هذه القصة موسى بن عقبة في المغازي مطولة، ولفظه: «ثم انصرف رسول الله ﷺ من الطائف في شوال إلى الجعرانة وبها السبي، يعنون سبي هوازن، وقدمت عليه وفد هوازن مسلمين فيهم تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه فقالوا: يا رسول الله إنَّ فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام، فقال ﷺ: «سأطلب لكم، وقد وقعت المقاسم، فأي الأمرين أحب آلسبي أم المال؟» قالوا: خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فقال: «أما الذي لبني هاشم فهو لكم وسوف أكلم لكم المسلمين، فكلموهم وأظهروا إسلامكم». فلما صَلَّى رسولُ الله ﷺ الهاجرة قاموا فتكلم خطباؤهم فأبلغوا ورغبوا إلى المسلمين في ردّ سبيهم. ثم قام رسول الله ﷺ حين فرغوا فشفع لهم وحضّ المسلمين عليه، وقال: «قد رددت الذي لبني هاشم عليهم». وجاء في شرح

الحديث للعسقلاني: قوله: «وقد كنت استأنيت بكم» ومعنى استأنيت: انتظرت، أي أخرت قسْمة السبي لتحضروا فأبطأتم. وقد كان ﷺ قد ترك السبي بغير قسمة وتوجه إلى الطائف وحاصرها كما سنذكره فيما بعد. ثم رجع ﷺ عنها إلى الجعرانة ثم قسمَّ الغنائم هناك، فجاءه وفد هوازن بعد ذلك، فبيَّن لهم أنه أخرّ القسمة ليحضروا فأبطؤوا. وقوله: «قفل» أي رجع. وقوله: «فمن أحبَّ أن يطيِّب ذلك» أي يعطيه عن طيب نفس منه من غير عوض.

وقوله: «على حظه» أي بأن يرد السبي بشرط أن يُعطَى عوضه. قوله: «فقال الناس قد طيَّبنا ذلك» في رواية موسى بن عقبة: «فأعطى الناس ما بأيديهم إلا قليلاً من الناس سألوا الفداء».

١٥١٢- ما حدث عند تقسيم الغنائم[٢٧٩٣]:

روى البخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قَسَّمَ في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلما قال شيئاً. قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة: لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعْبَها. الأنصار شعار، والناس دثار. إنكم ستلقون أَثَرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

قوله: «لما أفاء الله على رسوله يوم حنين» أي أعطاه غنائم الذين قاتلهم يوم حنين. وأصل الفيء الرد والرجوع، ومنه سمي ظل الشمس بعد الزوال فيئاً، لأنه رجع من جانب إلى جانب، فكأن أموال الكفار سميت فيئاً؛ لأنها كانت في الأصل للمؤمنين، إذ الإيمان هو الأصل والكفر طارىء عليه، فإذا غلب الكفار على شيء

(٢٧٩٣) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٨ ص٤٧-٥٢.

من المال فهو بطريق التعدي، فإذا غنمه المسلمون منهم فكأنه رجع إليهم ما كان لهم.

قوله: «قسم في الناس» أي قسم الغنائم التي كان قد حبسها في الجعرانة، ثم ذهب ﷺ إلى الطائف وحاصرها، ثم عاد إلى الجعرانة وقسم فيها الغنائم.

وقوله: «في المؤلفة قلوبهم» والمراد بالمؤلفة ناس من قريش أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً. وقيل: كان فيهم من لم يسلم بعد كصفوان بن أمية.

قوله: «ولم يعط الأنصار شيئاً» ظاهر في أن العطية المذكورة كانت من جميع الغنيمة، وقال الإمام القرطبي: الإجراء على أصول الشريعة أن العطاء المذكور كان من الخمس، أي من خمس الغنيمة الذي أخذه النبي ﷺ ليضعه في مواضعه، ومن هذا الخمس كان أكثر عطايا النبي ﷺ. وعلى الأول - أي أن ما أعطاه النبي ﷺ كان من جميع الغنائم فيكون ذلك العطاء مخصوصاً بهذه الواقعة، وقد ذكر السبب في ذلك في رواية قتادة عن أنس حيث قال: «إن قريشاً حديث عهد بجاهلية وعصبية، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم» وهذا ما رجحه ابن حجر العسقلاني، والذي جزم به القرطبي جزم به الواقدي. واختار أيضاً أبو عبيد أن العطاء كان من الخمس.

وقوله: «فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس» والمعنى أنهم غضبوا، والموجدة الغضب، يقال: وجد في نفسه إذا غضب، ويقال أيضاً وجد إذا حزن، وفي مغازي سليمان التيمي أن سبب حزنهم أنهم خافوا أن يكون رسول الله ﷺ يريد الإقامة بمكة، والأصح ما في الصحيح حيث قال: «إذ لم يصبهم ما أصاب الناس» على أنه لا يمتنع الجميع وهذا أولى. وفي رواية للبخاري عن الزهري عن أنس بن مالك: «فقالوا - أي الأنصار - يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم» وفي رواية أخرى للبخاري عن هشام بن أنس بن مالك قال الأنصار: «إذا كانت شديدة فنحن نُدعَى، ويُعطَى الغنيمة غيرنا» وهذا ظاهر في أن العطاء كان من صلب الغنيمة بخلاف ما رجحه القرطبي.

قوله: «فخطبهم» أي خطبهم النبي ﷺ. وفي رواية الزهري عند البخاري في هذه المسألة: «فحُدِّثَ رسول الله ﷺ بمقالتهم - أي بمقالة الأنصار - فأرسل إلى

الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قال، أي النبي ﷺ: «ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا».

وقوله: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي» والمراد هنا ضلالة الشرك، وبالهداية الإيمان. وقد رتبَّ ﷺ ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيباً بالغاً فبدأ بنعمة الإيمان التي لايوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنّى بنعمة الألفة، وهي أعظم من نعمة المال، لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع، لما وقع بينهم من حرب بعاث وغيرها، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾. وقوله: «عالة» أي فقراء لا مال لهم. والعيلة الفقر. وقوله: «كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن».

قوله: «قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا». قوله: «بالشاة والبعير» اسم جنس فيهما. والشاة تقع على الذكر والأنثى وكذا البعير. قوله: «إلى رحالكم» أي إلى بيوتكم. وفي رواية الزهري عن أنس: «فوالله لما تنقلبون به» خير مما ينقلبون به قالوا: يا رسول الله قد رضينا» وبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم.

وقوله: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» قال ابن الجوزي: لم يرد النبي ﷺ تغير نسبه ولا محو هجرته، وإنما أراد، أنه لولا ما سبق من كونه هاجر، لانتسب إلى المدينة وإلى نصرة الدين، فالتقدير: لولا أن النسبة إلى الهجرة نسبة دينية لا يسع تركها لانتسبت إلى داركم. وقال القرطبي: المعنى لولا الهجرة لتسميت باسمكم، وانتسبت إليكم، كما كانوا يتنسبون بالحلف، لكن خصوصية الهجرة وترتيبها سبقت فمنعت ذلك. قوله: «وادي الأنصار» الوادي المكان المنخفض، والمراد به هنا بلدهم. وقوله: «شعب الأنصار» الشعب اسم لما انفرج بين جبلين، وقيل الطريق في الجبل. وأراد ﷺ بهذا وبما بعد التنبيه على جزيل ما حصل لهم من ثواب النصرة لدين الله ولرسوله، والقناعة بالله ورسوله عن الدنيا، ومن كان هذا وصفه فحقه أن يُسلَك طريقه ويُتبَع حاله.

قوله: «الأنصار شِعار والناس دثار» الشعار: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد.

والدِثار الثوب الذي فوق الشعار. وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه. وأراد أيضاً بهذا القول أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم، وزاد في حديث أبي سعيد: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

وقوله: «إنكم ستلقون بعدي أُثْرَةً» أي أنه يُستأثَر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق. والأثرة هي الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه. قوله: «فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» أي يوم القيامة. أي اصبروا حتى تموتوا، فإنكم ستجدوني عند الحوض، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على صبركم.

١٥١٣- عمرة الجعرانة ثم رجوعه ﷺ إلى المدينة:

وبعد قسمة الغنائم في الجعرانة، خرج منها معتمراً في أواخر ذي القعدة من سنة ثمان للهجرة، ودخل مكة بليل، فطاف وسعى ثم تحلل من عمرته، ثم عاد هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة بعد أن استتب له الأمر بمكة وما جاورها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً[٢٧٩٤].

١٥١٤- ولاية مكة وتعليم أهلها:

وقد ولّى رسول الله ﷺ على مكة، عَتَّاب بن أَسِيد، وقد أسلم يوم الفتح، وقد ولاه رسول الله ﷺ على مكة بعد أن رجع من الطائف، وقيل لما سار إلى حنين، واستمر والياً عليها إلى أن مات، وكان عمره يوم ولاه نيِّفاً وعشرين سنة، وأخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن[٢٧٩٥].

(٢٧٩٤) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٨٤-٤٨٥.

(٢٧٩٥) المرجع السابق ج٢ ص٤٨٥.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن
بشأن غزوة حنين

١٥١٥- تذكير الله للمسلمين بنصره لهم في حنين وغيرها:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(٢٧٩٦). يذكّر الله تعالى المؤمنين بفضله عليهم وإحسانه إليهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة. ومواطن الحرب: مقاماتها ومواقعها، والمراد بها غزواتهم مع النبي ﷺ مثل بدر وخيبر وغيرهما، فقد نصرهم الله فيها بالرغم من قلة عددهم وعُددهم، ونصرهم أيضاً في يوم حنين، وهو اليوم الذي أعجبتهم فيه كثرتهم حتى قال قائل منهم معبراً عن رأي الكثيرين الذين غرتهم وأعجبتهم الكثرة: لن نغلب اليوم من قلة. ولكن هذه الكثرة التي أعجبتكم لم تدفع عنكم شيئاً ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي ضاقت الأرض مع سعتها عليكم، ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ أي منهزمين حال كونكم مدبرين أي مولين ظهوركم لعدوكم إلا القليل منكم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ(٢٧٩٧).

١٥١٦- إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢٧٩٨). وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(٢٧٩٦) سورة براءة الآية ٢٥.

(٢٧٩٧) ابن كثير ج٢ ص٣٤٣، الزمخشري ج٢ ص٢٥٨-٢٥٩، تفسير المنار ج١٠ ص٢٩٤، الألوسي ج١٠ ص٧٤.

(٢٧٩٨) سورة براءة الآية ٢٦.

﴿سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي طمأنينته. وقال الإمام الألوسي: أي رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن اطمئناناً كلياً مستتبعاً للنصر القريب. وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له ﷺ ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنزل الله سكينته على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ. وقيل: الذين فروا. والظاهر على جميعهم الذين ثبتوا والذين فروا، لأن الذين فروا ثبتوا بعد ذلك، وقاتلوا مع الذين ثبتوا ونصرهم الله. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: وأنزل مع هذه السكينة جنوداً لم تروها، وهم الملائكة تقوية لقلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين وإن كانوا لا يرونهم. ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ذلك التعذيب الذي حلّ بهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، سمّى ما نزل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف، بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له[٢٧٩٩].

١٥١٧- ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٨٠٠]. أي ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين، فيهديهم إلى الإسلام ويتوب توبة نصوحاً، وقد حصل هذا فقد أسلم من بقي من هوازن وتابوا وتاب الله عليهم[٢٨٠١].

(٢٧٩٩) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٦، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٦٠، تفسير المنار ج١٠ ص٢٩٤ - ٢٩٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص٧٥ - ٧٦، تفسير فتح البيان ج٥ ص٢٦٤.

(٢٨٠٠) سورة براءة الآية ٢٧.

(٢٨٠١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٦٠، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٦.

المبحث الثالث

المستفاد

من قصة غزوة حنين

١٥١٨- أعداء الدعوة يحاربونها لفوزها ونجاحها:

رأينا في معركة حنين، أن هوزان ومعها ثقيف، تجمعوا وساروا إلى قتال النبي ﷺ بعد أن نصر الله رسوله ﷺ على قريش، ودخل مكة ومعه المسلمون من المهاجرين والأنصار. وهم قد فعلوا ذلك، لأنهم لا يروق لهم انتصار المسلمين، ولخوفهم من أن تأتي النوبة عليهم فيصيبهم ما أصاب قريش. فعلى الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تفقه ذلك، وتعرف أن أعداء الدعوة لا يتركونها تنجح في مجالها ويعلو شأنها، ولذلك يحاربونها في مختلف الأساليب، ويضيقون عليها مجالات العمل، ثم يعمدون إلى حبس أعضائها من الدعاة بتلفيق التهم الباطلة عليهم. فعلى الجماعة المسلمة أن تأخذ كل أسباب الحيطة والحذر في حالة نجاحها وفوزها، وجذب الأنصار لها وإقبال الناس عليها، فهذه المظاهر تغيظ أعداء الدعوة، وتحملهم على الإسراع في وأد الدعوة، وتشتيت أفراد الجماعة من الدعاة والأنصار. وعلى هذا لا يجوز للجماعة المسلمة أن تأخذها نشوة نجاحها، وإقبال الناس عليها، فينسيها ذلك ما يبيته لها أعداء الدعوة من الشر، وإنما عليها أن تزيد من حذرها وحيطتها منهم كلما اتسعت دائرة الدعوة، وكلما علا شأنها وأقبل الناس عليها.

١٥١٩- حذار من الإعجاب بكثرة الأعضاء والدعاة:

ذكرنا عتاب الله لعباده المؤمنين على ما ظهر منهم من الإعجاب بكثرتهم، ولما يتضمنه ذلك الإعجاب من الركون إلى هذه الكثرة، وإلى شيء من الاعتماد عليها لتحصيل النصر على الأعداء، مع أن النصر بيد الله يسوقه للمؤمنين إذا شاء. فليكن الاعتماد في تحصيل النصر على الله وحده، وليس على الأسباب من كثرة عدد أو

عُدد، وإن كنا مُطالَبين بتحصيلها. فلتحذر الجماعة المسلمة جماعة الدعاة من الإعجاب بما تراه من كثرة عدد أعضائها من الدعاة والمؤيدين والأنصار، وليكن اعتمادها وتوكلها في بلوغ أهدافها على الله وحده دون إغفال لما يجب عليها من بذل الجهد المستطاع في مجال أعمالها الدعوية.

١٥٢٠- الأمير ينّبه أتباعه بلطف عما يغفلون عنه:

ذكرنا أن النبي ﷺ خصّ نفراً من ضعاف الإيمان بالعطاء من غنيمة هوازن، ولم يعط الأنصار شيئاً من ذلك العطاء، مما جعل بعضهم يتكلم في ذلك حتى بلغ كلامهم رسول الله ﷺ، وكان ذلك منهم من نوع الغفلة عما ينبغي أن يرضوا به، ولا يضمروا في قلوبهم ويتكلموا بألسنتهم بما يخالف ما ينبغي لهم من الرضا بما فعله رسول الله ﷺ من تخصيصه العطاء بمن أعطاهم من ضعاف الإيمان الذين أسلموا بعد فتح مكة. ثم رأينا كيف عالج الموضوع الرسول الكريم ﷺ بأن جمع الأنصار وحدهم، وخطب فيهم، وقال لهم قولاً مؤثراً بَيّنَ فيه غفلتهم عما كان يجب أن لا يغفلوا عنه في مسألة تخصيص عطائه بمن أعطاهم من ضعاف الإيمان، وكان عليهم أن لا يغفلوا عن أن ما فعله ﷺ إنما فعله لحكمة وغرض شرعي، وإن لم يصبهم من ذلك العطاء شيء. ومع هذا فالرسول الكريم ﷺ عا تبهم برفق ولطف وبما استل به ما وقع في نفوسهم من شيء من عدم الرضا بسبب حرمانهم من عطاء رسول الله ﷺ، فكان مما قاله الرسول الكريم من كلام رقيق مؤثر: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟» مما جعلهم يبكون ويقولون: رضينا. وفي قول النبي ﷺ: «ألا ترضون الخ» فيه تنبيه على ما غفلوا عنه من عظيم ما اختصوا به منه ﷺ بالنسبة إلى ما حصل عليه غيرهم من عرض الدنيا الفانية. فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يسارع ويكشف دوافع عمله الذي يثير الكلام فيما بين أتباعه، لعدم معرفتهم الحكمة فيما صنعه أميرهم، وأن يترفق ويتطلف في عتابه لهم لما صدر منهم من كلام بصدد عمله، وما ينطوى عليه كلامهم من عدم الرضا بما فعله أميرهم. ولهم في هذا المسلك الحكيم برسول الله إسوة حسنة، ففيه التنبيه على ما قد يغفلون عنه أو يخطئون فيه مع لطف في العتاب ينزع من القلوب ما قد غشيها من عدم رضا بتصرفات أميرهم، هذا ولأمير الجماعة أن يجعل خطبته في

بيان دوافع عمله لمن صدر منهم الاعتراض الصريح أو الضمني على عمله، كما له بل عليه أن يجعل خطبته في هذا البيان لدوافع عمله عاماً لجميع أعضاء الجماعة إذا فشا هذا الاعتراض الصريح أو الضمني على عمله، ولكن في الحالتين يسلك مسلك البيان الصريح لدوافع عمله، ولغفلة الأعضاء عما كان يجب عليهم من التسليم لأميرهم بحقه في الاجتهاد فيما يعمله مع الرفق واللطف في البيان.

١٥٢١- لابد من النظام والتنظيم:

ذكرنا فيما سبق أنَّ وفد هوازن أتوا النبي ﷺ يطلبون منه ردّ ما أُخِذ منهم، وأنه خيرهم بين رد أموالهم أو نسائهم. فاختاروا رد نسائهم، ثم خطب النبي ﷺ في المسلمين في ذلك، فوافقوا على ردّ نسائهم، فقال ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذنوا» والعرفاء جمع عريف وهو القائم بأمر طائفة من الناس بأن يتولى سياستهم وحفظ أمورهم، وسمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يُعرِّف بها من فوقه عند الاحتياج، وقال ابن بطال: في الحديث مشروعية إقامة العرفاء، لأن الإمام لا يمكنه أن يباشر جميع الأمور بنفسه، فيحتاج إلى إقامة من يعاونه ليكفيه ما يقيمه فيه، فإذا أقام على كل قوم عريفاً لم يسع كل أحد إلا القيام بما أُمر به[٢٨٠٢]. فيستفاد من ذلك أن على أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يجعل على كل فئة أو على كل قسم من أقسام الجماعة مسؤولاً عنهم وأميراً عليهم؛ ليبلغهم ما تأمر به الجماعة أي قيادتها، وليبلغ أيضاً طلباتهم وآراءهم إلى من فوقه، فهذا تنظيم بديع ويعتبر من السنة، لأن النبي ﷺ لم ينكر وجود عرفاء لهم، سواء كان هو عليه الصلاة والسلام أمرّهم أو كان الذي أمرّهم غير النبي ﷺ. ويمكن لأمير الجماعة أن يحدد واجبات كل عريف عند تعيينه أميراً على فئة من فئات الجماعة أو على قسم من أقسامها.

١٥٢٢- على الأمير أن يوكل عنه عند غيبته:

قلنا: إن النبي ﷺ عندما أراد الرجوع إلى المدينة عين أميراً على مكّة عتاب بن

(٢٨٠٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١٣ ص١٦٩.

أَسِيد، وهذا كان من سنة النبي ﷺ إذا خرج لغزوة أن يوكل عنه من يقوم مقامه في إدارة شؤون ما وكله فيه. وعلى هذا ينبغي لأمير الجماعة المسلمة أن يُعيِّن من ينوب عنه، ويختاره من الأكفاء والقادرين على أداء ما وكلوا فيه.

١٥٢٣- على الأمير أن يكلف من يعلّم الناس أمور الدين:

ذكرنا أن النبي ﷺ ترك معاذ بن جبل في مكة ليفقه أهلها ويعلمهم أمور دينهم. فعلى أمير الجماعة المسلمة أن يحرص على تكليف بعض الدعاة بتعليم أهل قرية أو بلدة فتحوا فيها لهم فرعاً لجمعيتهم، أو يرسل إلى بلدة بعض الدعاة ويقيم هناك لتعليم الناس أمور دينهم وأمور الدعوة، وأن يهيء واسطة نقل تذهب به إلى ذلك البلد وترجع. أو يقيم هناك ويُعطَى كفايته من صندوق الجماعة المسلمة.



الفصل التاسع عشر

غزوة الطائف (٢٨٠٣)

المبحث الأول

خلاصة الغزوة ووقائعها

١٥٢٤- غزوة الطائف امتداد لغزوة حنين:

تعتبر غزوة الطائف في الحقيقة امتداداً لغزوة حنين، وذلك أن فلول هوازن وثقيف بعد أن حلت بهم الهزيمة، دخلوا الطائف مع رئيسهم وقائدهم في معركة حنين مالك بن عوف، وتحصنوا فيها، لأن الطائف كانت مدينة حصينة بموقعها الجبلي وحصونها المنيعة وسورها، فلا ينفذ إليها أحد إلا من خلال أبوابها التي أغلقتها ثقيف لتحكم مع هوازن تحصنهم في داخلها.

١٥٢٥- النبي يأمر بالمسير إلى الطائف ويحاصرها:

وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من معركة حنين، وحبس الغنائم في الجعرانة أمر جنده من أصحابه الكرام بالتوجه إلى الطائف، وكان ذلك في شوال من السنة الثامنة للهجرة، وضرب عليها الحصار الذي دام بضع عشرة ليلة. وبدأ القتال تراشقاً بالسهام.

١٥٢٦- استعمال المنجنيق والدبابة:

وقد استعمل المسلمون المنجنيق ضد المشركين المتحصنين وراء أسوار

(٢٨٠٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٤٣ - ٤٦، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٢ ص١٢٢ - ١٢٤، السيرة النبوية، للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٤٧٥ - ٤٧٨، السيرة النبوية الصحيحة للدكتور العمري ج٢ ص٥٠٧-٥٢٠، الرحيق المختوم ص٣٨٤ -٣٨٦. والطائف: مدينة كبيرة كثيرة الأعناب والنخيل على ثلاث مراحل من مكة.

الطائف، والمنجنيق آلة يُرمَى بها الحجارة، وقد أمر النبي ﷺ باستعماله. فكان المسلمون أول من استعمل هذه الآلة الحربية، كما استعملوا في حصارهم للطائف ما يسمى (بالدبابة) وهي آلة تصنع من الخشب، وتكسى بالجلود الغليظة، وكان المقاتلون يدخلون في جوفها ويقيمونها على عجلات فيدفعونها إلى سور المدينة؛ ليحدثوا فيه نقباً ينفذون منه، ولكن المحاصرين قذفوهم بقطع من الحديد ممحاة فأحرقتها، وخرج من فيها من المقاتلين فرماهم العدو بالسهام وقتل بعضهم.

١٥٢٧- تحريض العبيد على الخروج إلى المسلمين:

وأمر ﷺ من ينادي: أي عبد خرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً بعد أن تسوروا الحصن الذي كانوا فيه ونزلوا إلى المسلمين، ومنهم أبو بكرة واسمه نفيع بن الحارث، تسور حصن الطائف وتدلىٰ منه ببكرة مستديرة كان يستقي عليها، فسماه رسول الله ﷺ أبا بكرة. فأسلم أولئك العبيد، فأعتقهم النبي ﷺ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يعوله. ولما قدم أهل الطائف بعد مسلمين قالوا يا رسول الله: ردّ علينا رقيقنا، فقال: «لا أولئك عتقاء الله».

١٥٢٨- تقطيع الأعناب:

الطائف بلدة مشهورة بكثرة الأعناب، فأمر رسول الله ﷺ بتقطيعها عسى أن يكون ذلك حاملاً لهم على الاستسلام، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فلما رأى المشركون ذلك وعلموا أن الأمر جدّ لا هزل، طلبوا من النبي ﷺ أن يأخذ العنب لنفسه ولا يقطعه، أو يتركه لله وللرحم، فتركها ﷺ وأمر أصحابه بالكف عن تقطيعها.

١٥٢٩- الرسول ﷺ يعلن عن رغبته في الرجوع:

ولما طال الحصار، ووقعت إصابات غير قليلة في صفوف المسلمين فقد كانت سهام العدو تصيب المسلمين بينما سهام المسلمين لا تكاد تصيب المشركين، لأنهم يرمون وهم في أسفل السور، بينما العدو يرمى سهامه وهو في أعلى السور، فرأى النبي ﷺ أن يرجع عن حصارها إذ ما كانت هناك ضرورة للبقاء في هذا الحصار مع احتمال إسلامهم، وهذا ما كان يأمله ﷺ، يدل على ذلك أن بعض المسلمين قال:

يا رسول الله ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نبالهم، فقال ﷺ: «اللهم اهدِ ثقيفاً». ولكن لما سمع المسلمون برغبته ﷺ بالرجوع دون أن يفتحوا الطائف، أظهروا رغبتهم في البقاء ومناوشة المشركين حتى يفتحوها، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالبقاء والاستمرار بالقتال، ولما كثرت فيهم الجراح أعلن ﷺ عزمه على فك الحصار والرجوع إلى المدينة، أظهروا رضاهم وسرورهم بذلك، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف فلم ينل منهم شيئاً قال: «إنا قافلون إن شاء الله» فثقل عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ. وقال سفيان مرة: فتبسم. قال الحُميدي: حدثنا سفيان الخبر كله. وجاء في شرحه لابن حجر العسقلاني: وفي مرسل ابن الزبير عند ابن أبي شيبة قال: لما حاصر النبي ﷺ الطائف قال أصحابه: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً». وذكر أهل المغازي أن النبي ﷺ لما استعصى عليه الحصن، وكانوا - أي أهل الطائف قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، ورموا على المسلمين سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا قوماً، فاستشار ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: هم ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، فرحل عنهم. وقوله: «إنا قافلون» أي راجعون إلى المدينة. قوله: «فثقل عليهم» بين سبب ذلك بقولهم: «نذهب ولا نفتحه» وحاصل الخبر أنهم لما أخبرهم بالرجوع بغير فتح لم يعجبهم، فلما رأى ذلك أمرهم بالقتال فلم يفتح لهم فأصيبوا بالجراح، لأنهم رموا عليهم من أعلى السور، فكانوا ينالون منهم بسهامهم ولا تصل سهام المسلمين إلى من على السور، فلما رأوا ذلك تبين لهم تصويب الرجوع. فلما أعاد عليهم القول بالرجوع أعجبهم ذلك، ولهذا قال: فضحك، أو تبسم ﷺ. ورواه أيضاً الإمام مسلم بتغيير بسيط في بعض ألفاظه لا يغير معنى الحديث، وقد جاء في شرح النووي له: معنى الحديث أنه ﷺ قصد الشفقة على أصحابه والرفق بهم بالرحيل عن الطائف؛ لصعوبة أمره وشدة الكفار الذين فيه، وتقويتهم بحصنهم مع أنه ﷺ عَلِمَ أو رجى أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة كما جرى، فلما رأى حرص أصحابه على المقام والجهاد أقام وجدَّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا من

المشقة الظاهرة، ولعلهم نظروا فعلموا أن رأي النبي ﷺ أبرك وأنفع وأحمد عاقبة وأصوب من رأيهم، فوافقوا على الرحيل وفرحوا، فضحك النبي ﷺ تعجباً من سرعة تغير رأيهم.

١٥٣٠- إسلام ثقيف:

قلنا: إن رسول الله ﷺ لما قيل له: يا رسول الله ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نبالهم، قام النبي ﷺ يدعو لهم ولم يدع عليهم، فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً». وقد استجاب الله دعاءه، فقد أتوا رسول الله ﷺ في العام المقبل في رمضان مسلمين.

المبحث الثاني
المستفاد
من غزوة الطائف

١٥٣١- استعمال الجديد النافع من آلات القتال وغيرها:

رأينا أن النبي ﷺ أمر جنده باستعمال المنجنيق لرمي المشركين في الطائف، وكان هذا الاستعمال حصل لأول مرة من قبل المسلمين وفي حصار الطائف، ولم تكن تعرفه العرب في حروبها، وأيضاً استعملوا ما سمي بالدبابة؛ لغرض الاقتراب من سور الطائف وإحداث ثقب فيه، وعلى هذا فينبغي أن يبين الدعاة في دروسهم أن على ولي الأمر، الحكومات في البلاد الإسلامية أن تُعنَى بتزويد جيشها بكل جديد من آلات الحرب حتى لا تتخلف عن مستوى قوة أي دولة، وعلى ولي الأمر في سبيل ذلك أن يأمر بتعلم طائفة من المسلمين العلوم الحديثة الضرورية لإنتاج وسائل الحرب وآلاته وأسلحته، كما أن على الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن تستعين بكل جديد نافع من الآلات المستخدمة والأساليب النافعة في مجال الدعوة، كاستعمال الآلات الحديثة للطبع، واستعمال وسائل النقل الحديثة التي يحتاجها الدعاة في تنقلاتهم ونحو ذلك.

١٥٣٢- إتلاف أشجار العدو وزروعه:

رأينا أن النبي ﷺ أمر أصحابه بتقطيع الأعناب التي كانت لأهل الطائف، فعلى الدعاة أن يذكّروا ولاة الأمور بجواز ذلك في الحرب إذا كان في هذا الإتلاف مصلحة وفائدة للمسلمين، كإلقاء الرعب في قلوب العدو أو لإغاظته، أو لضرورات تنقل الجنود، أو لتسهيل مراقبة العدو ونحو ذلك، لأنه إذا جاز أو وجب إتلاف النفوس في الحروب الشرعية المشروعة، جاز ما دون ذلك من الإتلاف مما تقضي به ضرورات الحرب.

١٥٣٣- الأسلوب العملي في الإقناع:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ أعلم أصحابه وجنده برغبته في الرجوع إلىٰ المدينة بعد أن طال الحصار من دون أن تظهر بوادر إمكان فتح الطائف والانتصار على المشركين، إلا أن أصحابه ثقل عليهم أن يرجعوا قبل فتح الطائف، ورغبوا في الاستمرار بالحصار والقتال، فأمر النبي ﷺ بذلك، فلم يحصل لهم فتح للمدينة المحاصرة، وإنما حصلت لهم جراحات كثيرة، فعاد النبي ﷺ وأعلن عزمه على الرجوع، فأظهر الجميع رضاهم بذلك.

فعلى أمير الجماعة المسلمة، إذا رأى من المصلحة عدم الإصرار على تحقيق شيء معين وتحصيله، وأن الخير في الانفضاض عنه، ورأى أن بعض الأنصار والدعاة المنتسبين لجماعته يحرصون على الاستمرار في موقفهم وتحصيل بغيتهم، فيجوز لأمير الجماعة أن يأذن بالاستمرار في النهج القديم لتحقيق المقصود إذا كان يسعه ذلك، ولا ضرر في الاستمرار عليه وإن كان لا جدوى منه، وأن يكون ذلك لفترة وجيزة. أما إذا لم يكن هناك سعة من الوقت، ولا قدرة على الاستمرار على النهج القديم، فلا يجوز الاستمرار عليه، وعلى الأتباع أن يطيعوا أميرهم، وهذا من حقه عليهم.

١٥٣٤- تحريض أتباع خصوم الدعوة على تركهم:

يجوز للجماعة المسلمة أن تحرض أتباع خصوم الدعوة على تركهم إذا كان خصوم الدعوة يستعملون هؤلاء الأتباع لإلحاق الأذى بالدعاة، وأن تعدهم على ما يحملهم على الانفضاض عنهم. ويجوز لأمير الجماعة المسلمة في هذا المجال أن يستعين بمن لهم مكانة لدى أتباع خصوم الدعوة؛ لحملهم على الانفضاض من حولهم، كما يجوز للجماعة المسلمة أن تقدم العون إلى اتباع خصوم الدعوة سواء كان هذا العون مادياً أو معنوياً. فقد ذكرنا أن رسول الله ﷺ أمر من ينادي بأن أي عبد يترك المشركين ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ، مما شجع العبيد على الخروج إلى المسلمين، فقد خرج منهم ثلاثة وعشرون رجلاً.

الفصل العشرون

قصة غزوة تبوك

المبحث الأول

خلاصة الغزوة وأحداثها

١٥٣٥- تاريخ هذه الغزوة وأهميتها:

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من سنة تسع للهجرة قبل حجة الوداع بلا خلاف. وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق، وتسمى هذه الغزوة أيضاً بـ«غزوة العسرة» مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وهي غزوة تبوك. ووجه تسميتها بـ«غزوة العسرة»، لأن الجيش كان في عسرة من الماء، ونقص في الظهر- أي في الحيوانات التي تستعمل للركوب- وفي النفقة فسميت غزوة العسرة. وتبدو أهمية هذه الغزوة أنها وقعت في ظروف شديدة: من شدة الحرّ، وبعد المسافة، وقلة الإبل والخيول التي تحمل المجاهدين. وهي الغزوة الوحيدة التي أعلن عنها ﷺ، إذ كانت عادته ﷺ عدم التصريح بالوجهة التي يقصدها في غزوته. ولكن في هذه الغزوة أعلم المسلمين بوجهته فيها؛ ليكونوا على علم تام بما هم سائرون إليه. وتمتاز هذه الغزوة أيضاً أنها وقعت ومعركة مؤتة التي وقعت قبلها في مواجهة الروم، وليس في مواجهة العرب، فقد جهز الروم جيشاً كثيفاً لمناجزة الرسول ﷺ، ويعاونه في ذلك القبائل العربية المتنصرة[٢٨٠٤].

١٥٣٦- أسباب هذه الغزوة:

وكان السبب في هذه الغزوة ما ذكره ابن سعد وغيره، فقد قالوا: بلغ النبي ﷺ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب. وجاء مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم

(٢٨٠٤) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١١١.

بجهه غزوه[٢٨٠٥]، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ويكون جهازهم من زاد وماء ولباس الحرب، وما يحتاجه من يخرج للجهاد مناسباً ذلك كله لهذه الغزوة التي تقع بعيداً عن المدينة.

١٥٣٧- تبرع المسلمين للإعداد لهذه الغزوة:

وقد حثَّ النبي ﷺ على الجهاد والتبرع بالمال، فاستجاب المسلمون لما دعاهم إليه رسول الله ﷺ، فتبرع عثمان بن عفان رضي الله عنه بثلاثمائة بعير وبألف دينار جاء بها فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل يقلبها ويقول: «اللهم أرض عن عثمان فإني راض عنه». ويقول أيضاً: «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم». وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فقال له الرسول: «وهل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب. وتبرع غيرهم بما استطاعوا عليه حتى إن أحدهم تبرع بصاع من تمر، لأن هذا هو ما استطاعوه. وتبرعت النساء بحليهن[٢٨٠٦].

١٥٣٨- استنفار المسلمين للقتال:

ومع هذه الحملة من التبرعات بالمال كانت معها حملة استنفار عام للمسلمين ليجاهدوا بأنفسهم، فقد استنفر ﷺ المسلمين في المدينة وفي مكة، كما استنفر الأعراب وسكان البوادي الذين أسلموا، وقد استجابوا جميعاً إلى هذا الاستنفار إلا المنافقين؛ كما سنذكره عند كلامنا على ما نزل من القرآن بشأن هذه الغزوة وشأن المتخلفين عنها.

١٥٣٩- يبكون لعدم تيسر الجهاد لهم:

وجاء جماعة إلى رسول الله ﷺ يسألونه ما يحملهم عليه، أي ما يركبونه للوصول إلى ساحة القتال ليقاتلوا مع إخوانهم، فلما لم يجدوا بغيتهم رجعوا يبكون أسفاً وحزناً أن لا يجدوا ما يذهبون به إلى القتال، كما أشار إلى ذلك القرآن، وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(٢٨٠٥) المرجع السابق ج٨ ص١١١.

(٢٨٠٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٤٩٦.

١٥٤٠- خروج جيش المسلمين من المدينة:

ثم خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين وقد بلغوا أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، واستخلف النبي ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، واستخلف على أهله علي بن أبي طالب الذي كان حريصاً على الخروج للقتال مع المسلمين حتى قال للنبي ﷺ: أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال له: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[٢٨٠٧].

١٥٤١- فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم:

لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك ومعه جيشه، كان بعضهم يتذكر من تخلف عن المسير معهم، فيقولون لرسول الله ﷺ: تخلف فلان، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره، فقال لهم مقالته هذه. أما أبو ذر فقد حدث له التأخر أنه انتظر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً. ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله وهو يتجه إلى تبوك، ونظر القوم فإذا رجل مقبل عليهم وهو يمشي، فأخبروا النبيَّ ﷺ بذلك، فلما رآه قال: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم فإذا هو أبو ذر. فقال ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». وكان أبو خيثمة قد تخلف من غير عذر، وإنما هو الكسل، فلما رجع إلى بيته بعد أن خرج رسول الله ﷺ بجيشه، وجد أبو خيثمة زوجتيه في عريشين لهما في بستان له، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردّت فيه ماء وهيأت فيه طعاماً، فلما رأى ذلك قال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام شهي مهيأ وامرأة حسناء، ما هذا بالعدل، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته وسلاحه وزاده ولحق برسول الله ﷺ حين نزل بتبوك، فلما دنا من الجيش قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فنظروا فإذا هو أبو خيثمة. فسلمّ على رسول الله ﷺ وأخبره

(٢٨٠٧) المصدر السابق ج٢ ص٤٩٧، وصحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١١٢.

خبره، فدعا له ﷺ بخير[٢٨٠٨].

١٥٤٢- معجزات لرسول الله ﷺ[٢٨٠٩]

خرج جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ مع نقص في الزاد والماء، ونقص في وسائط النقل: الإبل وغيرها، حتى كان الرجلان والثلاثة يعتبقون على بعير واحد، وكان الرجلان والثلاثة يقتسمون التمرة فيما بينهم حتى كادوا أن ينحروا رواحلهم من الإبل ليأكلوها. فتقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله بالبركة لما بقي من أزوادهم حتى يكفيهم، فدعا ﷺ بفضل أزوادهم ووضعه على بساط وكان يسيراً، ثم دعا ﷺ ربه بأن يبارك في هذه الأزواد، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة». وأصيبوا بعطش شديد جداً حتى أن بعضهم نحر بعيره؛ ليعتصر ما في كرشه من ماء ليشربه. فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، فرفع ﷺ يديه نحو السماء ودعا ربه، فلم يرجعهما حتى أمطرت السماء، فشربوا وملؤوا ما معهم من الأوعية، ثم ذهبوا فنظروا، فلم يجدوا السحابة التي أمطرتهم جاوزت معسكرهم.

١٥٤٣- وصول المسلمين إلى تبوك:

ولما وصل جيش المسلمين إلى تبوك لم يجدوا أحداً هناك؛ لأن الروم لما بلغهم مسير جيش المسلمين لملاقاتهم آثروا الانسحاب إلى بلاد الشام ليحتصنوا بحصونها. وأقام النبي ﷺ والمسلمون فيها عشرين ليلة، وفي أثناء إقامته ﷺ أرسل خالد بن الوليد مع ثلة من المقاتلين إلى دومة الجندل، فأسروا ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي، فصالحه النبي ﷺ على الجزية[٢٨١٠].

(٢٨٠٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٠-٥٠١.

(٢٨٠٩) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٠-٥٠١.

(٢٨١٠) السيرة النبوية للدكتور العمري ج٢ ص٥٣٤-٥٣٥.

١٥٤٤- رجوع النبي ﷺ وجيشه:

وبعد أن مكث النبي ﷺ المدة التي ذكرناها، استشار أصحابه في السير إلى الروم في الشام ومنازلتهم هناك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله إن كنتَ أُمِرتَ بالسير فسرْ، فقال ﷺ: «لو كنتُ أمِرتُ بالسير لما استشرت» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا منهم وقد أفزعهم ذلك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى ما تراه أو يُحدث الله أمراً. فاستجود رسول الله ﷺ رأي عمر، وأمر بالرجوع إلى المدينة[٢٨١١].

١٥٤٥- أصناف المتخلفين عن غزوة تبوك[٢٨١٢]:

وكان الذين تخلفوا عن غزوة تبوك أصنافاً:

(الصنف الأول) الذين أمرهم رسول الله ﷺ بالبقاء في المدينة، وهم محمد بن مسلمة حيث استخلفه رسول الله على المدينة، وعلي بن أبي طالب على أهله ﷺ مع حرصه رضي الله عنه على الخروج مع رسول الله ﷺ للقتال، فقال له: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

و(الصنف الثاني) المعذورون أي أصحاب الأعذار كالشيوخ والمرضى والفقراء الذي لا يجدون ما ينفقونه للخروج ولا من يحملهم إلى ساحة القتال.

و(الصنف الثالث) مؤمنون تخلفوا كسلاً وتقصيراً وعصياناً وهم: أبو لبابة وأصحابه والثلاثة الذين تخلفوا.

و(الصنف الرابع) المنافقون وهم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لنفاقهم وعدم إيمانهم. وسنتكلم عن أصحاب الأعذار، ثم عن المؤمنين العصاة، ثم عن المنافقين. وذلك بذكر ما نزل من القرآن بشأن غزوة تبوك وبشأن هؤلاء الأصناف.

(٢٨١١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٠٤.

(٢٨١٢) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥١٠.

المبحث الثاني
ما نزل من القرآن
بشأن غزوة تبوك وأصناف المتخلفين عنها

١٥٤٦- تمهيد:

نزلت أكثر آيات سورة براءة بشأن غزوة تبوك وبشأن أصناف، المتخلفين عنها. وقبل ذكر هذه الآيات، أذكر الآيات التي حثت على القتال في سبيل الله بمناسبة ذكر غزوة تبوك، والنفير إليها، وعتاب المتخلفين والمتباطئين عنها من المؤمنين.

المطلب الأول
الحث على الجهاد بالنفس والمال
وعتاب المتخلفين والمتباطئين من المؤمنين

١٥٤٧- آية في عتاب المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٢٨١٣] لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أو تباطأ في الخروج إليها[٢٨١٤]. قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ النفر هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه، ومنه قوله ﷺ: «إذا استنفرتم فانفروا» والاسم النفير. وقوله تعالى: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ أي تباطأتم ولم تسرعوا إلى الخروج إلى غزوة تبوك. ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ متعلق بـ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ لتضمينه معنى الميل، أي اثاقلتم مائلين

(٢٨١٣) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(٢٨١٤) تفسير فتح البيان ج٥ ص٣٠١، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧.

إلى الدنيا وشهواتها الفانية، أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. وكان ذلك في غزوة تبوك، كما قلنا، لغزو الروم في وقت عسرة وقحط وقيظ، وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو، فشق على بعضهم الخروج. والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من جميعهم، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلىٰ الكل، وهو كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي مالكم فعلتم هكذا - أي: تثاقلتم - أَرِضاً منكم بالدنيا الفانية بدلاً من نعيم الآخرة الدائم؟ ثم زهدَّ تبارك وتعالى في الدنيا ومتاعها ورغّبَ في الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما الحياة الدنيا والتمتع بها وبلذائذها بالنسبة إلى نعيم الآخرة إلا قليل، أي إلا متاع صغير لا يُعبأ به؛ لأن لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطة عن قرب لا محالة، بينما منافع الآخرة، ولذائذها شريفة عالية خالصة من الآفات والكدورات، دائمة أبدية سرمدية، وذلك يوجب اليقين بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة شيء قليل وتافه وحقير لا يجوز أن يؤثره المؤمن على نعيم الآخرة. والحرف (في) يسمى «في القياسية» لأن المقيس - وهو متاع الحياة الدنيا - موضوع بجنب المقيس به، وهو نعيم الآخرة. وقال ﷺ، في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»[٢٨١٥].

١٥٤٨- توعد الله لمن ترك الجهاد:

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٨١٦].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس رضي الله

(٢٨١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٧ - ٣٥٨، تفسير الألوسي ج١٠ ص٩٥، فتح البيان ج٥ ص٣٠١ - ٣٠٢، القرطبي ج٨ ص١٤٠.

(٢٨١٦) سورة التوبة الآية ٣٩.

عنهما: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم المطر، فكان ذلك هو عذابهم. وقال الإمام ابن عطية: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعد بأن يبدل الله لرسوله ﷺ قوماً لا يتخلفون عنه عند استنفاره إياهم. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بترككم امتثال أمره بالنفير، لأن الله غني عن العالمين، أو لا تضروا رسوله شيئاً بترك نصره والنفير معه، فإن الله ناصره على أعدائه، ولا يخذله أبداً سواء نفرتم أو لم تنفروا. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم(٢٨١٧).

١٥٤٩- تكفل الله بنصر رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢٨١٨). والمعنى أي أنكم إن تركتم نصره بأن لم تنفروا إذا استنفركم على من أرادوا قتاله، فسينصره الله بقدرته وتأييده كما نصره إذ أجمع المشركون على الفتك به وأخرجوه من داره وبلده(٢٨١٩). وقد سبق أن ذكرنا أقوال العلماء في تفسير هذه الآية عند كلامنا على هجرة النبي ﷺ(٢٨٢٠).

١٥٥٠- انفروا خفافاً وثقالاً:

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ

(٢٨١٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٨، تفسير ابن عطية ج٦ ص٤٩٥، فتح البيان ج٥ ص٣٠٣.

(٢٨١٨) سورة براءة، الآية ٤٠.

(٢٨١٩) تفسير المنار ج١٠ ص٤٩٦.

(٢٨٢٠) انظر الفقرات السابقة من ١٠٧٥-١٠٧٨.

﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2821] أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر، فقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾[2822]. وفي فتح البيان ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها. وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة. فقيل المراد: منفردين ومجتمعين، نشاطاً وغير نشاط، فقراء وأغنياء، شباباً وشيوخاً، ركباناً ومشاة، رجالاً وفرسانا، مقلين من السلاح ومستكثيرين منه، مشاغيل وغير مشاغيل، عزاباً ومتأهلين، خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم، مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له. ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني؛ لأن معنى الآية: انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت، فالأولى أن هذا عام لكل الأحوال فيهما[2823]. وعلى هذا ما ورد عن مفسري السلف من تفسير الخفاف والثقال بما ذكرنا فهو على سبيل المثال لا الحصر[2824]. ثم رغبّ تعالى في بذل المال في سبيله وبذل النفوس في مرضاته، فقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقدمت الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز[2825]. فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكبر الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي ما تقدم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ خير لكم من السكون والدعة، لأن فيه مرضاة الله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2826].

(٢٨٢١) سورة التوبة الآية ٤١.

(٢٨٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٥٩.

(٢٨٢٣) فتح البيان ج٥ ص٣٠٧.

(٢٨٢٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٢، وتفسير المنار ج١٠ ص٥٣٥.

(٢٨٢٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٠.

(٢٨٢٦) فتح البيان ج٥ ص٣٠٨.

المطلب الثاني
المتخلفون عن غزوة تبوك
من أصحاب الأعذار

١٥٥١- الضعفاء والمرضى ومن يلحق بهم:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢٨٢٧).

قوله: «ليس على الضعفاء» جمع ضعيف وهو ضد القوي، أي من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنّهم من الجهاد. قال ابن عباس يعني: الزمني والشيوخ والعجزة. والزمنى هم الذين أصابتهم الزمانة وهي العاهة التي لا تزول بل تبقى على الزمان، ومنها الكُساح والعمى والعرج. كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ المرضى: جمع مريض وهم الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، وعذرهم ينتهي بالشفاء منها. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ وهؤلاء هم الفقراء الذين لا يجدون مالاً ينفقون منه على أنفسهم إذا خرجوا إلى الجهاد، ويتركون لعيالهم ما يكفيهم. وقد كان المؤمنون في عصر النبي ﷺ يجهزون أنفسهم للقتال، فالفقير ينفق على نفسه، والغني ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته، كما فعلوا في غزوة تبوك إذ لم يكن للمسلمين بيت مال غني ينفق منه النبي ﷺ على الغزاة في سبيل الله. وهذا العذر خاص بالمال، ويزول إذا كان للأمة في بيت المال ما ينفقون منه على الغزاة. فليس على هذه الأصناف الثلاثة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي: ضيق في حكم الشرع يعدون به مذنبين، ولا إثم في القعود عن الجهاد الواجب. ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟

(٢٨٢٧) سورة براءة الآية ٩١.

لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في حال قعودهم عن الجهاد لعجزهم، إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان وللرسول ﷺ في الطاعة، وأداء الأمانة بالقول والعمل، ولا سيما الذي تقتضيه حالة الحرب، فالنصيحة والنُصح تحري ما يصلح به الشيء، ويكون خالياً من الغش والخلل والفساد. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري: أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً. قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». قال العلماء: النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوحدانية، ووصفه بصفات الألوهية، وتنزيهه عن النقائص، والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه. والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من ولاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره ومحبته ومحبة آل بيته وأصحابه، وتعظيمه وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها والتفقه فيها، والدفاع عنها ونشرها والدعوة إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ. «والنصح لكتابه»: قراءته والتفقه فيه وتعليمه وإكرامه والتخلق به «والنصح لأئمة المسلمين» إرشادهم إلى الحق وعدم الخروج عليهم وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم. «والنصح للعامة»: ترك معاداتهم وإرشادهم، وحب الصالحين منهم والدعاء لجميعهم، وإرادة الخير لكافتهم. وفي تفسير الخازن: النصح أن يقيموا في البلد، ويحترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل الجهاد، ويقوموا بمصالح بيوتهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ السبيل: الطريق السهل يطلق على الحسّي والمعنوي في الخير وفي الشر و﴿مِن﴾ لتأكيد النفع العام. والمعنى ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم والنيل منهم، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم. والمحسنون ضد المسيئين، وهو عام في كل من أحسن عملاً من أعمال البر والتقوى. والشرع الإسلامي يجزي المحسن بأضعاف إحسانه، ولا يؤاخذ المسيء إلا بقدر إساءته، فإذا كان أولئك المعذورون في القعود عن الجهاد محسنين في سائر أعمالهم بالنصح المذكور انقطعت طرق المؤاخذة دونهم[٢٨٢٨].

(٢٨٢٨) تفسير المنار ج١٠ ص٦٧٨-٦٨١، فتح البيان ج٥ ص٣٦٨-٣٦٩، تفسير القرطبي ج٨ ص٢٢٦-٢٢٧.

١٥٥٢- البكاؤون:

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي ولا حرج على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل؛ ليخرجوا معك، فلم تجد ما تحملهم عليه ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي: انصرفوا من مجلسك وهم في بكاء شديد هاجه حزن عميق. فكانت أعينهم تمتلىء دمعاً فتسيل ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي حزناً منهم على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون ولا ما يركبون في خروجهم معك جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته. وعن محمد بن كعب قال: هم سبعة نفر جاؤوا إلى الرسول ﷺ؛ ليحملهم على الرواحل. فهذه الآية نزلت في شأنهم، فهم معذورون كالضعفاء والمرضى(٢٨٢٩).

١٥٥٣- لا تكليف على العاجز:

ويلاحظ هنا أن هذه الآية الكريمة ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ . . .﴾ الخ أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل. وتارة إلى بدل هو عزم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة، أو العجز من جهة المال(٢٨٣٠).

١٥٥٤- المعذورون مأجورون بنياتهم:

وهؤلاء المعذورون يُؤجَرون بنياتهم، وإن ظلوا في المدينة ولم يشتركوا في القتال، وذلك بسبب عذرهم المشروع، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: يا رسول الله كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال ﷺ: «حسبهم العذر»(٢٨٣١)، وما ذلك إلا بنياتهم الصادقة المنطوية على رغباتهم المؤكدة على القتال التي حال دون تحقيقها عجزهم.

(٢٨٢٩) تفسير المنار ج١٠ ص٦٨٠-٦٨١.

(٢٨٣٠) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٢٦.

(٢٨٣١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٢. والحديث رواه البخاري بلفظ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم». قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» فتح الباري ج٨ ص١٢٦.

المطلب الثالث
المتخلفون كسلاً وعصياناً لا نفاقاً

١٥٥٥- أبو لبابة وأصحابه:

وهؤلاء قوم تخلفوا كسلاً وعصياناً لا شكاً ونفاقاً، ولكن سرعان ما عرفوا ذنبهم، فندموا وتابوا إلى الله تعالى فتاب عليهم، قال تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٨٣٢] وهذه الآية تتعلق بالذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقاً بالحق، فقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أقروا بها واعترفوا بها فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية وإن نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين. قال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أبي لبابه وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقام أبو لبابة وتسعة من أصحابه المتخلفين وربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، ويلاحظ هنا أنه قال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ ولم تذكر توبتهم؟ والجواب ذكر في الآية اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة، فكان ذلك بمنزلة ذكر توبتهم[٢٨٣٣].

١٥٥٦- خذ من أموالهم صدقة:

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢٨٣٤]، روى أن أبا لبابة والجماعة التائبة معه التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ جاءت رسول الله ﷺ لما حصلت لها التوبة من الله عز وجل، فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض بأموالكم إلا بأمر من

(٢٨٣٢) سورة براءة الآية ١٠٢.

(٢٨٣٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٥، تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧.

(٢٨٣٤) سورة براءة، الآية: ١٠٣.

الله» فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فَهُمُ المراد بها. فروي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المفسرين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ و﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ خطاب للنبي ﷺ. والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه. أو بمعنى الإنماء والبركة في المال. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم، وطمأنينة لقلوبهم بأن الله قد تاب عليهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع اعترافهم بذنبهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم[٢٨٣٥].

١٥٥٧- توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢٨٣٦]. ﴿الثَّلَاثَةِ﴾ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. ومعنى ﴿خُلِّفُوا﴾ خلفوا عن الغزو أي عن غزوة تبوك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برُحْبها أي ضاقت عليهم الأرض مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً مما هم فيه. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: وعلموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا ملجأ من سخط الله ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: لا ملجأ من سخط الله إلا باستغفاره والرجوع إليه بالتوبة. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ثم رجع إليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى؛ ليستقيموا على توبتهم، ويثبتوا وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علماً منهم أن الله تواب على من تاب، ولو عاد في اليوم مائة مرة[٢٨٣٧].

(٢٨٣٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٧-٣٠٨، تفسير ابن عطية ج٧ ص٢٠-٢٢.

(٢٨٣٦) سورة التوبة الآية ١١٨.

(٢٨٣٧) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨-٣١٩.

١٥٥٨- كعب يروي قصة تخلفه وتوبة الله عليه وعلى صاحبيه:

روى البخاري عن كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد. والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظنَّ أن سيخفي له، ما لم ينزل فيه وحي من الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز، معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً. ثم غدوت ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن ارتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقَدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْدَاه ونظرُه في عِطفهِ. فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكر الكذب

وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي - فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً زاح عَنِّي الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلمت عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظَهْرَكَ؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئنْ حَدَّثْتُك اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسْخِطك عليَّ، ولئن حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدقٍ تَجِدُ عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أَقْوَى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك»، فقمتُ. وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يُؤَنِّبُونَني حتى أردتُ أَنْ أرجع فأُكذِّب نفسي. ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقِفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أَيُّها الثلاثةُ من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرَتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج، فأشهد الصلاةَ مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة

الناس، مشيت حتى تسورت جدارَ حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت: يا أبا قتادة: أنشدك بالله، هل تعلمني أُحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت. فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أَنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءَني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنَه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوانٍ ولا مَضيَعة، فالْحَقْ بنا نواسيكَ. فقلت لما قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء. فتيمَّمتُ بها التنور فسَجَرْتُه بها - حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأَتك، فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا. بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك. فقلت لأمرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هِلال بن أمية رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتك، كما أَذِنَ لأمرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. فلبثتُ بعد ذلك عشر ليالٍ، حتى كملَتْ لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليتُ صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَتْ، سمعت صوت صارخ أَوْفَى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالكٍ أَبْشِرْ. قال: فَخَررتُ ساجداً وعرفت أن قد جاء فرجٌ. وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يُبَشِّرُونَنَا، وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أَسْلَمَ، فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس. فلما جاءني الذيَ سمعتُ صوته يُبَشِّرُني نزعتُ له ثَوْبَيَّ، فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما

يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنوني بالتوبة، يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناسُ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يُهَروِلُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهُهُ من السرور: «أَبْشِر بخير يوم مرَّ عليك منذُ ولدْتكَ أمُّكَ». قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أَنْ أَنْخَلِعَ من مالي صَدَقَةً إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أَعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث - منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ - أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدْتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزَل الوحي شرَّ ما قاله لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ..﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وارجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنا عن الغزو؟ إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه

أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه[٢٨٣٨].

١٥٥٩ - شرح حديث كعب بن مالك:

وجاء في شرح ابن العسقلاني لهذا الحديث ما يلي[٢٨٣٩]:

قوله: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها» أي أوهم غيرها. والتورية أن يذكر لفظاً يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر. فيوهم إرادة القريب وهو يريد البعيد. وقوله: «فجلّى» أي أوضح. «أمرهم ليتأهبوا أُهْبَةَ غزوهم» أي أوضح لهم ﷺ وجهته في هذه الغزوة؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم. والأُهْبة: ما يحتاج إليه في السفر والحرب. وقوله: «حتى اشتد بالناس الجدُّ» الجدُّ في الشيء: المبالغة فيه. وقوله: «مغموصاً» أي مطعوناً عليه في دينه متهماً بالنفاق. وقوله: «وتفارط» أي فات وسبق. والفرط: السبق. وفي رواية ابن أبي شيبة: «حتى أمعن القوم وأسرعوا فطفقت أغدو للتجهيز، وتشغلني الرجال، فأجمعتُ القعود حين سبقني القوم». قوله: «حبسه برداه والنظر في عطفه» كنى بعطفه عن حسنه وبهجته، والعرب تصف الرداء بالحسن وتسميه عِطفاً لوقوعه على عطفي الرجل. قوله: «والله لقد أعطيتُ جدلاً» أي فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إليّ بما يُقبَل ولا يُرَد.

قوله: «تَجِدُ عليَّ» أي تغضب قوله: «وثار رجال» أي وثبوا. قوله: «فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً» وممن جزم بأنهما شهدا بدراً أبو بكر الأثرم، وتعقبه ابن الجوزي ونسبه إلى الغلط، فلم يصب. واستدل بعض المتأخرين لكونهما لم يشهدا بدراً بما وقع في قصة حاطب، وأن النبي ﷺ لم يهجره، ولا عاقبه مع كونه جسَّ عليه، بل قال لعمر لما همَّ بقتله: «وما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». قال - أي ابن الجوزي في ادعائه أنهما لم يشهدا بدراً -: وأين ذنب التخلف من ذنب التجسس؟ قلت - أي ابن حجر العسقلاني -: وليس ما استدل به بواضح، لأنه يقتضي أن البدري - أي الذي شهد

(٢٨٣٨) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١١٣-١١٦.

(٢٨٣٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١١٦-١٢٥.

معركة بدر - عنده إذا جنى جناية ولو كبرت لا يُعاقَب عليها، وليس كذلك، فهذا عمر رضي الله عنه مع كونه المخاطب بقصة حاطب، فقد جلد قدامة بن مظعون الحدَّ لما شرب الخمر وهو بدري، وإنما لم يعاقب النبي ﷺ حاطباً ولا هجره، لأنه قبل عذره في أنه إنما كاتب قريشاً خشيةً على أهله وولده، وأنه أراد أن يتخذ له عندهم يداً، فعذره بذلك بخلاف تخلف كعب وصاحبيه، فإنهم لم يكن لهم عذر أصلاً، قوله: «لي فيهما أسوة» قال ابن التين: التأسي بالنظير ينفع في الدنيا بخلاف الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ قوله: «فأسارقه النظر» أي: أنظر إليه في خفية. قوله: «من جفوة الناس» أي: من إعراضهم. وفي رواية ابن أبي شيبة: «وطفقنا نمشي في الناس، لا يكلمنا أحد، ولا يرد علينا سلاماً، قوله: «حتى تسورت» أي علوت سور الدار. قوله: «جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي» ذكر أنه ابن عمه لكونهما معاً من بني سلمة وليس هو ابن عمه؛ أخي أبيه الأقرب. قوله: «أنشدك» أي أسألك. قوله: «نبطي من أنباط الشام» نسبة إلى استنباط الماء واستخراجه. وهؤلاء كانوا في ذلك الوقت أهل الفلاحة، وهذا النبطي الشامي كان نصْرانياً. قوله: «من ملك غسان» هو جبلة بن الأيهم قوله: «ولم يجعلك الله بدار هوان وَمضيَعة» أي حيث يضيع حقك. قوله: «فالحق بنا نواسيك» من المواساة وزاد في رواية ابن أبي شيبة: في أموالنا. قوله: «فالحق بنا» فقلت - أي قال كعب -: إنا لله، قد طمع فيَّ أهل الكفر. قوله: «فتيممت» أي قصدت «والتنور» ما يخبز فيه. وقوله: «فسجرته» أي أوقدته، وأنّثَ الكتاب على معنى الصحيفة. ودلّ صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وقد تحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة، وأحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء، والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما والذي استدعاه قريبه ونسيبه، ومع ذلك فقد غلب عليه دينه، وقوي عنده يقينه، ورجح ما هو فيه من النكد، والتعذيب على ما دعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله ﷺ. كما قال ﷺ: «وأن يكون الله

ورسوله أحب إليه مما سواهما». قوله: «فأوفى»: أي أشرف واطلع. قوله: «على جبل سَلْع» سَلْع: جبل في أرض المدينة. قوله: «وآذن»: أي أعلم. قوله: «وركض إليَّ رجل فرساً»: أي أسرع بها، قوله: «ليهنك» من الهناء، قوله: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» استشكل هذا الاطلاق بيوم إسلامه، فإنه مرّ عليه بعد أن ولدته أمه، وهو خير أيامه. والجواب أن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير جميع أيامه، وإن كان يوم إسلامه خيرها، فيوم توبته المضاف إلى يوم إسلامه خير من يوم إسلامه المجرد عنها، وقوله: «إن من توبتي أن أنخلع من مالي» أي: أخرج من جميع مالي قوله: «فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله» أي: أنعم عليه.

١٥٦٠- توبة الله على المشاركين في غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٨٤٠).

١٥٦١- اختلاف أقوال المفسرين في آية التوبة

اختلفت أقوال أهل التفسير في المراد بتوبة الله على النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ونذكر فيما يلي بعض أقوالهم.

١٥٦٢- التفسير الأول:

قال الإمام ابن عطية: التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ؛ لأنه رجع به من حالة قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين. وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة

(٢٨٤٠) سورة براءة الآية ١١٧.

محظوطة إلى غفران ورضا[٢٨٤١].

١٥٦٣- التفسير الثاني:

وقال الإمام القرطبي: قال ابن عباس كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود، دليله قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وتوبته على المؤمنين من المهاجرين والأنصار من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عن النبي ﷺ. وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة، وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعُبّر عن ذلك بالتوبة، وإن خرج من عرفها؛ لوجود معنى التوبة فيه، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى[٢٨٤٢].

١٥٦٤- التفسير الثالث:

وقال الزمخشري قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هو بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء، كما وصفهم بالصالحين؛ ليظهر فضيلة الصلاح. وقيل: معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه، كقوله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٢٨٤٣].

١٥٦٥- التفسير الرابع:

وقال الألوسي: قال أصحاب المعاني: المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي ﷺ تشريفاً لهم، وتعظيماً لقدرهم، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾. فالمراد توبته على المهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم عفوه سبحانه وتعالى عن زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين. وقيل: المراد ذكر التوبة عليه عليه الصلاة والسلام وعليهم، والذنب بالنسبة إليه ﷺ من باب خلاف الأولى نظراً إلى مقامه الجليل، وفُسِرّ هنا

(٢٨٤١) تفسير ابن عطية ج٧ ص٦٧.

(٢٨٤٢) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٧٨.

(٢٨٤٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٩٦. والآية في براءة: ٤٣.

على ما روي عن ابن عباس بالإذن للمنافقين في التخلف، وبالنسبة إليهم رضي الله تعالى عنهم لا مانع من أن يكون حقيقياً، إذ لا عصمة عندنا لغير الأنبياء، ويُفسَر بما فسر أولاً. ويجوز أن يكون من باب خلاف الأولى بناء على ما قيل: أن ذنبهم كان الميل إلى القعود عن غزوة تبوك، حيث وَقعت في وقت شديد. وقد تفسر التوبة بالبراءة عن الذنب، والصون عنه مجازاً، حيث أنه لا مؤاخذة في الكل، وظاهر الاطلاق الحقيقة، وفي الآية ما لا يخفى من التحريض على التوبة للناس كلهم(٢٨٤٤).

١٥٦٦- التفسير الخامس:

وقال صديق حسن خان في تفسيره القيم فتح البيان: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي أدام توبته على النبي فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف عن غزوة تبوك، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وليس من لوازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله؛ لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار. وقد تكون التوبة منه على النبي ﷺ من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق، كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ؛ لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب، ويتوبوا عما قد لابسوه منها. وقال أهل المعاني: التوبة على النبي هو مفتاح كلام للتبرك، وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ، كما ضُمَّ اسم الرسول إلى اسم الله في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فهو تشريف له ﷺ. وكذلك تاب الله على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما صح عنه ﷺ من قوله: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». والإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل(٢٨٤٥).

١٥٦٧- التفسير السادس:

وجاء في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى

(٢٨٤٤) تفسير الألوسي ج١١ ص٣٩-٤٠.

(٢٨٤٥) فتح البيان ج٥ ص٤١٦-٤١٧.

﴿ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم مع حرف التحقيق، بيّنَ به تعالى فضل عطفه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة، وفي غيرها لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها. وللتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين إلى الله تعالى من كل إعراض عنه، وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم وهذا أعلاهما. وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم وإنما يتوبون من ذنب، وكل ذنب معصية لله عز وجل؟ وقد فسرَّ ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[2846].

١٥٦٨- التفسير السابع:

وجاء في تفسير القاسمي: اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ختم بفرقة من المؤمنين كانوا تخلفوا ميلاً للدعة، وهم صادقون في إيمانهم ثم ندموا فتابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم، فقبلها، ثم أنزل توبتهم في هذه الآية، وصدّرها بتوبته على رسوله، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار كل على حسبه، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى. وقد جمع الله تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ووصفهم بأتباعه، فوجب القطع بموالاتهم[2847].

١٥٦٩- تفسير بقية الآية:

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهذا وصف للمهاجرين والأنصار بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي اتبعوا النبي ﷺ، فلم يتخلفوا عنه ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ وقد وقع الاتفاق بين الرواة والمفسرين أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك، وتسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة، والمقصود بساعة العسرة أي

(٢٨٤٦) تفسير المنار ج١١ ص٦٤.

(٢٨٤٧) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٤٥-٢٤٦.

وقتها، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق، كما استعملت الغداة والعشي واليوم. والعسرة: حالهم في غزوة تبوك، فقد كانوا في عسرة من الظهر: يعتقب العشرة على البعير الواحد. وفي عسرة من الزاد: تزودوا التمر المدود، والشعير المسوس، والإهالة الزنخة - أي الدهن المنتن، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان. وفي عسرة من الماء حتى إن بعضهم نحر بعيره؛ ليعتصر فرثه ويشرب ماءه. وفي شدة زمان: في شدة الحرّ، ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة(٢٨٤٨). وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: اتبعوا النبي ﷺ من بعد ما قرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام بعصيان الرسول ﷺ حين أمر بالنفير العام إذ تثاقل بعضهم عن النفر(٢٨٤٩). وفي تفسير القرطبي: واختلف في معنى (تزيغ) فقيل تتلف بالجهد والمشقة والشدة. وقال ابن عباس: تميل عن الحق بترك النصرة، وقيل من بعد أن همَّ فريق منهم بالتخلف والعصيان، ثم لحقوا به، وقيل هموا بالرجوع(٢٨٥٠). قوله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تأكيد ظاهر للتوبة التي تفضل الله بها على من تقدم ذكر التوبة عنهم، ويحتمل أن تكون التوبة للفريق الذين كادوا أن تزيغ قلوبهم، لأنهم لا جرم محتاجون إلى التوبة عليهم(٢٨٥١).

المطلب الرابع
المتخلفون عن غزوة تبوك نفاقاً
«المنافقون»

١٥٧٠ - تمهيد:

وردت في سورة التوبة آيات كثيرة بشأن المنافقين، وما صدر منهم فيما يتعلق بغزوة تبوك، مع بيان لبعض أخلاقهم وأوصافهم، فكانت هذه الآيات فاضحة لهم وهاتكة لأسرارهم. ونذكر فيما يلي هذه الآيات تباعاً مع تفسير موجز لها.

(٢٨٤٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨، فتح البيان ج٥ ص٤١٧.

(٢٨٤٩) تفسير المنار ج١١ ص٦٥.

(٢٨٥٠) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٨٠-٢٨١.

(٢٨٥١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٨، تفسير الألوسي ج١١ ص٤١.

١٥٧١- المنافقون يحلفون بالله كذباً:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٢٨٥٢]. ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ العرض هو ما يعرض من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البرّ والفاجر، ﴿قَرِيبًا﴾ صفة إلى ﴿عَرَضًا﴾ أي سهل المأخذ والتناول. والمعنى: لو كان ما تدعوهم إليه غنيمةسهلة قريبة التناول غير بعيد، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القرب والبعد لا مشقة فيه، وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد، ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ أي لوافقوك في الخروج، ولخرجوا معك طمعاً في تلك المنافع التي يرجون الحصول عليها، ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة: السفر إلى أرض بعيدة، والشقة المسافة التي تقطع بمشقة، والمراد بها هنا غزوة تبوك، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي هؤلاء المنافقون المتخلفون عن غزوة تبوك. وأتى بالسين في ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأنه من قبيل الإخبار بالغيب، لأن الله تعالى أنزل هذه الآية قبل رجوعه من غزوة تبوك، أي سيحلفون «بالله» بعد رجوعكم إلى المدينة قائلين في حلفهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ أي: لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه من العدة والصحة في أجسامنا ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. وقوله ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بحلفهم الكاذب، وادعائهم العجز عن الخروج، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج[٢٨٥٣].

١٥٧٢- عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم:

قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[٢٨٥٤].

قال الإمام ابن عطية في تفسير هذه الآية: «هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق،

(٢٨٥٢) سورة التوبة الآية ٤٢.

(٢٨٥٣) فتح البيان ج٥ ص١٢٠٢-١٢٠٣.

(٢٨٥٤) سورة التوبة الآية ٤٣.

استأذنوا رسول الله ﷺ في عدم الخروج معه إلى غزوة تبوك دون اعتذار، مثل عبد الله بن أبي والجدّ بن قيس ورفاعة بن التابوت ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، وقال بعضهم ائذن في الإقامة. فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاء منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. قال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه - أي رسول الله ﷺ - فإن أذن لنا في القعود قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا، فنزلت الآية. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ يريد: في استئذانك، وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك. وقوله: ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند ما يصدر منك من إذن وعدمه، وهم كذبة قد عزموا على العصيان أي على عدم الخروج، أذنت لهم أو لم تأذن»[٢٨٥٥]. وذهب العلامة الألوسي في تفسيره إلىٰ أن المقصودين بهذه الآية من المنافقين هم نفسهم المشار إليهم في الآية السابقة الذين سيحلفون.. الخ، وليسوا صنفاً آخر من المنافقين، فقد قال يرحمه الله: «قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي لأي سبب أذنت لهؤلاء - الحالفين المتخلفين - في التخلف حين استأذنوا فيه معتذرين بعدم الاستطاعة، وهذا عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى إنجلاء وانكشاف الحال المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في ذلك»[٢٨٥٦].

والراجح كما يبدو لي قول الإمام ابن عطية وهو أن هؤلاء صنف آخر غير المنافقين المتخلفين الحالفين. كما أرجح قول الإمام الألوسي بأن الإذن من النبي ﷺ كان خلاف الأولى ليس إلا، خلافاً لما قاله الزمخشري من أن هذا الإذن كان جناية، وهذا منه سوء أدب، وذهول عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى بدأ رسوله ﷺ بالعفو قبل العتاب، وهذا من لطف الله تعالى بنبيه، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حقه ﷺ، لأنه هو الذي ورد في القرآن، ومما يدل على أن إذنه ﷺ كان من قبيل خلاف الأولى، ما ذكره الألوسي عن بعضهم في تفسير هذه

(٢٨٥٥) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٥-٥٠٧.

(٢٨٥٦) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٠٩.

الآية، فقد قال يرحمه الله: «والمحققون على أنها خارجة مخرج العتاب، كما علمت على ترك الأولى والأكمل، قالوا: ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم - أي خروج المنافقين - مصلحة للدين، أو منفعة للمسلمين، بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ وقد كرهه سبحانه وتعالى كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم ويفتضحوا على رؤوس الأشهاد، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروا رسول الله ﷺ وأرضوه بالأكاذيب...»[٢٨٥٧]. هذا وإن الإذن الذي عوتب عليه ﷺ كان اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نصّ فيه من الوحي، ومثل هذا الاجتهاد جائز في حقه ﷺ كما قرره علماء الأصول[٢٨٥٨].

١٥٧٣- المؤمن لا يستأذن في الجهاد:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[٢٨٥٩]. أي ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولا من عادتهم أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا وُجِدَ المقتضي للجهاد، لأن الجهاد من لوازم الإيمان التي لا تتوقف على الاستئذان. فإذا كان هذا هو شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر، فهم أحرى أن لا يكون من شأنهم أن يستأذنوك في التخلف عنه، كما فعل المنافقون في استئذانهم في التخلف عن غزوة تبوك دون عذر. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يستأذنك هؤلاء المؤمنون في القعود، والتخلف كراهية أن يجاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد لا يكرهه المؤمن الصادق الذي يؤمن بالله واليوم الآخر. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ربهم باجتناب ما يسخطه وبفعل ما يرضيه. وقد استنبط من هذه الآية أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء الواجبات، ولا في الفضائل والفواضل من العادات، كقرى

(٢٨٥٧) المرجع السابق، وتفسير المنار ج١٠ ص٥٤٢.

(٢٨٥٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٠٩.

(٢٨٥٩) سورة التوبة، الآية ٤٤.

الضيوف، وإغاثة الملهوف، وسائر عمل المعروف[2860].

١٥٧٤- استئذان المنافقين:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[2861]. أي إنما يستأذنك في القعود عن الجهاد ممن لا عذر له ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وهم المنافقون الخلّص، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهيّتهم للجهاد، وفرارهم منه كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك. ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي شكّتْ في صحة ما جئتهم به يا رسول الله. ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي يتحيرون، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل فعله من عبادات الإسلام، فإذا عرض لهم ما يشق عليهم فعله ضاقت به صدورهم، والتمسوا الخلاص منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة[2862].

١٥٧٥- الإرادة الجازمة تستلزم العمل المناسب لها:

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾[2863]. أي لو أرادوا الجهاد، أي لو كان أولئك المنافقون صادقين فيما يدعونه، ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى ذلك أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً، ولا استعدوا للغزو. والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح. فتركهم الاستعداد للجهاد دليل على إرادتهم التخلف عنه.

(٢٨٦٠) تفسير المنار ج١٠ ص٥٤٤-٥٤٥.

(٢٨٦١) سورة التوبة، الآية ٤٥.

(٢٨٦٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٠-٣٦١، تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٠٨ تفسير المنار ج١٠ ص٥٤٦.

(٢٨٦٣) سورة التوبة الآية ٤٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي: كره خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي حبسهم عن الخروج معك، وخذّلهم وكسّلهم، لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا في الجلوس - أي في القعود عن الجهاد - أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، ويدل على هذا أن بعده قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم. ومعنى ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي مع أولي الضرر والصبيان والزمنى والنسوان، وفيه من الذم لهم، والإزراء عليهم، والتنقص بهم ما لا يخفى[٢٨٦٤].

١٥٧٦- مفسدة خروج المنافقين مع المؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢٨٦٥].

قوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم. والخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف. وقوله تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ أي لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد. والإيضاع سرعة السير. والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال، أي الفُرَج التي تكون بين الصفوف. أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة أي الإفساد والتحريض.

وقوله: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي مطيعون لهم، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يعلم أحوالهم[٢٨٦٦].

١٥٧٧- حرص المنافقين على الإفساد والإضرار بالمؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ

(٢٨٦٤) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٦، فتح البيان ج٥ ص٣١٢-٣١٣.

(٢٨٦٥) سورة التوبة الآية ٤٧.

(٢٨٦٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦١، تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٧.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾[2867]. قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد طلب المنافقون الإفساد والخبال، وتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها، كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره يوم أحد حيث انصرف بأصحابه عنك. وقوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ تقليب الأمور يعني تصريفها من أمر إلى أمر وترديدها؛ لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة. والمعنى: لقد عملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك يا رسول الله، وكيد أصحابك، وخذلان دينك، وإخماده وإبطال ما جئت به. ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ ومجيء الحق نصر الله لرسوله محمد ﷺ، وظهور أمر الله، أي إعزاز دينه وإعلاء شريعته وقهر أعدائه، ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ لمجيء الحق وظهور أمر الله، وكان ذلك على رغم منهم وكره له[2868].

١٥٧٨- التخلف عن الجهاد وقوع في الإثم العظيم:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2869]. ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ أي بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي أن الفتنة هي التي سقطوا فيها. والفتنة تعني هنا الإثم والمعصية، وهي النفاق والتخلف عن غزوة تبوك بعدم الخروج إليها مع رسول الله ﷺ، فسقطوا هذه السقطة الشنيعة في هذه الفتنة العظيمة، وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره: أن محمد بن إسحاق وغيره قالوا: قال رسول الله ﷺ في أثناء استعداده لغزوة تبوك، قال للجد بن قيس: «هل لك يا جدّ هذا العام في جلاد بني الأصفر؟» يريد الروم أي

(٢٨٦٧) سورة التوبة الآية ٤٨.

(٢٨٦٨) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦١، تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٧، فتح البيان ج٥ ص٣١٦.

(٢٨٦٩) سورة التوبة الآية ٤٩.

غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ الخ ثم قال ابن كثير: أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجدّ بن قيس، وقد كان الجدّ بن قيس من أشراف بني سلمة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا محيد لهم عنها، ولا محيص ولا مهرب[2870].

١٥٧٩- من مظاهر عداوة المنافقين للنبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[2871]. يخبر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بعداوة هؤلاء المنافقين له بأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي وإن تصبك في بعض الغزوات مصيبة، أي نكبة وشدة نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا الذي وقع فقد احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، واعتزلناهم وقعدنا عن الحرب، فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي وتولوا عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له، تولوا إلى أهليهم مسرورون[2872].

١٥٨٠- لا يقع إلا ما قدره الله وقضاه:

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(٢٨٧٠) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٩، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، فتح البيان ج٥ ص٣١٧.

(٢٨٧١) سورة التوبة الآية ٥٠.

(٢٨٧٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٧٨.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2873]. أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المتشفين بما أصابكم من مصيبة، وبياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد الباطل: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، فنحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي ناصرنا، وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان. وفائدة هذا الجواب أن المسلم إذا علم أن ما قدره الله كائن لا محالة، وأن كل ما ناله ويناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء، وتشفي الحسدة. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل. والتوكل على الله تفويض الأمور إليه، والمعنى إن الشأن بالمؤمنين أن يجعلوا توكلهم في جميع أمورهم مختصاً بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره[2874].

١٥٨١- ما ينتظره المؤمنون والمنافقون:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[2875].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي هل تنتظرون أيها المنافقون أن يقع بنا ﴿إِلَّآ إِحْدَى﴾ الخصلتين أو العاقبتين ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إما النصر والغنيمة، أو الشهادة والمغفرة، وكلاهما مما يحسن لدينا. والحسنىٰ تأنيث الأحسن. والحاصل أن ما تنتظرونه لا يخلو من أحد هذين الأمرين، وكل منهما عاقبته حسنى، لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل في الغزو سوء، ولذلك سررتم به. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوأتين من العواقب، إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ فيهلككم كما فعل بالأمم الخالية قبلكم، وكونه من عند الله تعالى كناية عن كونه منه جلَّ شأنه بلا مباشرة البشر، ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي أو بعذاب كائن بأيدينا، أي بالقتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم، فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوؤكم، أي

(٢٨٧٣) سورة التوبة الآية ٥١.

(٢٨٧٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٢، فتح البيان ج٥ ص٣١٩.

(٢٨٧٥) سورة التوبة الآية ٥٢.

إذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا[٢٨٧٦].

١٥٨٢- لا يُقبَل إنفاق المنافق:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾[٢٨٧٧]. والمعنى: أنفقوا أموالكم في مصالح الغزاة ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعين أو كارهين، وصيغة ﴿أَنفِقُواْ﴾ وإن كانت للأمر إلا أن المراد به الخبر، وكثيراً ما يستعمل الأمر بمعنى الخبر، والمعنى: لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحوه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. وهو في معنى الشرط، أي إن أنفقتم على أي حال فـ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾، وأخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في تساوي الأمرين في عدم القبول، كأنهم أمروا أن يجربوا، فينفقوا في الحالين، فينظر هل يُتقبّل منهم، فيشاهدوا عدم القبول. ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه، وكل من المعنيين واقع في الاستعمال، فقبول الناس له يعني أخذه، وقبول الله تعالى له يعني ثوابه عليه، ويجوز الجمع بينهما. والآية نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما جواباً عما في قول الجدّ بن قيس حين قال له رسول الله ﷺ: «هل لك في جلاد بني الأصفر؟» فقال الجدّ: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أُفتَتن، لكن أعينك بمالي. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم وعدم قبوله. والمراد بالفسق: العتو والتمرد، فلا يقال كيف علل مع الكفر بالفسق الذي هو دونه، وكيف صح ذلك مع التصريح بتعليله بالكفر في قوله تعالى في الآية التالية[٢٨٧٨]. وقال صاحب تفسير المنار: والمراد بالفسوق الخروج من دائرة الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال مع الإخلاص. ثم بين تعالى ما في هذا

(٢٨٧٦) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٥-١١٦.

(٢٨٧٧) سورة التوبة الآية ٥٣.

(٢٨٧٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٦.

التعليل من الإجمال في الآية التالية[٢٨٧٩].

١٥٨٣- لا ثواب للكافر فيما ينفقه:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٢٨٨٠]. أي وما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم بالله ورسوله، ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: لا يأتون الصلاة المفروضة إلا حال كونهم متثاقلين، ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: إلا وهم كارهون الإنفاق، لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً. وهاتان الجملتان داخلتان في حيز التعليل. واستشكل أن الكفر سبب مستقل؛ لعدم القبول فما وجه التعليل بالأمور الثلاثة، وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر؟ قال البعض: إنما جيء بهما لمجرد الذم، وليستا داخلتين في حيز التعليل. وقال صاحب تفسير المنار: إنما وصفهم بما ذكر؛ لتقرير كفرهم، ودفع للشبهة التي ترد عليه بالصلاة والزكاة[٢٨٨١].

١٥٨٤- لا ينبغي الإعجاب بأموال المنافقين ولا بأولادهم:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٢٨٨٢]. الإعجاب بالشيء: أن تسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه. فلا يروقك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم ووبال عليهم. ويمكن أن يقال في تفسيرها: فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما يعرض لهم فيها من المنغصات والحسرات، أما الأموال فإنهم يتعبون في جمعها، ويحرصون على حفظها، ويشق عليهم ما ينفقون منها من زكاة، وإعانة على قتال، وإنفاق على قريب. وأما الأولاد فلأنهم يرونهم قد نشأوا في الإسلام، واطمأنت به قلوبهم، وأنهم يجاهدون في سبيل الله

(٢٨٧٩) تفسير المنار ج١٠ ص٥٦٠.

(٢٨٨٠) سورة براءة الآية ٥٤.

(٢٨٨١) تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٧، تفسير المنار ج١٠ ص٥٦١.

(٢٨٨٢) سورة التوبة الآية ٥٥.

بأموالهم وأنفسهم، وكل هذه حسرات في قلوبهم، ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فيعذبون بها في الآخرة أشد مما عذبوا بها في الدنيا بموتهم على كفرهم المحبط لعملهم[2883].

١٥٨٥- المنافقون ليسوا من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[2884]. من أخلاق المنافقين الحلف الكاذب، فهم يحلفون بالله إنهم لمنكم، أي يحلفون إنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي ليسوا مثلكم مؤمنين لكفر قلوبهم، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة. وأصل الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر، وقيل: وهو من مفارقة الأمن إلى حال الخوف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي حصناً يلجؤون إليه كما قال قتادة، ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي غيران في الجبال يسكنونها، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ يعني موضع دخول يدخلون فيه، وهو النفق في الأرض، ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ أي لالتجؤوا إليه أي إلى أحد ما ذكره ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ بحيث يسرعون في الذهاب إليه، بحيث لا يردهم شيء، كالفرس الجموح، أي النفور الذي لا يرده لجام. أي لو وجدوا شيئاً من هذه الأمكنة التي هي منفور عنها، مستنكرة، لأتوه لشدة خوفهم وكراهتهم للمسلمين. لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً، لا مودة ولا محبة. وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا فهم لا يزالون في هم وحزن، لأن الإسلام وأهله في عز ونصر مستمر منهم، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين حتى لا يروا عزهم ونصرهم، وهو ما يسوؤهم ويحزنهم[2885].

(٢٨٨٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٠، تفسير المنار ج١٠ ص٥٦٢-٥٦٣، تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٧.

(٢٨٨٤) سورة التوبة، الآيتان ٥٦، ٥٧.

(٢٨٨٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣، تفسير الألوسي ج١٠ ص١١٩، تفسير القاسمي ج٨ ص٢٣٧.

١٥٨٦- رضا المنافقين وسخطهم لأنفسهم لا لله:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾(٢٨٨٦) أي ومن المنافقين من يلمزك أي يعيبك - والخطاب لرسول الله ﷺ - ﴿ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي في الزكوات أو الغنائم في قسمتها وتفريقها ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا ﴾ أي من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ رَضُوا ﴾ بقسمتك، وقالوا عنها بأنها عدل، ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا ﴾ ما يريدونه ويطلبونه ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم، ويجعلونه غير عدل. فهؤلاء المنافقون لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وحرصهم عليه، وليسوا من الدين في شيء، فرضاهم وسخطهم لأنفسهم، وليس لله تعالى(٢٨٨٧).

١٥٨٧- بيان ما هو خير للمنافقين لو أنهم فعلوه:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾(٢٨٨٨). والمعنى: ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الرسول ﷺ من الزكوات، أو من الغنائم، وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم. وذكر ﴿ اللَّهُ ﴾ عز وجل للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ من قسمة ما قسمه عليهم إنما كان بأمره تعالى. ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أي كفانا فضل الله وما قسمه لنا، ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ أي سيرزقنا الله غنيمة أخرى، وعطاء آخر، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ في أن يغنمنا ويخوّلنا فضله لراغبون. هذا وإن الآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف بناء على ظهوره تقديره: لكان خيراً لهم(٢٨٨٩). وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: تضمنت هذه الآية أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله. وجعل التوكل على الله وحده بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾. وجعل الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره، وترك

(٢٨٨٦) سورة التوبة الآية ٥٨.

(٢٨٨٧) فتح البيان ج٥ ص٣٢٥، تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣.

(٢٨٨٨) سورة التوبة الآية ٥٩.

(٢٨٨٩) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٢، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٢٠.

زواجره، وتصديق أخباره[٢٨٩٠].

١٥٨٨- من إيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢٨٩١]. في الآية نوع آخر مما حكاه الله من قبائح المنافقين، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ على وجه الطعن والذم هو أذن. والأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل واحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة، على وجه المبالغة، ونظيره قولهم للربيئة أي الطليعة: عين. هذا وإن ﴿أُذُنٌ﴾ يستوي فيه الواحد والجمع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وهذا ردّ على ما قالوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ هو ﷺ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو؛ لكونه أذن خير ﴿لَّكُمْ﴾، وليس بأذن في غير ذلك، والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر، فهو ﴿أُذُنٌ﴾ في الحق والخير وفيما يجب سماعه وقبوله، وليس بأذن في غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق بالله، ويصدق المؤمنين؛ لما علم فيهم من خلوص الإيمان، ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: وهو ﷺ رحمة للذين أظهروا الإيمان، وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة. ووجه هذه الرحمة لكم أيها المنافقون، لأنه ﷺ أذن خير لكم، هو أنه ﷺ يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم، ولا يهتك أستاركم، ولا يفضحكم ببيان نفاقكم، ولا يفعل بكم ما يفعله بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من الحكمة في الإبقاء عليكم. فهو ﷺ ﴿أُذُنٌ﴾ كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء. فسلّمَ قولهم فيه، إلا أنه فسره بما هو مدح له وثناء عليه ﷺ، وإن كانوا قصدوا بهذا اللفظ الذم، والتقصير بفطنته،

(٢٨٩٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٣-٣٦٤.

(٢٨٩١) سورة التوبة الآية ٦١.

وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بقولهم السابق، أو بأي أذى لهم عذاب شديد الألم[٢٨٩٢].

١٥٨٩- المنافق يرضي الناس ولا يرضي الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٨٩٣]. الخطاب في الآية الكريمة للمسلمين، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف الكاذب؛ ليعذروهم ويرضوا عنهم. فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة التامة، والإيمان بنبوته ورسالته. وإنما وحَّد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ﷺ، فكانا في حكم مرضي واحد. أو والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك[٢٨٩٤].

١٥٩٠- تحذير المنافقين من محاددة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[٢٨٩٥]. والمعنى: ألم يعلم أولئك المنافقون، قال أبو السعود: والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة - أي من قبائحهم العظيمة - مع علمهم بسوء عاقبتها. أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من أنواع القوارع والإنذارات ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي من يخالف الله ورسوله. قال الليث: حاددته إذا خالفته، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة. واشتقاقه من الحدّ بمعنى الجهة والجانب، كما أن (المشاقة) من (الشق) بمعناه أيضاً، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعادين في حد وشق غير ما عليه صاحبه، فمعنى ﴿يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ يصير في حدّ غير حد أولياء الله بمخالفته أمر الله تعالى. ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي أن دخوله نار جهنم على وجه الخلود هو

(٢٨٩٢) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٤، فتح البيان ج٥ ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢٨٩٣) سورة التوبة الآية ٦٢.

(٢٨٩٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٢.

(٢٨٩٥) سورة التوبة الآية ٦٣.

الخزي العظيم له[٢٨٩٦].

١٥٩١- خوف المنافقين من انكشاف حقيقتهم:

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[٢٨٩٧]. هذه الآية والآيات التي بعدها والتي قبلها كشفت قبائح المنافقين، ولذلك قال قتادة: كانت هذه السورة - سورة التوبة - لاشتمالها على كثير من الآيات المتعلقة بالمنافقين، كانت تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين. الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ و﴿ تُنَبِّئُهُم ﴾ للمؤمنين. والضمير في ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ للمنافقين. أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم وتفشي أسرارهم، وقال بعض آخر من المفسرين: إن الضمائر كلها راجعة إلىٰ المنافقين، فيكون المعنى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ أي في شأنهم، فإن ما نزل في حقهم نازل عليهم ﴿ تُنَبِّئُهُم ﴾ أي تنبىء المنافقين ﴿ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم خاصة من أقاويل الكفر والنفاق. والمراد أن هذه السورة النازلة بشأنهم تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر فيما بين الناس، فيسمعونها من أفواه مذاعة، فكأنها تخبرهم بها، وإلا فما في قلوبهم معلوم لهم، والمحذور عندهم إطلاع المؤمنين على أسرارهم لا إطلاع أنفسهم عليها. والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على بيان أسرارهم، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه، فتنبئهم بها وتنعي عليهم قبائحهم، فإن قيل: المنافق كافر، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول أجيب: بأنهم وإن كانوا كافرين بدين الرسول ﷺ إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتمونه، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم. وقال أبو مسلم: هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول ﷺ يذكر كل شيء، ويقول: إنه عن الوحي، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره، ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ ﴾ أي بالله وآياته

(٢٨٩٦) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢٨٩٧) سورة التوبة الآية ٦٤.

ورسوله، وهو أمر تهديد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٞ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إنزال السورة، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة في قلوبكم الفاضحة لكم[2898].

١٩٥٢- اعتذار المنافقين قبيح كفعلهم القبيح:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[2899].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾ أي سألت المنافقين عن إتيانهم بتلك القبائح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي في الاعتذار إنه لم يكن منا ذلك عن طريق الجدّ والاعتقاد، حتى يكون نفاقاً وكفراً، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ أي ندخل هذا الكلام لترويح النفس، ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾ أي نمزح. ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي في ترويحكم ومزاحكم، ولم تجدوا لهما كلاماً آخر[2900]؟ والمعنى أن الخوض واللعب إذا كان موضوعه صفات الله، وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة، وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته، كان ذلك استهزاء بها؛ لأن الاستهزاء بالشيء عبارة عن الاستخفاف به، وكل ما يلعب به فهو مستخف به، كما أن من يحترم شيئاً أو شخصاً أو يعظمه، فإنه لا يجعله موضوع الخوض واللعب، والاستفهام عنه للإنكار التوبيخي، والمعنى: ألم تجدوا ما تستهزئون به في خضوكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله، فقصرتم ذلك عليهما، فهل ضاقت عليكم جميع مذاهب الكلام تخوضون فيها وتعبثون دونهما، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول، فتدلون به بلا خوف ولا حياء[2901].

١٥٩٣- لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم:

قال تعالى عن أولئك المنافقين المستهزئين: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إن

(٢٨٩٨) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٠.

(٢٨٩٩) سورة التوبة الآية ٦٥.

(٢٩٠٠) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥٣.

(٢٩٠١) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٤.

﴿نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[٢٩٠٢]. أي قد كفرتم بهذا الخوض واللعب بعد إيمانكم، أي بعد إظهاركم الإيمان[٢٩٠٣] أو بعد إيمانكم الذي زعمتموه ونطقتم به[٢٩٠٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بالتوبة النصوح من الكفر والنفاق، كما حصل لأحدهم المدعو مخشّن بن حُميِّر، والذي استشهد في اليمامة في حروب الردة، وكان قد تاب، ويسمى بـ«عبد الرحمن»، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أمره، فكان استشهاده باليمامة ولم يوجد جسمه[٢٩٠٥]. ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي تعذيبهم في الآخرة[٢٩٠٦].

١٥٩٤- أهل النفاق متشابهون فيه وصفاً وعملاً:

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢٩٠٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ وتقرير قوله ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ هذا ما قاله الزمخشري[٢٩٠٨].

وقال ابن عطية: وقوله سبحانه ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يريد في الحكم والمنزلة من الكفر[٢٩٠٩].

وقال صديق حسن خان ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد، وإن ذكورهم كإناثهم، وإنهم متناهون في النفاق والبعد عن

(٢٩٠٢) سورة التوبة الآية ٦٦.

(٢٩٠٣) تفسير القاسمي ج٨ ص٢٥٤.

(٢٩٠٤) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٦.

(٢٩٠٥) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٦.

(٢٩٠٦) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٦.

(٢٩٠٧) سورة التوبة الآية ٦٧.

(٢٩٠٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٧.

(٢٩٠٩) تفسير ابن عطية ج٦ ص٥٥٧.

الإيمان، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين، ورد لقولهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾[2910].

وقال الألوسي: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في النفاق كتشابه أبعاض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة كالماء والتراب. والآية متصلة بجميع ما ذكر من قبائحهم. وقيل هي متصلة بقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ والمراد منها تكذيب قولهم المذكور، وإبطاله وتقرير لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ وما بعده من تغاير صفاتهم، وصفات المؤمنين كالدليل على ذلك[2911].

وقال محمد رشيد رضا في تفسير المنار: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كأن كلاً منهم عين الآخر. ثم بين التشابه بقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2912].

ثم قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ أي بالكفر والمعاصي، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعات، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في طاعة الله ومرضاته ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي نسوا الله أن يتقربوا إليه بالإنفاق في سبيله، وفي غير ذلك من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ونسيان الله لهم هو عبارة عن مجازاتهم على نسيانهم بحرمانهم من فوائد ذكره، وفضيلة التقرب إليه، بالإنفاق والجهاد في سبيله، وغير ذلك من أعمال البرّ، وحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الراسخون في الفسوق، وهو الخروج عن محيط الإيمان وفضائله[2913].

(٢٩١٠) فتح البيان ج٥ ص٣٣٩.

(٢٩١١) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٢.

(٢٩١٢) تفسير المنار ج١٠ ص٦١٨.

(٢٩١٣) تفسير المنار ج١٠ ص٦٨٠، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٣٢-١٣٣.

١٥٩٥- جزاء المنافقين:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾[٢٩١٤].

قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين في نار جهنم مخلدين، هم - المنافقون والمنافقات - والكفار ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي كفايتهم في العذاب. ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي طردهم وأبعدهم[٢٩١٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي وللمذكورين عذاب دائم، وهو ما يقاسونه من العذاب غير النار، فهو دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير، أو عذاب في الدنيا، وهو ما يقاسيه هؤلاء المنافقون والمنافقات من تعب النفاق إذ هم دائماً في حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم[٢٩١٦].

١٥٩٦- المنافقون يقولون كلمة الكفر وينكرونها:

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[٢٩١٧] من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة، وقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: أنه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين قال جُلَاس، وهو من المنافقين-: لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شرٌّ من الحمير، فقال له عامر بن قيس: أجل والله إن محمداً لصادق مُصدَّق، وإنك لشر من الحمار، وأخبر عامر بذلك رسول الله ﷺ، وجاء جلاس، فحلف بالله أن عامراً لكاذب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً، فنزلت هذه الآية، وقيل إنه قول جميع

(٢٩١٤) سورة براءة الآية ٦٨.

(٢٩١٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٦٨.

(٢٩١٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٨٧-٢٨٨، فتح البيان ج٥ ص٣٤٠.

(٢٩١٧) سورة التوبة الآية ٧٤.

المنافقين، وإن الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان، فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف. ثم ردّ الله على المنافقين أو على من قال تلك الكلمة، وأنكرها وحلف على إنكاره لها، فقال تعالى مبيناً كذبهم، وأنهم حلفوا أو حلف كذباً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهي ما تقدم بيانه من كلمة جلاس، ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم الإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن، والمعنى: إنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ أي هممهم بقتل رسول الله ﷺ في أثناء رجوعه من غزوة تبوك، وكانوا بضعة عشر رجلاً، ولكن الله تعالى ردّ كيدهم، وأخبر رسوله ﷺ بصنيعهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ما عابوا وكرهوا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، فقد كان هؤلاء المنافقون في ضنك وضيق من العيش، فلما قدم النبي ﷺ المدينة اتسعت معيشتهم، وكثرت أموالهم، فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ النقمة. وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق ﴿يَكُ﴾ أي الذي فعلوه من التوبة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدين والدنيا. وقد تاب (جلاس) الذي قال كلمة الكفر، وحسن إسلامه[٢٩١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ أي يعرضوا عن التوبة والإيمان، ويصروا على الكفر والنفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي يعذبهم بمتاعب النفاق، وما يجلبه عليهم، وسوء الذكر ونحو ذلك. وقيل المراد به القتل ونحوه على معنى أنهم يقتلون إن أظهروا الكفر بناء على أنَّ التولي مظنة إظهار الكفر ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ويعذبهم الله في الآخرة بالنار وغيرها من أنواع العذاب عقاباً لهم ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا، والتعبير بالأرض للتعميم، أي مالهم في جميع بقاعها وسائر أقطارها ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة، أو المدافعة، وخصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا وليّ ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه[٢٩١٩].

(٢٩١٨) فتح البيان ج٥ ص٣٥١-٣٥٢.

(٢٩١٩) تفسير الألوسي ج١٠ ص١٤٠.

١٥٩٧- المنافقون يسخرون من المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢٩٢٠]. وهذا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن تبرع أحد منهم بمال كثير، قالوا عنه: هذا مرائي، وإن تبرع بشيء يسير، قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا[٢٩٢١]، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقال المنافقون عنه: هذا مرائي، وجاء رجل، فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت هذه الآية. وروى هذا الحديث الإمام مسلم، أيضاً ولكن جاء فيه: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع[٢٩٢٢].

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يعيبون، وهم المنافقون، يعيبون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والمطوعين أي المتطوعين، والتطوع التبرع بما ليس بواجب، فالمراد بالمطوعين المتبرعين بمالهم، ووجه لمزهم المطوعين أنهم يرمونهم بالرياء في تبرعاتهم، وإنفاقهم المال في سبيل الله. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي إلا طاقتهم، والجهد: الشيء القليل يعيش به المقل. فكان المنافقون يعيبون هؤلاء المقلين الذين لا يجدون إلا جهدهم، يعيبونهم إذا جاؤوا بالشيء اليسير يتبرعون به في سبيل الله كما جاء في حديث البخاري الذي ذكرناه، قوله تعالى ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ أي يستهزؤون بهم لقلة ما يتصدقون به مع كون ذلك جهد المقل، وغاية ما يقدرون عليه ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ثابت مستمر شديد

(٢٩٢٠) سورة التوبة الآية ٧٩.

(٢٩٢١) معناه: نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق من تلك الأجرة، أو نتصدق بها كلها.

(٢٩٢٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٥-٣٧٦.

الألم في الآخرة[٢٩٢٣].

١٥٩٨- قل نار جهنم أشد حراً:

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[٢٩٢٤].

﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين فأذن لهم، وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم. ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ خلفه. يقال أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم، ظعنوا ولم يظعن معهم، وقيل هو بمعنى المخالفة، لأنهم خالفوه حيث قعدوا وهو ﷺ قد نهض وخرج للجهاد. وانتصابه على أنه حال أي قعدوا مخالفين له ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ كره المنافقون الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لأنه لا إيمان لهم يبعثهم على الجهاد بخلاف المؤمنين فقد بذلوا أموالهم وأرواحهم جهاداً في سبيل الله بدافع الإيمان الذي ملأ قلوبهم. ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ أي قال المنافقون لإخوانهم في النفاق تثبيتاً لهم على القعود وتواصياً بينهم بالفساد، أو قالوا ذلك للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد، ونهياً عن المعروف وإظهاراً لبعض الأسباب الداعية لهم إلى فرحهم بتخلفهم عن الخروج، لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر. ﴿ قُلْ ﴾ أي قل يا محمد رداً عليهم وتجهيلاً لهم: ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي هي مصيركم بتخلفكم عن الجهاد، وبإصراركم على الكفر والنفاق ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ من هذا الحرّ الذي ترونه مانعاً من النفير، فما لكم لا تحذرون نار جهنم التي هي أشد حراً من هذا الحرّ الذي تتعللون به للقعود عن الجهاد، وتعرضون أنفسكم لها - أي لنار جهنم - بإيثار القعود والمخالفة لله تعالى ولرسوله ﷺ. ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لو كان أولئك المنافقون يعلمون أنها كذلك، أو أن مرجعهم إليها لما آثروا راحة زمن قليل على عذاب الأبد، ومن يفعل ذلك هو أجهل الجاهلين[٢٩٢٥].

(٢٩٢٣) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٥، فتح البيان ج٥ ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢٩٢٤) سورة التوبة الآية ٨١.

(٢٩٢٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٥١.

١٥٩٩- فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً:

قال تعالى عن المنافقين: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٩٢٦]. ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ أمرٌ معناه يعني التهديد وليس أمراً بالضحك، وقال الحسن: فليضحكوا قليلاً في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي في الآخرة. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أنواع المعاصي[٢٩٢٧].

١٦٠٠- المتخلف عن غزوة تبوك لا يؤذن له بالاشتراك في غيرها:

قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾[٢٩٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي إلى طائفة من المنافقين، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة المنافقين منهم. ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي إلى غزوة بعد غزوة تبوك، ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي عاقبهم بألا تصحبهم أبداً، وذكر القتال، لأنه هو المقصود من الخروج. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا تعليل لعدم الإذن لهم بالخروج معه ﷺ، وهو رضاهم بالتخلف عن غزوة تبوك، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا..﴾[٢٩٢٩] وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزوة - غزوة تبوك[٢٩٣٠].

(٢٩٢٦) سورة التوبة، الآية ٨٢.

(٢٩٢٧) تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٦، تفسير الألوسي ج١٠ ص١٥٢.

(٢٩٢٨) سورة التوبة الآية ٨٣.

(٢٩٢٩) سورة الفتح، الآية ١٥، والمقصود بالمتخلفين هم الذين تخلفواعن الحديبية، والمقصود بالغنائم غنائم خيبر.

(٢٩٣٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٧٨، تفسير القرطبي ج٨ ص٢١٧، تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩٧.

١٦٠١- استئذان المنافقين بالقعود مع قدرتهم على الجهاد:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(٢٩٣١).

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي سورة أو بعض السورة، وقيل هي سورة التوبة. ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ الخطاب للمنافقين، أي أخلصوا في إيمانكم وجهادكم، وإنما قدم الأمر بالإيمان، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان. ﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ أي ذوو الفضل والسعة والقدرة وأهل الغنى والثروة كذا قال ابن عباس، وقال الأصم: هم الرؤساء والكبراء المنظور إليهم. وخصهم بالذكر، لأن الذم لهم ألزم إذ لا عذر لهم في القعود، ولأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان للقعود. ﴿ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا ﴾ أي قالوا اتركنا ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمني. ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ والخوالف جمع خالفة، ولذا قيل الخوالف: النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت. ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد، والخروج مع رسول الله في غزوة تبوك في سبيل الله. والطبع على القلوب، والختم عليها عبارة عن عدم قبولها لشيء جديد من العلم والموعظة غير ما استقر فيها، واستحوذ عليها، وصار وصفاً ووجداناً لها. ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه(٢٩٣٢).

١٦٠٢- منافقوا الأعراب:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢٩٣٣).

(٢٩٣١) سورة التوبة الآيتان ٨٦، ٨٧.

(٢٩٣٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٠، تفسير فتح البيان ج٥ ص٣٦٤-٣٦٥، تفسير المنار ج١٠ ص٦٧٣.

(٢٩٣٣) سورة التوبة الآية ٩٠.

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ فيها وجهان: (أحدهما): أن يكون أصله المعتذرون، وهم الذين لهم عذر، فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم. (الوجه الثاني): المعذرون من عذر، وهو الذي يعتذر ولا عذر له، يقال عذر في الأمر إذا قصَّر فيه، واعتذر بما ليس بعذر. فالمعذرون على هذا هم المبطلون، لأنهم اعتذروا بأعذار كاذبة باطلة لا أصل لها، والمعنى أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين. ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتخلف عن غزوة تبوك، ﴿وَقَعَدَ﴾ طائفة أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقوا الأعراب ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي كذبوا في ادعاء إيمانهم. ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا بل كذبوا الله ورسوله. وأتى بـ﴿مِنَ﴾ التبعيضية، لأن منهم من أسلم فلم يصيبه العذاب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي كثير الألم، فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل، وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة[٢٩٣٤].

١٦٠٣- لا يُصدَّق المنافق بعد أن ظهر كذبه ونفاقه:

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٩٣٥].

قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ بيان لما يتصدى له المنافقون عند رجوع المؤمنين إليهم. والخطاب قيل للنبي ﷺ، وجاء بصيغة الجمع للتعظيم، والأولى أن يكون الخطاب للنبي ﷺ ولأصحابه، لأن المنافقين كانوا يعتذرون للجميع، واعتذارهم هو عن تخلفهم عن غزوة تبوك. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من غزوة تبوك. ﴿قُل﴾ خطاب له ﷺ، وخُصّ بذلك، لأن الجواب وظيفته ﷺ: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أي قل لهم يا محمد: لا تعتذروا، أي لا تفعلوا الاعتذار، أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير؛ لأننا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ وهذه هي علة للنهي عن

(٢٩٣٤) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٠، فتح البيان ج٥ ص٣٦٦-٣٦٧.

(٢٩٣٥) سورة التوبة الآية ٩٤.

الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يُصدَق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مُكذَّب وجب عليه ترك الاعتذار، لأنه من قبيل العبث، وقوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء تصديقهم، لأن الله عز وجل إذا أعلم رسوله ﷺ بأخبارهم، وما في ضمائرهم من الشر والفساد لم يستقم مع هذا الإعلام تصديقهم في معاذيرهم. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي أتنيبون إلى ربكم بالتوبة النصوح، أم تثبتون على كفركم ونفاقكم. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فهو عالم كل غيب وشهادة، وسر وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك(٢٩٣٦).

١٦٠٤- لا فائدة من معاتبة المنافقين:

قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢٩٣٧). ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم. ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي فأعطوهم طلبتهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل لترك معاتبتهم، يعني إن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم. إنما يعاتب من يحتمل منه القبول والرجوع إلى الحق والصواب والتوبة النصوح عما بدر منه من معاصي، أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم توبيخ ولا عتاب، لأن أعمالهم النجسة بلغت من القذارة والكثرة حتى كأنها صيرت ذواتها رجساً، وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشر بالمعاتبة ونحوها فليس لهم إلا الترك والإعراض عنهم، إعراض مقت لا إعراض صفح. وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وهذا من تمام التعليل، فإن من كان من أهل النار لا ينفع معه عتاب، ولا دعاء إلى الخير وإقلاع عن الشر(٢٩٣٨).

١٦٠٥- يحلف المنافق ليرضى عنه المؤمن:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

(٢٩٣٦) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠١-٣٠٢.

(٢٩٣٧) سورة التوبة الآية ٩٥.

(٢٩٣٨) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٢، فتح البيان ج٥ ص٣٧٥.

ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2939].

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ أي إن المنافقين يحلفون للمؤمنين بالله تعالى على ما اعتذروا، لترضوا عنهم أيها المؤمنون، وهذا هو غرضهم في الحلف بالله هو طلب رضاكم لينفعهم ذلك في دنياهم. ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم وحدكم لو حصل لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم غير راضٍ عنهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم[2940]. هذا والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم حتى لو رضي عنهم المؤمنون، هو نهي المؤمنين عن ذلك، لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، لأن الشأن بالمؤمن أن يرضى عمن يرضى الله عنه، ويسخط على من يسخط الله عليه[2941].

١٦٠٦- الأعراب أشد كفراً ونفاقاً:

قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2942]. الأعراب صيغة جمع، والعرب هذا الجيل المعروف من بني آدم مطلقاً، والأعرب سكان البادية منهم. وفي الأعراب كافر ومنافق ومؤمن، وهذه الآية تتكلم عن كفار ومنافقي الأعراب. قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر الكفار والمنافقين. والحكم على الأعراب بما ذكر هو من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده، إذ ليس كلهم كما ذكر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ..﴾ كما سنذكره. وإنما كان الأعراب كما ورد في هذه الآية الكريمة، وهي كون كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر، لأنهم أغلظ طباعاً وأقسى قلوباً. وأقل ذوقاً وآداباً، كدأب أمثالهم من بدو سائر الأمم، وعدم مخالطتهم أهل العلم الحكمة، وحرمانهم

(٢٩٣٩) سورة التوبة الآية ٩٦.

(٢٩٤٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣٠٢.

(٢٩٤١) فتح البيان ج٥ ص٣٧٦.

(٢٩٤٢) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

استماع الكتاب والسنة، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن». ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ أي أن الأعراب أجدر، أي أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى، من الشرائع والأحكام والفرائض وما أُمِرَ به من الجهاد، وما آتاه الله من الحكمة التي بيَّن بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله، لأن فهم ألفاظ القرآن اللغوية لا يكفي وحده في علم حدوده العملية، بل لا بد من معرفة سننه ﷺ القولية والعملية التي هي تطبيق لما أنزله الله في كتابه العزيز. وكان أهل المدينة المنورة وما حولها من القرى يتلقون عنه ﷺ كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله، ويشهدون سننه في العمل به ولم يكن هذا كله ميسوراً لأهل البوادي. فالأعراب أجدر وأحق بالجهل من الحضر؛ لطبيعة البداوة، ولما ذكرنا من أسباب. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ أي عليم، يعلم أحوال أهل البوادي والحضر، وعليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم والحكمة، حكيم فيما قسَّم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق لا يُسْأَلُ عما يفعل لعلمه وحكمته[٢٩٤٣].

١٦٠٧- من أوصاف منافقي الأعراب:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[٢٩٤٤] أي ومن الأعراب المنافقين من يعتبر ما ينفق، أي يصرفه في سبيل الله تعالى ويتصدق به ﴿ مَغۡرَمٗا ﴾ أي غرامة وخسراناً، لأنهم لا ينفقونه احتساباً ورجاءً لثواب الله تعالى؛ ليكون لهم مغنماً، وإنما ينفقونه تقيةً ورئاء الناس، فيكون غرامة محضة، وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ ﴾ أي ينتظر بكم

(٢٩٤٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٣، تفسير الألوسي ج١١ ص٤، تفسير المنار ج١١ ص٨.

(٢٩٤٤) سورة التوبة الآية ٩٨.

الدوائر، أي نوب الدهر ومصائبه التي تحيط بالمرء؛ لينقلب بها أمركم ويتبدل بها حالكم من حال القوة والعزة والانتصار إلى حال الضعف والذل والهزيمة، فيستريح هؤلاء المنافقون من أداء هذه المغارم لكم بالتبع لخروجهم من طاعتكم، والخوف منكم، والاستغناء عن إظهار الإسلام نفاقاً لكم. قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين. والسوء مصدر ساءه الأمر ضد سرّه. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع بمقالاتهم الشنيعة عند الإنفاق، عليم بنياتهم الفاسدة التي من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر[٢٩٤٥].

١٦٠٨- من الأعراب مؤمنون:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٩٤٦] والمعنى العام لهذه الآية الكريمة: وهذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، وأن ذلك حاصل لهم، و سيدخلهم الله في رحمته[٢٩٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ويتخذ ما ينفقه سبباً لحصول القربات عند الله تعالى، أي سبباً لما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويتخذ ما ينفقه سبباً لدعوات الرسول ﷺ لهؤلاء المنفقين، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ ومنه قوله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه، بأن تكون نفقته كما أراد ورجى وأملّ. ثم فسرّ تعالى القربة أو مآلها، فقال تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ والسين في ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ لتحقيق هذا الوعد.

(٢٩٤٥) تفسير الألوسي ج١١ ص٥، تفسير المنار ج١١ ص١٠.

(٢٩٤٦) سورة التوبة، الآية ٩٩.

(٢٩٤٧) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٣.

وما أدلّ هذا القول على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها[2948].

١٦٠٩- مسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2949].

١٦١٠- سبب نزول آيات مسجد الضرار:

كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وشرف كبير في الخزرج، فلما قدم رسول الله ﷺ، وأخذ الإسلام بالانتشار، ونصر الله رسوله والمسلمين في معركة بدر، أظهر أبو عامر عداوته وحسده لرسول الله ﷺ ولدينه ولأصحابه. وبلغت به عداوته للإسلام أن خرج إلى مكة يحرض قريشاً على محاربة النبي ﷺ، وحصلت معركة أحد. وكان هذا الخبيث قد حفر حفائر في ساحة المعركة فيما بين المسلمين والمشركين، وقد وقع في إحداهن رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلىٰ الإسلام قبل فراره إلى مكة فأبى أن يسلم وتمرد. وبعد معركة أحد ذهب هذا الخبيث إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، وكتب إلى جماعة من إخوانه المنافقين، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يرسله إليهم من أعوانه المنافقين. فشرعوا في بناء مسجدهم، وأتموه قبل خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، فجاؤوا إليه، وسألوه أن يصلى فيه، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال لهم: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله..» فلما رجع ﷺ وقبل وصوله إلى المدينة نزل عليه الوحي يخبره بصنيع أولئك المنافقين، وما كان

(٢٩٤٨) تفسير الكشاف ج٢ ص٣٠٣-٣٠٤.

(٢٩٤٩) سورة التوبة، الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

قصدهم من بنائه، كما ورد في القرآن العظيم، وأمر الله بهدمه، فأرسل إليه ﷺ من هدمه[٢٩٥٠].

١٦١١- تفسير آيات مسجد الضرار:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي ومن المنافقين الذين ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي بنوا ﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء من المسلمين الصادقين، ﴿وَكُفۡرٗا﴾ أي تقوية للكفر الذي يضمرونه، ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي تفريقاً بين الذين كانوا يجتمعون في مسجد قباء - وهو الذي بناه رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة - اجتماعاً واحداً يؤدون فيه الصلاة جماعة متآلفة قلوبهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ أي إعداداً وترقباً وانتظاراً، ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي كفر بالله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله ﷺ «فاسقاً» وكانوا أعدوه له؛ ليصلي فيه، وليلتقوا فيه رسله إليهم بما يرسلهم به من تعليماته وخططه وكيده.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾ أي بعد ظهور نواياهم ومقاصدهم الخبيثة ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، أو الإرادة الحسنى. وهي الصلاة وذكر الله، والتوسعة على المصلين. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي كاذبون في حلفهم. ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ أي لا تصلّ فيه في أي وقت من الأوقات لكونه موضع غضب الله، ولذلك أمر الله بهدمه وإحراقه كما يأتي. ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي بنيت قواعده على طاعة الله وذكره، وقصد التحفظ من معاصي الله بفعل الصلاة فيه، والصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهو مسجد قباء ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أي من أيام وجوده ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ أي تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة[٢٩٥١].

١٦١٢- الفرق بين مسجد التقوى ومسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ

(٢٩٥٠) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨٧-٣٨٨.

(٢٩٥١) تفسير القاسمي ج٨ ص٣٢١-٣٢٢.

﴿بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٢٩٥٢).

والمعنى: أفمن أسَّس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد، وأرخاها وأقلها بقاءً وهو الباطل والنفاق، الذي مثله مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ في قلة الثبات والاستمساك. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشفا على التهدم والسقوط. وروي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار. فكلم بنو عمر بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا. أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليَّ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً. فعذره عمر رضي الله عنه وصدقه وأمره بالصلاة بقومه(٢٩٥٣).

١٦١٣- المنافق بكيده للإسلام يزداد نفاقاً:

قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢٩٥٤) ﴿رِيبَةً﴾ شكاً في الدين ونفاقاً، وكان القوم منافقين، وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم، كما قال عز وجل: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ فلما هدمه رسول الله ﷺ ازدادوا تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام. فمعنى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم، ولا يضمحل أثره ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً وتتفرق أجزاءً، فحينئذ يسلون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها. وقيل: معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على

(٢٩٥٢) سورة التوبة الآية ١٠٩.

(٢٩٥٣) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٢.

(٢٥٩٤) سورة التوبة الآية ١١٠.

تفريطهم[٢٩٥٥]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله عليم بأعمالهم وأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر[٢٩٥٦].

المطلب الخامس
المستفاد
من غزوة تبوك

١٦١٤- التورية والتصريح:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها إلا في غزوة تبوك، حيث إنه ﷺ صرح بها. والمقصود بالتورية أن تذكر لفظاً يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر، فيظن السامع أنك تريد المعنى القريب، لكونه هو المتبادر إلى الفهم، وأنت تريد المعنى البعيد. فيجوز لأمير جماعة الدعاة، وللداعي في نطاق إمرته على من معه التورية، حيث يرى أن الحزم والاحتياط والحذر المشروع يقتضي ذلك كله الأخذ بالتورية فيما هو عازم عليه أو ماضٍ فيه. ويصرح بما هو عازم عليه إذا رأى المصلحة في التصريح، كأن يحمل هذا التصريح أتباع الأمير بأخذ الأهبة والاستعداد لما هم قادمون عليه. وهذه كلها مسائل اجتهادية يختلف الحكم فيها باختلاف طبيعتها والظروف المحيطة بها. فيُترَكُ تقديرها والأخذ بالتورية أو التصريح لأمير الدعاة، أو للداعي في إمرته على من معه.

١٦١٥- تذكير المسلمين بالجهاد وبقصة البكائين:

على الدعاة تذكير المسلمين بالجهاد، وتكرار هذا التذكير، لأن المسلمين اليوم بحاجة شديدة، بل وضرورة لهذا التذكير، لقصورهم الشديد في حق الجهاد ومتطلباته، وعلى الدعاة أن يذكروا في تذكيرهم ما عاتب الله به المؤمنين، وهو ما ذكرناه من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وما توعد الله به المتخلفين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا..﴾ الآية. وفي قوله تعالى، داعياً المؤمنين إلى الجهاد في

(٢٩٥٥) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٢-٣١٣.

(٢٩٥٦) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩١.

جميع أحوالهم، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا . .﴾ الآية. ويذكروهم بمضامين ومعاني هذه الآيات وقد ذكرناها[٢٩٥٧]: وعلى الدعاة أيضاً أن يثيروا غيرة المسلمين وحماسهم بما يقصون عليهم من قصص سلفنا الصالح، وعلى رأسهم الصحابة الكرام في معاني الجهاد في سبيل الله، ومنها قصة البكائين، الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليحملهم معه إلى الجهاد بالخروج إلى غزوة تبوك. فلما قال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» تولوا وأعينهم تفيض من الدمع[٢٩٥٨]. ومن القصص النافعة في إثارة حمية المسلمين للجهاد التي يستعين بها الدعاة وبأمثالها في أثناء تذكيرهم الجهاد ما ذكره القرطبي في تفسيره، ومنها[٢٩٥٩]:

روى حماد عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ سورة «براءة» فأتى على قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: شباناً وكهولاً. وقال: يا بنيّ، جهزوني، جهزوني - أي أعدوا لي عدة الخروج للقتال - فقال بنوه: يرحمك الله، لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. قال: لا، جهزوني، فغزا في البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها ولم يتغير رضي الله عنه.

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب - الفقيه التابعي المشهور - إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه. فقيل له: إنك عليل. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثَّرتُ السواد - أي سواد المسلمين، أي عددهم - وحفظت المتاع.

ولقد قال ابن أم مكتوم رضي الله عنه - واسمه عمرو - يوم أحد: أنا رجل أعمى، فسلموا لي اللواء، فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدري من يقصدني بسيفة فما أبرح، أي فما أتحول عن مكاني وأنهزم.

وذكر ابن جرير الطبرى[٢٩٦٠]. عن حيان بن زيد قال: نفرنا - خرجنا للجهاد -

---

(٢٩٥٧) انظر الفقرات ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٥٠.

(٢٩٥٨) انظر الفقرة ١٥٥٢.

(٢٩٥٩) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥١.

(٢٩٦٠) نقلاً عن تفسير القاسمي ج٨ ص٢١٩-٢٢٠.

مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص، فرأيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من كبره من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه، فقلت يا عم: لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي: استنفرنا الله خفافاً وثقالاً.

وكان أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه - الذي نزل عنده رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة يوم هاجر إليها - يقرأ هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ويقول: فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً، ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون إلا عاماً واحداً. وقد اشترك في الحملة التي نظمها الأمويون في أوائل الدولة الأموية، لفتح القسطنطينية، وقد صار شيخاً كبيراً، فاستشهد هناك خارج أسوار القسطنطينية، ودفن هناك.

١٦١٦- أمير الدعاة يتلقى التبرعات للجهاد:

ومن تذكير الدعاة للمسلمين بالجهاد، تذكيرهم بالجهاد بالمال، وقد قدمه الله تعالى على الجهاد بالنفس، فقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قال القرطبي: وقدم الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتب الأمر كما هو في نفسه[٢٩٦١]. والواقع أن إنفاق المال ضروري للقيام بالجهاد بالنفس لأن به يمكن تهيئة مستلزمات ومتطلبات الجهاد بالنفس، مثل إعداد وسائل القتال والنقل وإطعام المجاهدين ونحو ذلك. وقد ذكرنا من قبل أن النبي ﷺ حثّ على التبرع بالمال إعداداً لغزوة تبوك، وأنه ﷺ كان يتلقى هذه التبرعات الكثير منها واليسير[٢٩٦٢].

فينبغي للدعاة وأميرهم أن يجلسوا لتلقي التبرعات، فقد يكون هذا من وسائل الحث المشروعة على التبرع، ولا بأس من الثناء على المتبرعين بالمال الكثير، فقد أثنى رسول الله ﷺ على عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قدم مالاً كثيراً تبرعاً منه؛ لتجهيز غزوة تبوك، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما على عثمان ما عمل بعد اليوم»

(٢٩٦١) تفسير القرطبي ج٨ ص١٥٣.

(٢٩٦٢) انظر الفقرة ١٥٣٧.

وهذا مع الدعاء لكل متبرع وإن قلّ تبرعه. وقد يكون من المفيد في الوقت الحاضر، أن يدعو الدعاة وأمير جماعتهم إلى إنشاء صندوق؛ لجمع التبرعات لأغراض الجهاد بالنفس، تصرف على المتطوعين في نصرة المسلمين المعتدى عليهم بالقتال. كما حصل في البوسنة والهرسك وقبله في أفغانستان، وهذا بالإضافة إلى ما يدعى إليه المسلمون من التبرع حين وقوع الاعتداء الفعلي على المسلمين؛ ليصرف ما جمع سابقاً وما يجمع لاحقاً على المتطوعين بالقتال مع إخوانهم المسلمين.

١٦١٧- اختيار أمير جماعة الدعاة من يخلفه في غيبته:

ذكرنا أن رسول الله ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك استخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، واستخلف على أهله علي بن أبي طالب. فينبغي لأمير جماعة الدعاة أن يعين من يخلفه في إمرته على جماعته في حال غيبته، أو في حال انشغاله بأمور الدعوة الطارئة. كما يجوز لأمير الجماعة أن يستثني أحد أعضائها من الاشتراك في العمل الجماعي الذي يساهم فيه جميع الدعاة؛ لينيط بهذا المستثنى رعاية أهل الأمير المسؤول عن رعايتهم ما دام الأمير يشترك مع الدعاة فيما يقومون به، ويحبذ أن يكون من أقارب الأمير الأقربين، أسوة باختياره عليه الصلاة والسلام علياً لرعاية أهله.

١٦١٨- الإسراع في أداء الواجب:

الدنيا تفر، والتباطؤ في أداء الواجب فيه آفات، فالحزم المبادرة إلى أداء الواجب والإسراع فيه، فعلى الدعاة وأمير جماعتهم، أن يعرفوا ذلك، ولهم في قصة أبي خيثمة لعبرة، وإن كان قد تدارك ما فاته بسبب تباطئه. ولكونه وقع في محذور التباطؤ الثلاثة الذين خلفوا، وستأتي قصتهم ووجه العبرة فيهم، ومثل هؤلاء الثلاثة أبو لبابة وجماعته. أما أبو خيثمة فقد مرت قصة، وفيها أنه تباطأ في الخروج مع النبي ﷺ، فلما عاد إلى بيته وقد خرج رسول الله ﷺ، ورأى ما هيأته له زوجتاه، قال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحرّ وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام شهي وامرأة حسناء، ما هذا بالعدل ولحق حالاً بالنبي ﷺ حين نزل بتبوك[٢٩٦٣].

(٢٩٦٣) انظر الفقرة ١٥٤١.

فأبو خيثمة تدارك تقصيره، ولكن الثلاثة الذين خلفوا، وأبو لبابة وجماعة لم يتداركوا تقصيرهم وتباطؤهم، حتى رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان من أمرهم ما كان[٢٩٦٤]، وهو ما سنشير إليه فيما بعد إن شاء الله تعالى عند كلامنا عما يستفاد من قصتهم.

فعلى الدعاة أن يبادروا حالاً إلىٰ أداء ما يعهده إليهم أميرهم، وإن كان في الوقت متسع، لأن في التأخير آفات، وقد تحدث عوائق تمنع إنجاز العمل عندما ينهض إليه الدعاة. إن المبادرة إلى أداء متطلبات الدعوة هو من مظاهر الجدية في العمل والنشاط والرغبة فيه والحرص عليه، فليكن شعار الدعاة وجماعتهم وأميرهم المبادرة والإسراع في أداء متطلبات الدعوة، وعدم تأخير إنجازها، وهذا كله إذا لم تكن مطلوبة على الفور أو لم يصدر بها أمر من الأمير بانجازها فوراً. إن أداء الصلاة في أول وقتها أفضل من تأخيرها بلا مبرر، فكذا يجب أن ينظر الدعاة إلى أعمال الدعوة يؤدونها، حالاً وإن احتمل أداؤها التأخير، ليظفروا بالأجر والثواب، وينجو من مخاطر التأخير، وليكونوا قدوة حسنة لسائر المنتسبين إلى جماعتهم، جماعة الدعاة.

١٦١٩- معجزات النبي ﷺ:

وفي أثناء سير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك وقعت معجزات لرسول الله ﷺ، وهي معجزة تكثير الطعام، وإنزال الغيث، فأكلوا وشبعوا وسقوا لما ذكرنا ذلك[٢٩٦٥].
فعلى الدعاة أن يذكروا ذلك للمسلمين في أثناء دروسهم ومحاضراتهم، وحذار من تأويل هذه المعجزات بما يخرجها عن كونها معجزة، كما يفعل بعض الكتاب في الأمور الدينية. وهذا لا يمنع من القول، مع ذكر هذه المعجزات المادية، بأن معجزة القرآن هي أعظم معجزاته ﷺ. كما أن على الدعاة وهم يذكرون هذه المعجزات لرسول الله ﷺ أن يبينوا بأن المسلمين الذين أصابتهم تلك المعجزات، وانتفعوا بها إنما حصل لهم ذلك، بمتابعتهم لرسول الله ﷺ، وفي خروجهم معه للجهاد، فلا يبعد إذا قام المسلمون بالجهاد الخالص في سبيل الله أن ييسر الله لهم

(٢٩٦٤) الفقرات ١٥٥٥-١٥٥٩.

(٢٩٦٥) الفقرة ١٥٤٢.

في جهادهم من خوارق العادات ما يعتبر بحق معجزة لرسول الله ﷺ. لأن الذي يتيسر لهم من هذه الخوارق التي ينتفعون بها، إنما تحصل لهم بمتابعتهم لرسول الله ﷺ وجهادهم في سبيل الله. وقد حصل هذا فعلاً للمجاهدين في أفغانستان، ولغيرهم في أماكن الجهاد الأخرى للمسلمين. فعلى الدعاة أن يذكروا ذلك للناس في محاضراتهم وخطبهم، ليزداد المؤمنون إيماناً.

١٦٢٠- المعذور من عذره الله:

إن المتخلف عن الجهاد بالنفس لا يكون تخلفه مقبولاً إلا إذا كان بسبب يعذر به شرعاً، فالمعذور من عذره الله، وهم الذين ذكر الله أعذارهم وتكلمنا عنهم كالضعفاء والمرضى والعميان ونحوهم[٢٩٦٦]. أما غير هؤلاء أمثال: الجبناء، والمؤثرون للراحة والعافية، والمقدمون رغبات أحبابهم أو أهليهم على واجب الجهاد العيني، فهؤلاء لا يعذرون عند الله، ويكون تخلفهم علامة على ضعف إيمانهم، أو علامة على نفاقهم، فإن من صفات المنافقين إيثارهم القعود عن الجهاد في سبيل الله، فكيف إذا كان الجهاد بالقول، ومع هذا يتخلف عنه المسلم القادر عليه، أو يكسل فيه الداعية؟

١٦٢١ - المشاورة في جميع الأحوال:

ذكرنا فيما سبق أن النبي ﷺ شاور أصحابه وهو في تبوك في مسألة ملاحقة الروم في بلاد الشام ومنازلتهم هناك بعد أن رآهم قد أنسحبوا، ولم يجد منهم أحداً في تبوك. فأشار عليه عمر بن الخطاب بالرجوع إلى المدينة؛ لأسباب ذكرها، فأخذ النبي ﷺ برأيه[٢٩٦٧]. فعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة إذا كان معهم في عمل جهادي يقومون به أن يستشيرهم فيه وفيما يتعلق به، وكذلك إذا أرسل أحد الدعاة في إمرة جماعة منهم لعمل ما أن يوصيه بأن يشاور جماعته فيما يتعلق بالمهمة التي خرجوا من أجلها. إن المشاورة من شرع الإسلام ولا تأتي إلا بخير عند

(٢٩٦٦) الفقرات ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣.

(٢٩٦٧) الفقرة ١٥٤٤.

صفاء النيات، والإخلاص لله تعالى في الأعمال. فليكن الحرص عليها من مظاهر عمل الجماعة المسلمة جماعة الدعاة.

١٦٢٢ -جواز الهجر للتأديب:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر بهجر الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وعدم تكليمهم[٢٩٦٨]. وعلى هذا يجوز لأمير جماعة الدعاة إذا وجد تقصيراً في أعمال الدعوة من أحد أفراد جماعته أن يأمر بهجره، وعدم الكلام معه تأديباً له وزجراً. وإن كان الهجر لأكثر من ثلاث أيام، أما النهي عن الهجر فوق الثلاث، فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً[٢٩٦٩] ولكن على أمير الجماعة أن يلاحظ مدى تحمل من يريد تأديبه بالهجر هذا الهجر، فإن رآه لا يتحمل ذلك اكتفى بوعظه وإرشاده، أو بغير ذلك مما يسهل على هذا الداعية تحمله. والثلاثة الذين خلفوا كانت عندهم من الصلابة في الدين ما جعلهم يتحملون العقاب والتأديب، وقد دلَّ على قدرتهم على هذا التحمل اعترافهم بأن تخلفهم عن غزوة تبوك ما كان عن عذر مطلقاً.

١٦٢٣ - على الدعاة أن يتحملوا العقاب والتأديب:

إن الجدية في العمل الدعوي الجماعي يقتضي محاسبة الدعاة، أعضاء جماعة الدعاة، إذا صدر من أحدهم تقصير واضح في حق الدعوة، وفي أعماله المطلوبة منه في مجال الدعوة. ومن مظاهر هذه الجدية، حق أمير الجماعة في محاسبة المقصر من أعضاء جماعته، ومعاقبته أو تعزيره بالهجر أو بغيره كما قلنا. وأما بالنسبة للداعية المعاقب لتقصيره، فالمطلوب منه أن يتلقى هذا العقاب بنفس رضية بعيدة عن التسخط وعدم الرضا، لأن علاقته بالجماعة وبأميرها أوثق وأكبر من علاقة الموظف بدائرته وبرئيسها، فهو يتحمل عقاب رئيسه على إخلاله بعمله ولا يحمله على ترك وظيفته، فينبغي أن لا يكون الداعية أقل من هذا الموظف الحكومي، لأنه يعمل لله، وطاعته للجماعة وأميرها هي طاعة لله، ويتذكر طاعة الثلاثة الذين خلفوا لما صدر بحقهم من رسول الله ﷺ من هجر وعدم الكلام معهم مدة خمسين يوماً.

(٢٩٦٨) الفقرة ١٥٥٨.

(٢٩٦٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٢٤.

وليعلم الداعية أن ما يصيبه مما يثقل على نفسه، سواء من جماعته أو من غيرها، إنما هو من الامتحان الذي يُمتَحن به الداعية، وأن يتحمل ذلك في سبيل الله، وطاعة له؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مستحقاً لما أنزلته الجماعة من عقاب فيه، فلا يجوز أن يتسخطه، وإما أن لا يكون مستحقاً له، فعليه أن يتحمله ويحتسبه عند الله، لأنه جاء إلى جماعة الدعاة؛ ليخدم الإسلام، ويقوم بواجب الدعوة عليه، فلا يجوز أن يتخلى عن ذلك بسبب ما صدر من أميره نحوه وقد يكون مجتهداً فيه.

١٦٢٤ - سرور أمير الجماعة بما يسر أعضاءها:

ذكرنا في قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك أن النبي ﷺ ظهر السرور على وجهه الكريم عندما نزل عليه الوحي بتوبة الله عليهم. وهكذا الشأن بأمير جماعة الدعاة يسره ما يسر أتباعه، وأن يظهر ذلك منه في كل مناسبة تدعو إلى هذا الإظهار. إنه كالأب لهم وكالأخ الكبير لهم، ولكن هذا لا يمنعه من معاملتهم بالجدية كما يفعل رب الأسرة الحكيم مع أبنائه.

١٦٢٥ - على الدعاة أن يصدقوا فيما يقولون:

ذكر أن الثلاثة الذين خلفوا صدقوا رسول الله ﷺ فيما أخبروه عن سبب تخلفهم عن غزوة تبوك، إذ قالوا ما كان لنا عذر، وكان نتيجة صدقهم أن أنعم عليهم بتوبته، فعلى الدعاة أن يصدقوا فيما يقولون، وفيما يخبرون به أمير جماعتهم فيما يتعلق بأعمالهم الدعوية، فإن صدقهم هذا لا يجلب لهم إلا الخير وثقة أميرهم بهم، بل ويعينهم على معرفة أسباب تقصيرهم في أعمال الدعوة، حيث إن أميرهم وقد سمع حديثهم بصراحة وصدق يمكنه أن يتصرف معهم في ضوء ذلك بتوجيه النصح والإرشاد، أو بإزالة ما دعاهم إلى التقصير في عملهم، أو بتكليفهم بأعمال غير المكلفين بها، وعلى كل حال فإن الصدق من الصفات الأصيلة في المسلم، فعلى الداعي أن يتمسك بالصدق في جميع ظروفه، وفي جميع علاقاته، ولا يجوز أن يتخلى عن الصدق في علاقاته مع أفراد جماعته أو مع أميرها.

١٦٢٦ - على الدعاة تذكير الناس بمنزلة الصحابة الكرام:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى

سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٩٧٠]. فهذه الآية تبين منزلة المهاجرين والأنصار وهم صحابة رسول الله ﷺ، الذين اتبعوه في جيش العسرة في غزوة تبوك، فتصرح بتوبة الله عليهم، وتوبة الله على الإنسان فضل كبير عليه، ثم تصرح بأن الله تعالى بهم رؤوف رحيم، وهذه نعمة أخرى وفضل كبير عليهم. فعلى الدعاة أن يبينوا ذلك للناس، ويذكروا لهم هذه الآية والتي قبلها ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢٩٧١] وغيرها من آيات كتاب الله العزيز في مدح الصحابة والثناء عليهم. لا سيما في الأماكن التي يشيع فيها الجهل إلى درجة أن بعض المسلمين لجهلهم يعتقدون أن من التقرب إلى الله كره الصحابة وسبهم، وهم في هذا المسلك مع ما ينالهم من العقاب ومن سخط الله عليهم، فإنهم ليفوتهم خير كثير من الاطلاع على سيرة الصحابة الكرام والتأسي بهم. فعلى الدعاة أن يولوا هذه المسألة عنايتهم، ويذكروا للناس من قصص جهادهم في سبيل الله، ومن متابعتهم لرسول الله ﷺ ما يزيل هذه الجهالة عن قلوبهم.

١٦٢٧ - على الدعاة الحذر من صفات المنافقين:

جاء في سورة التوبة آيات كثيرة عن المنافقين بمناسبة الكلام عن غزوة تبوك، وتخلفهم عنها فعلى الدعاة أن يقرؤوها بإمعان؛ ليحذروا ما جاء فيها من صفات المنافقين، لأنَّ ما قبح من المنافقين يقبح من المسلمين إذا فعلوه، وقد ذكرنا هذه الآيات مع تفسير موجز لها. ونذكر بعض ما يستفاد منها للدعوة والدعاة.

١٦٢٨ - عمل الدعاة يشمل المكان البعيد والقريب:

عمل الدعاة تبليغ موضوع دعوتهم - وهو الإسلام - للناس في أي مكان يمكن الوصول إليه، فلا يقتصر عملهم على المكان القريب، بل يشمل أيضاً المكان البعيد. لأن الذي يحرك الدعاة في تنقلاتهم، والأماكن التي يقصدونها للدعوة ليس

(٢٩٧٠) سورة التوبة الآية ١١٧.

(٢٩٧١) سورة التوبة الآية ١٠٠.

قربها، وإنما ما تقضي به مصلحة الدعوة من ضرورة توجه الدعاة إلى هذا المكان أو ذاك. وعلى هذا الأساس فأي اعتبار آخر غير اعتبار مصلحة الدعوة وما تقضي، به أو تقتضيه هذه المصلحة من انتقال الداعية أو الدعاة إلى هذا المكان أو ذاك، بغض النظر عن بعده وعن مشقة الوصول إليه.

أقول: إن ملاحظة الداعي لغير مصلحة الدعوة يعني اعتباره المنافع المادية والمعنوية لشخصه، وتقديمها على مصلحة الدعوة، وليس هذا من صنيع الدعاة المخلصين، وبالتالي يكون لمن يفعل ذلك نصيب من الذم الذي تضمنته الآية الكريمة في المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والعرض القريب يعني منافع الدنيا ومتاعها التي يسهل الظفر بها[٢٩٧٢]. ولا شك أن منافع الدنيا ومتاعها تشمل المنافع المادية والمعنوية التي يتطلع إليها الإنسان، ومن المعنوية حب السمعة والظهور وثناء الناس، وهذه قد يحصل عليها الإنسان في الأماكن القريبة، مثل حواضر المدن حيث يكثر المستمعون لخطب الداعية بخلاف الأماكن البعيدة التي لا يُتفطَن إليها ولا يتحقق فيها القدر الكافي من السمعة والظهور؛ لبعدها ولكون أهلها من المغمورين والفقراء. وعلى هذا فإذا كلف أمير جماعة الدعاة أحدهم، أو بعضاً منهم للذهاب إلى مكان بعيد في الوصول إليه مشقة ظاهرة، ولكن يحقق مصلحة مؤكدة للدعوة، فلا يجوز للمكلفين رفض هذا التكليف أو رده، أو الاعتذار منه بالمعاذير الواهية التي هي من جنس معاذير المنافقين الواردة في الآية التي ذكرناها، وهذا ما نعيذهم بالله منه. فعلى الدعاة أن يجاهدوا أنفسهم، ويحملوها على قصر نظرها على ما تقتضيه مصلحة الدعوة فقط دون غيرها، وإن كان تحقيق هذه المصلحة يستلزم تحمل المشاق كمشقة الوصول إلى الأماكن البعيدة النائية.

١٦٢٩ - العمل الدعوي يسبقه عزم عليه وإرادة له:

إن عمل الإنسان ما كان يمكن أن يحصل من غير إرادة له سابقة عليه، وعزم على

(٢٩٧٢) انظر الفقرة ١٥٧١.

إيقاعه، فعلى الدعاة أن يعزموا عزماً عاماً، وإرادة عامه؛ لإيقاع أعمال الدعوة ومتطلباتها. ثم إرادة خاصة جازمة للقيام بعمل معين. فإذا وجدت الإرادة العامة والإرادة الجازمة الخاصة صدر العمل الدعوي من الداعية، فإذا لم يقع العمل الدعوي المطلوب من الداعية أو المرجو وقوعه منه دلّ هذا التخلف على عدم وجود عزم على إيجاد هذا العمل، ولا إرادة جازمة لإيجاده، فعلى الدعاة إذا وجدوا من أنفسهم كسلاً أو فتوراً في القيام بما هو المطلوب منهم أو المرجو منهم فليعلموا أنَّ مرد ذلك خلو نفوسهم من الإرادة الجازمة لإيجاد هذا العمل، فعليهم أن يكونوها في أنفسهم مستحضرين أن ذلك واجب عليهم، لأنه وسيلة لأداء الواجب وهو القيام بالعمل، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وحذار من الاعتذار مع الغفلة عن السبب الحقيقي لكسلهم، وعدم قيامهم بالعمل المطلوب، وقد ذم الله تعالى المنافقين على تخلفهم عن غزوة تبوك بحجة عدم قدرتهم على الخروج، فكذّبهم الله تعالى بأن السبب هو عدم إرادتهم الخروج مع رسول الله ﷺ، فقال تعالى عنهم: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً . . . ﴾ إن الإرادة الجازمة تستلزم العمل المناسب لها. فعلى أمير الجماعة، جماعة الدعاة، أن يبين لهم ذلك إذا رأى منهم أو من بعضهم أو من أحدهم تباطؤاً أو كسلاً في أداء العمل، أو عدم القيام به أصلاً حتى تكون المعالجة جذرية تبدأ من العزم والإرادة. والذي يساعد على إيجاد الإرادة الجازمة تذكير الدعاة بأن من الوفاء للدعوة، وتعهدهم بالعمل لها، إيجاد الإرادة الجازمة التي تستلزم العمل الذي تعهدوا، وعاهدوا الله عليه باعتباره من أعمال الدعوة التي جرى عليها العهد والالتزام.

١٦٣٠- لا يجوز إشراك المنافقين فيما يقوم به الدعاة:

قد يندس بعض المنافقين في صفوف الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وقد يتظاهر أنه منهم، فهذا أمر ممكن الوقوع في أية جماعة، ولم يسلم منها حتى المجتمع الإسلامي في عصر النبي ﷺ، ولكن كان من فضل الله على المسلمين أن بيّن لهم علامات المنافقين، ليستهدوا بها في معرفتهم لهم إن لم يكن على وجه اليقين، فعلى وجه الظن الراجح الذي يحمل المسلمين على الحذر والوقاية منهم. وعلى هذا فإذا تبين لجماعة الدعاة وأميرهم أن هذا من المنافقين، أو غلب على

ظنهم أنه منهم، وجاء للكيد للجماعة، فعليهم أخذ الحذر منه، ولا نريد بالمنافقين المندسين في صفوف جماعة الدعاة، المنافقين النفاق الأكبر أي الذين يبطنون الكفر، وإنما نريد المنافقين الذين يبطنون الكره للدعوة أو للدعاة أو لجماعتهم، فهم يريدون الاطلاع على ما عندهم، والكيد لهم، والكذب عليهم ونحو ذلك. فمثل هؤلاء، لا يجوز إشراكهم في أعمال الدعوة والدعاة، كالخروج إلى السفر أو التنقل بين أماكن الدعوة، أو حضورهم مع الدعاة في اجتماعاتهم الخاصة ونحو ذلك. وإنما أقصى ما يسمح لهم قبولهم في الاجتماعات العامة لجماعة الدعاة، التي يحضرها عموم المؤيدين والمناصرين، وفي تكليفهم بأعمال خاصة بأنفسهم كقراءة كتاب إسلامي نافع وتلخيصه، وكاقتراح يقدمونه من تلقاء أنفسهم ونحو ذلك. فهذا الاحتياط مطلوب للوقاية من شرور هؤلاء المنافقين المندسين، لأن هذا ديدنهم، قال تعالى عن أسلافهم القدامى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد بينا تفسير هذه الآية[٢٩٧٣]. فهم يسعون للإفساد بين الدعاة أو بين المؤمنين المنتسبين لهذه الجماعة المؤيدين لها، ويبثون الأكاذيب، وما يثبط عن العمل.. كما فعل الذين تشير إليهم هذه الآية، وهم حريصون على الإفساد والإضرار بجماعة الدعاة، كما فعل أسلافهم. وأشار القرآن إلى ذلك بقوله عنهم: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٢٩٧٤].

١٦٣١ - سرور المنافقين بمصائب المؤمنين:

من علامات أهل النفاق أنهم يفرحون بما يحل في الدعاة من مصائب ونكبات وأذى وأضرار، ويظهر فرحهم على وجوههم، وفي تكلفهم إظهار الحزن لما أصاب الدعاة، وكذلك من علاماتهم حزنهم على ما يصيب الدعاة من خير وتقدم، ونصر على خصوم وازدرياد تأثيرهم في الناس، ويعرف ذلك منهم في إظهار سرورهم الكاذب، بهذا الذي أصاب الدعاة. هذا من صفة المنافقين القدامى والمحدثين، والمنافقين النفاق الأكبر أو الأصغر، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن

(٢٩٧٣) انظر الفقرة ١٥٧٦.

(٢٩٧٤) الفقرة ١٥٧٧.

تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾[2975].

والمنافقون عادة يستغلون النكبات والمصائب التي تنزل بالدعاة، فينفثون سمومهم وأراجيفهم، ويظهرون حرصهم على الدعاة، وأنه ما كان ينبغي أن يفعلوا كذا وكذا. يقولون ذلك بأسلوب ناعم، وبكلمات يشوبها الأسى والتحسر على ما أصاب الدعاة بسبب أعمالهم الدعوية.

فعلى الدعاة أن يحذر بعضهم بعضاً من هذا الإرجاف الذي يقوم به أولئك المنافقون، ويردوا على أقاويلهم وشبهاتهم دون حاجة إلى ذكر أسمائهم، لأن كشف بطلان هذه الأقاويل يدل على سوء نية من يقولها، أويرددها فيبتعد عنه من يسمعها منهم، وهذا هو المطلوب.

١٦٣٢- من أساليب ردّ الدعاة على إرجاف المنافقين:

ومن الأساليب التي أشار إليها القرآن الكريم في الرد على أراجيف المنافقين التي يبثونها بين المؤمنين مستغلين ما يصيبهم من مصائب ونكبات في سبيل الله، وهو ما يفعله المنافقون المندسون في جماعة الدعاة، أن يقول الدعاة لهم ولعموم المنتسبين إلى جماعتهم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[2976] ويقولون أيضاً، نحن دائماً على خير وفي خير، فإما أن ننال النصر وتقر أعيننا به، وإما أن ننال الشهادة، وكلا العاقبتين خير للمؤمنين. وهذا بخلاف المنافقين فإن عاقبتهم إما نزول عذاب الله بهم مباشرة، وإما أن يصيبهم ذلك على أيدي المؤمنين بعد أن تنكشف حقيقتهم، ويظهر نفاقهم ظهوراً يكفي لإنزال العقاب بهم الذي يستحقونه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[2977].

١٦٣٣- إسلام المنفق شرط لقبول إنفاقه:

ومما يجب أن يعرفه الدعاة، ويجيبوا به صراحة إذا سئلوا عنه، وهو أن الشرط

(٢٩٧٥) انظر الفقرة ١٥٧٩.

(٢٩٧٦) انظر الفقرة ١٥٨٠.

(٢٩٧٧) انظر الفقرة ١٥٨١.

لقبول إنفاق المنفق كونه مسلماً. وأعنى بالقبول قبوله عند الله تعالى، وإثابته عليه في الآخرة. فلا ثواب لكافر على إنفاقه، بل وعلى سائر أفعاله من إنفاق وغيره، وإن كان فيما يفعله منفعة للمسلمين؛ لفوات شرط القبول وهو الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ . . ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

١٦٣٤- لا ينبغي للدعاة الإعجاب بما عند المنافقين:

الإعجاب بالشيء كما ذكرنا من قبل، أن تسرَّ به سرور راضٍ به متعجب من حسنه، فلا ينبغي للدعاة أن يعجبوا بما عند المنافقين من أموال وأولاد، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . . ﴾ لأن هذا الذي أوتوه استدراج لهم. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي لا تمدن نظر عينيك، ومدّ النظر تطويله حتى إنه لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ حتى واجههم أولو العلم والإيمان ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[٢٩٧٨] وأيضاً فإن النظر إلى ما عندهم من متاعها قد يجرّ إلى الرضا بكفرهم، وإلى استصغار المسلم ما عنده من نعمة الإسلام وهذا لا يجوز.

١٦٣٥- رضا المؤمن وسخطه لله لا لنفسه:

هذا ومما يجب أن يعرفه الدعاة ويعلموه الناس أن رضا المؤمن وسخطه لا يكونان إلا لله، أما المنافق فرضاه وسخطه لنفسه لا لربه. هذا وإن الدعاة في مقام التأسي والقدوة للناس، فيجب عليهم أن يروهم بأن رضاهم تابع لرضا الله وسخطهم تابع لسخط الله، فهم يرضون ما يرضى عليه الله، ويسخطون على ما يكرهه الله. أما الذي يرضى إذا أعطي ما أمله ورجاه، ويسخط إذا لم يعط ما أمّله ورجاه، فهذا من صفات المنافقين قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ

(٢٩٧٨) تفسير الزمخشري ج٣ ص٩٧.

﴿يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[2979].

١٦٣٦- لا هزل في أمور الدين:

من الأمور التي يكثر وقوعها بين الجهال والسفهاء هزلهم في أمور الدين، جاهلين ما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة جداً، مثل كفرهم ووقوع الفرقة بينهم وبين أزواجهم؛ لارتدادهم بهزلهم بأمور الدين، فعلى الدعاة تفهيم الناس ذلك، وإعلامهم بحرمة الهزل بأمور الدين، مثل الهزل بالله وبآياته ورسوله، وأن هذا الصنيع هو صنيع المنافقين، كما أخبرنا الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...﴾[2980]. فقد روى أبو داود والترمذي والدار قطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جدّ النكاح والطلاق والرجعة». وقال أبو بكر بن العربي إن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة[2981].

١٦٣٧- المنافقون متشابهون فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف:

أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون في النفاق وصفاً وعملاً، ومن مظاهر تشابههم أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وفي البخل، وهذه من العلامات التي يعرف بها أهل النفاق، فعلى الدعاة التمعن والتأمل فيما يصدر عن المنافقين ليعرفوهم ويحذروهم، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ..﴾[2982].

١٦٣٨- من علامات المنافقين سخريتهم من المؤمنين:

ومن علامات المنافقين أنهم يسخرون من المؤمنين، ويحتقرونهم،

(٢٩٧٩) الفقرة ١٥٨٦.

(٢٩٨٠) انظر الآيتين ٦٥، ٦٦ من سورة التوبة.

(٢٩٨١) تفسير القرطبي ج٨ ص١٩٧-١٩٨.

(٢٩٨٢) انظر الفقرة ١٥٩٤.

ويستصغرونهم، ويستغلون أعمالهم الخيرة الطيبة، كما في سخريتهم من المتبرعين بالشيء اليسير، لأن هذا هو ما يملكونه(٢٩٨٣). ولا شك أن هذه السخرية من المؤمنين تدل على غرورهم مع كفرهم ونفاقهم. فعلى الدعاة أن يرصدوا من يسخر بالمؤمنين حتى ينال جزاءه ويُبعَد ولا يُقرَّب.

١٦٣٩- فرح المنافق بتخلفه عن الجهاد وتحريض غيره على التخلف:

من علامات النفاق فرح المنافق بتخلفه عن الجهاد وتحريض غيره على هذا التخلف.

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد، ويفرحون بهذا التخلف، ويحرضون غيرهم عليه محتجين بالحر، فكان الجواب لاحتجاجهم بالحرّ: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ ﴾. فعلامات النفاق التي أشارت إليها هذه الآية أن المنافقين يفرحون بقعودهم عن الجهاد، ويكرهون الجهاد بالمال والنفس، ويحرضون غيرهم على التخلف. وحجتهم أن غزوة تبوك وقعت في وقت الحرِّ الشديد.

فعلى الدعاة أن يستدلوا بهذه الآية في التعرف على المنافقين، فإذا وجدوا من يتخلف عن الدعوة والتبشير بها، ويفرح لذلك، ويعلن كراهيته للجهاد بالمال والنفس، ويحرض غيره على القعود عن الجهاد، فهذه علامات لا تكاد تخطىء في دلالتها على المنافق. ومثل التخلف عن الجهاد بالنفس - وتخلفهم كان عن غزوة تبوك، في دلالته على نفاق المتخلف - القعود عن الجهاد القولي، أي عن الدعوة إلى الله بالقول، وتحريض الآخرين على التخلف عن هذا الجهاد القولي، بحجة ما قد يصيب الدعاة إلى الله من أذى وعنت. فإذا انكشف حال المنافق في ضوء هذه العلامات عومل بما يستحقه من هجر وإبعاد عن صفوف الجماعة، وعدم تكليفه بأي عمل من أعمالها، وهذا إذا لم يتيسر ترحيله إلى خارج هذا البلد. وحال هؤلاء المنافقين خلاف حال المؤمنين الذين يريدون الجهاد، ويأتون إلى رسول الله ﷺ

(٢٩٨٣) انظر الفقرة ١٥٩٧.

ليجد لهم ما يركبونه؛ ليوصلهم إلى ساحة القتال، فيعتذر لهم الرسول ﷺ؛ لعدم وجدانه ما يريدون تولوا وأعينهم تفيض من الدمع، قال تعالى: ﴿.. وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾(٢٩٨٤).

فعلى الدعاة أن يهتموا بالمنتسبين إلى جماعتهم، ويتأملوا في تصرفاتهم، فمن وجدوه فرحاً مسروراً لقعوده عن الجهاد القولي، ومع هذا يثبط من يريده، فهذا يهمل ويهجر ويبعد، ومن وجدوه حريصاً على الجهاد، ويطلب تهيئة ما يلزمه لجهاده القولي أو غيره، فهذا هو المؤمن الذي تحتاجه الدعوة ويستحق التقريب والتكريم والتكليف.

١٦٤٠- لا يصدق من ظهر كذبه:

وليعلم الدعاة أن من ظهر كذبه وانكشف لم يعد أهلاً لتصديقه، لأن الكذب من خصال أهل النفاق، فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» وفي حديث آخر للبخاري عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خَصْلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢٩٨٥). وكذلك دل على ما قلناه، وهو عدم تصديق المنافق لا يُصدَّق إذا تبين كذبه. قال تعالى عن المنافقين الذي تخلفوا عن غزوة تبوك وجاؤوا يعتذرون، وهم كذبة في اعتذارهم، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ..﴾(٢٩٨٦) الآية. فعلى الدعاة أن لا تخدعهم أيمان الكذابين بعد أن تبين أن من صفاتهم الكذب، فلا ينبغي أن يصدقوهم.

(٢٩٨٦) انظر الفقرة ١٥٥٢، وهؤلاء لبكائهم سموا بالبكائين.

(٢٩٨٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص٨٩.

(٢٩٨٦) الفقرة ١٦٠٣.

١٦٤١- معاتبة المنافقين لا تفيد:

إذا ثبت نفاق المنافقين بالدلائل والقرائن المعتبرة، فلا فائدة من معاتبتهم حتى ولو اعتذروا، وإنما علاجهم بتركهم وشأنهم بلا عتاب ولا خصام، قال تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: سيحلفون لكم لتعرضوا عنهم، أي حتى لا تعاتبوهم ولا توبخوهم على تخلفهم عن غزوة تبوك، فأعرضوا عنهم أي أعطوهم طلبتهم، ولا تعاتبوهم إذ لا فائدة من معاتبتهم، ولا ينصلحون بها لأنهم رجس تمكن منهم النفاق[٢٩٨٧].

فعلى الدعاة أن لا يضيعوا وقتهم وجهدهم في معاتبة المنافقين الذين انكشف نفاقهم، ولم يعد بالإمكان إصلاحهم، وإنما كل المطلوب هو الوقاية من شرهم بالإعراض عنهم، وعدم معاقبتهم ولا معاتبتهم.

١٦٤٢- رضا المؤمن وسخطه يتبعان رضا الله وسخطه:

إن المؤمن يرضى على من يرضى عليه الله، ويكره من يكرهه الله، ورضا المؤمن وكرهه تابعان لما يرضى عليه الله أو يكرهه. وهذا الأسلوب هو ما يجب أن يؤكد عليه الدعاة في علاقاتهم مع الناس، ومع المنتسبين لجماعتهم - جماعة الدعاة -، وهو ما أرشد إليه قوله تعالى عن المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين، فقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ فغرض المنافق من الحلف بالله هو طلب رضا المؤمنين عليهم بعد أن قدموا أعذارهم الكاذبة وحلفوا بالله عليها، فهم يريدون بهذا الحلف قبول أعذارهم ورضاكم - أيها المؤمنون - عليهم، ولكن رضاكم لو حصل لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم غير راض عنهم، هذا وإن المقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم حتى لو رضي عنهم المؤمنون، هو نهي المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، لأن الشأن بالمؤمن أن يرضى عمن يرضى عنه الله

(٢٩٨٧) انظر الفقرة ١٦٠٤.

تعالى، ويسخط على من يسخط الله عليه[٢٩٨٨].

١٦٤٣- تحذير الدعاة من مسجد الضرار:

ذكرنا أن مسجد الضرار هو الذي بناه المنافقون مضارة للمسلمين لتفريق كلمتهم، وتقوية نفاقهم وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، أي وكراً لأبي عامر الفاسق وأعوانه المنافقين[٢٩٨٩].

١٦٤٤- حكم مسجد الضرار:

وحكمه هدمه وعدم الصلاة فيه، وهدمه إذا أُمنت الفتنة، وإلا وجب تحذير المسلمين من الصلاة فيه. ولا يمنعهم من ذلك كونه مسجداً، فقد أمر رسول الله ﷺ بهدمه بأمر ربه. وهكذا حكم كل مسجد ضرار بني لنفس الأغراض التي بنى المنافقون مسجدهم من أجلها.

١٦٤٥- ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، نذكر فيما يلي بعض أقوالهم ليستفيد منها الدعاة في نظرتهم إلى ما قد يحدثه أعداء الدعوة من مراكز أو مساجد أو أو تجمعات للإضرار بهم وبجماعتهم.

أولاً - قول الزمخشري: وقيل كل مسجد بني مباهاة، أو رياء وسمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار[٢٩٩٠]. ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى.

ثانياً - قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بُنِي على ضرار أو رياء

(٢٩٨٨) انظر الفقرة ١٦٠٥.

(٢٩٨٩) انظر الفقرات ١٦٠٩-١٦١١.

(٢٩٩٠) تفسير الزمخشري ج٢ ص٣١٠.

وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه[٢٩٩١].

ثالثاً - وجاء في تفسير القاسمي: دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار أنه لا حكم له ولا حرمة ولا يصح الوقف عليه. وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة. وقال الإمام ابن القيم (في زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك: ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه، وهو مسجد يصلي فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ومأوى للمنافقين. وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم أو تحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما صنع له. وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك وأوجب. وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر. وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه «فويسقاً» وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية[٢٩٩٢].

رابعاً - وجاء في تفسير سيد قطب يرحمه الله[٢٩٩٣]. هذا المسجد - مسجد الضرار - الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين.. هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى، يتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنة لسحق الإسلام أو تشويهه.. وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتَتَتَرَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام؛ لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توجيه لهم من أن الإسلام بخير، وأن لا داعي للخوف أو القلق عليه.

(٢٩٩١) تفسير القرطبي ج٨ ص٢٥٤.

(٢٩٩٢) تفسير القاسمي ج٨ ص٣٢٨-٣٢٩.

(٢٩٩٣) في ظلال القرآن لسيد قطب يرحمه الله ج٣ ص١٧١٠-١٧١١.

١٦٤٦- الخلاصة فيما يلحق بمسجد الضرار:

لأجل أن نحدد ما يلحق بمسجد الضرار وبالتالي يأخذ حكمه، لا بد أن نبين مقومات مسجد الضرار، فنقول: مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون اشتمل على شيئين:

(الأول) من حيث ظاهره كان مشروعاً، فهو مسجد يؤذن فيه وتقام فيه الصلاة، حتى إن المنافقين الذين بنوه عرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلي فيه افتتاحاً له وتيمناً بصلاته فيه، ولكن الله عصم رسوله من ذلك، فقال لهم: نحن على شغل في غزوة تبوك، وعند رجوعنا نصلي فيه إن شاء الله تعالى، فأنزل الله عليه عند رجوعه خبر مسجد الضرار وأمره بهدمه.

(الثاني) من حيث الغرض الذي من أجله بُنِي هذا المسجد. هو غرض غير مشروع، لأنه غرض الإضرار بمن لا يجوز الإضرار به، وهم جماعة المؤمنين، وذلك باتخاذ هذا المسجد مركزاً لتجمع المنافقين وتلاقيهم فيه، وتشاورهم فيما يفعلونه ويخططونه للإضرار بالمسلمين تمهيداً لإيقاع الضرر بالمؤمنين: بتفريقهم، وإشاعة ما يضعف وحدتهم، ويلحق الضرر بهم.

وخلاصة هذين العنصرين المكونين لمسجد الضرار، هي: ظاهر مشروع يخفي وراءه غرضاً غير مشروع هو الإضرار بالمؤمنين. فكل ما يتحقق فيه هذان العنصران فهو مسجد ضرار، سواء كان شكله الظاهري شكل «مسجد»، أو يأخذ شكلاً ظاهرياً آخر مشروعاً ما دام يتفق مع مسجد الضرار الذي بنوه في المدينة في الغرض غير المشروع. وهو الإضرار بالمؤمنين.

١٦٤٧- القاعدة لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار:

وفي ضوء ما قلناه في حقيقة المسجد الضرار، وفي عنصرية المكونين له، يمكننا أن نضع القاعدة التالية لمعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار الأول الذي بناه المنافقون في المدينة. فنقول في بيان هذه القاعدة: «كل ما يُتَخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متخذوه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق بالمسجد الضرار؛ لأنه يحمل روحه وعناصره». وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: «كل ما كان ظاهره

مشروعاً ويريد متخذوه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار».

وبناء على هذه القاعدة، يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك؛ لأن هذه منكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به، وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرر باعتبارها منكرات ظاهراً وباطناً.

١٦٤٨ - أمثلة لما يلحق بمسجد الضرار:

وفي ضوء ما قلناه من عناصر مسجد الضرار، والقاعدة في معرفة ما يلحق به، نقول أيضاً على وجه التعميم: كل ما يتخذ للإضرار بالمسلمين أو بالجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، مهما كان شكل هذا المُتَّخذ الذي في ظاهره مشروع؛ لتحقيق هذا الغرض الخبيث يعتبر ملحقاً بمسجد الضرار: مثل إقامة بناء لأعداء الإسلام أو أعداء الدعوة وجماعة الدعاة؛ لتجمعهم فيه والتشاور فيما بينهم؛ لوضع خطط التآمر والكيد والإضرار، سواء كان هذا البناء مسجداً أو مدرسة أو مستوصفاً أو مستشفى أو بيتاً أو حصناً، أو ما يعرف باسم مركز ثقافي أو اجتماعي، أو إنشاء تنظيمات أو جمعيات أو جماعات أو أحزاب ثقافية أو دينية أو خيرية، أو أية لافتة أو عنوان يمكن أن يوضع لهذه التنظيمات، وهي تخفي غرض متخذيها الخبيث، وهو الإضرار بمن ذكرناهم، فهي ملحقة بمسجد الضرار، لا نطباق ما قلناه عليها.

١٦٤٩ - ما يلحق بمسجد الضرار يأخذ حكمه:

وما يلحق بمسجد الضرار يأخذ حكمه، وحكم مسجد الضرار إزالته بهدمه وتحريقه، أي إزالة شكله الخارجي، فإن كان بناء وجب هدمه وإزالته، إذا أمكن الهدم وأمنت الفتنة، فإن تعذر الهدم أو خيف حدوث الفتنة، اكتفى بتحذير المسلمين منه، بأن يقوم الدعاة بهذا التحذير مبينين وجه هذا التحذير، وذلك بكشف أغراض مؤسسي هذا البناء، وأن يُطلَب من المسلمين عدم ارتياده، فإن كان مسجداً يُنصَح المسلمون بعدم الصلاة فيه، وإن كان نادياً بعدم التردد عليه، وإن كان مدرسة بعدم إرسال أولادهم إليها، وعدم التدريس فيها لما في هذا التدريس من شهادة ضمنية وسكوتية بصلاح القائمين على هذه المدرسة، وهذا لا يجوز، وإن

كان الملحق بمسجد الضرار جمعية أو جماعة أو حزباً أو مركزاً ثقافياً، وما أمكن حلّها بالطرق القانونية، فعلى الدعاة أن يسعوا لكشف هذه التنظيمات، وبيان حقيقتها وأغراضها الخبيثة المتمثلة بإلحاق الأذى والضرر بالإسلام وبالمسلمين وبالجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، وأن يطلب الدعاة من أنصارهم ومؤيديهم ومن عموم المسلمين مقاطعة هذه التنظيمات، ويقولوا لهم بصراحة ووضوح وتحديد: لا يجوز لهم حضور اجتماعاتهم وتجمعاتهم، واحتفالاتهم التي قد يقيمونها في مناسبات دينية أو في مناسبات أخرى، ولا يجوز للداعية ولا أي مسلم غيور إجابة دعوات أصحاب هذه التنظيمات بإلقاء المحاضرات الدينية أو الثقافية في مراكزها، لأن في هذه الاستجابة مشاركة في باطلهم، وتقوية لهم، وإيهام للمسلمين بأنها تنظيمات لا شائبة فيها ولا ضرر فيها، مع ما في هذه المشاركة بحضور اجتماعاتهم أو إلقاء الدروس فيها من تكثير سوادهم.

١٦٥٠- سؤال وجوابه:

وقد يسأل سائل، وهل يجوز الكشف عن هذه التجمعات والتنظيمات، وفي هذا الكشف نوع من الغيبة، وربما أكثر من الغيبة بادعاء أن أصحابها يكيدون للإسلام والمسلمين.. الخ والجواب: نعم يجوز هذا الكشف، وبيان أغراض هذه التنظيمات والتجمعات، لأن كشفها وبيان أغراضها يدخل من باب النصح للأمة حتى لا يقع أفرادها في شباكها وباطلها، ثم في هذا الكشف وبيان أغراضها الخبيثة نوع من رد شرهم وضرهم عن المسلمين، وعن جماعة الدعاة، وفي الحديث الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، لأن هذه التنظيمات، وقد ظهر غرضها الخبيث، وهو الإضرار بالإسلام أو بجماعة الدعاة، تعتبر ظالمة، وقد أذن الله تعالى للمظلوم أن يجهر بمظلمته، ويذكر من ظلمه ووجه ظلمه، قال تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ..﴾[٢٩٩٤]. وقد جاء في تفسيرها ما يبيح للمظلوم أن يجهر بمظلمته، ويذكر السوء في ظالمه، ونذكر فيما يلي بعض أقوال المفسرين في هذه الآية.

(٢٩٩٤) سورة النساء الآية ١٤٨.

أولاً: قال الزمخشري في تفسيرها: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي إلا جهر من ظُلِمَ. استثني من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم، وهو أن يدعو على الظالم، ويذكره بما فيه من السوء[٢٩٩٥].

ثانياً: وجاء في تفسير ابن عطية في كيفية الجهر بالسوء من قبل المظلوم. قال مجاهد: ذكر الظلامة والظلم[٢٩٩٦].

ثالثاً: وفي تفسير القرطبي: وقال ابن عباس والسدي: لا بأس لمن ظُلِمَ أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول[٢٩٩٧].

رابعاً: وفي تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من وقع عليه الظلم للدفاع عن نفسه[٢٩٩٨].

خامساً: وفي تفسير القاسمي: إلا جهر المظلوم، بأن يدعو على ظالمه، أو بتظلم منه، ويذكره بما فيه من سوء[٢٩٩٩].

فنخلص من أقوال المفسرين التي ذكرناها أن للمظلوم أن يذكر ظالمه بما فيه من سوء، وهو ما أوقعه فيه من ظلم، وأن هذا لا يدخل في معنى الغيبة المحرمة. وأيضاً فإن الظلم الواقع والمراد دفعه، هو في الحقيقة الاعتداء على المسلمين وتضليلهم، أو الواقع على الجماعة المسلمة جماعة الدعاة، فالرد على هذه التنظيمات التي قامت للإضرار بالمسلمين أو بجماعة الدعاة إنما هو دفاع عن حق الله ورد للاعتداء على من يدعون لدين الله، فالكشف عن هؤلاء المفترين هو رد ومنع لمن يريد الصدّ عن سبيل الله فهو أولى بجواز الرد عليه وكشف ظلمه، وأغراضه الخبيثة من رد المظلوم على ظالمه بظلامة تمس حقه الشخصي.

(٢٩٩٥) تفسير الزمخشري ج١ ص٥٨٢.

(٢٩٩٦) تفسير ابن عطية ج٤ ص٢٧٤.

(٢٩٩٧) تفسير القرطبي ج٦ ص١.

(٢٩٩٨) تفسير المنار ج٦ ص٥.

(٢٩٩٩) تفسير القاسمي ج٥ ص٥٢٨.

وأيضاً فإن ما تقوم به هذه التجمعات والتنظيمات من سعي للإضرار بالمسلمين، أو بجماعة الدعاة، هو نوع غليظ من أنواع البغي، لأن فيه ضرراً عاماً، وصداً عن الدعوة إلى الله، وقد أذن الله لمن بغي عليه أن ينتصر ممن بغىٰ عليه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[٣٠٠٠]. وجاء في تفسيرها: أي ينتقمون من ظالمهم من غير تعدٍ. وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح[٣٠٠١]. وفي تفسير الزمخشري: فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار قلت: نعم، لأن من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به، فلم يسرف في رده على سفيه، محاماة على عرضه، وردعاً لظالمه، فهو مطيع لله، وكل مطيع فهو محمود[٣٠٠٢]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ما عليهم من سبيل للمعاتب ولا للمعاقب ولا للعائب[٣٠٠٣]. وأقل مراتب الانتصار أن ترد اعتداء المعتدي وظلم الظالم، فإذا كان هذا الرد يتحقق بكشف نواياه وأغراضه، وما قد يتوسل به من وسائل كان ذلك مأذوناً فيه شرعاً، وتزداد هذه المشروعية إذا علمنا أن في رد هذا الظالم رد لسعيه الخبيث في الصد عن سبيل الله، لأنه في كيده وإيذائه وإضراره بجماعة الدعاة إنما يقوم بعمل خبيث من أعمال الصد عن سبيل الله، إذ ليس للدعاة عداوة شخصية مع هذه التنظيمات والقائمين عليها، وإنما يعادي هؤلاء القائمون على هذه التنظيمات الدعاة إلى الله، فكان في رد كيدهم وكشف باطلهم من باب النصح لله ولرسوله ودينه ولعامة المسلمين.

١٦٥١ - سؤال آخر وجوابه:

وقد يقول قائل على وجه الاعتراض أو السؤال: بأني ذكرت أن مما يلحق بالمسجد الضرار قيام الجماعات أو التنظيمات التي تريد الكيد والإضرار بالمسلمين وبجماعة الدعاة، فهل يعني هذا احتكار هذه الجماعة المسلمة التي أُسميها جماعة الدعاة - العمل - للإسلام؟ وهل من الممنوع شرعاً قيام جماعة إسلامية أخرى مع

(٣٠٠٠) سورة الشورى الآية ٣٩.

(٣٠٠١) تفسير فتح البيان ج١٢ ص٣١٢.

(٣٠٠٢) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٢٩.

(٣٠٠٣) تفسير الزمخشري ج٤ ص٢٣٠، والآية في سورة الشورى ورقمها ٤١.

وجود الجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة؟ والجواب: لا، لا يجوز احتكار الدعوة إلى الله وإلى دينه من قبل أي فرد أو جماعة، لأن الدعوة إلى الله مخاطب بها كل مسلم ومسلمة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وساحة العمل الإسلامي تتسع لجميع العاملين للإسلام أفراداً كانوا أو جماعات ما داموا يعملون لوجه الله وبالطرق المشروعة. وإنما تضيق ساحة العمل الإسلامي إذا كان العاملون فيها يعوزهم الإخلاص في عملهم، أو المشروعية في أساليب عملهم، لأن ساحة العمل الإسلامي تصبح في نظرهم من مسوح الدنيا، وهي بطبيعتها تضيق بطلابها والعاملين فيها. وكذلك تصير ساحة العمل الإسلامي ضيقة إذا كان بعض العاملين فيها يريدون الدنيا بعملهم، ويتبعون في عملهم الطرق غير المشروعة، لأنهم سيصطدمون بالمخلصين من العاملين المستمسكين بالطرق المشروعة في عملهم، ويشغلونهم عن عملهم. ومن الواضح الجلي أنه ليس من العمل الإسلامي المشروع المرضي عند الله من يقيم تجمعه لغرض الكيد لجماعة إسلامية قائمة تضم الدعاة إلى الله، فلا يكون لهذا التجمع الجديد من غرض أو عمل سوى الدس والافتراء على هذه الجماعة القائمة، والاحتكاك بها، وتتبع مسالكها للإيقاع بها، مع أن ساحة العمل الإسلامي واسعة جداً لا تضيق بأحد. فمن حق هذه الجماعة الإسلامية جماعة الدعاة أن تدافع عن نفسها، وترد بغي الباغين عليها من أفراد وجماعات؛ لأن بغيهم في الحقيقة بغي واعتداء على دين الله؛ لأنه صدّ عن هذا الدين. أما إذا قامت جماعات تعمل للإسلام، ولا شأن لها بالآخرين، ولا تسعى للإضرار بهم، فلا مانع من قيام هذه الجماعات، ولا تضيق بها الجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة، إذ لا احتكار في العمل الإسلامي لأحد كما قلت.

١٦٥٢- سؤال ثالث وجوابه:

وقد يقول قائل على وجه الاعتراض أو السؤال: وكيف تُعْرَفُ الجماعاتُ أو التنظيمات أنها تريد أو إحداها الكيد والإضرار بالمسلمين أو بالجماعة الإسلامية، جماعة الدعاة، القائمة فعلاً؟ وكيف تَعرِفُ هذه الجماعة الإسلامية، جماعة الدعاة، أن الجماعة الفلانية ما قامت إلا للإضرار بها وإيذائها؟ والجواب: يعرف ذلك من

خلال النظر في تصرفات هذه الجماعة من أقوال وأفعال، ووزن هذه الأقوال في ميزان الشرع، والتأمل في صفات القائمين على هذه الجماعة، والنظر في القرائن التي يستدل بها على بواطن الأمور. فالمنافق أو من فيه خصلة أو خصال من النفاق يعرف من خلال هذه الخصال، ومن يريد الشر والضرر يعرف من تصرفاته نحو من يريد إضراره، وقلما يخفى نافع أو باغ أو مريد الشر والإضرار على المؤمن الصادق، فإن له فراسة يميز بها الخبيث من الطيب، وهذا طبعاً مع وزن تصرفات هذه الجماعة التي تريد الشر والإضرار بالجماعة الإسلامية القائمة، جماعة الدعاة، فهذه العلامات قرائن على حقيقة مقاصدها الخبيثة، والأخذ بالقرائن في الأمور الشرعية جائز، والتوصل إلى معرفة صفة أو حال الشيء أو الشخص بناء على غلبة الظن أمر جائز شرعاً. ولذا قال الفقهاء إن غلبة الظن في المعاملات، أي في علاقات الناس ينزل منزلة اليقين من جهة الأخذ به والتعويل عليه. ألا يُرَى أن القاضي يأخذ بشهادة الشهود بناء على غلبة ظنه بصدقهم، ويحكم بالإعدام على المشهود عليه بجريمة القتل العمد.؟ والجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، قبل أن تقوم بالكشف عن أغراض المغرضين بالكيد لها لا تستعجل في ذلك، وإنما تتأنى حتى لا تقع في الخطأ.

١٦٥٣- ما يجب على الدعاة نحو مسجد الضرار وما يلحق به:

وعلى الدعاة أن يكون موقفهم وواجبهم نحو مسجد الضرار وما يلحق به. في ضوء ما قدمته، بمعنى أن يعرفوا هذا المسجد، وما في معناه وما يلحق به في منطقتهم، وتحقق عناصر المسجد الضرار فيما يرونه، فإذا تيقنوا ذلك أي تيقنوا أنه مسجد ضرار، أو ملحق به، أو غلب على ظنهم ذلك، وجب عليهم مباشرة ما يجب عليهم نحوه من هدمه وإزالته إن أمكن، وإلا تحولوا إلى التحذير منه بالابتعاد عنه، وعدم المساهمة في تقويته، وتكثير سواد أهله على النحو الذي فصلته. والله المستعان.

الفصل الحادي والعشرون

حجة الوداع

المبحث الأول

مختصر وقائعها

١٦٥٤- مختصر حجة الوداع[٣٠٠٤]:

كانت هذه الحجة في السنة العاشرة للهجرة، وسميت بحجة الوداع؛ لقول رسول الله ﷺ فيها وهو يرمي جمرة العقبة: «لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» رواه مسلم. وعند حلول شهر ذي القعدة أخذ رسول الله ﷺ في التجهز للحج، وأذن في الناس بذلك وأمرهم بالتجهز. فجاء المسلمون من كل فج وصوب، من القرى والبوادي، وسار النبي ﷺ ومعه أكثر من مائة ألف قاصدين بيت الله الحرام لأداء الحج، وهم يلبون ويكبرون ويهللون. ودخل رسول الله ﷺ مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة، ولما عاين ﷺ الكعبة المشرفة، قال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً، وزد من حَجَّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً». ثم طاف بالبيت وهو راكب ناقته، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم خرج إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة بعد أن أحرم بالحج، وصلى فيها وأصحابه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، وبعد شروق شمس اليوم التاسع من ذي الحجة خرج النبي ﷺ وأصحابه قاصدين عرفات.

(٣٠٠٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٢ وما بعدها، السيرة النبوية للدكتور أكرم العمري ج٢ ص٥٤٩ - ٥٥١، السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ج٢ ص٥٦٧ وما بعدها، الرحيق المختوم ص٤٢٠ - ٤٢٤.

١٦٥٥- خطبة النبي ﷺ في عرفات:

وفي عرفات خطب النبي ﷺ في هذه الجموع من المسلمين خطبته الجامعة، ومما جاء فيها قوله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس: اسمعواقولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع -أي باطل -، وربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية-أي خدمة الكعبة وسقاية الحج -، والعمد قود - أي قصاص -، وشبه العمل ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَدَ في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم... واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَان[٣٠٠٥] عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله - أي بعقد النكاح - فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، وإنه لا وصية لوارث، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث».

(٣٠٠٥) عوان جمع عانية وهي الأسيرة، أي كالأسيرات في ضعفهن.

١٦٥٦ - ما نزل من القرآن في يوم عرفة:

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال عن آية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أنها أنزلت ورسول الله ﷺ واقف بعرفة[٣٠٠٦]. ولما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه، ولما قيل له ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

١٦٥٧ - من خطبته ﷺ يوم النحر في منى:

وفي يوم النحر بمنى خطب النبي ﷺ خطبة أخرى، ومما جاء فيها[٣٠٠٧] قوله: «أي شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال فأي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال أليس بيوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. وستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

١٦٥٨- خطبة ثالثة لرسول الله ﷺ:

وخطب رسول الله ﷺ خطبة أخرى في منى أوسط أيام التشريق، وهو يوم النفر الأول، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ويوم النحر بمنى - والواقع أن تكرار الخطب في حجة الوداع كان أمراً لا بد منه لحاجة المسلمين، ولأن النبي ﷺ أحس بأن حجته هذه هي الأخيرة، بل وصرح بذلك ﷺ، فكان من شفقته بأمته أن كرر عليهم خطبه تأكيداً للمعاني التي وردت في خطبه، ورأى ﷺ حاجتهم إلى سماعها وتكرارها عليهم؛ ليحفظوها ويعوها ويبلغوها إلى من لا يحضر جمعهم،

(٣٠٠٦) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٨.

(٣٠٠٧) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٠٨.

بل وأمرهم بهذا التبليغ.

١٦٥٩- ما نزل من القرآن في أيام التشريق بمنى:

فقد روى الحافظان البزار والبيهقي بسندهما عن ابن عمر قال: نزلت هذه السورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ ذكر ذلك ابن كثير في كتابه البداية والنهاية[٣٠٠٨]. وقال ابن حجر العسقلاني، ويقال: إن سورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ نزلت يوم النحر وهو بمنى في حجة الوداع[٣٠٠٩]. وقد سأل عمر بن الخطاب عبد الله ابن العباس، بعد أن سأل غيره، عن معنى سورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فقال عبد الله ابن العباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح: فتح مكة، فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٣٠١٠].

(٣٠٠٨) السيرة النبوية لأبي شبهه ج٢ ص٥٧٩.

(٣٠٠٩) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص٧٣٤.

(٣٠١٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص٢٠.

المبحث الثاني
المستفاد
من حجة الوداع

١٦٦٠ - التعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علّم رسول الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحج بصور عملية، بأن قام بها وباشرها فعلاً، ولم يكتف بأن يعلمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عني مناسككم». وعلى هذا فيستحسن من الدعاة وهم يعلمون الناس معاني الإسلام أن يعلموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشرعية، أو بعضها في الأقل بصورة عملية، كما لو أرادوا تعليم الوضوء والصلاة لمن يجهلها من الصبيان، أو من العوام، فيقوم الداعية بالوضوء والصلاة فعلاً؛ ليروا بأعينهم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة. وكذلك إذا أرادوا تعليم قراءة القرآن بصورة سليمة فلا يكتفي بتعليمهم قواعد التلاوة والتجويد بالأقوال فقط، بل وبالتطبيق لها فعلاً بأن يقرأ القرآن أمامهم وفق قواعد التلاوة وهكذا.

١٦٦١ - تكرار الخطب:

رأينا أن النبي ﷺ كرر خطبه، فقد خطب في عرفة وفي منى مرتين، كما كرر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرروا خطبهم ويكرروا بعض معانيها التي يروا حاجة لتكرارها، حتى يحفظها السامعون ويعوها ولا ينسوها، لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصل، أو لا تتم إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبه ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معاني معينة في أذهان السامعين.

إن الداعية همه أن يفيد السامعين، وليس همه أن يظهر براعته في الخطب، وفي

تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها.

١٦٦٢ - فليبلغ الشاهد الغائب:

وعلى الدعاة عندما يلقون درساً أو محاضرة لإخوانهم أو لعامة الناس، فمن المستحسن أن يقولوا للحاضرين: فليبلغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه، حتى تعم الفائدة أكبر عدد ممكن من الناس فهذا من باب التعاون على الخير. ولأن الغائب قد يكون أوعى للعلم، وأكثر فهماً له من الحاضر الذي سمع، كما جاء في الحديث.

١٦٦٣ - جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النبي الحاضرين عن اسم اليوم الذي هم فيه، وكذا عن الشهر والبلد وهم يعرفونها مما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة، فيصغون إليه إصغاءً تاماً. قال القرطبي: سؤال النبي ﷺ عن الثلاثة: أي عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم، وليقلبوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا». فعلى الدعاة أن يفعلوا ذلك في دروسهم ومواعظهم وخطبهم، بأن يقدموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامه.

١٦٦٤ - التناوب في سماع العلم وتبليغه للغائب:

ويستحسن لأمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، إن كان له درس أسبوعي أن ينصح أتباعه أن يحضروا درسه هذا، وإن من كان له شغل يمنعه من الحضور، أو كان سكناه بعيداً فليتفق مع غيره في التناوب في حضور درس الأمير؛ ليبلغ معانيه إلى الغائب منهما، فقد أخرج الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.. الخ[٣٠١١].

(٣٠١١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج١ ص١٨٥.

الفصل الثاني والعشرون

مرض النبي صلى الله عليه وسلم وما قاله وما فعله قبل وفاته وما يستفاد من ذلك

المبحث الأول

مرضه ﷺ وأفعاله حتى وفاته

١٦٦٥ - بعث أسامة بن زيد بجيش لمقاتلة الروم:

بعد أن رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، وفي آخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ندب الناس لغزو الروم، فانتدب لذلك ثلاثة آلاف من خيار المسلمين وفيهم كبار المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، فقد دعاه رسول الله ﷺ وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل؛ فقد وليتك هذا الجيش، وأسرعْ المسير تسبق الخير، فإن ظفر الله بهم فأقل اللبث فيهم». وكان ذلك قُبيل مرض رسول الله ﷺ. وكان أسامة شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره، فتكلم في ذلك بعض الناس منهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فردّ عليه عمر، وأخبر النبي ﷺ بذلك، فخطب في الناس، ومما قاله: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده». ثم اشتد برسول الله ﷺ المرض، فقال: «أنفذوا جيش أسامة». وخرج أسامة وعسكر بجيشه خارج المدينة استعداد للمسير، وإنهم لعلى ذلك بلغهم اشتداد المرض بالرسول ﷺ، فلم يكن بدٌّ من التريث والانتظار، لا سيما وقد كان في الجيش كبار المهاجرين والأنصار ممن تحتم الأحوال أن يكونوا في المدينة في هذا الظرف العصيب. وكان في تأمير أسامة حِكَمٌ بالغة: منها: إعطاء فرصة للشباب الصالح الكُفْء أن يتولى إمرة جيش. ومنها: القضاء على بقايا النظرة الاستعلائية المبنية

على الأحساب والأنساب، مما لا يتناسب والمستوى الرفيع الذي وصل إليه العرب بفضل الإسلام وإيمانهم بمعانيه[٣٠١٢].

١٦٦٦ - بدء مرض النبي ﷺ واشتداده عليه:

وكان ابتداء مرض النبي ﷺ في أواخر شهر صفر أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة. ثم اشتد عليه المرض ﷺ. وكان مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً، وكانت وفاته يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة. ولما اشتد به مرضه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة، فأذن له. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما ثَقُلَ رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له»[٣٠١٣].

١٦٦٧- مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس:

ولما اشتد المرض برسول الله ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس. وأعاد النبي ﷺ قوله: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، فخرج أحد الحاضرين ليخبر بذلك أبا بكر فلم يجده، ووجد عمر بن الخطاب. فقال: قم يا عمر فصلِّ بالناس، فلما قام وكبرَّ سمع النبي ﷺ صوته، فقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» وكررها. فلم يصل أحد بعد هذا إلا أبو بكر، فعاتب عمر الرجل على ما فعل، فقال: والله ما أمرني رسول الله ﷺ، ولكن لم أرَ أبا بكر، ورأيتك أحق من حضر بإمامة الصلاة[٣٠١٤].

١٦٦٨- خروج النبي ﷺ إلى المسجد وخطبته فيه:

وفي يوم الخميس الذي قبل وفاته، عزم ﷺ على الخروج إلى الناس في المسجد

(٣٠١٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥٢، السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ص٥٨٥-٥٨٦

(٣٠١٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٢٩، ١٤١.

(٣٠١٤) السنة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٨٩، ومعنى أسيف: رقيق القلب يغلبه البكاء عند قراءة القرآن.

كي يوصي المسلمين ويخطبهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي، واشتد به وجعه، قال: أهريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن؛ لعلي أعهد إلى الناس. فأجلسناه في مِخضَب لحفصة زوجِ النبي ﷺ. ثم طفقنا نصب عليه من تلك القِرَب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتنَّ. قالت: ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم»[٣٠١٥]. ولما خرج ﷺ إلى المسجد كان الناس يصلون الظهر، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر، فأومأ إليه الرسول ﷺ أن ابقَ في مكانك، ثم جلس إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي بالناس قائماً، والرسول ﷺ يصلي قاعداً، وكانت هذه آخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ مع المسلمين، ثم صعد المنبر فكان أول ما ذكر - بعد أن حمد الله وأثنى عليه - أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا، ثم قال: «يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون، والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[٣٠١٦]، ثم قال ﷺ: «إن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله». فبكى أبو بكر. قال أبو سعيد الخدري راوي هذا الخبر: فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّرَ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّرُ، وكان أبو بكر أعلمنا. ثم قال ﷺ: إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربيّ، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر». وفي رواية مالك لهذا الحديث: فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ. يخبر رسول الله ﷺ عن عبد، وهو يقول: فديناك. وقوله: «وكان أبو بكر هو أعلمنا» أي بالنبي ﷺ، أو بالمراد من كلامه المذكور. وزاد في رواية محمد بن سنان فقال النبي ﷺ: «لا تبكِ». وقوله: «أَمَنّ» أفعل تفضيل من «المنّ» بمعنى العطاء والبذل. والمعنى: أن أبا بكر كان أبذل الناس لنفسه وماله. وقوله: «ولكن أخوة الإسلام ومودته» وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين بتفاوتهم في نصرة الدين، وإعلاء كلمة

(٣٠١٥) صحيح البخاري ج٨ ص١٤١، أوكيتهن: جمع وكاء وهو ما يربط به فم القربة.

(٣٠١٦) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٠-٥٩١، ومعنى عيبتي، خاصتي وموضع سري.

الحق، وتحصيل كثرة الثواب ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره(٣٠١٧). وكان مما قاله أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد. فإن من أحبكم إلي من أخذ حقاً إن كان له عليَّ، أو حللني فلقيت الله وليس لأَحد عندي مظلمة»(٣٠١٨).

١٦٦٩- التحذير من بناء المساجد على القبور:

أخرج الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما صنعوا(٣٠١٩).

١٦٦٩- من وصايا رسول الله ﷺ في مرض موته:

وأوصى ﷺ المسلمين بثلاث، أوصاهم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأما الثالثة: فقيل الوصية بالقرآن، وقيل تجهيز جيش أسامة وتسييره، كما أوصاهم بالصلاة وما ملكت أيمانهم(٣٠٢٠).

١٦٧٠- آخر نظرة لرسول الله للمسلمين وهم يصلون:

أخرج البخاري عن أنس بن مالك قال: «إن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي لهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصلَ الصف، وظن أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر»(٣٠٢١)، وزاد أبو اليمان

(٣٠١٧) صحيح البخاري وشرحه لابن حجر العسقلاني ج٧ ص١٢ - ١٣.

(٣٠١٨) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٢. ومعنى فليستقد: فليقتص.

(٣٠١٩) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٠.

(٣٠٢٠) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٠، ٥٩٢، والرحيق المختوم ص٤٢٨.

(٣٠٢١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٣.

عن شعيب «وتوفي من يومه ذلك» أخرجه البخاري في باب الصلاة[٣٠٢٢].

١٦٧٢- إن للموت سكرات:

وأخرج البخاري عن ذكوان أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سَحْري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن - أخوها - بيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولتُه، فاشتدَّ عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، فأَمرَّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده». قولها «فلينته» أي لينت السواك. قولها: «فأَمرَّه» أي أمرَّه ﷺ على أسنانه فاستاك به[٣٠٢٣]. وقوله: «في الرفيق الأعلى» الأنبياء ومن ذكر في الآية وهي: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

١٦٧٣- مات رسول الله ﷺ:

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة: «أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنُح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيممَّ رسول الله ﷺ وهو مُغشًّى بثوب حبَرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أَنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها»[٣٠٢٤] ولابن أبي شيبة عن ابن عمر، في تقبيل أبي بكر لرسول الله ﷺ: فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ، فجعل يقبّله ويبكي ويقول: بأبي وأمي طبت حياً وميتاً. وللطبراني من حديث جابر: إن أبا بكر

(٣٠٢٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٣.

(٣٠٢٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٤. وقولها: بين سحري ونحري. السحر: الرئة. والنحر: الثغرة التي في أسفل العنق والمراد بالرفيق الأعلى الأنبياء ومن ذكروا في الآية التي ختمت بـ«وحسن أولئك رفيقا».

(٣٠٢٤) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٤٥.

قبّل جبهته[٣٠٢٥].

١٦٧٤- من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات:

وخرج أبو بكر بعد أن وقف على الحقيقة، حقيقة أن رسول الله ﷺ قد مات، وأن عليه الآن أن يخبر المسلمين بهذه الحقيقة، ويثبتهم بعد هذه الصدمة الهائلة التي لم يتحملوها، حتى إن عمر كان يقول للناس: ما مات محمد، خرج صديق هذه الأمة إلى الناس وهم مدهوشين من عظم ما أصابهم. قال ابن عباس فيما يرويه عنه البخاري: «إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمرَ، فقال أبو بكر: أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[٣٠٢٦]. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

وقال عمر: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»[٣٠٢٧].

وقوله: «وعمر يكلم الناس» أي يقول لهم: ما مات رسول الله ﷺ. قوله: «فعُقِرتُ» أي هلكت. وفي رواية «فعَقرتُ» أي: دهشت وتحيرت. قوله: «ما تُقلّني» أي ما تحملني.

قوله: «وحتى أهويت» وفي رواية «هَوَيتُ». وفي الحديث دلالة على قوة قلب أبي بكر وكثرة علمه. وقد وافق العباس أبا بكر في أن محمداً ﷺ قد مات، وكذا المغيرة كما في المغازي لأبي الأسود عن عروة قال: إنه - أي المغيرة - كان يتلو

(٣٠٢٥) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٧.

(٣٠٢٦) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٣٠٢٧) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٥ - ١٤٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وكان أكثر الصحابة على خلاف ذلك إذ كانوا يظنون أن محمداً لم يمت. قال ابن حجر: فيؤخذ منه أن الأقل عدداً في الاجتهاد قد يصيب ويخطىء الأكثر، فلا يتعين الترجيح بالأكثر، ولا سيما إن ظهر أن بعضهم قلد بعضاً[٣٠٢٨].

١٦٧٥- تاريخ وفاته، ومكان دفنه عليه الصلاة والسلام:

توفي في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة للهجرة[٣٠٢٩]. وعمره ثلاث وستون سنة ﷺ. كما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة[٣٠٣٠]». وبعد أن تم تغسيله ﷺ وتكفينه والصلاة عليه فرادى، وقد وضع على سريره في حجرة عائشة رضي الله عنها، اختلفوا في أي مكان يُدفَن ﷺ، فقال أبو بكر الصديق: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلاّ ودفن حيث قبض». وهكذا دفن في حجرة السيدة عائشة حيث مات ﷺ[٣٠٣١].

(٣٠٢٨) شرح العسقلاني لصحيح البخاري ج٨ ص١٤٦.

(٣٠٢٩) انظر الفقرة ١٦٦٦.

(٣٠٣٠) صحيح البخاري بشرح العسقلاني ج٨ ص١٥٠.

(٣٠٣١) السيرة النبوية لأبي شهبة ج٢ ص٥٩٨-٥٩٩.

المبحث الثاني
المستفاد
من تأمير أسامة بن زيد
ومن أقوال النبي ﷺ قبل وفاته

١٦٧٦- الطاعة للأمير:

ذكرنا أن النبي ﷺ أمر بإعداد جيش لمحاربة الروم، وأنه أمَّر عليه أسامة بن زيد، وأنه كان في هذا الجيش كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب. وقد تكلم بعض المسلمين في هذا التأمير؛ لكون أسامة شاباً، وفي الجيش شيوخ المهاجرين والأنصار، وقد بلغ هذا الكلام رسول الله ﷺ فأنكره وفنده ورده. وعلى هذا فعلى الدعاة أن يسمعوا ويطيعوا إذا أَمَّرَ عليهم أميرُهم أحدَهم، لأن استحقاق الإمرة لا تقوم على العمر، وإنما على القدرة والكفاءة، ولأن تأمير شخص دون سواه على عمل معين يقوم على عدة اعتبارات يعرفها الأمير، أمير الجماعة جيداً، وقد لا يحيط بها أتباعه، ومن ثم جاء اختياره لمن أمَّره، فعلى الدعاة أن يعرفوا ذلك، ويحملوا نفوسهم على قبوله، ولا يجوز لهم رفض هذا التأمير، لأنه اجتهاد، وليس اجتهادهم أولى من اجتهاده.

١٦٧٧- التذكير بالعدل:

ذكرنا أن النبي ﷺ لما اشتد به المرض استأذن أزواجه في أن يتمرض في بيت عائشة فأَذِنَّ له. فعلى الدعاة أن يذكّروا المسلمين بمدى التزام رسول الله ﷺ بالعدل بين أزواجه. وهذا التذكير للمسلمين بعدل رسول الله ﷺ ضروري لا سيما في المناطق التي يكثر فيها تعدد الزوجات، فمن الخير أن يعرف المسلمون ضرورة تمسكهم بالعدل بين نسائهم في الأكل والشرب والسكن وفي المبيت، وإذا طرأ طارىء يستوجب المبيت والبقاء في بيت إحدى أزواجه فليستأذن.

١٦٧٨- مسامحة أصحاب السوابق في الدعوة:

ذكرنا أن النبي ﷺ أوصى في خطبته وهو في مرضه المسلمين بالأنصار، وقال لهم: «أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، لأنهم قاموا بأعمال جليلة في خدمة الإسلام، ونصرة الرسول ﷺ استحقوا بها أن يذكرهم الله في كتابه العزيز على وجه المدح والثناء لهم والإخبار برضاه عنهم. وهذا يعني أن صاحب الأعمال الجليلة في خدمة الإسلام يُوصّي به ويسامح ويصفح عنه إذا قصّر، وقد ذكرنا من قبل كيف أن النبي ﷺ عفا عن حاطب بن بلتعة لما أخبر قريشاً بنية رسول الله ﷺ بالتوجه إليهم؛ لفتح مكة، وقال لعمر بن الخطاب لما قال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فعلى أمير جماعة الدعاة أن يعرف لكل داع سابقته في خدمة الدعوة، وأن يصفح الصفح الجميل عن الداعية ذي السوابق الجليلة في خدمة الدعوة إذا صدر منه تقصير أو شيء من الإهمال، ويكتفي منه بقبول عذره، إن كان له عذر، وإذا رؤي في تقصيره ما يستوجب التوجيه والتعليم، فليفعل أمير الجماعة ذلك، فكل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون.

١٦٧٩ - التحلل من المظالم:

ذكرنا قول رسول الله ﷺ: «ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فليستقد. فإن من أحبكم إليَّ من أخذ حقاً إن كان له أو حللي. . . الخ» فمن المستحسن لأمير جماعة الدعاة، أن يعلن مثل هذا القول أو بمعناه في أتباعه، حتى يُرِيهم أنه مستمسك بمقتضيات العدل، ومتأسي في ذلك برسول الله ﷺ، وحتى لا يبقى في قلب أحد من أتباعه شيء عليه. لأن أمير الجماعة قد يصدر منه على سبيل الاجتهاد أو الغفلة أو الخطأ نحو أحدهم ما لا ينبغي صدوره منه، فلهذا ونحوه يستحسن أن يعرض لهم ما قلته، وأن يطلب منهم أن يذكروا له ما ينقمونه منه، أو بما يرونه تجاوزاً منه عليهم بلا مبرر.

١٦٨٠ - رعاية الأمير لأتباعه وسروره بحسن أحوالهم:

ذكرنا خروج رسول الله ﷺ إلى المسجد يوصيهم ويخطب فيهم، وأنه من أجل

ذلك أمر بأن يصبّوا عليه الماءَ من سبع قِرَب لينشط للخروج. فهذا مظهر من مظاهر رعايته ﷺ وهو في حال مرضه. ومظهر آخر أنه ﷺ أوصاهم بعدم اتخاذ القبور مساجد؛ لخوفه عليهم من أن يقعوا فيما وقع اليهود والنصارى فيه من اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد. كما أوصاهم بالصلاة وبما ملكت أَيمانهم، وهذا مظهر آخر من مظاهر رعايته لهم وشفقته بهم ﷺ. فعلى أمير جماعة الدعاة ألا ينفك عن رعايته لجماعته، ووعظهم وتوجيههم وإرشادهم وتذكيرهم بما يراه مفيداً للتذكير به.
وكذلك رأَينا سروره ﷺ عندما كشف ستر حجرة عائشة رضي الله عنها، فنظر إلى المسلمين وهم يصلون، فسره ذلك وتبسم ضاحكاً ﷺ رضاً منه وسروراً بما رآه من حسن أحوالهم وعبادتهم لربهم. فعلى أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، أن يتفقد أحوال أتباعه حتى إذا رأى منهم ما يسره أظهر سروره، كما يتفقد الأب أولاده حتى إذا رأى ما يسره منهم أعلن ذلك بابتسامة. إن هذه المواقف من أمير الجماعة تصيرها كعائلة كبيرة، والأمير هو رب هذه العائلة الكبيرة، فتشيع فيها المودة والاحترام والطاعة.

١٦٨١- إظهار فضل أبي بكر ومنزلته في الإسلام:

وعلى الدعاة أن يبينوا للناس في خطبهم وفي دروسهم ومواعظهم فضل أصحاب رسول الله ﷺ، وفضل أبي بكر الصديق، فهو خير الأمة بعد رسولها ﷺ، وليذكروا أوجه هذا الفضل، فقد ذكره ﷺ في خطبته التي ذكرناها، وذكر الله تعالى موقفه في الغار. وليذكر الدعاة موقفه الشجاع الذي لم يقفه غيره يوم بلغه وفاة رسول الله ﷺ، فقد أصاب المسلمين بهر ودهشة هائلة حتى إن عمر بن الخطاب أنكر موته وهدد من يقوله. ولكن الصديق أبا بكر رضي الله عنه لم يخرجه هول المصيبة عن ثباته وتوازنه، وإنما اكتفى بتقبيل رسول الله ﷺ وهو يبكي، ثم خرج إلى المسلمين، وقال قولته الشهيرة التي نسيها المسلمون وهي:

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

١٦٨٢- جماعة الدعاة عند فقد أميرها:

وإذا فقدت جماعة الدعاة أميرها بموت أو استشهاد، فعليها أن تتحمل هذا الفقد بالصبر الجميل وبالثبات على العمل والدعوة، دون كلل أو ملل أو ضعف، فليس موت أحد من الناس بأعظم وقعاً وأشد مصيبة على المسلمين من موت رسول الله ﷺ على صحابته الكرام، وقد تلقوها بالصبر والثبات والاستمرار على الدعوة إلى الله التي حملهم إياها رسول الله ﷺ، وليتذكروا قول صدّيق هذه الأمة أبي بكر رضي الله عنه: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

١٦٨٣- الخاتمة:

وبعد فهذا ما يسره الله لي من كلمات تضمنتها فصول هذا الكتاب فيما يتعلق بـ «المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة» فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فاستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً أن لا أقع في الخطأ. وعسى أن لا أُحرمَ من الأجر، فقد جاء في حديث رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد» أو كما قال عليه الصلاة والسلام. وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد الكريم زيدان
صنعاء في ٢٢ رمضان ١٤١٦هـ
الموافق ١١ شباط ١٩٩٦م



فهرس المجلد الأول

* تسهيلاً على القارىء الكريم، قمنا بفهرسة الكتاب وفق أرقام الفقرات والصفحات.

المبحث الثاني ٣١٦-٣١٨

استكبار فرعون وإفساده وحال الناس معه

المبحث الثالث ٣١٩-٣٦١

مجيء موسى إلى فرعون وما جرى له في مصر

المبحث الخامس ٣٨٣-٣٩٣

قصة موسى عليه السلام مع الخضر

٩٣٠- أولاً- تحذير العالم من ترك العمل بما علم ٩٣١- ثانياً- عدم الغرور بعلم أو عمل ٩٣٢- ثالثًا- الخوف على العالم من فتنة الدنيا ٩٣٣- رابعاً- الانسلاخ الكلي أو الجزئي من آيات الله.

فهرس المجلد الثاني

المبحث الثاني ٤٥-٥٧

موقف المشركين من الدعوة الجهرية

وما يستفاد منها للدعوة والدعاة

المطلب الأول ٤٥-٥٣

موقف المشركين من الدعوة الجهرية

٩٨٢- يكذبونه وهو الصادق الأمين ٩٨٣- أولاً- تكذيبهم للدعوة وللرسول واتهامه بالسحر ٩٨٤- ثانياً- تواصيهم على الثبات على شركهم ٩٨٥- ثالثاً- دفاعهم عن شركهم واستبعادهم اختصاص محمد بالرسالة ٩٨٦- رابعاً - استهزاؤهم بالرسول ﷺ ٩٨٧- خامساً- من عادة الكفار استهزاؤهم برسل الله ٩٨٨- سادساً- لو كان خيراً ما سبقونا إليه ٩٨٩- سابعاً- تكذيبهم بيوم القيامة وبالبعث بعد الموت ٩٩٠- ما ادعوه في القرآن الكريم ٩٩١- طلبات الكفار واقتراحاتهم ٩٩٢- أ- أن يكون ملكاً أو معه ملك ٩٩٣- ب- اقتراحهم إنزال الملائكة أو رؤية الله ٩٩٤- جـ- اقتراحات وطلبات إضافية ٩٩٥- د- اقتراحهم نزول الخارق ٩٩٦- هـ- طلبهم تعجيل العقاب.

المطلب الثاني ٥٤-٥٧

المستفاد من موقف المشركين من الدعوة الإسلامية لجهرية

٩٩٧- أولاً- رد الدعوة والطعن في دعاتها ٩٩٨- ثانياً- الاستهزاء بالدعاة والسخرية منهم ٩٩٩- ثالثاً- الدعاة أولى بالثبات على دعوتهم من أعدائها ١٠٠٠- رابعاً- إعجاب أعداء الدعوة بأنفسهم ١٠٠١- خامساً- استعظام المبطل نفسه واستصغاره شأن المسلم ١٠٠٢- سادساً- لا حدّ لضلال الإنسان ١٠٠٣- سابعاً- التظاهر بالحجة والبرهان في رفض الدعوة.

وأخذ الفداء منهم ١١٣٥- ما روي عن العباس وفدائه ١١٣٦- ما نزل من القرآن بشأن الفداء بعد أخذه.

ورسوله ١١٦٣- رابعاً- عدم التنازع والاختلاف ١١٦٤- خامساً- الصبر ١١٦٥- سادساً- إخلاص العمل لله ١١٦٦- وما النصر إلا من عند الله ١١٦٧- نعم الله على الدعاة تستوجب شكره ١١٦٨- من كثَّر سواد أعداء الدعوة عومل مثلهم ١١٦٩- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ١١٧٠- كيف نعرف أن الخير فيما نكرهه لا فيما نحبه ١١٧١- الأخذ بالاجتهاد المرجوح في تقدير مصلحة الدعوة ١١٧٢- ما تفعله جماعة الدعاة فيما لا نصَّ فيه ١١٧٣- التصفية الجسدية للدعاة ١١٧٤- من أجل العقيدة يقاتل الأخ أخاه ١١٧٥- يسامح أهل بدر ما لا يسامح عليه غيرهم ودلالة ذلك.

الفصل السابع ٢٢٨-١٦٣

غزوة أحد

١١٧٦- تمهيد وتقسيم: تقسيم هذا الفصل إلى ستة مباحث.

المبحث الأول ١٦٧-١٦٤

أسباب هذه الغزوة والإعداد لها

١١٧٧- أسباب غزوة أحد وإعداد قريش لها ١١٧٨- قريش تستعين بالشعراء ١١٧٩- إكمال إعداد جيش قريش ١١٨٠- العباس يخبر الرسول ﷺ بتحرك جيش قريش ١١٨١- وصول جيش المشركين إلى أحد ١١٨٢- النبي ﷺ يشاور أصحابه.

المبحث الثاني ١٧٠-١٦٨

خروج النبي ﷺ لملاقاة العدو

١١٨٣ - الإعلام بخروج النبي ﷺ ١١٨٤- إنا لا نستعين بكافر على مشرك ١١٨٥ - إرجاع النبي ﷺ الصغار في جيشه ١١٨٦ - انسحاب عبد الله بن أبي وأصحابه من جيش المسلمين. ١١٨٧- تزلزل طائفتين من المسلمين ١١٨٨- اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم.

المبحث الثالث 171-173

النبي ﷺ وأصحابه في ساحة المعركة

1179- تعبئة النبي ﷺ جيشه 1190- وصية رسول الله ﷺ للرماة بأن لا يتركوا أماكنهم 1191- النبي ﷺ يحرض المسلمين على القتال 1192- محاولات العدو لإيقاع الفرقة بين المسلمين.

المبحث الرابع 174-178

نشوب القتال وما جرى فيه

1193- انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في أول القتال 1194- استشهاد ثلة من المسلمين 1195- مخالفة الرماة لوصايا رسول الله ﷺ 1196- وقوع الهزيمة بالمسلمين 1197- الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين 1198- ثبات بعض المسلمين 1199- الدفاع عن رسول الله ﷺ 1200- ما أصاب النبي ﷺ 1201- سعد بن أبي وقاص يحرص على قتل أخيه لما فعله برسول الله ﷺ 1202- عدد من استشهد في معركة أحد وكيفية دفنهم.

المبحث الخامس 179-190

ما نزل من القرآن بشأن معركة أحد

1203- أولاً: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ 1204- ثانياً- ليس لك من الأمر شيء 1205- ثالثاً- إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله 1206- رابعاً- تمني القتال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ 1207- خامساً- لا بد من الثبات وإن قُتِلَ القائد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ 1208- سادساً- الآجال مفروغ منها ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾. 1209- سابعاً - ثبات المسلمين في جميع الأحوال ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا . . ﴾ ١٢١٠- موالاة الله وطاعته، لا موالاة الكفرة وطاعتهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ . . ﴾ ١٢١١- تاسعاً- منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ . . ﴾ ١٢١٢- عاشراً- لكيلا تحزنوا على ما فاتكم: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ١٢١٣- أحد عشر- الأمر كله لله ﴿ . . يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ . . ﴾ ١٢١٤- اثنا عشر- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ١٢١٥- ثلاثة عشر- الذنوب سبب المصائب ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ . . . ﴾ ١٢١٦- أربعة عشر - حكمة ما أصاب المسلمين يوم أحد ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٢١٧- خمسة عشر- لا بد من التمايز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ . . . ﴾ .

المبحث السادس ١٩١-٢٢٨

المستفاد من غزوة أحد للدعوة والدعاة

١٢١٨- المسلمون أولى بالإنفاق لدعوتهم من الكفار لباطلهم ١٢١٩- يجب توظيف جميع المواهب والقدرات لدعوة الإسلام ١٢٢٠- لا بد للأمير من مشاورة أتباعه ١٢٢١- الشورى واجبة ولكنها مُعلِمةٌ وليست مُلزِمة ١٢٢٢- لا تردد في العزم على التنفيذ بعد المشاورة ١٢٢٣- إظهار القدرة على الجهاد ١٢٢٤- الحذر من تثبيط المنافقين ١٢٢٥- لا يجوز تكثير سواد العدو ١٢٢٦- الاعتصام بمعاني الإيمان يحبط مكايد الأعداء ١٢٢٧- مخالفة القائد تسبب الفشل لجنوده ١٢٢٨- إيثار الدنيا على الآخرة يوقع في الخطيئة ١٢٢٩- الأماني غير الأفعال ١٢٣٠-

انتهى